روجيه مارتان دوغار

اسرة تيبو

٥

ترجمة
بهيج شعبان

منشورات عويدات
بيروت - لبنان

أسرة تيبو

الجزء الخامس

الطبعة الأولى ١٩٧٠

روجيه مارتان دُوغار

اسرة تيبو

الجزء الخامس

صيف عام ١٩١٤ (نهاية)
خاتمة

ترجمة
بهيج شعبان

منشورات عويدات
بيروت - لبنان

صيف عام ١٩١٤ (نهاية)

٧٩

جاك يسند رأسه إلى الحاجز الخشبي . وجلبة القطار تخترق جسمه ، وتنتشر فيه ، وتثيره . وهو وحيد في تلك المقصورة من الدرجة الثالثة . والحرارة كحرارة أتون رغم النوافذ المفتوحة . وقد ارتمى على مقعد ، في ناحية الظل ، مغمساً بالعرق ... إنه لم يكن يسمع ضجة القطار ، بل هدير المحرك ... الطائرة في كبد السماء ... مئات ، ألوف من الأوراق البيضاء تتناثر في الفضاء .

ومجرى الهواء الذي يداعب جبهته كان ساخناً ، ولكن إسدال الستائر يوهم بالرطوبة . وكيسه في مواجهته كان يهتز لدى كل رجّة : كيس من القماش الأصفر ، الناصل اللون ، المنتفخ كخرج الحجاج : رفيق قديم مخلص حتى الرحلة الأخيرة ... وقد كدس جاك فيه ، بسرعة ، بعض الأوراق ، وقليلاً من الملابس الداخلية دون اختيار ، بلامبالاة كلّية . كل شيء يكون على خير ما يرام لو اتسع له الوقت لبلوغ القطار السريع. وقد امتثل لتعليمات مينستريل: ترك جنيف منذ ساعة دون أن يترك عنواناً ، ودون أن يرى أحداً . لم يأكل شيئاً منذ الصباح ؛ حتى أن وقته لم يتسع لأخذ سكاير من المحطة . لا يهم ، فهو راحل . وهذه المرة . إنها **الانطلاق** . انطلاق منعزل ، مُغفَل — دون عودة .

لم تكن الحرارة وذلك الذباب ما يثير أعصابه ، ولا الجلبة التي تشبه جلبة السندان تطرّق جمجمته . كان يشعر أنه هادىء . هادىء وقوي . والقلق النفسي ، ويأس الأيام التي عاشها ، كان قد تجاوزهما .

وأغمض عينيه برهة ، ولكنه فتحهما حالاً . فهو ليس بحاجة لأي استجمام ليعيش حلمه ..

إنه يمر بقرب قنن الروابي ، ويهبط نحو الأودية الزرقاء ، ويحلّق عن قرب فوق الغابات والمدن، ويجلس في مكان قيادة الطائرة وراء مينستريل. وتتكدس عند قدميه البيانات . ويأتي مينستريل باشارة. لقد اقتربت الطائرة من الأرض. تحرّك معاطف زرقاء وبنطلونات حمراء ، وملابس جنود ألمان.. وينحني جاك ، ويمسك كدسة من النشرات ويلقيها . ويهدر المحرك . وتسير الطائرة في الشمس. وينحني جاك ، وينهض ، ويبذر ، تحته دون توقف ، سحباً من الفراشات البيضاء. وينظر اليه مينستريل من فوق كتفه . ويضحك !

مينستريل .. مينستريل . انه النقطة المتينة التي تدور حولها فكرة مهمته . لقد تركه جاك . وكان مختلفاً جداً هذا الصباح عن مينستريل الأمس ! الزعيم الذي كانه في السابق! جذع مستقيم ، حركات واضحة وحية ، يرتدي ملابسه ، وينتعل حذاءه : لقد خرج .

وطالعته تلك الابتسامة المنتصرة منذ الاستقبال : « حسناً ! لدينا حظ . سيكون كل شيء أسهل مما كنت أعتقد . نستطيع الطيران في مدى ثلاثة أيام » . نستطيع ؟ وجاك الذي كان لا يزال متردداً في الفهم تلجلج بكلمات مبهمة ! « .. بعض الحيوانات الثمينة .. التي هي حياة جماعة .. والتي من الإجرام المجازفة بها » .. ولكن الربان قطع تصوراته بلمحة عين ، وهزة الكتفين التي رافقت هذه النظرة القاسية التي أنستنه ، بدت انها تقول : « لست صالحاً لشيء ولا لأحد .. » ثم انتصب ، وبسرعة كبيرة : « بدون عبارات أيها الصغير .. يجب أن تذهب حالاً إلى بال ، لأسباب كثيرة . فبالانطلاق من الحدود تكون طائرتنا حالاً فوق الالزاس .. ولكلٍ منا مهمته : أنا أُعدّ

العصفور ؛ وأنت النشرات . إقرار النص قبل كل شيء . صعب .. ولكن يجب أن تكون قد فكرت به . ثم طبعه بعد ذلك . وبلاتنر يقوم بهذا . ألا تعرفه ؟ هذه كلمة اليه . إنه صاحب مكتبة في غريفانغاس . ولديه مطبعة وأناس موثوق بهم. والجميع هناك يتكلمون الفرنسية كالألمانية ؛ وسوف يترجمون بيانك ؛ ويطبعون لك مليون نسخة ، باللغتين ، في بضع ليالٍ من العمل .. ليكن كل شيء جاهزاً ، مهما كان الأمر ، منذ السبت . ثلاثة أيام كاملة ، ليس مستحيلاً .. لا تكتب . لا إلي ولا إلى أحد : فالبريد مراقب . وإذا كان هناك شيء فسأخبرك بواسطة واحدٍ أعرفه . والعنوان هنا في هذا الغلاف ، مع تعليمات أخرى واضحة ، وبعض الخرائط .. كلا .. دع ذلك ! سوف ترى هذا في الطريق .. إذن ، تعال إلى قرب الحدود . في النقطة التي سأختارها واليوم والساعة اللذين أحددهما .. أمتفقان ؟ » وعندئذ فقط لطفت القسمات ولان الصوت بشكل خفيف : « حسناً ، لديك قطار إلى بال في الساعة الثانية عشرة والنصف » . وكان قد تقدم ووضع يديه على كتفي جاك : « أشكرك . إنها خدمة صعبة تؤديها لي .. » وكان نظره قد تقنّع . وظن جاك ، لثانية ، إن مينستريل سيضمه بين ذراعيه . ولكن بالعكس . فقد سحب الربان يديه بحركة عنيفة : « كنت لسوء الحظ سأنتهي بعمل أحمق ، ولكن هذه الحركة قد خدمتني » . ودفع جاك نحو الباب وهو يعرج عرجاً خفيفاً : « يكاد يفوتك القطار . إلى اللقاء القريب ! » .

ونهض جاك ، واقترب من النافذة طالباً شيئاً من الهواء . ونظر إلى الخارج ! ولكن المنظر المألوف للبحيرة وجبال الألب ، تحت شمس آب ، كان يسطع للمرة الأخيرة أمام عينيه ، دون أن يراه .

جني .. أول البارحة أيضاً ، على مقعد ذلك القطار الآخر الذي جاء به من باريس ، كان يقطع أنفاسه ألم لا يحتمل حين تجتاحه ذكرى جني . يمسك مرة أخرى بين يديه ذلك الرأس الصغير ذا الحدقتين الزرقاوين ، ويغرز أصابعه في ذلك الشعر . ويرى عن قرب تقلّب تلك النظرة ، وانفتاح تينك الشفتين .

مرة ، مرة فقط ، يشعر مقابل جسده بذلك الجسد الفتي الكثير المرونة ، الكثير الحرارة.. عندئذ نهض بوثبة ، وبلغ الرواق وقبض بقبضتيه على حاجز النافذة ، وظل هناك مغمض العينين ، ملتوياً ، مختلجاً ، مقدماً وجهـــه للسع الريح ، والدخان ، وبقايا المحروقات ... الآن يستطيع التفكير بها دون أن يزداد عذابه . إنها ترتاح في ذاكرته : ميتة محبوبة بشغف . إن ما لا يعوّض يحمل سكينته في ذاته . منذ أن أصبح الهدف قريباً ، فإن كل شيء – حياتـــه بالأمس ، باريس ، هزات الأسبوع الأخير – كل شيء قد تقهقر فجأة ! فهو يفكر بحبه كما يفكر بطفولته ، كماضٍ مضى ولا يمكن لشيء أن يبعثه حياً . وما بقي له من مستقبل ليس سوى غدٍ ساطع ..

والستائر التي كان قد رفعها آلياً جعلها تسقط . وأدخـل يديه في جيبيه ، وسحبهما على الأثر واشحتـين . هذه الحرارة تثير سخطه ؛ ذلك الغبار ، تلك الضجة ، ذلك الذباب ! وعاد إلى الجلوس ، وانتزع طوقـــه ، وجثم في زاوية المقعد ، متدلي الذراع خارج النافذة ، يحاول أن يفكر .

بقي عمل المهم : كتابـة ذلك البيان الذي يتوقف عليه كل شيء . يجب أن يكون برقاً في الليل ، يبلغ قلوب اولئك الرجال المستعدين لقتل بعضهم البعض ، وينفذ اليهم بوضوح ، ويجعلهم ينتصبون كلهم في اندفاعة واحدة .

والآن كلمات دون رابط ، تتصادم في رأسه . وعبارات أيضاً ترتسم برنّة اجتماعات :

« جيوش عدوة ... لماذا عدوة ؟ فرنسيون ، ألمان ... صدف ولادة ... رجال ، هم أنفسهم ! أكثرية عمال وفلاحـــين . شغيلة ! شغيلة ! لماذا أعداء ؟ جنسيات مختلفة ؟ ولكن المصالح متشابهة : كل شيء يربطهم ! كل شيء يجعل منهم حلفاء طبيعيين ! »

وسحب من جيبه دفتراً صغيراً وبقية قلم رصاصي : « لو سجلت الآن ، كيفما اتفق ، كل ما يخطر ببالي » .

« أيها الفرنسيون والألمان . كلكم اخوة ! أنتم متشابهون ! وضحايا متشابهة ! ضحايا الأكاذيب المفروضة ! ما من أحد منكم ترك برضاه زوجته ، وأولاده ، وبيته ، ومصنعه ، ومتجره ، وحقله ليكون هدفاً لشغيلة آخرين مثله ! نفس الرعب من الموت ! نفس الاشمئزاز من القتل . نفس اليقين بأن كل حياة هي مقدسة . نفس الشعور أن الحرب مستحيلة . نفس الرغبة في الهرب من هذا الكابوس ، وأن تجدوا من جديد ، وبأسرع ما يمكن ، الزوجة ، والأولاد ، والشغل ، والحرية ، والسلام ! ومع ذلك ، فها أنتم اليوم وجهاً لوجه ، والرصاص في بنادقكم ، مستعدون ببلاهة لقتل بعضكم البعض عند أول إشارة ، دون أن تعرفوا بعضكم بعضاً ، ودون أي سبب من حقد ، دون أن تعرفوا لماذا يجبرونكم على أن تصبحوا قتلة ! »

وخفف القطار سيره ووقف :

– لوزان !

ألف تذكار . . . غرفته من خشب الصنوبر الأشقر في بنسيون كامرزين. . . صوفيا . . .

ولكي لا يُعرف ، فقد قاوم الرغبة في النزول . وأزاح الستار قليلاً . المحطة ، الأرصفة ، كشك الصحف ... على الرصيف الثالث كان قد مشى المئة خطوة في إحدى أمسيات الشتاء ، مع انطوان ، قبل العودة إلى باريس بسبب وفاة والده ... وبدا له أن عشر سنوات قد مرت على تلك الرحلة مع أخيه .

أناس يروحون ويجيئون في الرواق ، حاملين حقائب ، جارّين أطفالاً . ودركيان يمران ويفتشان القطار . وزوجان مسنّان يدخلان إلى المقصورة ويجلسان . الرجل عامل قديم ذو يدين قاسيتين من الشغل ، وقد ارتدى في سفره ملابس يوم الأحد ، وخلع سترته ، وربطة عنقه ، ويجفف جبهته ويولع سيكاراً . والمرأة أخذت السترة ، وطوتها باعتناء ، وأبقتها على ركبتيها .

وجاك الغارق في زاويته استعاد دفتره وكتب بحمّى :

« في أقل من اسبوعين ، جنون جماعي ، شيطاني . أوروبا بكاملها ! الصحافة ،

الأخبار الكاذبة . جميع الشعوب منتشية بنفس الاكاذيب ! والذي كان البارحة يبدو مستحيلاً ، بغيضاً ، أصبح لا يمكن تجنبه ، ضرورياً ، شرعيـاً ! في كل مكان ، نفس الجماهير التي دفعوها إلى التحمس والتعصب مستعدة للانقضاض على بعضها البعض دون أن تعرف لماذا ! مت واقتل ، أصبحتـا مرادف البطولة ، ومنتهى النبل ! لماذا كل هذا ؟ لأجل من ؟ .. المسؤولون ، اين هم ؟ .. »

المسؤولون .. اخذ من محفظته ورقة مطوية . انها عبارة كان فانهيد قـد استخرجها له من كتاب عن غليوم الثاني. عبارة من خطاب القاه القيصر الالماني: « انا مقتنع ان معظم النزاعات بين الأمم هي نتيجة دسائس واطماع بعض الوزراء الذين يستعملون هذه الوسائل المجرمة في سبيل نهاية واحدة هي الاحتفاظ بسلطتهم وزيادة شعبيتهم » .

وقال لنفسه : « يجب ايجاد النص الألماني لأستطيع ان أقول لهم : «انظروا ! قيصركم نفسه ! » . ايجاد النص . اين ؟ كيف ؟ فانهيد ؟ الكتابة مستحيلة، وقد منعها مينستريل .. ايجاد النص ! في مكتبة بال ؟ ولكن عنوان الكتاب ؟ ووقت البحث .. كلا .. مع ذلك !ايجاد النص ! وصعد الدم إلى رأسه وأصيب بدوار : « المسؤولون .. المسؤولون .. » وتململ ، وغيّر وضعه .. أولئك الناس يثيرون سخطه . العجوز تتبعه بنظرها بدهشة . انها جالسة مواجهةً له على المقعد المرتفع ؛ تنتعل حذاء أسود وجورب أبيض ؛ والارتجاج يؤرجح ساقيها الصغيرين .. « المسؤولون .. إيجاد النص .. » لو استمرت العجوز في النظر اليه فانه .. انها تحمل في سلتها قطعة خبز وخوخـاً ؛ وتمضغ ببطء ، وتبصق النوى في تجويف كفها حيث يلمع خاتم زواج . وعلى جبهتها ذبابة بدت انها لا تشعر بها ، تروح وتجيء ، كأنها على ميت .. شيء لا يحتمل .

ونهض .

كيف يجد ذلك النص .. في بال ؟ كلا ، كلا ، جهد ضائع .. فات الوقت .. هو يعلم انه لن يجده !

وتاق الى البرودة ، فبلغ الرواق وأمسك النافذة بكلتا يديه ، ويجشع .

هناك سحبٌ داكنة تغطي الآن قمم الألب . « ستحدث زوبعة ، ولهذا كان الجو ثقيلاً .. »

والبحيرة منظورة من أعلى ، بكثافة الزئبق . وبريقها ميت . والكروم المرشوشة بالكبريت ، والمنحدرة حتى الضفاف ، ذات زرقة سم .

« المسؤولون .. عندما يجري البحث عن مُشعل حريق يتساءلون قبل كل شيء عمن يستفيد من الحريق .. » وجفف وجهه ، وأخذ قلمه ، وهو واقف ، مستنداً إلى اطار النافذة ، مجتهداً ليكون غير مبالٍ بشيء ، بالعجوز ، بتلك الزوبعة الخانقة ، بالذباب ، بالضجة ، بالهزات ، بالمنظر الطبيعي ، بكل الكون العدائي . وسجّل بحمّى :

« قوة خفية ، الدولة ، تتصرف بكم تصرف المزارع بماشيته ! الدولة ! ما هي الدولة ؟ الدولة الفرنسية ، الدولة الالمانية هل هما الممثلتان الاصليتان ، المجازتان من الشعب ؟ المدافعتان عن مصالح الأكثرية ؟ كلا . فالدولة في فرنسا، كما في المانيا ، هي ممثلة اقلية . انها القائمة بأعمال جمعية من التجار ، جعل لهم المال وحده نفوذاً ، والذين هم اليوم سادة المصارف ، والشركات الكبرى ، ووسائل النقل ، والصحف ، ومشاريع التسلح ، وكل شيء ! سادة مطلقون لنظام اجتماعي اقطاعي ، يخدم مصالح البعض على حساب العدد الأكبر ! هذا النظام . رأيناه يعمل في هذه الاسابيع الاخيرة ! لقد رأينا آلاته المعقدة تحطم جميع المقاومات السلمية واحدة واحدة . واليوم ، هو الذي يقذف بكم،برؤوس الحراب ، إلى الحدود لأجل الدفاع عن المصالح الغربية ، المشؤومة أيضاً ، عنكم كلكم تقريباً ! ان اولئك الذين يذهبون ليموتوا،من حقهم التساؤل عمن يستفيد من تضحيتهم ! من حقهم ، قبل ان يقدموا جلودهم ، ان يعملوا لمن وفي سبيل ماذا يقدمونه !

« اجل ، ان المسؤولين الأول هم تلك الأقلية من المستثمرين العامين ، وكبار رجال المال ، وكبار الصناعيين الذين يقومون من بلد إلى بلد ، بمزاحمة ضارية ، ولا يترددون اليوم في إفناء القطيع ليوطدوا امتيازاتهم وينمو ازدهارهم !

ازدهار ، بعيد عن إغناء عامة الشعب وتحسين مصيرهم ، لا يستخدم إلا في زيادة اخضاع الذين سوف ينجون من المجزرة منكم !

« ولكن هؤلاء المستثمرين ليسوا وحدهم المسؤولين ، ففي كل بلد ضمنوا دعائم ومساعدين بين أعضاء الحكومات .. وبين المسؤولين من الصف الثاني يوجد تلك القبضة من رجال الدولة المصابين بمرض العظمة ، والذين فضحهم القيصر الالماني نفسه .. »

وقال لنفسه : « إيجاد النص . ايجاد النص .. »

« .. تلك القبضة من المشعوذين ، والوزراء ، والسفراء ، والقادة الطمّاعين الذين ، في ظل الدبلوماسيات وأركان الحرب ، بدسائسهم ومكائدهم السياسية ، لعبوا بحياتك بكل برود ، دون ان يستشيروك ؛ حتى دون ان يخبروك ، انت ، الشعب الفرنسي ، الشعب الالماني الذي كان لعبة مؤامراتهم.. لأن الأمر هكذا : في تلك الأوروبا المتشرية المبادىء الديموقراطية في القرن العشرين ، ما من شعب عرف ان يحتفظ لنفسه بقيادة سياسته الخارجية ؛ وما من واحد بين تلك البرلمانات التي انتخبتموها يمثلكم ،وما من واحد عرف تلك الالتزامات السرية التي تستطيع من اليوم إلى الغد أن تسرع بكم – كلكم – إلى المجزرة .

« ووراء هؤلاء المسؤولين الكبار يوجد اخيراً في فرنسا ، كما في المانيا ، كل أولئك الذين جعلوا الحرب ممكنة ، عن علم يكثر أو يقل ، سواء اكان بتسهيل تجارة الأوراق المالية في المصرف المركزي ، أم بتشجيع مطامع رجال الدولة باستحسانهم المتعصب . انها الاحزاب المحافظة ،ومنظمات أرباب المهن ، والصحافة القومية ! وهي أيضاً الكنائس حيث يؤلف الاكليروس فيها ، فعلاً ، وفي كل مكان تقريباً ، نوعاً من الجندرمة الروحية في خدمة الطبقات المتسلطة ؛ الكنائس بخيانتها لواجباتها السماوية أصبحت ، في كل مكان ، هي الحليفة والرهينة لقوى المال » .

وتوقف وحاول عبثاً أن يعيد قراءة ما كتب . فتشنج اصابعه على تلك القطعة من القلم الرصاصي ، وحمّاه ، والجلسة غير المريحة ، والارتجاج كلها جعلت

كتابته غير مقروءة .

وقال لنفسه : « يجب اجراء انتقاء هنا . سيء .. مليء بالتكرار .. طويل جداً .. لأجـــل الاقناع يجب التكثيف والاقتضاب .. ولكن ليستطيعوا التفكير والرجوع إلى انفسهم ، يلزمهم أيضـاً المعطيات الاساسية ! .. صعب ... »

لن يستطيع شيئاً وهو واقف . يعود إلى الجلوس ليكون وحده .. طاف الرواق بحثاً عن مقصورة فارغة . كلها مشغولة وصاخبة . من الأفضل الرجوع إلى مكانه .

والشمس التي بدأت تنخفض ملأت العربة بذهب أحمر يعمي الأبصـــار . الرجل يشخر ، فقد خبلته الحرارة ، وهو متكىء على مرفق ، وسيكاره مطفأ بين شفتيه. والعجوز الممسكة دائماً بالسترة على ركبتيها المضمومتين تروّح بصحيفة ؛ وكان الهواء يطيّر شعرها الأشيب . انها تتجنب نظرة جاك ، ولكنه كان يفاجئها بين لحظة واخرى تثبت عليه نظرةً خفية ، محدودة وصارمة .

عندئذ صالب جاك ذراعيه ؛ واغمض عينيه ، وعدّ حتى المئة ليرغم نفسه على الهدوء . ونام فجأة وقد غمره التعب .

وأفاق مرتجفاً ، منذهلاً لأنه نام . كم الساعة ؟ القطار يخفف سيره . في أي مكان أصبح ؟ رفاق سفره واقفون : ارتدى الرجل سترته وأولع عقب سيكاره من جديد ؛ والمرأة أقفلت سلّتها .. وجاك متخدر الدماغ يحاول التعرف إلى المحطة . برن ؟ الآن ؟

وقال الرجل وهو يمر أمامه : ليحفظك الله .

يوجد أناس على الرصيف . اسرعوا إلى القطار . واجتاحت المقصورة عائلة ثرثارة تتكلم الالمانية : الام ، والجدة ، وفتاتان ؛ وخادمة . وانطوت الشباك تحت كدسات من شباك المؤونة ودمى الأطفال .. للنساء وجوه منهوكة ، خائفة . والفتاتان ، وقد اوهنتهما الحرارة ، كانتا تتشاجران لاجل الجلوس في الزوايا الفارغة . لاشك بأنهم أناس فاجأتهم الحرب وهم في العطلة ، فعادوا إلى بلادهم ؛

والأب مضطر إلى الالتحاق بفرقته منذ الأيام الأولى .

وواصل القطار سيره .

وهرب جاك إلى الرواق المزدحم بمسافرين واقفين ؛ ومعظمهم من الرجال .

فالى الشمال ثلاثة شبان سويسريين يتحدثون بالفرنسية بصوت مرتفع :

– احتفظ فيفياني برئاسة مجلس الوزراء ، ولكن بدون حقيبة .

– من هو دومرغ [1] ، ذاك الذي تسلم وزارة الخارجية ؟

وإلى اليمين مسافران ، طالب شاب محفظته تحت ابطه ، ورجل مسن يضع نظارة ، يمكن أن يكون استاذاً . وهما يتصفحان الجرائد . وقال الطالب ساخراً ، وهو يناول رفيقه صحيفة « جورنال دي جنيف » :

– أرأيت ؟ ان للبابا حكاياته . فقد وجّه نداء الى كاثوليك العالم !

فقال الآخر :

– اجل . سواء اردت أم لا . فلا يزال يوجد ملايين من الكاثوليك على الأرض . حُرم البابا ؟ ولكن لو كان قطعياً ، داوياً .. ولو انه وُجّه قبل أن يبدأ هذا !

فقال الطالب :

– اقرأ . ربما تعتقد أنه ادان الحرب باحتفال ؟ وانه خطّأ السلطات؟وانه مزج بدون تمييز جميع الدول المحاربة في حُرم واحد وبجلبة كبيرة ؟ كلا،كلا.. كل ما وجد أن يقوله لأولئك الملايين من الكاثوليك الذين سيتسلحون غداً ليقتلوا ، والذين ينتظرون دون شك أوامره ليبرأوا ذمتهم أمام ضمائرهم،ليس: « لن تقتل ابداً ! ارفض ! » – الأمر الذي ربما جعل الحرب مستحيلة .. كلا !

---

١ – غاستوف دومرغ Doumer gue : سياسي فرنسي ولد في إيغ ـ فيف (١٨٦٣ ـ ١٩٣٧) كان رئيساً لمجلس الوزراء عام ١٩١٤ ، ولمجلس الشيوخ عام ١٩٢٣ ، ورئيساً للجمهورية من ١٩٢٤ ـ ١٩٣١ .ثم رئيساً للوزراء من ٩ شباط إلى ٨ تشرين الثاني ١٩٣٤ .

لقد قال بلطف : « سيروا يا أولادي .. سيروا . ولكن لا تنسوا ان **ترفعوا ارواحكم نحو المسيح** ! » ·

كان جاك يصغي لاهياً · وتذكر فجأة كاهناً مجنداً رآه في احدى النواحي · اين اذن ؟ في محطة الشمال وهو يوصـــل انطوان .. كاهن شاب ، رياضي ؛ ذو عين لامعة (من نوع « رئيس مؤسسة خيرية » ، « مدرب شبان ») كان يحمـل كيسين بالعرض على جبته المشمرة عن فردتي حـذاء جديدتين لمتسلق جبال ، وقبعة رقيب صغيرة تجثم على الاذن بدلال ·· محطة الشمال ، انطوان ·· انطوان ، دانيال ، جني ·· كل اولئك الذين تستحضرهم ذاكرته بغير إرادته ، وكل اولئك الرجال والنساء الذين يحيطون به يشكلون جزءاً من العالم غير الموجود : عالم الاحياء حيث المستقبل موجود بالنسبة اليهم ، والذين يتابعون سفرهم بدونه ·

وفي الناحية اليسرى يعلـّق الشبان السويسريون الثلاثة باشمئزاز على الانذار الذي وجهته المانيا إلى بلجيكا ·

فخطا جاك خطوة نحوهم وأرهف اذنه ·

– وهذا قد أُعلن : فرقة من الجيش الالماني اجتازت الحدود البلجيكية هذه الليلة ومشت نحو لياج ·

وخرج من المقصورة المجاورة رجل لا يزال شاباً لينضم إلى الجماعة ؛ انـه بلجيكي · وهو ذاهب إلى نامور بسرعة للتطوع · وصرح على الأثر :

– انا اشتراكي. ولكن بسبب هذا لا اقبل أن تسحق القوة الحق !

انه يتكلم بكثرة ، ويهز نبرته . ويستفظع البربرية التوتونية ؛ ويمجد المدنية الغربية .

واقترب مسافرون آخرون. واظهر الجميع انهم ثائرون على وقاحة الحكومة الالمانية .

وقال رجل في الخمسين من عمره يتكلم الفرنسية بلهجة المانية :

– اجتمع مجلس النواب البلجيكي هذا الصباح . اتعتقدون أن الاشتراكيين

سيصوتون على اعتمادات الدفاع الوطني ؟
فهتف البلجيكي مفحماً محدثه بنظرة تلتهب بالتحدي :
– كرجل واحد يا سيد !
ولم ينبس جاك بكلمة . فهو يعلم أن البلجيكي يقول الصحيح . ولكنه تذكر بغضب ، موقف الاشتراكيين البلجيكيين في بروكسل وبجاهرتهم بالسلام التام .. فاندرفيلد ... الخميس الماضي : لم يمض ستة أيام .
وقال احد السويسريين :
– في باريس أيضاً سيجتمع اليوم مجلس النواب لأجل اعتمادات الحرب .
فأكد البلجيكي بحماسة :
– في باريس سيكون الأمر مشابهاً.والاشتراكيون في جميع البلدان المتحالفة سوف يصوتون على الاعتمادات . وهذا أمر مفروغ منه ! أن العدالة معنا ! وهذه الحرب قد فرضت علينا . وكل اشتراكي حقيقي في هذا الصراع ضد العسكرية البروسية عليه أن يكون في الخط الأول .
ولم ينقطع وهو يتكلم،عن أن يقيس الرجل الذي يتكلم الجرمانية ، والذي سكت .

إلى نجدة الوطن المهدد ! الهجوم على الامبريالية الالمانية : هذه هي لازمة الجميع . في الصحف اليسارية الفرنسية الاخيرة التي قرأها جاك البارحة كان نفس الشعار في كل مكان : في كل مكان اقلع الاشتراكيون عن المعارضة . وقد أعلن البارحة أيضاً ، هنا وهناك ، في الضواحي ، عن بعض اجتماعات الفروع . ولكن ذلك « للتشاور حول المسائل المادية إلى إعانة عائلات المجندين » ! فالحرب اصبحت واقعاً ! واقعاً مقبولاً بدون اعتراض . وعدد صحيفة « الحرب الاجتماعية » كان ذا دلالة بشكل خاص . فغوستاف هريفيه تجاسر وكتب في الصفحة الأولى:« جوريس ! أنت سعيد لعدم مشاهدتك انهيار حلمك الجميل .. ولكني ارثي لك لأنك ذهبت دون أن ترى كيف ان عزفنا العصبي ، المتحمس ، المثالي رضي بالذهاب لإتمام الواجب المؤلم ! ولكنت فخوراً بعمالنا

الاشتراكيين ! » والاكثر دلالة ايضاً هو البيان الموجه الى عمال سكة الحديد من قبل نقابة الخطوط الحديدية التي أكدت منذ قليل ، وبعنف ، معاداتها للنزعة القومية : « امام الخطر المشترك تزول الاحقاد القديمة ! ايها الاشتراكيون ، والنقابيون ، والثوريون . سوف تحبطون حسابات غليوم المنحطة ، وستكونون الأول الذين يلبون النداء عندما يدوي صوت الجمهورية ! » وقال جاك لنفسه : « يا لها من سخرية .. ها هو يتحقق في كل بلد ذلك التفاهم بين الأحزاب الشعبية والذي كان يبدو مستحيلاً ! يتحقق تماما بالحرب ! كما لو أنه تحقق ضدها. يا لها من سخرية ! انصار الأممية مجمعون اليوم في كل مكان على قبول النزاع قومياً ! مع انه كان يكفي لمنعها ، منذ خمسة عشر يوماً على الأكثر ، أن يكونوا مجمعين على اقرار الاضراب الاحتياطي » . والصدى الوحيد الأخير للاستقلال كان في جريدة انكليزية ، « الديلي نيوز » . التي وجدها جاك : مقال له نبرة بيان ، كتب قبل توجيه الانذار إلى بلجيكا . وقد فضحوا فيه ولادة التيارات الحربية الاولى خلال الرأي العـــام البريطاني ! وصرحوا فيه بشدة عن ضرورة دفاع انكلترا عن نفسها ضد العدوى ، وأن تحتفظ بحريتها ، وبحيادها كحكم ، وأن لا تتدخل في اي حال حتى ولو جازف احد الجيشين المتعاديين بانتهاك الحدود البلجيكية . نعم .. ولكن انكلترا الرسمية صرحت اليوم انها هي أيضاًدخلت بأريحية حلبة الرقص المأتمي !

وارتفع الصوت المهتز للاشتراكي البلجيكي في الرواق :

— جوريس نفسه كان سيصبح أول من يعطي المثـل : جوريس يا سيد ؟ ولكنه كان سيسرع ويتطوع .

فقال جاك لنفسه : « جوريس .. هل كان يمنع التنكر للحزب ؟ هل كان يقف حتى النهاية؟ » وتصور نفسه فجأة مع جني امام مقهى شارع مونمارتر . الجمهور الصامت المزدحم في الليل . وعربة الاسعاف .. وفكـّر : « لقد دفنوه اليوم تحت الزهور ، والخطب ، والاعلام المثلثة الالوان ، والموسيقى العسكرية ! لقد استأثروا بالجثة العظيمة ليؤرجحوها باسم الوطن قبل رميها .. آه ، لو أن

نعش جوريس اجتاز حقيقة هذه الباريس التي تُجنّد دون تحريك الثورة ، ذلك لأن كل شيء قد انتهى ، ذلك لأن الاممية العمالية قد ماتت ودفنت معه..».

نعم ، في اللحظة الحاضرة كل شيء انتهى هنـاك ، في المدن الممغنطة ؛ في المؤخرة ، نعم ، كل النوابض قد انقطعت في الآونة الأخيرة . ولكن على خط النار ، فمن المؤكد ان البؤساء الذين احتكـّوا بالحرب لا ينتظرون سوى نداء ليزيلوا عنهم السحر الجهنمي ... شرارة ، والثورة المحررة ستنفجر اخيراً ! ..

عبارات مفككة ارتسمت من جديد في رأسه : « انتم شبان ، احياء .. انهم يرسلونكم إلى الموت .. ينتزعون حياتكم منكم بالقوة ! ليفعلوا بهـــا ماذا ؟ رأسمال طازج في خزائن اصحاب المصارف الكبار ! » ولمس دفتره في اعماق جيبه . ولكن كيف يدون ملاحظات في هذا الرواح والمجيء ، في هذه الجلبة ؟ الا أنه سيكون في بال قبل عشرين دقيقة . وسيضطر إلى الذهاب للبحث عن بلاتنر . والبحث عن مسكن ، عن ملجأ يشتغل فيه ..

وفجأة صمم على أمر . لقد أحس بالنوم . فقد شعر انه صافي الذهن ، نشيط . يستطيع بلاتنر الانتظار . سيكون من البلاهة ان يعمل على هبوط درجة الحمّى الممسكة به ، بدلاً من الركض إلى المدينة فسيأوي إلى زاوية في قاعة الانتظار ؛ وتلك العبارات التي تغلي وتتزاحم في دماغه ، سيلقيها وهي ساخنة على الورقة .. في قاعة الانتظار أو في المقصف — لأنه يموت من الجوع .

٨٠

مأوى غير متوقع . « لارستوراسيون « ريتركلاس » واسع جداً بحيث أن الزبائن ، وهم كثر ، لم يشغلوا سوى منتصف القاعة الكبرى . وفي الداخل كان مقفراً تماماً .

واختار جاك طاولة كبيرة مسندة إلى الجدار بين طاولات كبيرة اخرى فارغة . وخلع سترته ، وفتح طوقه . والتهم قطعة من لحم عجل اضيف اليها

شحم خنزير بأريحية ، محمّرة في الفرن ، ومضافاً اليها الجزر . وشرب زجاجة كاملة من الماء المثلوج .

المراوح تحدث ضجة مستمرة في السقف، وقد وضعت الخادمة أمامه ما يكتب عليه ، بجانب فنجان من القهوة تعبق رائحته .

وهناك غلام يدور أمام طاولة صاحب المحل ومعه طبق : **سيكار، سيكارة!** آه ، نعم . سكاير ! بعد اثنتي عشرة ساعة من الحرمان ، فان النفخة الأولى كانت ذات مفعول سحري ! راحة مسكرة، وزيادة حياة تسيران في شرايينه، وتجعلان يديه ترتجفان . وهو منحنٍ على الطاولة، متغضن الجبهة، طارف العينين خلال الدخان ، لا ينتظر ، ولا يحاول تنسيق الأفكار المتزاحمة . أما الغربلة فستحدث فيما بعد ، برأس مرتاح ..

وبفراغ صبر نهم أخذ قلمه يسير بسرعة على الورقة :

« فرنسيون او المان ، انتم مخدوعون !

« هذه الحرب ، قد صوروها لكم ، في كلا المعسكرين، ليست فقط كحرب دفاعية ، بل كصراع في سبيل حق الشعوب، وفي سبيل العدل والحرية . لماذا ؟ لانهم يعرفون جيداً انه ما من عامل ولا فلاح في المانيا ، وما من عامل ولا فلاح فرنسي ، يعطي دمه في سبيل حرب هجومية : في سبيل الاستيلاء على اراض وأسواق !

« لقد ادخلوا في روعكم انكم ذاهبون إلى القتال لسحق الامبريالية العسكرية عند الجار . كما لو ان جميع النزعات العسكرية لا تتساوى ! كما لو ان النزعة القومية الحربية لم يكن لها في هذه السنوات الاخيرة كثير من الانصار في فرنسا كما في المانيا ! كما لو ان الامبرياليين في حكومتيكما لم يتعرضا منذ سنوات لنفس اخطار الحرب ! انتم مخدوعون ! لقد ادخلوا في روعكم ، كلكم ، انكم ذاهبون للدفاع عن وطنكم ضد غزوة مجرمة يقوم بهـــا معتدٍ – مع ان كلاً من أركان حربكما الفرنسية والالمانية كانت قد درست منذ سنوات ، بنفس الوقاحة ، الوسائل لتكون الأولى في تحريك هجوم ساحق ! .. بينما زعماؤكم ، في كلا

جيشيكم ، كانوا يسعون لضمان منافع هـــذا « الاعتداء » الذي يقومون اليوم بالتشهير به لدى الخصم ، وذلك ليبرروا أمـــام اعينكم هذه الحرب التي أعدّوها !

« انتم مخدوعون . فأفضلكم يعتقدون عن سلامة طوية انهم يضحون بأنفسهم في سبيل حقوق الشعوب . مع انهم لم يحسبوا حساباً للشعوب ولا للحقوق إلا في الخطب الرسمية ! وليس هناك أمة قُذف بها إلى الحرب واستشيرت باستفتاء شعبي ! وقد أُرسلتم كلكم إلى الموت بواسطة لعبة الاحلاف السرية ، القديمة ، الاستبدادية التي تجهلون مضمونها ، والتي ما كان ليوقعها أحد منكم ! كلكم مخدوعون! وانتم أيهاالفرنسيون المخدوعون،لقد ظننتم ان من اللازم سد الطريق على الغزوة الجرمانية ، والدفاع عن المدنية ضـد التهديد البربري ، وانتم ايهـا الالمان المخدوعون : لقد ظننتم ان المانيا قد طُوقت ، وان مصير البلاد في كف القدر ، وان من اللازم انقاذ ازدهاركم الوطني المعرّض للمطامـع الاجنبية . وكلكم ، من المان أو فرنسيين ، كل من ناحيته ، متشابهون بالخديعة . اعتقدتم عن حسن نية . ان هذه الحرب بالنسبة اليكم وحدكم « حرب مقدسة » ؛ وأنـه قد وُجب ، بدون تردد ، وبدافع حب الوطن ، ان تقوموا في سبيل « شرف» أمتكم ، ولأجل « انتصار العدالة » بتضحية سعادتكم ، وحريتكم ، وحياتكم ! انتم مخدوعون ! في مدى بضعة أيام أُصبتم بعدوى هذه الاثارة المفتعلة التي أوصلتها اليكم دعاية وقحة ، اليكم كلكم ، انتم الذين ستكونون الضحايا ،وقد ذهبتم ببطولة ، البعض ضد البعض الآخر ، عند أول نداء لذلك الوطن الذي لم يكن يهدده أي خطر حقيقي ! .. دون ان تعلموا انكم كنتم من الجهتين ، دمى طبقاتكم القائدة ! ودون ان تدركوا انكم رأس مال دسائسهم والمال الذي يبعثرونه ليرضوا حاجاتهم إلى السيطرة والربح .

« ذلك لأن السلطات القائمة في فرنسا والمانيا قد خدعتكم بمراءاة ، بنفس الأكاذيب ! ان حكومات أوروبا لم تقدم أبداً في السابق برهاناً على مثل هذه الوقاحة ، وتتصرف بسلاح كهذا من المهارات لاجل مضاعفـــة النائم وإيحاء

التأويلات المزيفة ، ونشر الأخبار الكاذبة ، وتنشر بكل الوسائل هذا الذعر وذلك الحقد اللذين هي بحاجة اليهما لتجعل منكم شركاء في الذنب ! وببضعة أيام، وحتى دون أن يتسع الوقت لتقدير مبلغ ضخامة التضحية المطلوبة منكم ، جرى حشدكم في الثكنات . وجُهزتم ، ودُفعتم إلى القتل والموت . لقد أُلغيت جميع الحريات دفعة واحدة . في المعسكرين ، وفي نفس اليوم ، حالة الطوارىء ! .. وفي المعسكرين ديكتاتورية عسكرية لا ترحم ! والويل لمن أراد ان يشغل عقله، ويطلب حساباً ، ويملك نفسه ثانية ! ولكن من منكم استطاع ذلك ؟ كلكم كنتم تجهلون الحقيقة ! ووسيلتكم الوحيدة للاستعلامات هي الصحافة الرسمية ، الكذب الوطني ! وهذه الصحافة الكلية القدرة في قلب حدودها المغلقة ليس لها سوى صوت واحد: صوت اولئك الذين يقودونكم والذين لا يستغنون عن جهلكم المطبق وانصياعكم لتحقيق اهدافهم المجرمة ! ..

« كان خطأكم في انكم لم تمنعوا حدوث الحريق عندما كان الوقت لا يزال يتسع لذلك ! كان بامكانكم منع الحرب ! اكثريتكم الساحقة من الرجال المسالمين لم تعرفوا ان تحشدوها ولا ان تنظموها ، ولا ان تدعوهـــا تتدخل في الوقت المناسب ، بطريقة متلاحمة ، حاسمة ، لتقوموا ضد مشعلي الحريق بحركة من جميع الطبقات ، من جميع البلدان ، وتفرضوا على حكومات اوروبا ارادتكم السلمية .

« والآن في كل مكان ، نظام حقوق كمّ الضمائر الفردية . وتحولتم في كل مكان إلى خضوع أعمى لحيوان عصبت عيناه .. ان الانسانية لم تعرف أبداً إغواءً كهذا ولا عمى ذكاءٍ كهذا ! وقوى السلطة لم تفرض أبداً على النفوس مثل هــذا الإستسلام الكلّي ، ولا كمّت طموح عامة الشعب بمثل هذه الضراوة ! » .

وسحق جاك في صحنه الصغير عقب سيكارته التي أحرقت شفتيه . وبحركة عنيفة ردّ ذؤابته إلى الوراء ومسح العرق الذي يسيل على خديه .. « ولا كمّت طموح عامة الشعب بمثل هذه الضراوة ! » . ان جرس الكلمات يرن في اذنيه كأنه هو نفسه ألقاها بملء صوته على جبهة هذين الجيشين ، بحيث انتصب وهمه

حقيقة أمامه . انه يشعر بنفس الفورة ، بنفس جلبة الدم ،بنفس ارتقاء النفس التي كانت تكهربه حين كانت اندفاعة مباغتة من الايمان ، والغضب ، والحب ، والحاجة الملحة للاقناع والاجتذاب تدفعه إلى منبر اجتماع وتسمو به فجأة فوق الجماهير ، وفوق نفسه ، في نشوة الارتجال .

وبدون أن يولع السيكارة التي أخرجها من جيبه، ترك قلمه يركض من جديد:

« والآن ، وقد ذقتم حربكم ! وسمعتم ازيز الرصاص ، وانين الجرحى والمحتضرين ! الآن بامكانكم الشعور بهول مستودع الجثث الذي يعدونه لكم ! الآن ، فان معظمكم ، وقد زالت سكرتهم ، يشعرون في أعماق ضميرهم برعشة العار لأنهم أسلموا أنفسهم للخداع بكل خضوع ! وذكرى الكائنات العزيزة التي تركتموها بسرعة ، تعمركم . وتحت ضغط الحقائق تستيقظ عقولكم، وتتفتح عيونكم اخيراً ! ماذا يكون الأمر عندما تدركون لأي أسباب لا يمكن الاعتراف بها ، ولأي آمال من الفتح والسيطرة ، ولأي مكاسب مادية غريبة عنكم ولا يستفيد منها أحد منكم ، تفرض عليكم اقطاعية المال ، سيدة هذه الحرب ، تلك التضحية الشنيعة ؟

« ماذا فعلوا بحريتكم ؟ بضميركم ؟ بكرامتكم كرجال ؟ ماذا فعلوا بسعادة عائلاتكم ، ماذا فعلوا بالكنز الوحيد الذي يجب على رجل الشعب أن يدافع عنه : حياته ؟ هل للدولة الفرنسية والدولة الالمانية الحق بانتزاعكم من عائلاتكم من عملكم ، والتصرف بجلودكم ضد مصالحكم الشخصية الاكثر وضوحاً ، ضد ارادتكم ، ضد يقينكم ، ضد الاكثر انسانية ، والاكثر نقاءً ، والأكثر شرعية في غرائزكم ؟ ما الذي اعطاهم عليكم هذه السلطة الشنيعة ، سلطة الحياة والموت ؟ جهلكم ! استسلامكم !

« شعاع من التفكير ، انتفاضة تمرد وبامكانكم ان تتخلصوا .

« هل انتم عاجزون عن ذلك ؟ اتنتظرون تحت القنابل ، في اسوأ الآلام الجسدية والمعنوية ، ذلك السلام البعيد ، الذي لن تعرفوه أبداً ، انتم ، أول قتلى الحرب ؟ ذلك السلام الذي لن يعرفه أيضاً من هم أصغر منكم سناً ، الذين

نهضوا جماعات ليحلوا محلكم على خط النار ويكونوا مثلكم ضحايا في مذابح « مجيدة » ؟

« لا تقولوا فات الأوان وان ليس عليكم إلا الخضوع للعبودية والموت ! ان هذا سيكون جبناً .

« وهو سيكون خطأ .

« بالعكس ، فقد حانت لحظة هز النير ! وهذه الحرية ، هذه الطمأنينة ، هذا السرور بالعيش ، كل تلك السعادة التي أسكرتكم ، ان أمر استرجاعها لا يتعلق إلا بكم ..

« سيطروا على الأمور ما دام في الوقت متسع ! ولديكم وسيلة ، وسيلة لا تخطىء لتجعلوا أركان حرب جيوشكم في حالة العجز عن متابعة هذه المجزرة بين الاخوة ولو ليوم واحد . ذلك بأن ترفضوا القتال ! ذلك بأن تقوضوا سلطتهم بعنف ، بواسطة عصيان جماعي .

« انكم تستطيعون ذلك !

« تستطيعونه منذ الغد !

« تستطيعونه دون التعرض لخطر أية عقوبة .

« ولكن لهذا ثلاثة شروط ، ثلاثة شروط قطعية : ان تكون انتفاضتكم مباغتة ، وأن تكون عامة ، وان تحدث في وقت واحد .

« مباغتة ، لانه يجب الا يُترك الوقت لرؤسائكم ليتخذوا ضدكم تدابير احتياطية . وعامة وفي وقت واحد ، لأن النجاح يتوقف على عمل متكتل متحرك في نفس الوقت على ناحيتي الحدود ! لو كنتم خمسين ترفضون التضحية لقوبلتم بالسلاح بدون رحمة . ولكن لو كنتم خمسماية ، لو كنتم ألفاً ، عشرة آلاف ؛ لو انتفضتم كلكم معاً في المعسكرين ، لو انتشرت صرخة تمردكم من فرقة إلى فرقة في جيشكم؛ واخيراً لو فجرتم قوة العدد التي لا تنثلم . فليس هناك أي قمع يكون ممكناً ! والرؤساء الذين يقودونكم ، والحكومات التي أعطتكم هؤلاء الرؤساء ، سيجدون انفسهم ، ببضع ساعات ، مشلولين إلى الأبد في نفس

مركز قوتهم المجرمة !

« افهموا كلكم اهمية هذه اللحظة الحاسمة ! ولكي تستعيدوا استقلالكم دفعة واحدة فهناك ثلاثة شروط . والشروط الثلاثة كلها لا تتوقف إلا عليكم وحدكم : يجب ان تكون انتفاضتكم مباغتة ؛ وان تكون جماعية وفي وقت واحد » .

كان منقبض الوجه ، قصير النفس لاهثاً . وتوقف لحظة ، ورفع نظراً اعمى نحو الغطاء الزجاجي . لقد تلاشى العالم الواقعي : لا يرى شيئاً ولا يسمع شيئاً؛ لا يوجد أمامه سوى جمع غفير من المحكومين الذين يلفتون نحوه وجوهاً قلقة .

« أيها الفرنسيون والالمان ! انتم رجال ، انتم اخوة ! باسم امهاتكم ونسائكم وأولادكم ؛ باسم انبل شيء فيكم ؛ باسم تلك النسمة الخالقة الآتية من أعماق القرون والرامية إلى ان تجعل من الإنسان كائناً عادلاً رشيداً — اغتنموا هذا الحظ الاخير ! فالخلاص في متناول أيديكم ، وقوفاً ! وقوفاً جميعكم قبل أن يفوت الاوان !

« هذا النداء قد صدر اليوم ، في نفس الوقت ، بألوف والوف النسخ ، في فرنسا والمانيا ، على جبهة قتالكم كلها. وفي تلك اللحظة بالذات، في معسكريكم، فان الوفاً من القلوب الفرنسية والالمانية ترتعش بنفس أملكم ، والوفاً من القبضات ترتفع ، والوفاً من الضمائر تختار لأجل العصيان ، لأجل انتصار الحياة على الكذب والموت !

« تشجعوا ! لا تترددوا ! كل تأخير يمكن أن يودي بكم ! يجب ان ينفجر عصيانكم منذ الغد !

« غداً ، عند طلوع الشمس ، ايها الفرنسيون والالمان ، كلكم معاً ، في نفس الساعة ، وبنفس اندفاعة البطولة والحب الاخوي . ارفعوا خشب بنادقكم ألقوا سلاحكم ، اطلقوا نفس صرخة الخلاص !

« وقوفاً كلكم لرفض الحرب ! ولتفرضوا على الدول اقرار السلام العاجل. وقوفاً كلكم في الغد ، لدى أول شعاع من الشمس .. »

وأراح القلم على الدواة بحيطة .

وانتصب جذعه ببطء ، وابتعد قليلا عن الطاولة ، وعيناه منخفضتان ، وحركاته هادئة ؛ متلبدة ، صامتة ، كأنه يخاف ان ينفر العصافير . واختفى كل انقباض من وجهه . وبدا انه ينتظر شيئاً : اتمام ظاهرة داخلية ، مؤلمة قليلاً : ليهدأ القلب وليكفَّ الصدغان عن النبض بقوة . ولتنته الصعدة البطيئة نحو الواقع دون كثير من الألم ..

وبصورة آلية ، جمع الأوراق المغطاة بكتابة محمومة ، واسندها إلى صدره بشدة ، وانحنى رأسه لحظة ؛ وبدون ان يحرك شفتيه تمتم كالصلاة : «.. اعادة السلام إلى العالم .. »

٨١

بلاتنر أسكن جاك عند امرأة عجوز ، أم مناضلٍ يدعى ستامف ، كان الحزب قـــد ارسله بمهمة . واعتبر جاك انه جاء يسكن مدينة بال ليشتغل في المكتبة ، فقد سلمه بلاتنر عقداً حسب الأصول .. حتى إذا ما اهتمت الشرطة بوجوده ، وهي التي زادت فعاليتها بشكل خاص منذ اعلان الحرب ، فبامكانه الاستشهاد بعملٍ ومسكن .

وبيت مدام ستامف العجوز قائم في بال الصغرى ، في حي إرلنستراس الفقير (ليس بعيداً عن غريفانغاس حيث يدير بلاتنر حانوتاً) ، وهو بيت حقير مهتز برسم الهدم . والغرفة التي أُجرت لجاك تشكل رواقاً ضيقاً مثقوباً من كل طرف بنافذة . واحدى هاتين النافذتين بدون زجاج ، تفتح عـــلى الباحة ، وتتصاعد من هناك عفونة جحر ارانب وقشور تنبعث منها رائحة الحموضـة . والاخرى تفتح على الشارع ، وفضلاً عن الطريق تطل على احواض محطة باد الفحمية ، يعني ، أو تقريباً ، على أرض المانية . وفي السقف ، قريب جداً مـن الجمجمة ، قد صفّ قرميد السقف الذي يمكن بلوغه باليد ، وقد أحمته الشمس بحيث تتولد منه ليلاً ونهاراً حرارة كحرارة صفيحة الفرن .

هناك ، في ذلك المختنق انفرد جاك ليضع بيانه دون اي طعام سوى القهوة

وقطعة خبز بشحم الأوز تضعها الأم ستامف العجوز صباحاً أمام بابه. واحياناً، حوالي الظهر ، تصبح الحرارة مرهقة بحيث يحاول الهرب ، ولكن ما يكاد يصل إلى الخارج حتى يتحسر علـى كوخه ويسرع بالعودة اليه ، ويصل إلى سريره . وهناك يعقد خيط أحلامه من جديد وبفراغ صبر ، مغمساً بالعرق ، مغمض العينين .. الطائرة في كبد السماء .. وهو جالس وراء مينستريل ، ينحني ، يأخذ قبضات من النشرات وينثرها في الفضاء .. هـدير المحرك يمتزج بنبضات دمه. انه هو نفسه ذلك العصفور ذو الأجنحة الكبيرة ؛ تلك الرسائل، ينتزعها من قلبه ليبذرها على العالم .. وقوفاً غداً ، عند شروق الشمس ! اجزاء البيان المتنوعة تترتب ، وشيئاً فشيئاً تأخذ العبارات شكلاً . انه يعرفها عن ظاهر قلب . نائم وعينه في السقف ، يتلوها على نفسه دون راحة ، واحياناً ينهض بوثبة ويسرع إلى طاولته لينقح فقرة ، ليبدل مكان كلمة . ثم يلقي بنفسه على سريره . لا يكاد يشاهد الزخرف الحقير المحيط به . انه يعيش بين رؤاه .. ويرى العصيان يمتد إلى الأقرب فالأقرب .. الضباط في مراكز القيادة يمهدون لعمل مشترك ، وأمناء السر يضيع صوابهم ، والاتصالات مع مقر القيادة العامة مقطوعة . كل عملية قمع مستحيلة . إذا ارادت الحكومات انقاذ الوجه فليس لديها سوى ملجأ : عقد الهدنة بسرعة .

كان وسواسه يضنيه ويسنده . – كالقهوة . لا يستطيع أن يستغني عن هذه ولا عن ذاك . وحين كان واجب ضروري – كزيارة قصيرة الى المكتبة ، أو لقاء فقط على سطح الدرج مع مدام ستامف – يبعده لحظة عن حلمه ، فانـه يشعر من ذلك باضطراب نفسي ، ويعود بسرعة إلى عزلته ، كما يعود مسموم إلى عقاقيره ، ويجـد الراحة على الأثر ، وليس الهدوء فقط : يجد نوعاً من الحمّى السعيدة العاملة .. وبين لحظة واخرى ، حين يضطره ارتجاف يده إلى التوقف عن الكتابة ، او حين يكتشف في حطمة المرآة المسمرة على الحائط وجهـه اللامع من العرق ، وخديه المتقعرين ، ونظرته التي تشبه نظرة مسحور ، فللمرة الأولى في حياته تخطر له فكرة انه مريض . وهذه الفكرة تجعله يبتسم : ماذا

يهم الآن ؟ اثناء الليل المحرق حيث لم يتوصل إلى إغماض عينيه ، وحيث كان ينهض كل عشر دقائق ليغمس منشفة في الوعاء ويرطب جسده المحترق ، ويتأخر دقيقة في نافذته . انهـــا تفتح على الجحيم : في جلبة الأحواض جيش من عمال السكك الحديدية يتحرك تحت ألق المصابيح المقوسة ؛ وفي مكان أكثر بعداً ، في ليل المستودعات ، شاحنات تهتز باستمرار ، وعربات قطار صغيرة تتصادم ، وانوار تركض في جميع الاتجاهات ؛ وأبعد ايضاً، على الخطوط اللامعة قطارات لا تنتهي ، تصفر وتتحرك قبل أن يدخل بعضها وراء البعض الآخر في ظلمات المانيا التي هي في حالة حرب . عندئذٍ ابتسم . هو وحده يعرف . هو وحده يعرف ان كل هذه البلبلة على غير طائل ... فالخلاص يقترب ... والمنشور قد كتب . وسيقوم كابل بترجمته إلى الالمانية . وبلاتنر سينسخ منـه مليوناً ومائتي الف نسخة ... بضعة ايام ايضاً ! .. **الجميع وقوفاً ! عند اول شعاع للشمس .**

بعد ثمان واربعين ساعة من هذا الشغل المحموم، عزم اخيراً على اعادة مخطوطته للطبع . وقد قال مينستريل : « تكون جاهزاً نهار السبت » .

بلاتنر في الغرفة الخلفية لمكتبته ، بـين رزم اوراقه ، وراء الباب المزدوج المخملي ، وجميع المصاريع مقفلة رغم الساعة الصباحية . (انـــه رجل في الاربعين من عمره ، صغير ، قبيح المنظر ، سيء الهندام ؛ يتألم من معدته ، وله نفس كريه . وقفص صدره مقبب كعظم العصفور ؛ وجمجمته المتوفة الشعر ، وعنقه الهزيل ، وانفه الناتىء الاعقف ، كلها تبعث على التفكير بالعقاب . وهذا الانف الذي لا سند له يبدو انه يجر الجسم إلى الامام . وينقل مركز ثقله ، ويسبب لبلاتنر شعوراً دائماً بعدم التوازن بحيث ينتقل القلق إلى المحدّث . ويجب الاعتياد على هذه البلية لاجل ملاحظة بساطة النظرة، الابتسامة القلبية، وعذوبة صوت رتيب نوعاً ، متأثر بسهولة ، يرتعش في كل لحظة كتقدمة صداقة . ولكن جاك ليس لديه ما يعمله بصديق جديد . لم يكن بحاجة

إلى احد .

وبلاتنر منهار . لقد تلقى تأكيداً بتصديق اعتمادات الحرب في الريخستاغ ، من قبل الفرع البرلماني للاشتراكيين الديموقراطيين .

وقد اعترف بصوت يرتجف من الاشمئزاز .

ــ ان تصويت الاشتراكيين الفرنسيين في مجلس النواب كان ضربة رهيبة . وكان ذلك منتظراً ، رغم كل شيء ، منذ مقتل جوريس .. ولكن الالمان ! اشتراكيتنا الديموقراطيه ، القوة البروليتارية الكبرى في أوروبا !.. انها الضربة الاكثر شدة في كل حياتي كمناضل.. كنت قد رفضت تصديق الصحف الرسمية. وكنت اراهن على قطع يدي بأن الاشتراكيين الديموقراطيين سوف يحرصون كلهم على اصدار حكم عام على الحكومة الامبراطورية . وحين قرأت مذكرة الوكالة ضحكت !.. هذا التدبير يعبق بالكذب ! وقلت لنفسي : «سنحصل على التكذيب غداً ! » اليكم ما حدث · يجب اليوم العودة إلى الوضوح · كل شيء صحيح ! صحيح بتشاؤم · وما زلت جاهــــلا كيف حدثت الأمور في الكواليس ·· من الممكن الا تُعرف الحقيقة ابداً .. ويزعم راير ان بتمان ــ هولويغ قد استدعى سوديكوم في التاسع والعشرين من الشهر ليحصل منه على أن تكفّ الاشتراكية الديموقراطية عن المعارضة ·

فقال جاك :

ــ في التاسع والعشرين ؟.. ولكن اليوم التاسع والعشرين ، في بروكسل ، خطاب هاز .. وكنت هناك ، وقد سمعته !

ــ ممكن . يؤكد راير أن المندوب الالماني حين عاد إلى برلين ، فان اللجنة القائدة كانت قد اجتمعت ، وأن الخضوع قد حدث : وعرف القيصر الالمـاني أن باستطاعته اصدار قرار التعبئة ؛ وأن ليس هناك انتفاضة ولا إضراب عام ! وكان هناك اجتماع سري للحزب قبل التصويت في الريخستاغ ، وهذا لا يحدث تلقائياً · وانا لا ازال ارفض الشك بأناس مثل ليبخنت ، وليديبور ، ومهرنغ ، وكلارا زتكن ، وروزا لوكسمبورغ ! فقط، كانوا اقلية : واضطروا إلى الانحناء

امام الخونة ... والقضية هنا : لقد صوتوا مع ! ثلاثون سنة من الجهد ، ثلاثون سنة من الكفاح ، والمكاسب البطيئة الصعبة ، يزيلها تصويت ! وفي يوم واحد تخسر الاشتراكية الديموقراطية إلى الأبد اعتبار العالم البروليتاري ... في مجلس الدوما على الأقل فان الاشتراكيين الروس انفسهم جابهوا القيصرية ! لقد صوتوا كلهم ضد الحرب ؛ وفي الصرب أيضاً ؛ وقد رأيت نسخة رسالة من دوشان بوبوفيتش : المعارضة الاشتراكية الصربية تبقى غير خاضعة؛مع انه البلد الوحيد الذي فيه بعض العذر لوطنية الدفاع الوطني ؛ وحتى في انكلترا ، فان المقاومة متصلبة ؛ فكير هاردي لا يلقي سلاحه . ولديّ هنا العدد الاخير من صحيفة (انديباندانت لايبوربارتي) . انه مشجع مهما كان الأمر،اليس كذلك ؟ ويجب ألا نيأس . سنجعل صوتنا مسموعاً شيئاً فشيئاً . وان يكموا افواهنا ... وقوفاً بثبات حيال وضد كل شيء . الأممية ستولد من جديد ! وفي ذلك اليوم سوف تطلب حساباً من اولئك الذين كانوا حائزين على ثقتها فاستخدمتهم الديكتاتورية الامبريالية بسهولة !

وتركه جاك يتكلم.وكان يظهر الاستحسان بداعي المجاملة . أن أي تنكرٍ للحزب لم يعد يدهشه بعدما رآه في باريس .

واخذ عن الطاولة بعض الصحف الملقاة ، وأجال نظره ، لاهياً ،في العناوين الكبيرة : **مئة الف إلماني يمشون الى لياج ... انكلترا تعبىء اسطولها وجيشها ... الغراندوق نيقولا عين قائداً اعلى لجميع القوى الروسية ... حياد ايطاليا رسمي ... هجوم مظفر للفرنسيين في الالزاس .**

في الألزاس ... وأبعد الصحف . هجوم في الألزاس ... « لقد ذقتم الآن حربهم ! وسمعتم ازيز الرصاص ... » كل ما يلهيه عن حميته المنزوية اصبح لا يطاق بالنسبة اليه . وأسرع بترك المكتب ، والخروج .

وما أن اخذ بلاتنر المخطوطة ليبدأ عملية القياس حتى هرب دون أن ينصاع للبقاء .

بال تسترسل في تكاسلها . بال وراينها (نهر الراين) الجليل ، وحدائقها الصغيرة وجنائنها؛بال بنقائضها من الظلمة والنور،من الحرارة الشديدة والبرودة؛ بال وصنابيرها ذات المياه الباردة التي تسبح فيها يداها الراشحتان... شمس آب تلهب السماء.ويتصاعد من الاسفلت رائحة لاذعة.ويجري الصعود نحو الكاتدرائية بواسطة شارع صغير . ساحة مونستر مقفرة ؛ ما من عربة ، ولا مار .. مؤتمر بال ١٩١٢ ، الكنيسة تبدو مقفلة . لحجرها الأحمر صبغة آنية خزف قديمة ؛ حتى ليشبه صندوقة قديمة من التراب المشوي . الأثري ، غير النافع ، المتروك في الشمس .

وعلى السطحية المطلة على الرين،تحت اشجار الكستناء ،حيث ظلال القناطر ومجرى النهر تصدر هواءاً بارداً،وجاك وحيد. ومن تحت ، من مدرسة للسباحة مخبأة في الخضرة ، تتصاعد صرخات فرحة بين فترة وأخرى ، انه وحيد مع الحمائم البرية ... وعيناه تتبع خفق أجنحتها لحظة . كلا ، هو المنعزل لم يشعر ابداً انه اصبح وحيداً بصورة نهائية الا منذ وصوله إلى بال.وهذه العزلةالكلية ، يتذوق منها الجدارة والقوة بنشوة: انه لا يريد الآن الخروج منهاإلىان يُستهلك كل شيء ... وفجأة ، وبدون سبب ، اخذ يفكر : « اني لم اتصرف هكذا الا بدافع اليأس . لم اتصرف هكذا الا لأهرب .. انني لم انسف الحرب .. لن انقذ احداً ، لن انقذ احداً سوى نفسي .. ولكن ، انا ، سأتخلص بإكمال نفسي ! » ونهض ليطرد الفكرة الرهيبة . وشد قبضتيه : « اكون على حق ضد الجميع . وأنجو في الموت » ..

ومن فوق الحاجز المصبوغ بالأحمر ، وراء المنعطف الذي يشكله النهر بين جسوره ، وراء قباب الأجراس ومداخن مصانع بال الصغرى ، فان كل ذلك الأفق المخصب المكسو بالاشجار ، السابح في أبخرة حارة ، هو المانيا ، المانيا اليوم ، المانيا المجندة التي اقلقتها قعقعة السلاح حتى القلب ، وساورته الرغبة في السير نحو الغرب ، حتى النقطة التي يختلط فيها خط الحدود مع الرين ، حيث يكون امامه من الضفة السويسرية ، وعلى رمية حجر ، تلك الضفة ، وذلك

الريف اللذان هما المانيان .

ومن حي سان ألبان بلغ الضاحية . والشمس ترتفع ببطء في سماء حاقدة . ودارات أنيقة بين سياجاتها المشذبة ، وعرائشها ، وأراجيحها ، ومساكب ازهارها التي تسقيها مراوح مائية . وطاولاتها البيضاء المغطاة بأسمطة ملونة بالزهور ، تشهد على أنه لم يحدث شيء بعد يبعث الاضطراب في هدوء هذه الزاوية التي لا تزال محصنة ، في وسط اوروبا الملتهبة. الا انه التقى في بيرسفلدن بفرقة من الجنود السويسريين بملابس المناورات ، تهبط الغاب وهي تنشد .

وغابة لاهارد الى اليمين ، على جانب التلة . وممر طويل على موازاة النهر ينفتح خلال غابة من الاشجار الفتية . وهناك صفيحة تدل : **فالدهوس** . والى الشمال ، ومن خلال جذوع الاشجار ، يبدو السهل الاخضر المشمس الذي يجري الرين الملتوي في منتصفه ؛ والى اليمين ، بالعكس ، كثافة الغاب ، جبل مشجر وعر . وتقدم جاك ببطء دون أن يفكر بشيء . ان ظل الاشجار مهدىء مريح بعد تلك الأيام من الانزواء ، وبعد ذلك السير في الشمس بين البيوت. وعلى رأس وادٍ صغير مستند الى الغابات بدا بناء أبيض وسط الخضرة ، فقال لنفسه : « يجب أن يكون هذا فالدهوس » . وهناك درب ضيق منحدر بانحراف حتى الضفة . وبجاورة الماء تجعل ظلال الغاب أكثر برودة . وفجأة وجد نفسه على ضفة الرين .

ان المانيا هناك . يفصلها عنه هذا الماء فقط ، هذا الخط السائل الساطع .

والمانيا مقفرة . لا يوجد أي صياد سمك على الرملة المقابلة ، ولا أي زارع في المروج المغروسة بالتفاح والممتدة بين النهر وتلك الدسكرة الصغيرة ذات السطوح الحمراء المحتشدة حول برج جرس كنيسة على حضيض التلال التي تسد الأفق . ولكن جاك ميز قمة كوخ مخططة بثلاثة ألوان ، على حافة الماء ، ومخبأة بين اشواك المنحدر : مرقاب حرس ؟ مخفر حدود ؟ مركز رجال جمرك ؟

لم يستطع انتزاع نفسه من هذا المنظر الطبيعي المشحون باشارات غامضة . كانت يداه في قعر جيبيه ، والقدمان مغروستين في التراب الرطب ، يتطلع

برصانة الى المانيا واوروبا . لم يكن ابـداً أكثر هدوءاً ، اكثر صفاءً ، اكثر وعياً منه في هذه الدقيقة ، حيث هو وحده على ضفة النهر التاريخي يفتح عينيه واسعتين على العـالم وعلى مصيره . سيأتي يوم ! سيأتي يوم ! سوف تخفق القلوب للوحدة ، وستحدث المساواة بين الناس في ظل الكرامة والعدل .. ربما كان من اللازم ان تمر الانسانية بهذه المرحلة من الحقـد والعنف ، قبل تدشين عصر الاخوة .. بالنسبة اليه لن ينتظر . لقد وصل الى ساعة من حيـاته لا يستطيع فيها إرجاء الهبة الكلية . هـل وهب نفسه مرة ، وهب نفسه كلياً ؟ لفكرة ، لصديق ، لامرأة ؟ كلا . حتى ولا للفكرة الثورية تقريباً . حتى ولا لجني ! لدى كل هبة كان دائماً يختلس قسماً هاماً من نفسه . وقد اجتاز الحيـاة كهاوٍ قلق ، يختار بتقتير أجزاء نفسه التي يتركها . والآن فقط يعرف الهبة التي يفنى فيها الكائن كله .. ان الشعور بالتضحية يحرقه كاللهب . لقد انتهى الوقت الذي كان يلامس فيه اليأس دون انقطاع ؛ حيث كان يكافح كل يوم ضد الميـل الى التخلي ! الموت الذي يرضاه المرء ليس تخلياً : انه تفتح مصير !

وهناك وقع خطىً تحت اشجار الغاب جعلته يلفت رأسه . انهما زوجان من الحطابين ، يرتديان السواد : الرجل يحمل منجلاً في حزامه ؛ والمرأة تمسك بسلة في طرف كل ذراع . وجهاهما رصينان لفلاحين سويسريين . ذلك الفم المشقوق، وتلك النظرة المهمومة يبدوان انهما يؤكدان ان الحياة ليست نزهة . والاثنان يفحصان بحذر هذا الرجل المجهول الذي فاجآه نصف مختبىء بين الشجيرات ، متفحصاً بعينيه ما يجري **هناك** .

لقد كان مخطئاً بمغـامرته بالاقتراب من الحدود . لا شك بوجود دوريات من رجال الجمرك على ضفة النهر ، ومن وجود العسس .. فعـاد على عقبيه بسرعة وسار خلال الغابة ليلتحق بالطريق الكبرى .

في النهار نفسه ، وفي نهاية بعد الظهر ، ذهب جاك الى الموعد الذي عيّنه له كابل . وقال له الطالب :

ـــ انتظرني خارجاً . انها ساعة مراقبة الزيارات ، والمعـلم ليس موجوداً .

سآتي اليك في مدى عشر دقائق .

و « مستشفى الاولاد » قائم في بال الصغرى عند الرصيف . حديقة ضيقة ، محاطة بسياج من اللبلاب ، تحيط بالبناية ذات الطبقات الثلاث وكلها ذات سطيحات كالمصح ، حيث اسرّة الاطفال المرضى معرضة للشمس . وهناك مقاعد بيضاء مرتبة في ظلال كتلة الاشجار . وجلس جاك هادئاً ، صامتاً .. صمت لم يعكره سوى زقزقة العصافير ، ومن بعيد، اصوات المرضى الذين يشاهدهم جاك من خلال الأغصان : بين لحظة وأخرى ينهض جسد واهن على الوسائد عند اقتراب الممرضة .

بعض الوثبات على الحصباء . انه كابل . بدون بلوزة ، وبدون نظارات ، رقيق مرن ، بقميصه المنتفخ وبنطلونه القطني ، له هيئة ولد . الشعر اشقرجداً ، والوجه متقعر قليلاً على الخدين ، والبشرة لدنة ملساء ، ولكن الجبهة تثير الدهشة : مخططة بغضون ، انها جبهة رجل عجوز ، والنظر ايضاً ذو زرقة معدنية ، مهدّب بأهداب شقراء ، يدهش بنضجه .

وكابل من الرعايا الالمان . يتابع في بال دروسه الطبية . حتى انه لم يفكر بالعودة الى المانيا . في النهار يشتغل مع الاستاذ ويب Webb في (كندر سبيتال) ؛ وفي المساء ، وفي الليل ، يناضل لأجل الثورة . ولما كان يتردد كثيراً على المكتبة فقد كان هو الذي كلفه بلا تنر ، في فترة بعد الظهر ، بالترجمة الالمانية . الا انه لا يعرف شيئاً عن مشاريع جاك : ولم يلقِ اي سؤال .

وأخرج من جيبه اربع صفحات بخط قوطي ، دقيق مروّس . واخذ جاك الأوراق وفحصها ، وجسّها . أصابعه ترتجف . هل يتكلم ، هل يسرُّ الى الالماني بذلك الأمل الذي يخنقه ؟ كلا . ليست الساعة للمكاشفات والتبادل : في تلك الأيام القليلة التي بقيت له حكم على نفسه بعزلة الأقوياء . وطوى الأوراق وقال فقط : شكراً .

وبرصانة ، تكلم كابل بشيء آخر . فقد سحب من جيبه صحيفة وقال :

– خذ . اسمع : « في مجمع العلوم الاخلاقية تكلم السيد هنري برغسون [١] ، الرئيس الفعلي ليحيي مراسلي الشركة البلجيكيين . وقد صرح بأن الكفاح القائم ضد المانيا هو نفس كفاح المدنية ضد البربرية .. » برغسون !

وفجأة ، قاطع نفسه كأنه يرهف السمع لضجة عظيمة .

– هذه بلاهة .. ألست انت كذلك ؟ عشرون مرة باليوم ، – وفي المساء على الخصوص ، وفي الليل – اعتقد انني اسمع ضربات خفية .. جلبة مدافع في الألزاس ..

ولفت جاك عينيه . في الألزاس .. نعم ، هناك ، بدأت المذبحة ..وخطرت بباله فكرة جديدة . في الساعة التي يُنذَر فيها الكثير من الضحايا البريئة لأكثر التضحيات غموضاً واستسلاماً ، يشعر بالفخر لأنه ظل سيد مصيره ، لأنه اختار موته بنفسه : موت سيكون ، بمجموعه ، عمل ايمان ، واحتجاجه الأخير كمتمرد ، وعصيانه الأخير ضد حماقة العالم ، – مجازفة متعمّدة ستحمل طابعه ، وستكون حافلة بالدلالة الواضحة التي أراد أن يكسبها اياها .

وأخذ كابل يتكلم بعد صمت .

– في ليبزيغ ، حين كنت صغيراً ، كنا نسكن بقرب السجن . وفي إحدى أمسيات الشتاء وكان الثلج يتساقط – جاء الخبر الى الحي أن الجلاد قد وصل الى المدينة ، وأن هناك تنفيذ حكمٍ بالاعدام عند الفجر . اني اذكر : لقد ذهبت في الليل دون أن أقول شيئاً ، وكان الوقت متأخراً . وكان الثلج كثيفاً ، فدرت وحدي عدة دورات حول السجن . ولم استطع العودة الى البيت ، ولم استطع أن ازيل من رأسي تلك الفكرة : هنا رجل ، في الناحية الأخرى من هذا الجدار ، رجل حكم عليه الناس بالموت ، وهو يعرف ذلك وينتظر ..

---

١ – فيلسوف فرنسي ولد في باريس (١٨٥٩ – ١٩٤١) كان ذا تأثير كبير على تفكير عصره . عضو المجمع العلمي الفرنسي . جائزة نوبل ١٩٢٧ .

بعد بضع ساعات كان جاك جالساً في داخل« الكافيهول » في دخان السكاير الرديئة ، وظهره مستند الى سيراميك الموقد البارد ، يغمس خبزاً في قدح قهوة بالحليب ، ويحلم . والمصباح الكهربائي العاري ، المعلق في السقف كعنكبوت في طرف خيطها ، يعميه ، وينومه مغناطيسياً ، ويعزله .

وكان بلاتنر قد ألح لإبقائه على العشاء. ولكن جاك تعلل بالتعب من جراء اصلاح مسودّات البيان ، وهرب . كان يحب المكتبة ويلوم نفسه لعدم تمكنه من التعبير عن ذلك بصورة أكثر. ولكن تلك الثرثرات الثورية الملأى بالأماكن المشتركة والأقوال المكررة ، وتلك النظرات الآسرة ، وتلك اليد ذات الاظافر الطويلة التي يضعها في كل لحظة على ذراع محدثه . وطريقته في أن يخفض فجأة منقاره نحو صدره القبيح ، وأن يكمل عباراته بصوت منخفض كمتآمر يبوح بسره . كل هذا يسخط جاك ويزيد من مقاومته العصبية .

انه هنا براحة . و « الكافيهول » مكان قاتم ، مؤثث بشكل فقير بطاولات كبيرة دون اسمطة ، من الخشب المهترىء، الكامد ، بلون ونقش خبز الجاودار . وتُقدم فيها باسعار زهيدة حصة طعام من المقانق بالملفوف ، وصحون شورباء ، وقطع خبز مشذبة بشكل اقراص . ولعدم وجود الانفراد ، فقد وجد فيه العزلة ؛ العزلة المغفلة في اختلاط قطيع .

ذلك لأن « الكافيهول » لا تفرغ ، جمهور غريب ، تتدافع فيه بالمرافق جميع فئات المنعزلين ، والعازبين والأفاقين . يوجد هناك طلاب مألوفون صاخبون يعرفون اسماء الخادمات ، ويعلقون على برقيات المساء ، ويناقشون دورياً كنت [1] Kent ، والحرب ، وعلم الجرائم ، والآليات، والبغاء . ويوجد هناك مستخدمو متاجر، ومستخدمو مكاتب ، يرتدون ملابس محتشمة،وهم صامتون، منفصلون بعضهم عن بعض باحتراس نصف بورجوازي ، يثقل عليهم ولايعرفون التغلب عليه . ويوجد هناك كائنات ضعيفة الصحة، يصعب تصنيفها ، وعمال في

---

١ ـ الفيلسوف المعروف .

بطالة، وناقهون أخرجوا من المستشفى، لا تزال تحوم حولهم عفونة اليودوفورم؛ ومقعدون، كذلك الاعمى الجالس بقرب الباب، يحفظ على ركبتيه المضمومتين حقيبة لدوزنة الآلات الموسيقية. وأمام طاولة صاحب المحل منضدة مستديرة تتناول الغداء عليها ثلاث نساء من جيش الخلاص، من اللواتي لا يأكلن سوى خضار، ويتهامسن بمسارات بناءة تحت قبعاتهن ذات الاربطة. ويوجد أيضاً زبائن يعمن بالحطام، ومسالمين جاء بهم إلى هناك لا أدري أية امواج من البؤس، والجريمة أو سوء الطالع، والذين هم سعداء لأنهم جالسون، دون ان يجرؤوا كثيراً على رفع عيونهم، منحنو الظهور تحت ماض يبدو ثقيلاً، ويكومون طويلاً خبزهم في شوربائهم قبل ان يدخلوا الملعقة فيها. وأحدهم اتخذ مكانه في مواجهة جاك. وتلاقت عيونهما لحظة. وفاجأ جاك في نظرة الرجل ذلك الألق الهارب الذي يشبه لغة الشيفرة لجميع الخارجين على القانون: تبادل ودي غامض، على طرف الهوائيات النظرية: استفهام مقتضب كالبرق، هو دائماً نفسه: «وأنت؟ هل انت أيضاً خارج على المجتمع، متمرد، مطارَد؟»

وظهرت امرأة شابة على العتبة وخطت بضع خطوات في القاعة، ممشوقة القوام، خفيفة المشية، ترتدي ثوباً أسود. وعيناها تبحثان عن واحد لم تره.

وخفض جاك رأسه. وشعر فجأة بألم في قلبه. ونهض ليهرب.

جني.. اين هي في هذه الساعة؟ ماذا يحل بها بدونه، بدون أي خبر سوى تلك البطاقة الموجزة المرسلة من الحدود الفرنسية؟ انه غالباً ما يفكر بها، هكذا، في اندفاع مباغت وقصير، عاطفي، حنيني؛ وكل ليلة في أرقه، يضمها بتشنج بين ذراعيه.. وفكرة حاجتها اليه، فكرة المستقبل غير الثابت الذي يتركها له كانت غير محتملة بالنسبة اليه حين يفكر بها. ولكنه يفكر قليلاً بذلك. لم تلامس فكره أبداً الرغبة في حفظ حياته من اجلها. وتضحية حبه لا تبدو له كخيانة: كلما شعر انه مخلص لنفسه، لذلك الذي احبته جني، يشعر، بالعكس، انه مخلص لحبه.

وفي الخارج ، انه الليل ، والشارع ، والوحدة . انه يركض دون ان يعرف تقريباً إلى اين يذهب . ويرافق سيره غناء خفي ، رجولي . لقد افلت من جني . انه بعيد عن متناول اليد . ولا يوجد فيه سوى حماسة الابطال المضطرمة المطهرة .

٨٢

كل يوم ، كانت عنايته الأولى في الامتثال لإحدى التعليمات التي أودعه اياها مينستريل : « قضاء كل فترات الصباح ، بين الساعة الثامنة والتاسعة ، أمام الرقم ٣ في جونغستراس . ويوم ترى ثوباً احمر في النافذة ، سل مدام هولتز وقل لها : «جئت لأجل الغرفة المعدّة للاجرة » .

ونهار الأحد في التاسع من آب، أثناء مروره حوالي الساعة الثامنة والنصف في زاوية شارعي إلسازرستراس وجونغستراس ، توقف قلبه عن الخفقان مقدار ثانية : غسيل جاف في الشرفة رقم ٣ . وبين الاسمطة والمناشف ، تتدلى قطعة حمراء من نسيج أدرنة في مكان ظاهر .

والشارع في ذلك المكان مؤلف من بيوت صغيرة تفصلها عن الطريق حديقة . وبما انه وضع قدمه على الدرج رقم ٣ ، فان الباب دار على رزّاته . وميز في ظل المدخل قامة امرأة شقراء ، أعلى ثوبها فاتح اللون وذراعاها عاريان .

— مدام هولتز !

فدفعت باب المدخل وراءه دون ان تجيب . والرواق يشكل دهليزاً ضيقاً ، مظلماً ، مسدوداً من جميع النواحي .

— جئت لأجل الغرفة المعدّة للاجرة ..

فأدخلت أصبعين في فتحة فستانها برشاقة وأخرجت منها شيئاً ناولته إياه : لفافة صغيرة من ورق المسودّات كالتي يحملها الحمام الزاجل . وحين ادخلها جاك في أعماق جيبه اتسع وقته ليشعر بحرارة لحم على الورقة .

وقالت المرأة الشابة بصوت مرتفع :
– آسف ، هناك خطأ .

وفي الوقت نفسه اعادت فتح الباب على الدرج . وبحث عن نظرتها ولكنها خفضت عينيها . فانحنى وخرج . وأغلق الباب على الأثر .

بعد بضع دقائق كان منحنياً مع بلاتنر على طست للتصوير الشمسي يحل رموز نص الرسالة :

« المعلومات حول العمليات في الالزاس تحث على العمل دون انتظار . تحدد طيراننا نهار الاثنين في العاشر منه . الانطلاق في الساعة الرابعة صباحاً . اثناء ليل الأحد حتى الاثنين انقلوا المنشورات إلىمرتفعات ديتانجن الشمالية الشرقية . انظر خريطة الحدود التي طبعتها هيئة الأركان الفرنسية . اسحب خط مستقيم بين حرف ج في كلمة بورج وحرف د في كلمة ديتانجن ، على هضبة مكشوفة مطلة على الخط الحديدي . ترقب الطائرة منذ نهاية الليل . إذا أمكن ، انشر شراشف بيضاء على الأرض لاجل المساعدة في عملية الهبوط . اجلبوا خمسين ليتراً من البنزين .. »

– هذه الليلة ..

تمتم جاك وهو يلتفت نحو صاحب المكتبة . ولم يكن وجهه يعبر الا عن التأثر .

فقد ولد بلاتنر متآمراً . ذلك المعوّه الذي شاخ باكراً في تجارة الكتب ، يملك المخيلة الخصبة ، والعزم السريع لرئيس عصابة . . وميله الطبيعي إلىالخطر والمغامرة كان دائماً يشغل نفس المكان الذي تشغله معتقداته ، في اخلاصه للحزب الثوري .

– منذ يومين فكرنا في ذلك بما فيه الكفاية . يجب التمسك بما قررناه . يبقى التنفيذ . دعني اعمل . من الأفضل ان تخفف من ظهورك قدر المستطاع .

– ولكنالشاحنة؟هلستحصل عليها هذا المساء؟.. والسائق ؟ من سينبىء

كابل ؟ وتعلم اننا يجب ان نكون كثراً لنحمل المنشورات بسرعة إلى الطائرة .

فكرر بلاتنر : دعني اعمل . سيكون كل شيء جاهزاً حسب الاتفاق .

من المؤكد ان جاك لو انصرف إلى سبله الخاصة ، لاستطاع ، كبلاتنر ، أن يقوم بالاجراءات اللازمة . ولكن بعد هذه الأيام من العزلة ، والبطالة ، وفي حالة الوهن الجسدي التي هو فيها ، فقد كان مما يخفف عنه ان يخضع لاستبداد صاحب المكتبة .

وكان هذا قد راجع جميع التفاصيل . وكان يعرف من بين مناضلي فرعه صاحب مرأب من أصل بولوني ، يمكن الاعتماد عليه . وللوصول اليه وثب على دراجته ، تاركاً جاك وحده في الغرفة الواقعة خلف المكتبة ، أمام الطست الصغير الذي لا تزال تعوم فيه رسالة مينستريل .

وطوال الساعة التي ظلها جاك هناك ينتظر ، لم يقم بأية حركة . فقد طلب من صاحب المكتبة خارطة رسمتها هيئة أركان الحرب ، ونشرها على ركبتيه ، ووجد بورج وديتانجن ؛ ثم غام كل شيء أمام عينيه . كان ثقل أفكاره يسحقه إلى درجة منعه عن التفكير . منذ اسبوع كان يعيش في حلمه ، يعمره الهدف فقط . ولم يكن يفكر بنفسه وبالمصير المقدر له إلا عرضياً . وها هو قد وضع بعنف أمام العمل ، أمام الحركة التي سيتمها ببضع ساعات ، والتي ستكون الاخيرة بالنسبة اليه . وأخذ يردد كتمثال متحرك : « هذه الليلة .. غداً .. غداً عند الفجر .. الطائرة » . ولكن تفكيره كان : « غداً سيكون كل شيء منتهياً » . هو يعلم انه لن يرجع . ويعلم ان مينستريل سوف يندفع في طيرانه إلى ابعد مدى حتى انتهاء الاحتياطي من البنزين . وبعد ذلك .. بعد ذلك ماذا سيجري ؟ .. الطائرة تهوي في الخطوط ؟ .. الطائرة تؤسر ؟ مجلس حرب فرنسي أم الماني ؟ في جميع الأحوال قبض عليه متلبساً بالجريمة . اعدام بدون محاكمة .. وثار ثائره من الرهبة ، وهو صافي الذهن بشكل مفرط ، يضم لحظة جبهته بين يديه ! « الحياة هي الخير الوحيد . والتضحية جنون ، التضحية جريمة ، والجريمة ضد الطبيعة ! .. كل عمل بطولي هو احمق ومجرم ! .. »

وفجأة حدث في نفسه هدوء غريب . وموجة الرعب مرّت ، وقد جملته يجتازها اجتياز رأس جغرافي : لينزل في شاطىء آخر ، ويتأمل أفقاً آخر .. الحرب المخنوقة تقريباً .. التمرد ، التآخي ، الهدنة ! « وحتى لو لم ينجح هذا ، فياله من قدوة ! مهما حدث فموتي هو عمل .. اقبل عثرة الشرف ، أكون مخلصاً .. مخلصاً ومفيداً .. نافعاً اخيراً : افتدي حياتي ، عدم فائدة حياتي .. وأجد السلام العظيم .. »

انها الآن راحة في كل اعضائه ، شعور بالراحة ، بالعذوبة تقريباً : كمسرّةٍ كئيبة .. اخيراً سيضع أعباءه .. سينتهي مع هذا العالم الصعب ، المخادع ؛ مع الكائن الصعب ، المخادع الذي كانه .. انه يفكر بالحياة بدون أسف ؛ بالحياة ، بالموت .. بدون أسف ، ولكن بذهول حيواني أبـله ، يشغل البال بحيث لا يستطيع تركيز عقله على شيء آخر .. الحياة ، الموت ..

ووجده بلاتنر في نفس المكان، المرفقان على الركبتين ، والرأس في الكفين.

ونهض آلياً وقال بصوت منخفض : « آه ، لو لم تخن الاشتراكية .. »

وجاء بلاتنر بصاحب المرأب . وهو رجل أشيب ذو وجه وديع وحازم .

ـ هـذا هو اندريجوف . شاحنة جاهزة وسيقودنا ، ونضع المنشورات والبنزين في الداخـل . وقد أبلغنا كابل . ووصل .. سنذهب عند هبوط الليل ..

ولكن جاك الذي اخرجه من خموده مجيء الرجلين، طلب، لزيادة الأمان، ان يتعرفوا على الطريق نهاراً . فاستصوب أندريجوف .

واقترح على جاك :

ـ تعال . اني موصلك إلى هناك . سآخذ سيارتي الصغيرة المكشوفة : وبهذا نبدو كاثنين يتنزهان .

فقال جاك لصاحب المكتبة : ولكن حزم المنشورات بالخيوط ؟

ـ انتهى تقريباً . ساعة عمل ويكون قد تم كل شيء عند عودتك .

فأخذ جاك الخارطة وتبع أندريجوف .

بلاتنر ينتظرهما في قبوه . وقد أنهى مع كابل حزم الحمولة رزماً .

لقد طبع المنشورات على اربع صفحات – اثنتان بالفرنسية واثنتان بالالمانية وسحبت على ورق خاص ، خفيف ومتين . وكان جاك قد قسم المليون والمائتي الف منشور إلى مواعين ، كل منها ألفا نسخة. وكل ماعون مربوط بعصابة رقيقة من الورق يمكن قطعها بالظفر . والثقل الكلي لا يكاد يتجاوز المائتي كيلو .

ووفقاً لتعليمات جاك ، فان بلاتنر عاون كابل على جمع هذه المواعين برزم كل منها عشرة : ستون رزمة كل منها مربوط بخيط يسهل حل عقدته بيدٍ واحدة . ولكي يجعل جاك نقل هذه الرزم الستين اكثر سهولة ، أتى بأكياس كبيرة من القماش كالتي يستعملها موزعو البريد . وتحولت الحمولة إلى ستة أكياس ، يزن كل منها حوالي الاربعين كيلو .

في الساعة الخامسة عادت سيارة البولوني .

وكان جاك قلقاً ، محموماً ، فقال :

– الحالة سيئة جداً ... فطريق متزرلان مراقب .. مستحيل : رجال جمارك ، مخافر صغيرة . والطريق الآخر المار في لوفن صالح حتى روشانز . ولكن من هناك يجب السير في طريق ترابي غير مطروق. والشاحنة لن تستطيع المرور . يجب الاقلاع عن السيارة ... يجب ايجاد عربة ... عربة مزارع يجرها حصان . وهذه تمر في كل مكان . ولا تستلفت النظر .

فقال بلاتنر : عربة ؟ الأمر سهل .

وسحب من جيبه دفتراً صغيراً وبحث في لوائحه . وقال لأندريجوف :

– تعال معي . وأنتما ابقيا هنا لتتما وضع المنشورات في الأكياس .

ويبدو أن جاك كان واثقاً جداً منه بحيث رضي بعدم مرافقتهما .

وقال الالماني لجاك حين اصبحا وحيدين :

– لست بحاجة إلى أحد لربط الرزم الأخيرة . استرح وحاول أن تنام قليلاً ... كلا ؟ .. – واقترب وأمسك بمعصمه ، وصرح بعد برهة : – انت محموم . كينا ؟

وحين رفض جاك بهزة من كتفيه قال : اذن لا تبق في هذا الوكر الخالي من الهواء والذي ينتن الغراء .. اذهب وتنزه قليلاً .

أن محلة غريفانغاس مزدحمة بعائلات تقضي عطلة الأحد وتهيم على وجوهها . واختلط جاك بالموجة حتى الجسر . وهناك تردد ودار إلى اليسار وهبط إلى الرصيف : « انا محظوظ ... نهاية نهار جميلة... »واعتدل وتوصل إلى الابتسام. عدم التفكير ، تصلب ... « بشرط أن يجدوا عربة ... بشرط أن يجري كل شيء جيداً » .

والرصيف المحاذي للضفة كان مقفراً ؛ وهو يشرف من أعلى على البساط المتحرك الذي جعله المغيب مسيلاً أحمر . وفي اسفل المنحدر ، على طريق المكان الذي تسحب فيه المراكب ، يوجد سابحون يستفيدون من آخر اشعة الشمس . وتوقف جاك دقيقة : الهواء ذو عذوبة تسبب الألم؛ والأجساد العارية في العشب ذات لمعان ناعم ... وصعدت الدموع إلى عينيه، وتابع سيره . ميزون – لافيت ضفاف السين ، اماكن السباحة ، الصيف مع دانيال .

في اية طرقات واية منعطفات قاد القدر طفل الأمس حتى هذا المساء الأخير ؟.. تتابع صدف ؟.. كلا ، بالتأكيد كلا !.. كل اعماله متماسكة . وهو يشعر بذلك . كان دائماً يشعر به بشكل مشوش . لم تكن حياته سوى خضوع طويل تشنجي لتوجيه غامض ، لتسلسل محتوم . والآن ، انها النهاية ، التمجيد. أن موته يسطع أمامه ويشبه ذلك المغيب للشمس المجيدة . لقد تخطى الخوف . وهو يلبي النداء دون تفاخر باطل ، بحزنٍ عزومٍ ، مسكرٍ ،مقوٍّ . هذا الموت الواعي هو تكملة هذه الحياة . انه شرط تلك الحركة الأخيرة من الاخلاص للنفس ... من الاخلاص لغريزة التمرد ... لقد قال منذ طفولته : كلا ! ولم يكن لديه طريقة اخرى لتمكين النفس . كلا : لا للحياة ... لا للعالم ! وهذا هو رفضه الأخير ، آخر كلا ً ، له، لما يفعله الناس بالحياة ...

ووصل إلى تحت جسر وتستاين دون أن يُرى من الطريق . في أعلى ، تمر

عربات ، وقطارات كهربائية ، - وأحياء. وهناك حديقة صغيرة بشكل منحدر تنفتح كمأوى للصمت ، والخضرة ، والبرودة . فجلس على مقعد . ممرات صغيرة تدور حول اراضٍ خضراء ومجموعات من اشجار البقس . وحمائم تهدل على اغصان أرزة منخفضة . وامرأة بمريلة خبازية اللون ، لا تزال فتية ، بجسد فتاة ، ولكنها ذات وجه منهوك ، تجلس في الناحية الأخرى من الممر . وأمامها ، ينام رضيع في مريلة طفل : مولود جديد ذو شعر قليل وصبغة شمعية . والمرأة تقضم قطعة خبز بشراهة ؛ وتتطلع إلى بعيد ، باتجاه النهر؛ وبيدها الحرة الواهنة كيد ولد ، تهدهد ساهية العربة الخربة التي تئط كل مفاصلها . والمريلة الخبازية اللون ناصلة ، ولكنها نظيفة ؛ والخبز مدهون بالزبدة. وتعبير المرأة وديع ، شبه راضٍ ؛ وليس هناك شيء يكشف عن فقر مدقع. ومع ذلك فكل بؤس العصر يبدو هنا ، ولا يمكن إثباته ، بحيث نهض جاك وهرب .

وفي المكتبة كان بلاتنر قد عاد . عينه لامعة وقفص صدره منتفخ :

- لدي ما يلزم ! عربة مغطاة . ستكون الحمولة فيها غير منظورة . وفرس صالحة للجر . وأندريجوف سيقود . فقد كان غلام مزرعة في بولونيا ... انها تستغرق وقتاً أطول ولكن على ثقة انها تسير في كل مكان .

٨٣

دقت الساعة نصف الليل في برج (هيليغسكيرش). وعربة بقول تجتاز متمهلة الشوارع المقفرة في الضاحية الجنوبية وتصل إلى طريق أسك الكبرى .

والظلام تام تحت الغطاء الكثيف المشتبك من جميع النواحي. وبلاتنر و كابل جالسان في المؤخرة يتحدثان بصوت منخفض ، واليد أمام الفم . كابل يدخن ؛ ويُشاهَد انتقال نار سيكارته بين لحظة وأخرى .

وكان جاك قد انزلق إلى الداخل. وهو جالس بين رزمتين من المنشورات، منطوي الكتفين ، ضاماً ركبتيه بين يديه المضمومتين ، منطوياً على نفسه في

الظلام ، يسعى للتغلب على حُمّاه بأن يظل جامداً مطبق العينين .

ووصل اليــه صوت بلاتنر مخنوقاً : والآن يا كبيري كابــل ، لنفكر بأنفسنا . طائرة ، في هذه الساعة ... هل نستطيــع السير نحن الثلاثة باطمئنان ، في عربتنا الصغيرة ، دون تعكير صفونا ودون أن نُسأل عما نفعله هنا ؟ ما رأيك انت ؟

انساف ذلك وهو ينحني نحو داخل العربة .

فلم يجب جاك . انه يفكر بالهبوط.... وبما سيحصل بعد ذلك على الارض للباقين أحياء !

وتابعبلاتنر متر ثراً: فضلاً عنذلك.حتى لو اننا اخفينا العربة في الادغال... فيجب إعادة اندريجوف والعربة قبل مجيء الطائرة ، حالاً بعد تفريغ الحمولة ، وذلك لكي يصل إلى الطريق الكبرى قبل النهار .

وتصور جاك نفسه في الطائرة ... انه ينحني خارج مــكان القيادة ... والاوراق البيضاء تدور في الفراغ . مروج ، وغــابات ، وجيوش متراصة ... والمنشورات تتناثر بالالوف على الحقول...وطلقات نارية تؤز . ويدور مينستريل ويرى جاك وجهه الدامي . وتبدو ابتسامته انها تقول : « ها انت ترى اننـــا نحمل اليهم السلام وهم يطلقون النار علينا ! » والطائرة المصابة في جانحها تهبط بطيرانٍ محّوم . هــل ستتكلم الصحف عنهــا ؟ كلا ، فالصحافة مكمومة . وانطوان لن يعرف . انطوان لن يعرف ابداً .

وقال كابل : ونحن ، اذن ؟

– نحن؟ ما إن تُحَمَّل الطائرة حتى نترك المكان، كل من ناحية، كما نستطيع.

فقال كابل : حسناً .

يجب أن تكون العربة في ارض مسطحة ، فالفرس اخذت تسير خبباً . والعربة المرتفعة المحملة قليلاً تهتز باستمرار على نوابضها . وهذه الهدهدة الرتيبة في الليل تدعو إلى الصمت ، إلى النوم . واطفأ كابل سيكارته ، ومد ساقيه على الرزم .

- أسعدت مساء .

وبعد هنيهة دمدم بلاتنر : أندريجوف احمق . بهذه المشية سنصل قبل الاوان . الا ترى ذلك ؟

فلم يجب كابل ، والتفت بلاتنر نحو جاك :

- كلما وصلنا قبل الأوان يزداد تعرض وجودنا للملاحظة ،الا ترى ذلك ؟.. أأنت نائم ؟

ولم يكن جاك يسمع.انه واقف في منتصف القاعة ،يرتدي البلوزة المشبكة التي كان يرتديها في الاصلاحية . وامامه بشكل نصف دائرة ، ضباط مجلس الحرب . وهو يتكلم مرتفع الرأس ، مطرّقاً كل مقطع : « اني اعرف ما ينتظرني ، ولكني استعمل آخر حق بقي لي : لن تعدموني قبل أن تسمعوني! » انها القاعة الكبرى ، من طراز القرون الوسطى ، في أحد قصور العدل ،بسقف معقود ذي نواتىء مبرقشة ومدهونة بالذهب . والجنرال الذي يترأس الجلسة جاثم في وسط المحكمة على كرسي مرتفع . انه السيد فاييسم مدير اصلاحية كروي . وهو متطوع دون شك ، وجنرال ؟ دائماً هو نفسه : شاب اشقر ، بخديه المستديرين ، المحلوقين حديثاً ومرشوشين بالبودرة . وبنظارتيه اللامعتين اللتين تخفيان نظرته . وهو يرتدي سترته العسكرية السوداء المبطنة بالفرو . وتحته ، بجانب طاولة صغيرة مُقعدان عجوزان ، صدراهما مملوءان بالأوسمة . يكتبان دون توقف ؛ وسيقانهما الخشبية تحت الطاولة ممدودة إلى الامام . « اني لا احاول الدفاع عن نفسي ! ومن يتصرف وفقاً لمعتقداته ليس له أن يدافع عن نفسه . ولكن يجب أن يسمع الموجودون هنا الحقيقة من فم رجلٍ على أهبة الموت ... » وشدت يده على الحاجز نصف الدائري المغروس امامه في الأرض. أولئك الموجودون هنا ... انه يشعر وراءه بدرجات على مدى النظر ، درجات ميدان درّاجات ملأى بالمتفرجين . وجاءت جني . انها جالسة وحدها على طرف مقعد ، شاحبة ، غائبة ، بمريلتها الخبازية اللون وعربة طفل . ولكنه يتجنب ان يلفت رأسه . انه لا يتكلم لأجلها . ولا يتكلم ايضاً لهذا الجمع

الغفير الصامت بشكل غريب والذي يثقــل انتباهه على رقبته كالحمل . وهو لا يتكلم لهذا الصف من الضباط الذين يصوبون عيونهم اليه . انه يتكلم فقط للسيد فاييسم الذي كان يذله في السابق ، وفي أغلب الأحيان . كان يحدق بشغف في الوجه العديم الاحساس دون أن يستطيع الالتقاء بنظرة ولو لحظة واحدة . هل العينان مفتوحتان؟ بريق النظارات وظل القبعة العسكرية يمنعانه من التأكد . وجاك يتذكر جيداً البريق الرديء في اعمــاق العينين الصغيرتين الشهباوين ! كلا . يبدو جيداً ، لدى منظر القسمات الجامدة ، ان الجفــون منخفضة عمداً . لكم يشعر انه وحيد امام المدير ! وحيد في الدنيا مع كلبه ، ذلك الكلب الاعرج الذي وجـده في مرفأ همبورغ .. لو جاء انطوان لأرغم السيد فاييسم على أن يفتح عينيه . لكم يشعر انه وحيد ! وحيد ضد الجميع ! جنرال ، ضباط ، مقعدون متقاعدون . وذلك الجمهور المغفل ، وجني نفسها ، كلهم يرون فيه متهماً عليه حساب يجب تأديته . سخرية ! انه اكبر وأطهر من أي واحد من اولئك الذين يدعون الحق بمحاكمته ! انه يجابه المجتمع بكامله .. « يوجد قانون يعلو على قانونكم : قانون الضمير . ان ضميري يقول بصوت مرتفع ان جميع قوانينكم.. كان لي الخيار بين تضحية حمقاء في ميادين قتالكم والتضحية في التمرد لاجل تحرير اولئك الذين خدعتموهم. وقد اخترت! لقد قبلت بالموت، ولكن ليس في خدمتكم ! اني اموت لأن هذه هي الوسيلة الوحيدة التي تركتموها لي للنضال حتى النهاية في سبيل الشيء الوحيد الذي لا يزال له حساب بالنسبة الي ، رغم تحريضاتكم على التباغض : الأخوة بين الناس ! ». في نهاية كل عبارة من عباراته كان الحاجز الصغير المثبت في الأرض يهتز تحت قبضته المتشنجة . « لقد اخترت ! واعرف ما ينتظرني ! » والرؤية المباغتة لفرقة من الجنود جعلته يرتعش . في الصف الأول عرف باجيس وجوملان . فرفع رأسه ووجد نفسه في القاعة . كانت صورة المفرزة من الوضوح بحيث جعله تشنج الوجه يكشر ؛ ولكنه نجح في أن يجعل من هــذه الكشرة فتحة فم متعالية . ونظر إلى الضباط الواحد بعد الآخر . ونظر إلى السيد فاييسم ، نظر اليه محدقاً كما كان

يفعل في السابق عندما كان يحاول ، بمزيج من القلق والتحدي ، ان يحزر ما كان يخبئه صمت المدير . وألقى بصوت لاذع : « انا اعلم ما ينتظرني ! ولكن انتم ، هل تعرفون ؟ تعتقدون انكم الأكثر قوة ؟ اليوم ! بإشارة مع بعض رصاصات ، نعم . بامكانكم التفاخر لأنكم أسكتموني . ولكنكم لن توقفوا شيئاً بإزالتي ! رسالتي ستبعثني حياً ! غداً ستحمل ثماراً لا ترتابون بها ! وحتى لو لم يكن لندائي صدى ، فان الشعوب التي أغرقتموها بالدم لن تتأخر في أن تفهم وتمتلك نفسها ! سترون بعدي الوفاً من الناس شبيهين بي ، يقومون ضدكم ، اقوياء بضمائرهم ، وبشعورهم بتعاضدهم ! وفي وجهكم ووجه مؤسساتكم المجرمة ستنتصب حقيقة انسانية وقوة روحية تصبح أسوأ وسائلكم في القمع حيالها بدون فائدة ! ان التقدم ومستقبل العالم يعملان ضدكم حتماً ؛ والاشتراكية الدولية في حالة مسير ! لتتعثر هذه المرة ، وهذا ممكن ، وقد استفدتم بوحشية من خطوتها الخاطئة . نعم ، لقد نجحتم بتعبئتكم ، ولكن لا تعلقوا كثيراً من الأوهام على هذا النصر الحقير ! لن تقلبوا نظام الاشياء لمصلحتكم . ان الاممية هي التي ستنتصر عليكم ! ستنتصر على الأرض كلها ! ولن تسدّوا طريقها بجثتي » . وأخذت عيناه تفحص وجه السيد فاييسم . وجـــه اعمى ، وجه من شمع ، ابتسامة غامضة كابتسامة بوذا ، ذات لامبالاة لا يسبر غورها .. وارتجف جاك من الغضب . مهما كلف الامر يجب الاحتكاك بهذا الرجل الذي هو عدوّه ! يغتصب نظرته ولو مرة واحدة على الأقل ! وصاح بشراسة ! « يا حضرة المدير ، انظر الي! » .

فسأل بلاتنر : ما الأمر ؟ ماذا تقول ؟ هل ناديتني ؟

وارتفعت جفون الجنرال . نظرة بدون روح : نظرة يلقاهـا المحتضر في المستشفى في عيني الممرض المحترف الذي لا يرى في الرجل الذي يدخل في النزع الأخير سوى جثة يجب تكفينها .. وفجأة ، اخترقت ذهن جاك فكرة فظيعة : « سيأمر ايضاً بقتل كلبي ، بواسطة أرتير ، الحارس ، لانه اتخذه تابعاً له » .

وردد بلاتنر : ماذا تقول ؟

وبما أن جاك لم يجب ، فقد مد يده في الظلام ولمس ساق جاك الذي فتح عينيه . ولكن ما نظره لأول وهلة ليس قبة غطاء العربة ، انه سقف محكمة الجنايات ، بنتوءاته المذهبة . واخيراً استعاد وعيه : بلاتنر ، رزم المنشورات ، العربة ..

وردد بلاتنر : هل ناديتني ؟

– كلا .

ولاحظ صاحب المكتبة بعد صمت : يجب الا نكون بعيدين عن لوفن .

ثم صمت مقلعاً عن التغلب على سكوت جاك .

وكابل النائم على ارض العربة ينام نوم طفل .

ويعتدل بلاتنر بين وقت وآخر ، ويحاول النظر الى الخارج من شق السقف.

واعلن بعد برهة بصوت منخفض : لوفن .

واجتازت العربة المدينة المقفرة متمهلة . والساعة هي الثانية .

ومضت عشرون دقيقة ايضاً . ثم وقفت الفرس .

وارتجف كابل .

– ماذا ؟ .. ماذا جرى ؟

– اسكت !

لقد اجتازت العربة روشانز . ويجب الآن ترك الوادي : عند الخروج من القرية تستمر الطريق ترابية وعرة، ملأى بمناقع وحل جاف. ونزل اندريجوف عن مقعده . وأطفأ المصابيح . وامسك بزمام الفرس ، وتابع سيره .

واخذت الرجّات تهز العربة ؛ والنوابض والحلقات الخشبية تصرّ . وعمل جاك وبلاتنر وكابل على منع الحمولة من الانزلاق من ناحية إلى أخرى في الصندوق الضيق . وتلك الاصطدامات ، وتلك الجلبة ايقظت في ذاكرة جاك إيقاعاً ، جملة موسيقية عذبة وحنينية ، لم يكن يعرفها في بادىء الأمر ! درس شوبان ! جني .. حديقة ميزون – لافيت .. صالون شارع الاوبسرفاتوار .. في المساء القريب كثيراً ، البعيد كثيراً ، حيث جلست جني إلى البيانو بناءً على رجائه .

وأخيراً ، وبعد نصف ساعة كبيرة، توقفٌ جديد . وفك أندريجوف سيور الغطاء : وصلنا ·

وقفز الثلاثة من العربة صامتين .

لم تكن الساعة سوى الثالثة · ومع أن االيل مليء بالنجوم فقد كان شديد السواد · الا أن السماء بدأ يشحب لونها من ناحية الشرق ·

وربط اندريجوف الفرس إلى جذع شجرة صغيرة . وصمت بلاتنر الآن : لقد بدا اقل اطمئناناً منه في المكتبة ؛ وحاول ان يخترق بنظره الظلام المحيط به · وتمتم : ولكن اين هضبتك ؟

فقال أندريجوف : تعال ·

واجتاز الرجال الاربعة منحدراً مغروساً بالاشجار الصغيرة . وعلى ذروة المنحدر ، وعلى حافة الهضبة توقف اندريجوف الذي كان يسير في المقدمة . وتنفس هنيهة ، ووضع يده على كتف بلاتنر ، ومدّ الأخرى في الظلام وقال موضحاً :

– ابتداءً من هنا ، وسترى حالاً ، لا يوجد اشجار · هذه هي الهضبة . ومن اختارها يعرف عمله كما تعلم ·

فأشار كابل ناصحاً ·

– يجب الآن تفريغ حمولة العربة بسرعة ليستطيع اندريجوف الرحيل .

وقال جاك بصوت مرتفع : هيّا ·

وصلابة هذا الصوت ادهشته هو نفسه ·

وهبط الأربعة المنحدر . وتم نقل الاكياس ، والصفائح ببضع دقائق ، رغم الوعورة التي تفصل الهضبة عن الطريق ·

وقال جاك واضعاً على الأرض رزمة من القماش الأبيض :

– عندما يقل الظلام سننشر الاغطية على الهضبة في ثلاث أو أربع نقاط متباعدة عن الوسط ، لأجل الهبوط ·

ودمدم بلاتنر موجهاً الكلام إلى البولوني : والآن أنت ، اذهب بعربتك .

والتفت اندريجوف نحو الرجال الثلاثة وظل جامداً بضع ثوان · ثم خطا خطوة نحو جاك · ولم يكن يميز تعبير قسماته · ومد جاك يديه تلقائياً وكان كثير التأثر فلم يستطع الكلام ؛ وشعر فجأة نحو هذا الرجل الذي لن يراه ثانية بمحبة لن يرتاب بها الآخر ابداً . وأمسك البولوني باليدين الممدودتين ، وانحنى وقبل جاك في الكتف دون أية كلمة ·

ورنت خطوته وهو يهبط المنحدر · صرير محاور : العربة تدور في مكانها · ثم ، لا شيء ·· ويضطر اندريجوف الى اقفال الغطاء من جديد ، أو التأكد من عدة الفرس قبل أن يعود إلى الصعود إلى مقعده ·· وأخيراً اهتزت العربة ، وصرير العجلات ، وصريف النوابض ،ووقع الحوافر المكتوم في الترابالرملي، والذي كان مميزاً في بادىء الأمر ، تلاشت تدريجياً في الليل · ودون تبادل اي كلام ، كان بلاتنر وكابل وجاك واقفين جنباً إلى جنب على حافة المنحدر ينظرون ، غامسين نظرهم في الظلمات ، نحو الجلبة المتباعدة · ولما لم يعد هناك شيء يسمعونه سوى الصمت ، التفت كابل نحو الهضبة قبل الجميع وتمدد على التراب بتراخٍ . وجاء بلاتنر وجلس إلى جانبه ·

وظل جاك واقفاً . لا شيء يفعله الآن · ينتظر طلوع النهار ، والطائرة ·· واسلمته البطالة الاضطرارية من جديد إلى قلقه النفسي · آه ! لكم يتمنى أن يعيش وحيداً هذه اللحظات الأخيرة ·· ومشى بضع خطوات امامه ليهرب من رفاقه ·· « إلى هنا وكل شيء على ما يرام · والآن ، مينستريل سيُسمع من بعيد ·· وعندما يخف ظلام الليل ، الشراشف ·· » والظلام يرتعش من صرير الحشرات · وهو تنخره الحمّى ، ويترنح من التعب ، يمد وجهه الراشح بالعرق إلى برودة الليل ، ويروح ويجيء على الهضبة على غير هدى ، متعثراً بخشونة التراب . يسير بشكل دائري لئلا يبتعد كثيراً عن بلاتنر وكابل اللذين كان يسمع اصواتهما الهامسة في الظلام بين آونة وأخرى . واخيراً وهن ساقاه من المسير الأعمى ، فألقى نفسه على الأرض وأغمض عينيه ·

وعرف من خلال كثافة الجدران تلك الخطوة المنزلقة على البلاط. كان يعلم

ان جني سوف تجد وسيلة للدخول إلى السجن ، ولشق الطريق اليه مرة اخرى. كان ينتظرها ، ويأمل بها . ومــع ذلك فهو لا يريد .. وانتفض .. لتغلق الأبواب ! ليترك وحيداً ! فات الأوان : لقد اتت . ورآها من خـلال القضبان الحديدية . انها تتقدم نحوه ، من أعماق ذلك الرواق الطويل الأبيض الذي يشبه رواق المستشفى . أنهـا تزحف نحوه ، نصف مخبأة تحت ذلك الخمار من (الكريب) الذي لا يحق لهـا ان ترفعه أمامه . لقد منعوها عنه .. جاك ينظر اليها دون أن يقوم بحركة حفاوة .. انه لا يحاول الاقتراب منهـا . لا يحاول الاتصال بأحد : انه في الناحية الاخرى من الحاجز الحديدي .. والآن دون ان يعرف كيف ، أخذ بين كفيه ،ومن خلال (الكريب) ، الرأس الصغير المكور المرتجف . وميز تحت الخمار أمائر متشنجة. وسألت بصوت منخفض : « أأنت خائف ؟ » — « نعم » . وصرّت اسنانه بشدة جعلته لا يستطيع لفظ كلماته إلا بالجهد : « نعم ولكن لن يعرف أحد غيرك » . فتمتمت بصوت منذهلٍ دمث ، بصوتٍ مغنٍ ليس هو صوتهـا بالتأكيد : « ومع ذلك فهي النهاية ، نسيان كل شيء ، السلام .. » — « نعم ، ولكنك لا تعرفين ما هو .. لا تستطيعين أن تفهمي .. » ودخل واحد وراءه إلى الزنزانة فلم يجرؤ على أن يلفت رأسه ، وشنج كتفيه .. وزال كل شيء . ووضعوا له عصابة على عينيه . ودفعته القبضات . انه يمشي . هواء بارد أثلج العرق على عنقه . قدماه تدوسان الاعشاب ، والعصابة تغطي عينيه ، ولكنه يرى بوضوح انــه يجتاز ساحة (بلامباليه) التي يحيط بها الجنود . قليلاً ما يهمه الجنود . انه لا يفكر بشيء ولا بأحد . لم يعر اهتمامه إلا لهـذا الهواء الخفيف المحيط به ، تلك العذوبــة لليل المنتهي والنهار المولود . الدموع تسيل على خديه . وقــد ابقى رأسه ذا العينين المعصوبتين عالياً ، ومشى . انه يمشي بخطى ثابتة ، ولكن غير منتظمة ، كدميةٍ مفككة الأوصال ، لأنه لا يسيطر على مفاصله ، ولأن الأرض تبدو له محفورة بالثقوب حيث يغوص . لا يهم . انه يتقدم . وللضوضـاء حوله همهمة كغناء الريح . كل خطوة تقربه من الهدف . ويرفع بكلتا يديه أمامه ، كتقدمة ،

شيئاً هشاً يجب ان يحمله حتى الهـــدف دون تعثر .. ووراء كتفه واحد يضحك .. مينستريل ؟

وفتح عينيه ببطء . فوقه ، السماء حيث امحت البروج ، والليل انتهى ، انه يضيء ويتلون هناك ، نحو الشرق ، وراء القمم التي ينفصل خطها عـــلى سماء جديدة مذرورة بالذهب .

ليس لديه شعور بالاستيقاظ : فقد نسي كل شيء عن كابوسه . دمه يضرب بقوة . وذهنه صافٍ كمنظر طبيعي بعد المطر . لقد حان العمل : مينستريل يكاد يأتي . كل شيء جاهز .. في رأسه الرنان حيث تتسلسل الأفكار بوضوح فان جملة شوبان الموسيقية ارتفعت من جديد ، بمرافقة خفيفة ذات عذوبة مؤثرة . وسحب دفتره من جيبه وانتزع ورقة منه سيعطيها لبلاتنر . وبدون أن يرى ما يكتب ، فقد كتب :

« جني ، يا حب حياتي الوحيد. آخر تفكيري بك . كان بودي ان امنحك سنوات من الحنان . فـــلم اسبب لك سوى الأذى . وبودي أن تحفظي عني صورة .. »

وهزت الأرض تحته صدمة خفيفة أعقبت بأخرى.فتوقف متردداً. انهاتتمة انفجارات بعيدة يسمعها ويحس بها في الوقت نفسه بكل اعضائه اللاصقة بالأرض . وفجأة فهم : المدفع . فوضع الدفتر في جيبه ونهض بوثبة . كان بلاتنر وكابل لا يزالان واقفين على حافة الهضبة بالقرب من المنحدر . فانضم جاك اليهما راكضاً . المدفع ! مدفع الألزاس !

واجتمعوا إلى بعضهم البعض جامدين. العنق متلع،والعين مفتوحة ومحدقة . نعم : انها الحرب ، هناك ، كانت تنتظر أول ألقٍ من الفجر لتستأنف .. لم يكونوا قد سمعوها من مدينة بال بعد .

وفجأة ، وبينما كانوا يستعيدون أنفاسهم،فان ضجة مختلفة منالطرف الآخر من الأرض جعلت الثلاثة يلتفتون في وقت واحد . وتساءلوا بعيونهم . لم يجرؤ أحد منهم أن يسمي هذا الدوي الذي يكاد لا يسمع ، الا انه يتعاظم بين ثانية

واخرى . اطلاق المدافع يتتابع في البعيد ، وفي فترات منتظمة ؛ ولكنهم لا يسمعونها . والتفتوا نحو الجنوب مدققين النظر في هذه السماء الشاحبة التي يملأها الآن صرير الحشرات غير المنظورة .

وفجأة ، ارتفعت اذرعهم معاً : نقطة سوداء برزت فوق قمم هوجرفالد . مينستريل .

وصاح جاك : الصّوى !

وأمسك كل منهم بشرشف واندفع نحو نقطة مختلفة من الهضبة .

وكان على جاك ان يقطع أطول مسافة . فركض متعثراً بتلاع التراب، ضاماً اليه الشرشف المطوي . لم يكن يفكر بشيء آخر سوى ان يبلغ نهاية الهضبة في الوقت المناسب . لم يجرؤ على إضاعة ثانية واحدة فيرفع رأسه ليتتبع طيران الطائرة الذي اصمّه هديرها ، والتي أصبحت الآن ، وهي ترسم دوائر طائر من الكواسر ، تبدو انها تنقضّ عليه لتلتقطه وتختطفه .

٨٤

رغم الريح الجليدية التي تلفح وجهه ، وتملأ منخريه وفمه ، وتجعله يشعر بالغرق ، لم يشعر أنه يتقدم . انه محزوم ، مدفوع كما لو أنه على صفيحة مهتزة لممر بين عربتي قطار . يصمه هزيم رعد يقرع طبلة الاذن رغم غطاء الاذنين في قبعته . حتى انه لم يفطن إلى ان الطائرة ، بعد رجات متتابعة على أرض الهضبة ، ارتفعت فجأة عن الأرض . وليس الفضاء حوله سوى كتلة قطنية تفوح منها رائحة البنزين . عينان مفتوحتان ، ولكن نظره وتفكيره غائصان في هـذا القطن . واستمداد نفسه بسرعة ، يحتاج إلى وقت طويل لتتوافق اعصابه مع هذه القرقعة التي تدق وتشل الدماغ ، والتي تُجري حتى أطراف الاعضاء شحنات كهربائية لا تنتهي . الا ان الذهن بدأ شيئاً فشيئاً في جمع صور وأفكار .. كلا . هذه المرة ليس الأمر حلمـــاً ! انه مربوط إلى مسند مقعده ، والركبتان متجمدتان برزم المنشورات المنضدة حوله . ونهض .. في المقدمة ، في ذلك البياض المشوش المحدق

به ، ميز قامة ، وكتفين ، وقبعة ، مقطعة إلى أخيلة ظل تحت سطوح الاجنحة الواسعة السوداء . الربان ! واستولى عليه طرب مفرط . الطائرة سارت ! الطائرة في اوج طيرانها ! فصرخ صرخة حيوانية ، زعقة انتصار طويلة ضاعت في زمجرة العاصفة ، دون ان يرتجف ظهر مينستريل .

وقدم جاك رأسه إلى الخارج . وساطه الهواء ، ونفخ في اذنيه بصرير سكين على مشحذ . وعلى مدى البصر صورة فسيحة ، غير مهندمة ، شهباء ، صورة موضوعة على الأرض ومنظورة من مكان مرتفع جداً ، بعيد جداً : صورة ناصلة ، مشققة ، جصية ، مع جزر صغيرة من الألوان الكامدة . ليست بصورة : صفحة من أطلس فلكي ؛ الخريطة الصامتة لأرض مجهولة ، مع مساحات كبيرة غير مكتشفة . عندئذ فكر بذلك الأمر المدهش : ليستمر بلاتنر وكابل تحته في حياتهما الزاحفة كحشرات بدون أجنحة . وبعث الاضطراب في نظره شعور بالدوار . انه متخدر ، فعاد إلى مكانه وأطبق عينيه ، وفجأة عاد ورأى نفسه طفلاً . والده .. انطوان وجيز .. دانيال .. ثم صورة دخانية : جني بملابس التنس في حديقة ميزون – لافيت .. ثم امحى كل شيء . وفتح عينيه . امامه مينستريل ، دائماً هناك ، بظهره المكوم ، وقبة قبعته . كلا ، ليس هذا وهماً . لقد تحقق الحلم اخيراً ! كيف تم هذا ؟ لا يعلم . منذ اللحظة التي سعى فيها لنشر الشرشف على الهضبة – حيث انبطح على الأرض خاضعاً لفعل منعكس ، معتقداً انه يشعر بالمسخ فوقه – حتى تلك الدقيقة الرائعة التي يعيشها في هذه اللحظة ، فقد فقد كل مراقبة على اعماله . وإذا سجلت ذاكرته بعض الرؤى غير المترابطة : قامات أشباح تتحرك في ضوء الفجر الحائر .. فانه يحاول التذكر ، وما يراه فجأة من جديد ، فهو ظهور مينستريل الشيطاني حين يكسب ذاك النيزك الساقط من السماء روحاً وصوتاً ، حين يرفع جذعه خارج مكان القيادة ، ووجهه المرصع بالجلد : « المنشورات ، بسرعة ! » ويرى الرجال يركضون من جديد في ليل الهضبة ، والأكياس تنتقل من يد إلى يد . ويتذكر أيضاً انه ارتفع في احدى اللحظات إلى جانب مينستريل ومعه صفيحة بنزين ،

وان الربان الرائع في الآلة المضاءة، حيث كان يشد برغياً بواسطة مفتاح طويل، قد لفت رأسه : « احتكاك شيء ! اين الأوّال (الميكانيكي) ؟ » – « لقد ذهب مع العربة » . عندئذ عاد مينستريل إلى الغطس في مغطسه دون كلمة.. ولكن، هو جاك ، كيف دخل إلى هناك ؟ وهذه القبعة ، من الذي شبك هذه السيور ؟

هل تتقدم الطائرة ؟ ضائعة في الفضاء الذي تملأه بأزيزها المستمر . انها تبدو شيئاً جامداً معلقاً في النور .

ويلتفت جاك . السماء وراءه . شمس مشرقة . اذن ، الاتجاه شمالي غربي ؟ بالتأكيد : التكيرك – تان .. ونهض من جديد ليتطلع إلى الخارج . روعة ! الضباب أصبح شفافاً . الآن تحت الطائرة ، خارطة أركان الجيش التي طالما انهك عينيه عليها منذ أربعة أيام ، منشورة على مدى النظر . منارة بالشمس ، ملونة ، حية !

وجاك مشوش الفكر جداً ، وذقنه على الحافة المعدنية ، يستطلع هذا العالم المجهول . مسيل واسع ابيض يبدو انه يرسم لدفة الطائرة طريقها، ويقسم المنظر الطبيعي إلى قسمين . وادٍ ؟.. وادي إيل ILL ؟ في منتصف درب المجرة هذا ، تلك الدابة الزاحفة المتموجة التي تغطيها أبخرة فضية في عدة أماكن ، انها النهر، وذلك الخط الشاحب الذي يحاذيه على الناحية اليمنى ؟ طريق ؟ طريق ألتكيرك الكبرى ؟ .. وتلك الشبكة المعقدة من العروق والعروق الصغيرة . أليست هي طرق اخرى تتلاقى وتقطع خضرة السهل البخـــارية ؟ وخط الحبر الآخر ذاك ، الذي لم يلاحظ في بادىء الأمر ، شبه مستقيم ؟ الخط الحديدي ؟ .. كل ما هو حي فيه قد تركز في تلك النظرة الغاطسة . انه الآن يميز نتوء التـــلال القائمة على جانبي الوادي . وهنا وهناك أبسطة من الضباب النائم تمتد بالريح ، وتتمزق ، وتتيـح ظهور فسحات كبيرة جديدة . هذه هي البقعة الخضراء القائمة لقمةٍ مشجرة . وهناك ، إلى اليمين ، ما هو ذاك الذي انبثق من مزق القطن ؟ .. مدينة ؟ مدينة ذات مدرجات ، على حد سكين ، مدينة صغيرة ، وردية من الشمس ، تعج بحيوات غير مرئية ..

الطائرة منحنية قليلاً إلى الوراء. وشعر جاك انه يصعد، يصعد باندفاع مستمر، ناشط وواثق . اصبح الآن معتاداً على زمجرة المحرك ، وهو بحاجة اليهــا ولا يستطيع الاستغناء عنها ، فيستسلم اليها وينتشي بها . وقد اصبح هذا كالعرض الموسيقي لحماسته ؛ كتنظيم الحان سمفونية تترجم فيها الموجات القوية اعجوبة هــذه اللحظة بلغة رنانة . وسحر هذا الطيران الذي يحمله نحو الهدف . ليس له أن يكافح ولا ان يختار . انه موزّع الارادة .. تحرر !. ربح المسيرة ، وهواء المرتفعات ، واليقين العنيد بالنجاح جعلت دمه يضرب بسرعة وبقوة اكثر . وأحسّ في داخــل صدره بنبضات قلبه السريعة الموقعة : انهــا كالمرافقة الانسانية ، كمساهمة كيانه الاخيرة في ذلك النشيد الاسطوري الذي يهز الفضاء كله من حوله .

وتحرك مينستريل .

منذ لحظة كان منحنياً إلى الامام . ربما ليقرأ الخارطة ؟... أو ببساطة، ليقوم بالقيادة بشكل افضل ؟ . وتابع جاك بعينيه فرحــاً ما يقوم به رفيقه ، وصاح : « ألو ! » ولكن المسافة والضجة تمنعان كل اتصال بين الرجلين .

وكان مينستريل قــد نهض ، ثم غطس من جديد . وظل عدة دقائق منحني الجذع . وجاك يلاحظه بفضول . لم ير مــا يفعل الربان . ولكن من هزات الكتف المقتضبة ادرك ان هناك جهوداً تبذل ، وعملاً يدويــاً ، ربما هو تحريك ذلـك المفتــاح الطويل الذي تذكر انه رآه على الهضبة بين يدي مينستريل .

لا داعي لأي قلق : فالربان يعرف عمله .

وفجأة ، حدث في الهواء نوع من الاهتزاز ، من الاصطدام . ماذا اذن ؟.. وجاك المندهش تطلــع في الفضاء حوله مستفهماً ، وظل بضع ثوان ليفهم . هذه الهزة ، ذاك الثقب المفاجىء ، انه ببساطة ، هجوم الصمت غير المتوقع ، صمت كلي ، ديني ، صمت بين الكواكب قد حل بعنف محل ازيز المحرك ... لماذا قطع الغاز ؟

وكان مينستريل قد نهض . ويجب ان يكون قد وقف : فجذعه يحجب مقدمة الطائرة .

وجاك يراقب ، لم يترك بعينيه ذلك الظهر الجامد ، وهو منزعج لأنه لا يستطيع الكلام .

وكأن الطائرة ، هي نفسها ، فوجئت بصمتها . فقد قامت بعدة تموجات هادئة جداً ثم سارت باتجاه مستقيم ، حافرة في الهواء ، محدثة جلبة ناعمة كجلبة سهم . طيران صاعد ؟ .. طيران هابط ؟ .. لماذا هذه الحركة ؟ . ايخاف مينستريل ان يدل الصوت عليه .. ايريد الهبوط ؟ أيكونان قد اصبحا على اطراف الخطوط ؟ هل هي لحظة نثر البيانات الاولى ؟ نعم ، بالتأكيد . فمينستريل رسم حركة بذراعه الايسر ، وبدون ان يلتفت . فمد جاك يده مرتعشاً ليمسك برزمة المنشورات ، ولكنه اقتُلع من مقعده رغماً عنه ، وفقد التوازن . وحزامه الجلدي صدم ضلوعه . ماذا يجري اذن ؟ الطائرة فقدت وضعها الافقي وشكّت انفها . لماذا .. هل هذا امر مقصود واجتاز الشك عقل جاك . واخذ الحدس بالخطر الممكن يكافح ذلك الشعور بالثقة الكلية التي يوحيها مينستريل اليه ... وتعلق بأحدى يديه بحافة مكان القيادة ، وحاول الوقوف لينظر إلى الخارج برعب ! المنظر الطبيعي يتقلب . وتلك الحقول والمروج والغابات التي كانت قبل لحظة تمتد كالبساط ، هي الآن تهتز وتتحدب وتنقبض كتلاوين تلتهب ، وتتصاعد ، وتتصاعد نحوه بشكل يسبب الدوار ، في زمجرة طلقات مدفعية وبسرعة الكارثة .

وبهزة من صلبه توصل إلى قطع الحزام المربوط به ، وإلى ان يقذف بنفسه الى الوراء . السقوط ! .. الموت ...

كلا . فقد انحنت الطائرة بشكل قوس ، بطريقة اعجوبية ، وعادت تقريباً إلى وضعية الطيران . مينستريل لا يزال يقود .. امل .

وسبحت الطائرة مقدار دقيقة ، منطلقة . ثم امسكت بها امواج عنيفة ورفعتها ، وهزتها وفككتها . وتداعى هيكلها المغزلي . وانحنت الطائرة إلى

اليسار . دورة على الجناح . هبوط . وجاك المكتّوم على نفسه تعلق بكلتا يديه بصفائح الحديد حيث لم تستطع اظافره أن تنشب . رؤية واضحة تسجلت على شبكيته ، مجموعة من اشجار الصنوبر في الشمس ، حرج ... فأطبق عينيه بدافع الغريزة . هنيهة لا تنتهي . اصبح الدماغ فارغاً والقلب في كلاّبة ... ومواء بوق مزق طبلة اذنه ، واشكال وردية من النار الاصطناعية تحيط به ، وتلـّفه وتحمله في اضواءِ دائرة . اجراس ، واجراس تقرع بشدة . اراد أن يصيح : « مينس ... » فسحقت فكيه رجـــة ذات عنف لا مثيل له ... وُقذف جسده في الفضاء ، وبدا له انـــه تسطح على جدار كما يستسطح ملء مجرفة من الطين .

حرارة شديدة ... لهب ، زفير ، رائحة حريق ... حراب حـــادة وشفار قاطعة تحفر في ساقيـــه . واختنق ، وقـــاوم ، وبذل جهداً فوق طاقة البشر ليعود إلى الوراء ، ليزحف خارج النار . مستحيل . فطرفا قدميه في النار .

ووراءه مخـــالب فولاذية امسكت بكتفيه ، وجذبته . فهوى محطماً ، مفككاً .. وقد سحب على مسامير ،واصبح جسده ممزقاً .

وفجأة ، غاب كل هذا الرعب في الهدوء . الظلمات . العدم .

٨٥

اصوات ... اقوال بعيدة يعترضها ستار كثيف من اللباد . الا انها تدخل فيها ، لاصقة ... هناك من يكلمه . مينستريل . مينستريل يناديه ... انه يكافح ، يقوم بمجهود مضنية لينقذ نفسه من هذا النوم التخشبي .

– من انت ؟ فرنسي ؟ سويسري ؟

آلام لا تحتمل تعضّ الاصلاب والساقين والركبتين .. انه مسمّر بالارض بمسامير حديدية . وفمـــه ليس سوى جرح ؛ ولسانه المتورم يخنقه. والعينان مطبقتان . انه يقلب الرقبة ، ويؤرجح الرأس يميناً وشمالاً ، ويقلص الكتفين

في سبيل نهوض مستحيل ، ويسقط من جديد بأنين مخنوق ، على مساميره التي تثقب طهره . رائحة نتنة من البنزين والجوخ المحروق تملأ منخريه وحلقومه . ويسيل لعابه ، ومن زاوية شفتيه اللتين لا يستطيع فتحهما تقريباً ، كان يقذف دماً كثيفاً كلب" ثمرة .

– ما هي جنسيتك ؟ هل انت في مهمة ؟

الصوت يدوي في اذنيه وينتهك خدره .. ونظره المرتج يصعد من أعماق غير شفافة ، وينزلق بين الجفون ، ويبرز لحظة للنور . فيشاهد رأس شجرة ، والسماء ، وطاقات بيضاء من الغبار ، وبنطلونات حمراء .. الجيش .. جماعة من جنود المشاة الفرنسيين منحنية عليه . لقد قتلوه . وهو على وشك الموت ..

والمنشورات ؟ والطائرة ؟

ورفع رأسه قليلاً. ودخل نظره بين سيقان الجنود . الطائرة على بعد ثلاثين متراً ، كومة لا شكل لها من الحطام يتصاعد منها الدخان في الشمس كمحرقة مطفأة ! كومة من الحدائد حيث تتدلى بعض الخرق المتفحمة . وإلى ناحية ، جناح مغروس عميقاً في الأرض ، مقطع ، ينتصب في العشب وحده كمروحة .. والمنشورات ! انه يموت دون ان يلقي واحداً منها ! الرزم هناك ، متلفة ، مكفنة بالرماد إلى الأبد ! ما من شخص ، أبداً ، قطعياً .. فقلب رأسه . وضاع نظره في السماء الصافية .. شفقة عظيمة على هذه الأوراق .. ولكنه يتألم كثيراً ؛ ولا شيء غير ذلك له قيمة .. هذه الحروق التي تنخر ساقيه حتى لب العظام .. نعم الموت ! بمزيد من السرعة .. بمزيد من السرعة ..

– إيه ؟ اجب . هل انت فرنسي ؟ ماذا كنت تفعل في هذه الطائرة ؟

الصوت قريب جداً ، لاهث ، قوي ولكن دون قساوة .

وفتح عينيه من جديد . وجه لا يزال فتياً . منتفخ من التعب ، عينان زرقاوان وراء نظارة ، تحت رفرف قبعة عسكرية مغطاة بشبكة زرقاء .

وأصوات اخرى حوله ترتفع ، وتتشابك ، وتسقط :

– اقول لك انه ليس في حالة إغماء ..

– هل اخبرت النقيب (الكابتن) ؟

– ربما يوجد معه أوراق يا سيدي الملازم · يجب تفتيشه ·

– يستطيع الفخر بأنه نجا .

– الطبيب العسكري سيأتي ، لقد اسرع باسكان يبحث عنه .

ووضع الرجل ذو النظارة ركبة على الأرض · ذقنه غير الحليقة وعنقه خارجان من قميص مفكوك العرى ، وعلى الصدر تتصالب سيور وأحزمة ·

– الا تعرف الفرنسية ؟ هل انت الماني ؟ اتفهم ؟ [1] ·

ووضعت أصابع قاسية على كتفه المثخن بالجراح . فأصدر حشرجة خفيفة وسحب الملازم يده حالاً ·

– أتتألم ؟ اتريد ان تشرب ؟

فرضي جاك برفة أهداب ·

وتمتم الضابط وهو ينهض : على كل حال فهو يفهم الفرنسية .

– من المؤكد انه جاسوس يا سيدي الملازم . .

فحاول جاك ان يدير رأسه نحو هذا الصوت الصخاب · ولكن انتقال جماعة من الجنود من مكانهم في تلك اللحظة فسح المجال لرؤية كومة داكنة على بعد ثلاثة أمتار : شيء بدون اسم ، متفحم ليس فيه من البشرية سوى ذراع ملتو من الحرارة على العشب ، وفي طرف هذا الذراع مخلب عصفور ، أسود ، لم يستطع جاك ان يفصل نظره عنه : يد دقيقة ، عصبية ، الأصابع في الهواء نصف متشنجة . . ولطفت الضجة حول جاك .

– انظر يا سيدي الملازم · ها هو باسكان قد اتى بالطبيب العسكري (الماجور) . . باسكان رأى كل شيء : كان يحمل القهوة السوداء إلى المركز الصغير . . ويقول ان الطائرة ··

وابتعد الصوت ، وابتعد ، يحجبه ستار اللبّاد · وفي السماء غام رأس

---

١ ـ هذه العبارة بالالمانية في الاصل ·

الشجرة . والألم ابتعد أيضاً ببطء ، وتوارى في ارتخاء كريه .. المنشورات.. مينستريل .. مات أيضاً ..

لأي سبب غامض ، طاغٍ يبقى في داخل هذا الزورق ، مضنى ، موثقاً ، عاجزاً ؟ مينستريل القى نفسه في الماء منذ وقت طويل ، لأن تلك العاصفة على البحيرة كانت تهز زورقها بقوة ... والسماء تحرق كالرصاص المذاب . وحاول جاك عبثاً الهرب من هذه النهشة . وفي الجهد الذي بذله لينقل كتفيه ، فتح جفونه نصف فتحة وأطبقهما حالاً . لقد جرح حق اعماق حدقتيه بذلك السهم الذهبي . انه يتألم . وتلك الحصى المروسة في داخل الزورق تمزق لحمه . كان بوده أن ينادي مينستريل ، ولكن في فمه فحمة ملتهبة تنخر لسانه... صدمة . لقد احس بها بشكل مؤلم حتى طرف اعصابه . واصطدم الزورق بمكان الركوب وقد قلبته موجة مفاجئة . وفتح عينيه ...

– هيه ، ايها الضعيف [1] ، أتريد أن تشرب ؟

قبعة ... انه دركي يتكلم ... وجه مجهول ، غير حليق لخوري في الريف. وحوله اصوات قاسية ، قوية ، تتلاقى . انه يتألم . انه جريح . يجب أن يكون ضحية حادث . انه يشرب ... شمر على شفتيه الملتهبتين بجافة طاسة من تنـــك .

– بنادقهم ليست شيئاً . ولكن رشاشاتهم ! وعندهم منهـا في كل مكان ، البقر !

– ونحن ايضاً يجب أن يكون لدينا رشاشات ! انتظر فقط ليخرجوها .

يشرب ... مـــع أنه في الشمس ومغمس بالعرق ، كان يرتجف من البرد . اسنانه ترتجف على المعدن . فمه ليس سوى جرح ... وابتلـــع جرعة بنهم ، واختنق . قليل من الماء يسيل على ذقنه . اراد أن يرفع ذراعاً : معصماه مقيدان

---

١ ـ الخشبة التي جبرت عليها ساق جاك المحطمة مكتوب عليه كلمة Fragil ، أي سريـع العطب ، ضعيف . وقد جعل الجنود هذه الكلمة إسماً لجاك .

ومثبتان بسيور محفة . بوده أن يشرب ايضاً . ولكن اليد الممسكة بالكاسة انقلبت ... وفجأة تذكر كل شيء ! المنشورات .. مخلب مينستريـــل الذي حولته النار إلى كلس ، الطائرة . الجمر ... فأطبق عينيه اللتين تلسعهما الشمس والدموع ،والغبار ، والعرق ... يشرب ... انه يتألم ، غير مبال بشيء سوى ألمه ... ولكن الضوضاء المحيطة به جعلته يفتح عينيه .

وحوله جنود من المشاة، مختلـو الثياب،العنق عار ، والشعر ملتصق بسبب العرق يروحون ويجيئون ، ويتكلمون ويتنادون ، ويصرخون . وهو ملقى على الارض ، على محفة موضوعة على العشب ، على حافة ذلك الدرب المليء بالجنود. وعربات تحدث صريراً ، مربوطة إلى بغال ، تمرّ دون توقف ، متمهلة ، عـــلى محاذاته ، مثيرة غباراً كثيفاً . وعلى بعد مترين،على الفسحة بينه وبين الطريق ، رجال درك واقفون يشربون (زرنقة) كل بدوره رافعين في النور إناء المـاء . وهناك رزم من البنادق ، واكياس منضدة ، مصفوفـــة على الطريق على مدى النظر . وجنود يجتمعون جماعات ، متمرغون على جـــانب المنحدر يتناقشون ويقومون بحركات ، ويدخنون . والاكثر عجزاً عن المشي كانوا متمددين عـلى ظهورهم . والمرفق على عرض الوجه ، ينامون تحت الشمس.وفي الخندق جندي صغير متمدد ، مصـــالب الذراعين ، فتي ، ينظر إلى السماء بعينيه الكبيرتين المفتوحتين ، ويمضغ قشة ... الشرب ، الشرب ... انه يتألم من كل مكان : من الفم ، والساقين ، والظهر ... رعشات حمّى تجتاز حقويه ، وتخرج منه آهـــة خفيفة في كل مرة . الا انهـا لم تكن تلك الآلام الشديدة التي تمزق الجسد بعد السقوط ، بعد الحريق . يجب الاهتمام به،وتضميد جراحه . وفجأة ، اجتاحت ذهنه الخامد فكرة : لقد بتروا ساقيه .. مـاذا يهم الآن ؟ إلا أن فكرة البتر هذه قد لازمته . ساقاه...لا يحس بهما ابداً.بوده لو يعرف .. سيور مشدودة تربطه بالمحفة . الا انه توصل إلى رفع قبضته، الوقت الذي احتاجه ليشاهد يديه الداميتين وساقيه الخارجين من البنطلون المقطوع إلى منتصف الفخذ . ساقاه ؟ بكاملهما ... حيان ؟ تلفهما الاربطة . مربوطان من الركبتين حتى الكعبين

على قطعتي خشب منتزعتين دون شك من احد صناديق التعبئة القديمة ، لأن احدى اللوحتين لا تزال تحمل عبارة « سريع العطب » بشكل ظاهر وبحروف سوداء . . واراح رأسه ، منهوكاً .

اصوات حوله ، اصوات . . . رجال، جنود . . . الحرب . . جنود يتكلمون:

- قال لنا احد الجنود الفرسان أن الفيلق اجتمع هنا . .

- ليس لك الا أن تتبع الفرقة ، وسترى جيداً في نهاية المرحلة .

- من اين اتيتم ،انتم ؟

- وهل تُعرف الاسماء ؟ من هناك . . وانتم ؟

- نحن ايضاً ؛ نحن رأينا ذلك منذ نهار الجمعة .

- ونحن ؛ اذن !

- نحن يا صديقي ، الامر بسيط : منذ بدء الهجوم .

- اليوم السابع من الشهر ؛ الجمعة . منذ ثلاثة ايام ، اليس كذلك ؟

- لم ننم ست ساعات في كل هذه الأيام . اليس صحيحاً يا مايار ؟ لا شيء نأكله . نهار السبت وزعوا علينا شيئاً قليلاً ؛ في المساء ؛ ولكن منذ أن تركنا المعسكر في هذه البلبلة فالإعاشة صفر! لو لم يوجد في القرى ما تُزال به الصعوبة . . .

واصوات اخرى ، اكثر بعداً ، غاضبة :

- وانا اقول لك أن الامر لم ينته .

- وانا اقول لك أن الامر انتهى . اليس كذلك يا شابو؟ انتهى تماماً ، واذا ارادوا أن يعاودوا الهجوم فسيسقطون على حربة .

الاكثر إيلاماً من كل شيء تقريباً هو جرح الفم الذي يمنعه من ابتلاع ريقه، ومن الكلام ، والشرب ، والتنفس تقريباً . لقد جرب تحريك لسانه بحذر . واحتفظ في داخل حلقومه بقطرة لاصقة من البنزين ، من الدهان المحروق . . .

- ثم ، انت تعلم ، الليالي كلها في الخارج وفي حالة تيقظ . وحين جيء بفرزة المشاة إلى امام كارسباك . . .

نعم ، هو مجروح في لسانه : فهو متورم، ممزق بشدة . . . يجب أن يكون

قد تلقى حطاماً في وجهه ، أو انسحقت ذقنه حين سقط .. الا انه يشعر بالالم في داخل الفم . دماغه يعمل. وقال لنفسه اخيراً : « لقد قطعت الاسنـــان لساني ». ولكن هذا الجهد الذي بذله في الانتباه قد أنهكه . فأطبق جفونه متخدراً . لهيب يرقص امام عينيه المغمضتين. والألم الشديد في ساقيه لم ينقطع. فأنّ انيناً ضعيفاً واستسلم من جديد لتلك العذوبة المفاجئة ... النسيان ..

– حروق في كل مكان ... الساقان محطمان ... جاسوس .

ففتح عينيه . دائماً احذية عالية وطماقات .

واقترب رجال الدرك من المحفة . وتشكلت جماعة حولهم :

يبدو أن الطائرة ...

– طائرتهم ؟ لقد رآها بريكار ...

– بريكا !

– كلا . بريكار ، صف ضابط كبير في السرية الخامسة .

– لم يبق شيء من طائرتهم .

– (واحدة بالناقص) !

– وهو ، **الضعيف** ، لا يزال فيه رمق . بالامكان إنقاذه رغم ساقيه .

هذا الصوت لم يكن مجهولاً لديه . فلفت رأسه: ذلك الذي يتكلم ويتفحصه ، انه الدركي العجوز ، خوري الريف ، ذو العينين الشاحبتين ، والجبهة العارية ، وذلك الذي اعطاه ليشرب .

وقـــال دركي آخر ، اسود صغير ، سمين ، رأس كورسكي بعينين كالجمرتين :

– باستا ! أتسمـــع ايها الرئيس ؟ مارجولا يقول أن **الضعيف** سينجو ! لا لوقت طويل ».

فضحك البريغادييه رئيس الدرك :

– ليس لوقت طويل ، كلا ... أن باولي على حق . ليس لوقت طويل ! انه رجل كبير يحمل أشرطة مخاطة على كمّيه . وله لحية سوداء ، كثة جداً

تغطي كل شيء سوى وجنتين بلون اللحم · وقال جندي :

ـ اذن ، لماذا لا يُصفّى حسابه في نفس المكان ؟

فلم يجب البريغادييه .

ـ وهل ستحملونه بعيداً وهو هكذا ؟

فأوضح الكورسكي :

ـ يجب تسليمه الى قيادة السرّية ·

ولفت البريغادييه رأسه مستاء · ودمدم بنبرة تتكلف الحكم والامثال :

ـ اننا ننتظر الأوامر ·

وضحك رقيب شجاع [1] من المشاة :

ـ مثلنا · ها قد مضى يومان ونحن ننتظرها ، الأوامر ·

ـ ومعها الطعام ·

ـ يا لها من بلبلة !

ـ اعتقد أن هناك كثيراً من ضباط الارتباط ·· الكولونيل ··

وقاطعتهم نفخة صفّارة ·

ـ احملوا البنادق · الفرقة تعاود المسير ·

ـ الاكياس على الظهر ، وقوفاً هناك ، الكيس على الظهر ·

وحدثت حول جاك ضجة صاخبة · وتابعت الفرقة سيرها ·

انه يغرق في ثقب مظلم . الماء يهدر حول الزورق. وموجة أشد قوة رفعته، وهدهدته وحملته بعيداً عن طريقها .

ـ اسندوا الى اليمين !

ـ ما الأمر ؟

ـ الى اليمين ..

---

١ ـ استعمل المؤلف هنا كلمة Gavroche . وهي اسم احـد اشخاص رواية « البؤساء » لهوغو . وهو غلام باريسي ، شجاع وكريم .

وجعلته الهزات يفتح عينيه. أمامه ظهر الدركي الذي يحمل مقدمة المحفة . والفرقة تتموج؛ والموجة تبتعد لتدور حول بغل ميت ، منتفخ، قوائمه فيالهواء، متروك على الطريق . وبصق الرجـــال بسبب الرائحة ، وانتفضوا هنيهة ضد الذباب الملتصق بالوجوه . ثم عادت الصفوف وتشكلت وسارت متعرجـــة ، واستعادت النعال المسمرة ضرباتها على الأرض الملأى بالحصى .

كم الساعة ؟ اشعة الشمس تسقط مستقيمة وتحرق وجهه . انه يتألم . الساعة العاشرة أو الحادية عشرة تقريباً ؟ الى أين يسيرون به ؟ الغبار يمنع الرؤية لأكثر من بضعة امتار . والى الشمال عربات عسكرية تسير دائماً متمهلة، في سحابة لاذعة خانقة . والطريق يتصاعد منها الدخان، تتصاعد منها رائحة الروث، والصوف المبلل ، والجلد ، والرجل الراشح عرقاً . انه يتألم . وهو بدون قوى . دون قوى ليفكر ، ليخرج من خدره. الحلقوم متهيج بالغبار، واللثة جافة من الحمّى، والعطش ، واللسان سابح بالدم ، انه ضائع بين وطء الاقدام الذي لا يحصى ، في جلبة جيش اثناء السير ، ضائع ووحيد ، مقطوع من كل شيء ، من الحيـاة ، من الموت .. وأثناء دقائق الصحو القليلة التى تتناوب مع تلـك الفترات الطويلة من اللاوعي والـكابوس ، كان يردد دون انقطاع: « تشجع . تشجع .. » وبين فترة وأخرى يسير الرجال متلاصقين بجانب المحفة بحيث لا يرى شيئاً سوى جذوعهم المهتزة ، وفوهات البنادق ، والهواء المرتجف بينه وبين السماء ، انه كما لو كان في منتصف غاب مضطرب يتقدم وعينه الذاهلة تتفرس باصرار في مخلاة منتفخة تتأرجح ، وفي طاسة لامعة مربوطة بقربه من القماش الازرق . كثير من الجنود فكوا سيور الأكياس واسقطوا حمولتهم حتى تجويف ظهورهم، الاكتاف تلتوي، والوجوه ملوثة بالغبار والعرق ، والنظرات التي يفاجئهـا احياناً موجهة اليه لها تعبير غير مركز ، منتبه ولاهٍ معاً : تعبير مضطرب ، غامض بسبب الدوار.. وهم يسيرون ، يسيرون امامهم رأساً ، جنباً الى جنب ، دون رؤية شيء ، دون كلام ، مهتزين ولكنهم متماسكون في اتباع هـذا التقهقر الذي ينقذهم . وقوامم تتلاشى على هذه الطريق كما على رحى ، والى اليمين جندي كبير ناحل، ذو وجه

جانبي كوجه المدالية ، يحمل شارة ممرض ، ويتقدم بإيقـــاعٍ وقور ، مرفوع الرأس ، متأملاً كأنه يصلي . وإلى يسار المحفة جندي صغير يسير بخطى حذرة ، ويعرج . ونظر جاك الذاهل يستقر على ذلك الساق الأعرج ، المتأخر دائمـاً ، الملتوي قليلاً عند الركبة لدى كل جهد . واحياناً ، حين تنفصل جمـــاعة عن الصفوف ، يشاهد جاك اشجاراً ، وسياجاً ، ومروجاً ، وحقولاً تنيرها الشمس . . اهذا ممكن ؟ منذ قليل ظهرت له على جانب الطريق باحة مزرعة بأهرائها المبنية باللبن ، وبيتها الرمادي ذي المصاريع المقفلة ، وكومة من الزبل يبحث فيهـــا الدجاج عن غنيمة ، والرائحة الحارة للزبل السائل تناهت اليه .. انه متخدّر . واستسلم للهزات ، والعينان مطبقتان باستمرار تقريباً . ساقاه ، فمه .. لو يفكر الرجل فقط باعطائه ليشرب .. بدون انقطاع ، يُقاطَع السير بتوقف مفاجيء يضطر الجنود اللاهثون بعده الى الركض ليعوضوا المسافة ويمنعوا العربات أن تستفيد من المسافات الفارغة وتدخل في الصف .

– من البؤس أن يرى المرء هذا . لماذا يسير الجميع على نفس الطريق ؟

– ولكن الأمر كذلك في كل مكان يا صديقي . هنـــاك عمليات نقل مؤن ومعدات على جميع الطرق . والفصيلة كلها تتراجع .

– الفصيلة ؟ الجيش السابع كله مما يبدو .

– هيه ، انت . الى أين ذاهب من هناك ؟

– أأنت مجنون .

– هيه . ايها المتطوع ..

كان جندي من المشاة يجتاز الطريق بانحراف ، ضد وجهة السير ، سائراً نحو الشرق : نحو العدو . ولم يبال بالنداء فدخل بين العربات ، والجنود . انه ليس فتيا . فقد وخـــط الشيب لحيته ، إلا انه لا يوجد غبار . وهو بدون سلاح ، بدون كيس ، بمعطف ناصل اللون على بنطلون فلاح من المخمل الأسمر . ومجموعة من الاشياء المتحركة معلقة في خاصرتيه . جعبة خرطوش ، إناء للشرب ، مخلاة .

– هيه ، ايها الشيخ . الى أين ذاهب ؟

فتجنب الأذرع الممتدة . قاسي الوجه ، عنيد العين ، متوحش ، وشفتاه تتحركان : يبدو انه يكلم شبحاً بصوت منخفض .

– أعائد انت الى منزلك ايها الشيخ ؟

– حظ سعيد .

– سترسل الي بطاقات بريدية .

وسار الرجل امامه بخط مستقيم ، بدون ان يدير رأسه ، بدون كلمة ، وتسلق كومة من الحجارة ، واجتاز الخندق ونحّى الاشجار المحيطة بالمرج واختفى .

– انظر . زوارق .

– على الطريق ؟

– ماذا ؟ فرقة من بناة الجسور تسير .

– لقد شقوا الفرقة .

– اين ؟

– هذا صحيح . انظر زوارق على عجلات . سترى كل شيء .

– هيه ، قل اذن يا جوزف . يجب الاعتقاد هذه المرة انهم اقلعوا عن اجتياز الرين .

– تقدموا .

– الى الأمام .

واهتزت الفرقة وتابعت سيرها .

وحدث توقف جديد على بعد مئة متر .

– ماذا ايضاً ؟

هذه المرة طال التوقف . الطريق تقاطع خطاً حديدياً تسير عليه قافلة لا تنتهي من عربات فارغة تجرها بسيرٍ متمهلٍ قاطرة نافخة حامية .. ووضع رجال الدرك المحفة في الغبار . وقال مارجولا مؤكداً :

– يجب الظن ان الامر يسوء ايها الرئيس . فهذا يعيد العتاد الى الوراء

ونظر البريغاديه الى القطارومسح وجهه دون أن يجيب. ولكن الكورسكي الصغير قال ساخراً : زو · مارجولا فرح ايها الرئيس منذ ان سرنا ·

وقال دركي ثالث ، وهو شديد القوة ذو عنق ثور كان جالساً على كومة حجارة ، ويمضغ شيئاً من الخبز ·

- مارجولا لم يكن على ما يرام في عمله أول البارحة حين رأينا الفرسان الألمان . .

فاحمر وجه مارجولا · انه ذو أنف كبير ، وعينان كبيرتان رماديتان ، ونظر حزين هارب ، ولكنه ارادي ؛ وجبهة مصدومة : وجه فلاح يجري حساباً :

- لست خجلاً من قول ذلك ايها الرئيس · لم يحدث لي أن رأيت الحرب · وانا لست كورسكياً · ولم اكن محارباً قط ·

ولم يسمع البريغاديه · والتفت نحو اليمين · قرع طبل خفيف يمتزج بجلبة قطار · على محاذاة الخط الحديدي جماعة الفرسان تتقدم خبباً ·

- دورية ؟

- كلا من اركان الجيش ·

- ربما أوامر ؟

- إبتعدوا ، يا الهي ·

والكوكبة الراكبة تتألف من نقيب في الفرقة المدرعة يتبعه اثنان برتبة صف ضابط وبعض الفرسان · ودخلت الخيول بين العربات والمشاة ، واحاطت بالمحفة واجتازت الطريق ، واجتمعت في الناحية الأخرى ، وسارت خلال الحقول نحو الغرب ·

- انهم محظوظون هؤلاء ·

- اتعتقد ·· يبدو أن فصيلة الفرسان لديها أوامر بالعمل وراءنا لتمنعهم من السقوط علينا ·

والجنود يتناقشون حول المحفة · بين اقفية المعاطف المحلولة العرى أو على

الصدور حيث يسيل العرق ، فان صفيحة الهوية التي تحفظ لكل جثة رقمها ، معلقة بشريطها الاسود . كم تبلغ اعمارهم ؟ للجميع وجوه رثة ، قذرة . شيوخ على نسق واحد .

– الا يزال معك شيء من الماء ؟

– لا شيء . ولا قطرة .

– قلت لك اننا رأينا أحد مناطيد زبلن ، في ليل السابع من الشهر . كان يطير فوق الغابات .

– الا يتراجعون ؟ كلا .. اذن ماذا تريد !

– كلا : ان ضابط ارتباط في الكتيبة هو الذي سمع ضابطاً من اركان الجيش يشرح ذلك للكبير . ليس هناك تراجع .

– اسمعتم ، انتم الآخرون ؟ يقول ان ليس هناك تراجع .

– كلا . انه التفاف ستراتيجي كما يسمونه ، ليعدّوا الهجوم المعاكس بشكل افضل . ضربة مذهلة . سيعلقون بين فكي الكماشة .

– ماذا ؟

– الكماشة . سل نائب الضابط . أتعرف ما هي الكماشة ؟ يدعونهم يدخلون في فخ ، اتفهم ؟ ثم ، كراك ! وتطبق الكماشة وينتهي امرهم !

– طائرة المانية .

– أين ؟

– هناك .

– أين ؟

– فوق كومة الحشيش تماماً .

– طائرة المانية .

– تقدموا .

– طائرة المانية يا حضرة نائب الضابط .

– تقدموا . انها عربة .. وذاك ذيل المجذاف .

– ما الذي رأيته حتى قلت انها طائرة المانية ؟
– البرهان انهم يطلقون النار عليها . انظر .
ونشأت حول النقطة الصغيرة اللامعة في السماء سبائخ صغيرة ظلت لحظة كالكرة قبل أن تبددها الريح .
– نظموا أموركم ثانية وتقدموا .
ومرت آخر عربات القطار على الخط واصبح الممر حراً على محاذاتهم .
انقلاب .. اوه . هذه الهزات .. تشجّع .. تشجع .. وصحا لمدة ثانية فسمع فوقه لهاث الدركي الذي يحمل رأس المحفة . ثم انقلب كل شيء : دوار، تقزز مميت . تشجع .. صفوف الجنود المبرقشة تمر وهي تدور كخيول خشبية، زرقاء حمراء. فأصدر أنة . اليد الناعمة، يد مينستريل العصبية اسودت وتقلصت لدى النظر، وأصبحت كف دجاجة ، واستحالت كلساً بسبب الحريق .. المنشورات كلها محروقة ، ضائعة .. الموت .. الموت ..
بوق سيارة . رفع جفونه . الفرقة وقفت على مدخل قرية . السيارة تزمر: انها آتية من الوراء . وتكوم الرجال على حافة الطريق ليفسحوا مجال المرور . وعند أمر التأهب أدى البريغادييه التحية . انها عربة مكشوفة ذات راية صغيرة مشحونة بالضباط . وفي الداخل قبعة جنرال مذهبة . فأطبق جاك عينيه من جديد . واجتاز دماغه مرأى مجلس الحرب . أنه واقف في منتصف المحكمة أمام هذا الجنرال ذي القبعة المذهبة .. السيد فاييسم .. البوق يزمر دون توقف . وغام كل شيء .. حين فتح عينيه شاهد سياجاً مشذباً جيداً ، وأرضاً خضراء ، ونبات ابرة الراعي (جيرانيوم) . ودارة بستائر مخططة .. ميزون – لافيت .. فوق الحاجز الحديدي يتدلى علم أبيض ذو صليب أحمر . وأمام الدرجات المسطحة عربة اسعاف فارغة ، منخولة بالرصاص ، وكل زجاجها محطم . ومرت الفرقة . تقدمت طوال بضع دقائق وتوقفت . المحفة لامست الأرض بقسوة . والآن عند أقل توقف . فان الجنود ، بدلاً من ان ينتظروا واقفين ، اصبحوا يسقطون على الأرض في نفس المكان الذي توقفوا

فيه ، دون ان يتركوا اكياسهم ولا بنادقهم ، كأنهم كانوا يريدون ان يُبادوا هنا .

انهم على مسافة مائتي متر من القرية ٠ وقال البريغادييه : يبدو اننا سنتوقف في القرية ٠

بلبلة ٠ « إلى المسير ! » وتابعت الفرقة سيرها ، ومشت خمسين متراً ووقفت أيضاً ٠

صدمة . ما الأمر ؟ .. الشمس لا تزال مرتفعة ومحرقة . منذ كم ساعة ، منذ كم يوم وهذا السير مستمر ؟ انه يتألم ٠ ان الدم المتدفق في فمه يكسب لعابة طعماً منتناً ٠ وذباب الدواب ، والذباب الذي يغطي البغال ٠ كان يلحّ على ذقنه ويديه بضراوة .

وهناك غلام من القرية ملتهب العينين روى وهو يضحك ، للجنود المحيطين به :

– في قبو المختار (العمدة) ٠٠ هم أمام النافذة تماماً ٠ ثلاثة ٠ ثلاثة من الفرسان الالمان اسرى ٠٠ لم يسيروا بعيداً ٠٠ واحد منهم خرج بين حارسين ليبول .. أردنا انتزاع أمعائهم .

ونادى البريغادييه الغلام : ألا يزال يوجد نبيذ هنا ؟

– بالتأكيد .

– خذ . هذه عشرون فلساً . اذهب واشترِ لنا ليتراً .

فقال مارجولا متنبئاً غير مستصوب :

– لن يرجع أبداً أيها الرئيس .

– انهم يتقدمون . هيا إلى المسير .

وثبة اخرى طوال خمسين متراً حتى ملتقى طريق كانت كوكبة الفرسان قد ترجلت هناك ٠ وإلى اليمين ، في أرض واسعة ، منحدرة ، محاطة بمساحات بيضاء – حقل سوق عامة دون شك – جمع بعض الرتباء ما بقي من سرية من المشاة . والنقيب في الوسط يعظ الرجال . ثم تفسخت الصفوف ٠ وبالقرب من

كومة الحشيش مطبخ متنقل يوزع الحساء. قرقعة الجفان ، صراخ ، مناقشات ، طنين قفير نحل .. وعاد الغلام إلى الظهور لاهثاً ، يهز زجاجة ، ويضحك :
– هذا نبيذك . طلبوا أربعة عشر فلساً . انهم لصوص .
وفتح جاك عينيه من جديد . الليتر مغطى بالضباب ويبدو متجمداً . نظر اليه جاك ورفت جفونه : مرأى الزجاجة وحده .. يشرب .. يشرب .. وتجمهر الجنود حول رئيسهم الذي يمسك الزجاجة بين يديه كأنه يريد ان يتذوق برودتها بكفيه أولاً . لم يسرع . باعد مابين ساقيه واستند إلى ظهره ، ورفع الليتر في الشمس . وقبل ان يدخل فم الزجاجة بين شفتيه ، وليكون فمه نظيفاً تماماً ، فقد كشط حلقومه وبصق . وحين شرب ابتسم وناول مارجولا الزجاجة ، وهو الأقدم . هل سيفكر مارجولا بجاك ؟ كلا ، فقد شرب ونقل الليتر إلى جاره باولي الذي يختلج منخراه كمنخر البهيمة . وخفض جاك جفونه بهدوء ، لكي لا يرى .
أصوات حوله . ففتح عينيه وأطبقهما . صفوف ضباط من الفرسان – اولئك الذين تنتظر كوكبتهم على الطريق القريب – اغتنموا فرصة توقف الجنود ليأتوا ويثرثروا مع المشاة :
– نحن من الكتيبة الخفيفة . في السابع من الشهر أدمجونا بالجيش السابع .. وكان علينابلوغ تان Thann والقيام بحركة تصحيح هكذا ، قيام على محاذاة الرين لقطع الجسور . ولكننا عجّلنا كثيراً . وكان هناك سوء تصرف ، اتفهم؟ لقد أردنا السير بسرعة . فنفرت الخيول الرديئة . وكان جنود المشاة عاجزين عن المسير .. فاضطررنا إلى التراجع .
– بلبلة حسنة !
– هنا لا شيء . اننا آتون من هناك ، من الشمال .. ليست الجيوش فقط موجودة على الطرقات بل جميع المدنيين من القرى والذين انتابهم الخوف ورحلوا .
وقال رقيب من المشاة ذو صوت خشن وحار :

– نحن ، كنا في الطليعة ووصلنا إلى أمام ألتكيرك عند هبوط الليل
– في الثامن منه ؟
– في الثامن منه ، نهار السبت ، أول البارحة . .
– ونحن كنا هناك أيضاً . . وقد بذل المشاة جهدهم وليس هناك ما يقال . ألتكيرك كانت ملأى بالالمان ، وبخمس هجمات شديدة ألقاهم المشاة خارجاً بواسطة الحراب ·· وتبعناهم في الليل حتى فالهايم ·
– ونحن سرنا حتى تاغو لشايم ·
– وفي الغد ، لا شيء أمامنا ·· لا شيء . حتى مولهاوس . . وقد اعتقدنا انهم ساروا هكذا حتى برلين ، ولكن ، البقر ، كانوا يعرفون جيداً ما يفعلون حين تركونا نتقدم · لقد قاموا منذ البارحة بهجوم معاكس . ويبدو ان الجلبة شديدة هناك .
– نحن سعداء لأننا تلقينا أمراً بالرجوع ! يجب ان يكونوا قد حُصدوا كلهم في هذه الساعة .
وجاء نائب ضابط من المشاة وعدة رقباء من الفرقة يستمعون ولنائب الضابط عين محمومة ، ووجنتان حمراوان ، وصوت مرتجف :
– أما نحن فقد حاربنا ثلاث عشرة ساعة . ثلاث عشرة ساعة متتالية . أليس صحيحاً ياروشيه ؟ ثلاث عشرة ساعة .. كان الفرسان الألمان أمامنا في غاب صنوبر . وسأظل أرى ذلك طوال حياتي · ويستحيل اخراجهم . عندئذ أرسلت فرقتنا إلى الشمال لتدور حول الغاب . وأنا كنت وكيل حسابات عند زيمر في بوتو . . سرنا أكثر من كيلو متر زحفاً على البطن ، وظللنا ساعتين ، ثلاث ساعات · ولم نعتقد أبداً اننا سنصل إلى المزرعة · ومع ذلك فقد وصلنا . كان أصحاب المزرعة في القبو ، والنساء والأولاد يبكون : شفقة ·· أقفلنا عليهم بالمفتاح .. انهم ألزاسيون ، نعم · ولكن لا أحد يعلم ·· وقد فتحنا طاقات في الجدران ·· وصعدنا إلى الطابق الثاني ، ووضعنا فرشاً في النوافذ ، ولم يكن معنا سوى رشاش . ولكن الخرطوش كثير · اجل ، وبقينا طول

النهار ! ويبدو ان الكولونيل قال اننا رحنا ضحايا . . ومع ذلك فقد عدنا . إن ما فعلناه لا يمكن ان يصدق . فقط ، عندما اصدروا الينا الأمر بالمجيء ، واقسم لك ، لم نجعلهم يكررونه ثانية . كنا لا نزال مئتين حين تركنا الغاب ، ولم نكن سوى ستين حين تركنا المزرعة ، ومن بين الستين يوجد حوالي العشرين من الجرحى .. اجل ، في الأساس - أتصدقني ؟ - ليس هناك ما هو أكثر رهبة من ذلك . ليس هناك ما هو أكثر رهبة لأنك لا تعرف أبداً ما تفعل . لا الرجال ، ولا الضباط ، ولا أحد . لا يرى المرء شيئاً ولا يفهم شيئاً . انه يسعى إلى مكان آمن . حتى أنه لا يرى الرفاق الذين يسقطون ، وانا ، كان هناك واحد بالقرب مني ، وقد رشني دمه . وقال لي : « أنا هالك » . وسمعته أيضاً . سمعت صوته ولكنني كنت لا أعرف من هو . اعتقد ان الوقت لم يتسع لي لأنظر اليه . وسرنا ، وسرنا ، وصرخنا ، وأطلقنا النار ، ولم نعرف أين نحن . اليس صحيحاً ياروشيه ؟

فقال روشيه وهو ينظر إلى محدثيه واحداً واحداً بهيئة غاضبة :

- أولاً يجب القول : الالمان ، بالنسبة الينا ، لم يكونوا موجودين .

وصاح دركي : ايها الرئيس . الفرقة تتابع السير .

- نعم ؟ اذن ، إلى الامام .

وعاد ذوو الرتب إلى مراكزهم راكضين : انضموا إلى بعضكم البعض هنـاك .

- إلى الامام .

وصاح البريغادييه وهو يمر أمام الفرسان : إلى اللقاء ، حظ سعيد .

وسارت الفرقة على الطريق دون توقف آخر . ودخلت القرية مالئةالطريق بصفوفها المتراصة وبوقع أقدامها كالقطيع . وتباطأت المشية . وأصبح اهتزاز المحفة اقل إيلاماً . وجاك يتطلع .. بيوت .. هل هي نهاية عذابه ؟

كان الأهالي يقفون جماعات على الاعتاب ، رجال مسنون ، ونساء يحملن أطفالاً ، وغلمان متعلقون بثياب امهاتهم . منذ ساعات ، وربما منـذ الفجر ،

الظهر ملتصق بالجدار ، والعنق متلع ، والوجه مهموم ، وقد اعماهم الغبار والشمس ، انهم هنا يتطلعون ، ملء الشارع ، إلى هذا السير اللامنتهي للعربات العسكرية ، وقطارات القتال ، ومفارز صحية ، وقافلة مدفعية ، وفيالق انهكها التعب ، وكل « جيش التغطية » الجميل الذي كانوا قد رأوه ، بملء الثقة ، يصعد في الأيام السابقة نحو الحدود ، والذي يتراجع الآن بفوضى ، ويتركهم تحت رحمة الغزو .. والمدينة المخنوقة تحت الغبار يتصاعد دخانها في الشمس كمخزن خشب مهدم . دوي قفير منهوب يملأ الشوارع والأزقة والساحات . والدكاكين اجتاحها جنود يأخذون كل ما بقي من خبز ولحم خنزير ونبيذ . وساحة الكنيسة تعج بالرجال ، والسيارات المتوقفة . وفرسان يمسكون بأعنة خيولهم وهم محتشدون في الناحية اليمنى حيث يوجد شيء من الظل . وهناك ضابط برتبة رائد ، أحمر ، غاضب ، ينحني على عنق جواده ليشتم ناطور حقول عجوزاً بملابس مغناة هزلية . وبوابة الكنيسة الوسطى مفتوحة على مصراعين . وفي ظل صحن الكنيسة المضاءة قليلاً ، على فراش من قش ، يتمدد صف الجرحى ، وتتحرك حولهم نساء ، وممرضون ، وضباط اطباء بمريلة بيضاء . وفي الخارج ، على عربة في الشمس ، يوجد رقيب من رواد الجيش يصيح وسط الصخب : « الخامسة ! توزيع .. » والفرقة تتقدم أكثر فأكثر ببطء . ووراء الكنيسة يضيق الشارع الكبير ويشكل ممراً طويلاً ضيقاً . والصفوف تتكوّم ، والرجال يحركون أرجلهم في أماكنهم ، مجدّفين . وهرم في مقعد مجهز بالوسائد ، جالس أمام بابه كأنه في مسرح ، يضع يداً على كل ركبة ويسأل البريغادييه أثناء مروره : هل تتراجعون هكذا إلى مكان بعيد ؟

– لا ادري . ننتظر الأوامر .

ويجيل الهرم نظره الصافي كالماء لحظة بالمحفة وبالدرك ، ويهز رأسه بهيئة مستاء :

– رأيت كل هذا عام ٧٠ ، ولكن نحن ، قد صمدنا وقتاً أطول .

والتقى نظر جاك بنظر العجوز المشفق . عذوبة ..

واستمرت الفرقة في التقدم . لقد اجتازت الآن منتصف القرية . وأوضح البريغادييه بعد أن سأل ملازمـــاً في الدرك : يبدو اننا سنتوقف هناك عند آخر البيوت .

فقال مارجولا : هذا أفضل . ونكون أول من يواصل السير .

وانتهى البلاط ، وعاد الشارع فأصبح طريقاً واسعاً دون ارصفة ، محاطـاً ببيوت منخفضة وحدائق . « قفوا ! دعوا العربات تمر » . وواصلت القطارات العسكرية تقدمها . وقال البريغادييه :

– انظروا انتم إذا كانت عربة المطبخ لم تتبعنا .. اننا جائعون .. وأنا باقٍ هنا مع باولي لحمل الضعيف ..

كانت المحفة قد وضعت على جانب الطريق ، بقرب حوض جاء إليه الجنود من جميع الأسلحة يملأون أوعيتهم . والماء ، وقد حُرك ، ينبجس من فوق حلقة البئر ويسيل سواقي . ولم يستطع جاك ان يفصل عينيه عن هذا السيلان . ففي فمه طعم حديد كريه . ولعابه كقطن رطب :« اتريد ان تشرب أيها الصغير؟ »

اعجوبة ! طاسة بيضاء تلمع بين يدي فلاحة عجوز . وقد تشكل حولهـا حشد . جنود ، مدنيون، شيوخ ذوو جلود مدبوغة،وغلمان ، ونساء.واقتربت الطاسة من شفتي جاك . انه يرتجف .. نظره يشكر كنظر كلب . حليب . وشرب متألمـــاً جرعة وراء جرعة . ومسحت العجوز بطرف مريلتها الذقن بمقدار .

ومر طبيب بثلاث شرائط واقترب : جريح ؟

– نعم يا سيدي الماجور . غير شائق .. جاسوس . ألبوش ..

فانتصبت العجوز الفلاحة كالنابض . وبحركة عنيفة أفرغت ما بقي مـــن طاستها في الغبار . « جاسوس .. ألبوش .. » وانتقلت الكلمات من فم إلى فم. وضاقت الحلقة حول جاك ، عدائية ، مهددة . انه وحيد ، موثق ، دون دفاع . ولفت عينيه . في خده حرق جعله يرتجف . وهناك من يضحك.وشاهد

فوقه جذع تلميذ بصدرة زرقاء . والولد يضحك بخبث ، ويمسك بين أصابعه عقب سيكارة مولعاً . وزمجر البريغاديه : دعوه مرتاحاً .

فأجاب الغلام : ما دام جاسوساً ..

– جاسوس . تعال وانظر . جاسوس .

وخرج اناس من البيوت المجاورة ، وشكلوا جماعة حاقدة بذل الدرك جهداً في إبقائهم بعيدين .

– ماذا فعل ؟

– اين قبضوا عليه ؟

– لماذا لم يصفوا حسابه ؟

والتقط غلام قبضة من الحصى ورشقها . وفعل آخرون مثله . فصاح البريغاديه مستاءً : كفى . دعونا بسلام .

ثم وجه كلامه إلى باولي :

– لنحمله إلى هناك ، إلى الساحة . وستقفل الحاجز .

وشعر جاك أنه رُفع وحمل . فأطبق عينيه . وابتعدت الشتائم والضحكات .

صمت .. اين هو ؟ وجازف بنظرة . وضعوه في معزل ، بعيداً عن الرؤية ، في ساحة مزرعة ، في ظل مخزن حبوب تشتمُّ منه رائحة الحشيش الحارة . وبقربه عربة بأربعة عجلات ترفع في الهواء بقية (عريشين) مبتورين ، ينام عليهما الدجاج . ظلام صامت .. لا أحد .. الموت هنا ..

وايقظته هجمة الدرك بعنف . وهربت الدجاجات صائحة ، مجفلة ، خافقة أجنحتها بشكل شديد . ماذا جرى ؟ نداءات من جميع النواحي ، وعدو خيول ، وبلبلة عامة . وارتدى البريغاديه قميصه بسرعة ، وملابسه الباقية .

– هيا ، وهاتوا الضعيف بسرعة .

في الناحية الاخرى من الساحة يوجد شارع صغير يمر فيه صف من عربات الأسعاف .

– أيها الرئيس ، انهم ينتقلون حتى مركز النجدة .

– ارى ذلك . اين مارجولا ؟ اسرعوا يا باولي .. ماذا أيضاً ؟ أبراعة الآن ؟

ودخلت شاحنتان صغيرتان إلى الساحة تتبعها فصيلة جنود . وأفرغ الرجال منها بسرعة أوتاداً واسطوانات من الاشرطة الحديدية .

– الأوتاد المحددة في هذه الزاوية . والباقي هنا .. بسرعة .

وانتاب البريغادييه القلق فسأل الرقيب الذي يراقب العمل :

– اذن فالأمر سيء إلى هذه الدرجة ؟

– يظن ذلك . وقد جئنا نحن لتعزيز الوضع .. ويبدو انهم قد احتلوا جبال الفوج .. وانهم انحدروا إلى بلفور .. ويبدو ان هناك من يتكلم عن الاستسلام لتجنب الاحتلال .

– اصحيح هذا ؟ اذن انتهى الأمر بالنسبة الينا ؟

– اثناء ذلك ، تفعلون حسناً بأن ترحلوا ٠٠ سيجري ترحيل السكان ٠ في مدى ساعة يجب ان تكون القرية خالية ٠

فالتفت البريغادييه نحو رجاله وقال : **والضعيف** ٠ على من الدور ؟ ليس الوقت وقت توان يا مارجولا ٠٠ بسرعة ٠

وملأ هدير المحركات الساحة ٠ والشاحنات التي افرغت حمولتها عادت على أعقابها ٠ وسيطر صوت أحد النقباء على الجلبة :

– اجمعوا لي كل ما يستطيعون ايجاده من محاريث ومسالف، وحتى المناجل. اذهب وقل للملازم ان يمنع المدنيين من أخذ الطنابر ٠ سنكون بحاجة اليها لسد الطرقات ٠

وصاح البريغادييه : وبعد يا مارجولا !

– ها أنذا ايها الرئيس .

وامسكت اربعة سواعد بالمحفة ، وأنّ جاك . وبلغ الدرك الطريق بسرعة حيث تابعت الفرقة سيرها بعد أن أُعيد تشكيلها . وكانت الصفوف متراصة بحيث لم يكن من السهل الدخول بين هذا الحشد الغفير بمحفة .

– إقتحم . يجب أن نحرز مكاناً لنا في الداخل مهما كلف الأمر .

فزمجر باولي :

– باستا ! ليس بالمستطاع السير أياماً جارين معنا هذا الشخص .

هزّات .. وهزّات . واستيقظت الآلام كلها .

القرية في أوج بلبلتها . في افنـاء البيوت ليس سوى نداءات ، وصراخ ، وشكايات . ربط الفلاحون عرباتهم بسرعة ، وكدست النساء فيها ، بغير نظام ، صرراً وصناديق ، وأسرّة ، وسلال مؤونة . وهرب كثير من العائلات سيراً على الأقدام ، مختلطةً بالجنود ، دافعة امامها عربات يد ، وعربات اطفال ملأى بأشياء غير متجانسة . وعلى شمال الطريق عربات مؤونة ، وعجال تجرها خيول ضخمة ، تسير جنباً في قرقعة جهنمية . ومن جميع الشوارع الصغيرة تتقاطر عربات تجرها حمير وخيول . وقد أُجلست فيها عجائز وأطفال فوق اكداس الاثاث والصناديق ، والفرش . وعربات المدنيين التي تقطرها الدواب مرت في وسط عجلات الجيش التي تسير سيراً عادياً وتشغل منتصف الطريق . وجنود المشاة الذين دُفعوا إلى الناحيـــة اليمنى يسيرون حيث يستطيعون على جانب الطريق ، وفي الخنادق . والشمس تضرب بقساوة .. ظهور منحنية ، وقبعات الى الوراء ، ومنديل على الرقبة ، وهم محمّلون كالدواب (بعضهم يحمل حزماً صغيرة من الحطب اليابس على عرض الكتفين) يسيرون بخطوة مسرعة وثقيلة ، دون كلام .. لقد أضاعوا فيلقهم . ولا يعرفون من أين اتوا ولا الى اين يذهبون ؛ قليلاً ما يهمهم ! ثمانية ايام من الحرب . لقد اقلعوا عن الفهم منذ وقت طويل ! يعرفون فقط انهم « يسيرون » ؛ وهم يتبعون .. والتعب ، والخوف ، والخجل ، والسرور بالهرب ، جعل لهم كلهم قناعاً نفوراً . انهم لا يعرفون بعضهم البعض ، ولا يتحادثون ؛ وحين يتصادمون يتبادلون شتيمة أو عبارة فظة .

وجاك يفتح ويقفل عينيه وفقاً للهزّات . وآلام الساقين قد خفّت اثناء هذه الاستراحة القصيرة في ظل مخزن الحبوب ؛ ولكنها آلام مستمرة في فمه الملتهب . . . وتهتز حوله جذوع رجال ، وبنادق ؛ والغبار ، وبخار هذه السائمة البشرية يخنقانه ؛ وتموّج تلك الاجساد التي تتأرجح على غير نظام في معدته الفارغة غشيان دوار البحر . لم يجرب أن يفكر . انه شيء مهمل من الجميع ، ومن نفسه .

واستمر المسير . وضاقت الطريق بين منحدرين. وفي كل لحظة تُسد الطريق ويحدث توقف ؛ وفي كل مرة توضع المحفة على الارض وتصدمها بشدة ؛ وفي كل مرة يفتح جاك عينيه ويئن . وقال الكورسكي الصغير متذمراً :

– باستا ! هذا الحمل ! أن الالمان لا يعتنون بنا ايها الرئيس . . .

فصاح البريغاديه وقد اهتاجت اعصابه : هيا اذن ! ها انت ترى انهم واصلوا التقدم .

واهتزت الفرقة من جديد ومشت باعتدال حوالي الخمسين متراً وتوقفت . ووجد الدرك انفسهم واقفين على ملتقى خطوط حديدية حيث تنتظر سرية من المشاة ، متراصّة ، والسلاح معلق في الكتف . وضباط مجتمعون حول نقيب يعدون العدة لعمل مشترك ويستشيرون خرائطهم ، واقفين على المنحدر . وسأل البريغاديه نائب ضابط كان قد اقترب بفضول من المحفة : إلى اين تسيرون ؟ .

– لا ادري . . . النقيب ينتظر الاوامر .

– الأمر سيء ، اليس كذلك ؟ .

– نعم ، على الأرجح . . . يبدو انه قد أشير إلى وجود فرسان المان في الشمال .

وتقدم ضابط على حافة المنحدر وصاح : السلاح في اليد ؟ ورائي اربعة اربعة .

وترك إلى شماله الطريق المزدحمةوقاد رجاله خلال السهول الموازية للطريق.

ـ انه ليس بالاحمق ايها الرئيس . فهو متأكد من انه سيقطع المرحلة قبلنا .
فمضغ البريغادييه شاربه ولم يجب .

وطـــال التوقف . وبدت الفرقة محاصرة بشكل جدي . حتى قطارات المدفعية إلى الشمال قـــد تجمدت . وهناك فئة من راكبي الدراجات ، وآلاتهم في أيديهم ، حاولوا الدخول بين العربات ، ولكنهم غاصوا ايضاً في التكدس المعقد .

ومرت عشرون دقيقة . ولم تتقدم الفرقة عشرة امتار . إلى اليمين ، في الحقول ، تشكيلات من جنود المشاة تتراجع نحو الغرب ، دون الاهتمام بالطرقات. واهتاج البريغادييه واشار إلى رجاله . وتقاربت الرؤوس فوق المحفة بمشاورة بصوت منخفض .

ـ لا يمكن البقاء هنا طول النهار ونحن نفعل كفرقـة الزواف [١] . ليس عليهم الا أن يسيروا اذا ارادوا متابعة طريقهم . اما انا فلدي مهمة خاصة ، اليس كذلك ؟ يجب تسليم هذا الشخص إلى درك الجيش هـــذا المساء . اني اتحمل المسؤولية . اتبعوني .

وأطاع الدرك دون أن يضيّعوا ثانية واحدة ، فدفعوا الجنود المحيطين بهم ، وامسكوا بالمحفة ، واجتازوا الخندق ، وتسلقوا المنحدر واندفعوا خلال الحقول تاركين الطريق وعرباتها المشلولة .

ووثوب الخندق ، وصعود المنحدر انتزعا من جاك أنـّة طويلة بحّاء . فلوى عنقه وحاول فتح شفتيه المتورمتين ... هزة جـــديدة .. واخرى ايضاً ... السماء ، والاشجار كلها تهتز ... الطائرة تحترق ؛ قدماه مشملان ؛ الموت ، موت فظيـــع امسك بساقيه ، بفخذيه وصعد حتى قلبه ... وأغمي عليه .

وصُدم فجأة فاستعاد وعيه . اين هو ؟ المحفة موضوعة على العشب . منذ كم من الوقت ؟ هذا الهرب بداله انه دام اياماً ... الضوء تغير . والشمس

---

١ ـ الزواف Zouave : فرقة من المشاة في الجيش الفرنسي أنشئت في الجزائر عام ١٨٣١ .

اكثر انخفاضاً ، والنهار انتهى ... الموت .. أن شدة الألم خدّرته كأنها دواء . لقد بدا له انه ادرج في كفنه تحت الارض على عمق لا تصل اليه الصدمات والطنين والاصوات إلا مخنوقة ، بعيدة . هل نام ؟ هل يحلم ؟ لقد احتفظ برؤية غابة صغيرة من الطلح (الأكاسيا) تُرى فيها عنز بيضاء ؛ ومرج فيه مستنقعات تغرز فيها احذية الدرك وتلطخه بالوحل .. وفتح عينيه واسعتين وحاول أن يرى . مارجولا وباولي والبريغاديه وضعوا مركبةً على الارض . وإلى الامام ، على مسافة بضعة امتار ، كتلة كبيرة تتحرك : سرية من المشاة نائمة ... والأكياس متداخل بعضها في بعض وتشكل درعاً كبيت السلحفاة ، ضخماً يرتجف في العشب .

والنقيب واقف وراء رجاله ، يسبر الافق بمنظاره . وإلى الشمال تل صغير : حقل منحدر انتشرت عليه فرقة زرقاء وحمراء ، كالمروحة ، ونامت شبيهة بلعبة ورق على بساط اخضر .

– ماذا ينتظرون ايها الرئيس ؟

– اوامر .

فقال مارجولا :

– اذا اضطررنا إلى الركض فكيف نصنع لنتبع الآخرين مع هذا الضعيف ؟

واقترب النقيب من البريغاديه وأعاره منظاره . وفجأة ، افواج من الخيول على الناحية اليمنى : كوكبة من الفرسان على رأسهم صف ضابط ، مستقيم في ركابه ، وعرف الحصان في الهواء . وقد توقف بقرب النقيب . قسماته قسمات ولد . وجه منتعش ، فرح . يده في قفاز ، ممدودة إلى اليمين :

– انهم هناك ... وراء التلة .. ثلاثة كيلومترات ... يجب أن تكون فصيلة المساندة قد اشتبكت الآن .

كان يتكلم بصوت مرتفع . وشاهده جاك ، فاجتازت خوده صورة دانيال بخوذته .

واهتز صرير معدني في الهواء : وجنود الصف الاخير ، الذين سمعوا ، وضعوا الحراب في البنــادق بدون انتظــار الاوامر ؛ وانتشرت حركتهم من الأقرب إلى الاقرب ، وجعلت حقلاً من السوق اللامعـــة يبرز من الارض ؛ وارتفعت جميـع الرؤوس ، والتفتت جميـع الانظــار نحــو « التلة » المشؤومة ، حيث السماء مذهبة ، هــادئة ، صافية . وباشارة ، جمـع صف الضابط فرسانه الذين كانت خيولهـم تضرب بحوافرهــا العشب الكثيف . وسارت الكوكبة خبباً . وصاح النقيب : قل انهم ارسلوا الينا الاوامر .

والتفت نحو البريغادييه : أرأيت هذا قبلاً انت؟ إلى الشمال لا يوجد اي اتصال ، وإلى اليمين كذلك ! ماذا يريدون أن نفعل في هذه البلبلة ؟

وابتعـــد ليلحق برجــاله . وتمتم مارجولا : يجب الا نبقى هنا ايهــا الرئيس ...

وقال باولي : هيه ها هم يتحركون هناك .

وبالفعل ، فــان المفرزة التي كانت منتشرة في المراعي وصلت إلى التلة صفاً بعد صف وبوثبات متتابعة . وكل بدوره ، كل صف من الجنود اختفى في الناحية من المنحدر . وصاح النقيب : إلى الامام .

وقال البريغادييه : ونحن ايضاً ، إلى الامام !

ورُفعت المحفة وهُزّت. وأنّ جاك . لم يصغ اليه احد،لم يسمعه احد .آه ، ليتركوه..ليتركوه يموت هنا..وأطبق عينيه..اوه،هذه الصدمات. كل خمسين متراً تسقط المحفة بعنف في العشب، ويركع الدرك ويتنفسون دقيقة ويعاودون سيرهم . وإلى اليمين ، وإلى الشمال جنود يتسلقون التلة بدورهم واثبين . ووصل الدرك اخيراً على بعد بضعة أمتار من القمة . النقيب هناك . وقال موضحاً :

ـ من الجهة الأخرى ، في اعماق الوهدة ، يجب أن يوجد غــاب وطريق . ويجب أن نستطيع السير تحت الغاب نحو الجنوب الغربي.. ويجب العمل بسرعة ، فاذا اجتزنا القمة نصبح منظورين .

وجاء دور آخر قسم من المشاة .

– الى الامام .

وصاح البريغاديه : لنتبعهم .

وانتُزعت المحفة مرة أخرى من الأرض ،وبلغت خط الذروة. مرج تقطعه اشجار صغيرة ، ينحدر نحو مضيق مشجر تبدأ بعده غابات تحد الأفق .

– ليس لنا إلا أن ننحدر بخط مستقيم ، من أقصر طريق ، إلى الامام !

وفجأة مزق الهواء صفير طويل : ضجة تحدث صريراً كثقب ، تكبر وتكبر .. وسقطت المحفة بثقل على العشب ، وانبطح الدرك على الارض بين الجنود ، وليس لكل منهم سوى فكرة : لينبطح اكثر ما يمكن ويغوص في الارض ، كما تغرز الاحذية في مَدٍّ منخفض .. انفجار مكتوم وقصف عنيف إلى الامام ، في الناحية الأخرى من الوحدة ، في الغابات ، وارتسم الذعر على الوجوه .

– لقد اكتُشفنا .

– تقدم اذن . سنهلك في غاباتهم .

– إلى الوهدة ، إلى الوهدة .

ونهض الرجال بسرعة ووثبوا على المنحدر ، مستفيدين من أصغر شجرة ، من أقل ثنية ارض لينبطحوا على التراب قبل أن يثبوا من جديد . وتبعهم الدرك ، مهتزين ، مفككين المحفة . وبلغوا اخيراً حافة الغاب . وجاك ليس سوى صرة من اللحم مثخنة لا حركة فيها . وأثناء الانحدار فان كل ثقل الجسم انصب على الساقين المحطمين . ودخلت السيور في الذراعين والفخذين . لم يعد يشعر بشيء . وفي اللحظة التي دخلت فيها المحفة كالقنبلة خلال الصنوبر الموجود على حافة الغاب ، فانه فتح عينيه لحظة ، والاغصان تضربه ، والوخز يثقبه ، ويتقشر وجهه ويداه .. ثم كانت راحة مباغتة ، فبدأ له انه فقد الحياة كما يفقد دمه من سيلان فاتر موجع .. دوار .. سقوط في الفراغ .. الطائرة .. المنشورات ..

وارتفع صفير سهم ناري. واقترب ، ومرّ .. ففتح جاك عينيه وأطبقهما .. طنين بشري .. ظلام .. سكون .

المحفة ملقاة تحت اشجار الغاب على أرض من إبر الصنوبر . وحوله هرج غير واضح . والجنود المشاة متراصّون جسداً لجسد ، بقرب بعضهم البعض كأنهم ملحومون بكتلة كثيفة . وهم واقفون ، وأعناقهم غائرة في عتادهم ، تشلّ حركتهم بنادقهم وأكياسهم التي تتعلق بأوراق الشجر ، يحركون اقدامهم في اماكنهم دون أن يستطيعوا التقدم أو الالتفات .

ـ لا تتقدموا .

ـ ماذا ننتظر ؟

ـ أرسلت دوريات استطلاع .

ـ يجب النظر إذا كانت الغابات مأمونة !

وهناك ضباط وصفوف ضباط كانوا يبذلون الجهد دون التوصل إلى إعادة جمع رجالهم .

ـ الصمت !

ـ السادس ، الي !

ـ الثاني !..

وعند المحفة جندي مستند إلى صنوبرة . واجتاحه النوم دفعة واحدة كالميت . انه فتى ؛ متقعر القسمات ، والصبغة رمادية ؛ وذراعه المتصلب يشد آلياً البندقية إلى خصره : يبدو كمن يقدم سلاحه .

ـ يظهر أن المفرزة الثالثة سارت لحماية الجناحين .

ـ من هنا يا أولادي ، من هنا !

انه عريف ، فلاح ، ربعة ، دخل الغاب جارّاً وراءه جماعته كما تجر الدجاجة فراخها .

وهناك ضابط برتبة ملازم مر بمحاذاة المحفة . وله تلك السحنة المتكبرة الخائفة لرئيس طاغٍ مستعد لكل شيء في سبيل انقاذ سلطته .

ـ أنتم أصحاب الرتب . اسكتوا الجميع ! أتريدون ان تطيعوا ام لا ؟ القسم الأول ، تجمّع !

وعبس الجنود وحاولوا أن يتحركوا . انهم لا يطلبون سوى أن يجدوا رؤساءهم ورفاقهم ليشعروا من جديد أن هناك من يتولى امرهم . من يحيط بهم . ويوجد بينهم من يضحكون مستأمنين ببلاهة بسبب الأفق المحدود تحت الغاب : كما لو أن الحرب ظلت هناك في الناحية الأخرى من الحدود ، في أرض مكشوفة . وبين فترة وأخرى فـان ضابط ارتباط راشح بالعرق ، لاهث ، غاضب ، لا يجد من يبحث عنه أبداً ، يفتح ممراً وهو يجدف ويختفي بين الشجيرات والرجال ، بعـــد أن يلقي ، بهيئة عابسة ، رقم فيلق أو اسم كولونيل ... ومر صفير جديد من فوق الاشجار اشد قوة وأكثر جفافـــاً . صمت مفاجيء . وانطوت الاكتاف ، وتكدست الرقاب على الأكياس . هذه المرة كان الانفجار إلى اليمين ..

ـ هذا من عيار ٧٥ .

ـ كلا ، انه من عيار ٧٧ .

ورجال الدرك المجتمعون حول المحفة كأنهم حول سبب وجودهم يشكلون جزيرة صغيرة ثابتة جاءت الأمواج البشرية تضربها .

وبرز فجأة صوت من طرف الغابة :

ـ ارفع إلى علو ١٨٠٠ م ؛ خط الذروة .. الغاب الصغير الأسود .. اطلق النار عندما اصدر الأمر .

وهزت الهواء طلقات نارية . وساد الصمت تحت اشجار الغاب . وانفجرت طلقات جديدة . ثم انطلقت طلقات ، واحدة واحدة ، ثم ازداد عددها اكثر فأكثر . وجميع الذين كانوا عند حدود الغاب التفتوا نحو الحقول ، وبدون ان يتلقوا أمراً ، وهم سعـداء بالتحرك ، اسندوا بنادقهم إلى اكتافهم كيفما اتفق ، وأخذوا يطلقون النـار من خلال الأوراق . والجندي الفتى الذي كان نائماً عند جذع شجرة منـذ قليل ، أصبح الآن راكعاً عند قدم المحفة ، يطلق

النار دون توقف ، وباجتهاد ، والبندقية موضوعة بين تشعب اغصان شجرتين. وكانت كل طلقة تضرب جاك كجلدة سوط ؛ ولكن ليس لديه القوة ليفتح عينيـه .

وفجأة ، ركض بعض الجنود إلى اليمين ... جماعة من الضباط علىخيولهم، إثنان برتبة رائد (قومندان) وعقيد (كولونيل) ، اسرعوا إلى الغـاب بين حفيف شجيرات محطمة . وعلا صوت عاوٍ على زفير الطلقات النارية :

– من الذي اصدر الامر ؟ أأنتم مجانين ؟ على ماذا تطلقون النــار ؟ اتريدون أن تكشفوا الكتيبة كلها ؟

وصاح الرتباء من جميـع النواحي :

– كفّوا عن اطلاق النار ! تجمّع !

وتوقفت الضوضاء فجأة . وجميـع اولئك الرجال المكومين الذين بدوا انهم اسرى ارتباكهم اطاعوا باندفاعة جماعة ، ونجحوا في الانعتاق من هذا الأسر والالتفات إلى نفس الاتجـاه ؛ وتزاحموا ، وتصادموا ، وتدافعوا بصمت ، وكطيران عصافير مهاجرة، تحركوا ببطء باتجاه الجنوب ، وراء كوكبةالضباط الكبار . ورنين الطناجر ، والأقداح ، والطاسات الذي يرافق وقع الأحذية على الأرض الملبدة ، يملأ ارض الغاب بجلبة قطيع . غبار صمغي يتصاعد سحباً مغبراء خلال اشجار الصنوبر .

– ونحن أيها الرئيس ؟

كان البريغادييه قد اتخذ قراره .

– نحن ، يجب أن نتبعهم .

– مع **الضعيف** ؟

– بالتأكيد . هيا ! ورائي ، إلى الامام .

وبدون أن ينتظر . كأنه يمشي إلى الهجوم ، سار في الموجة وتبعـه الدركيان الحرّان على الأثر . والآخران رفعا جاك برشاقة ؛ وقال باولي :

– أجاهز أنت يا مارجولا ؟

وحاول الدخول في التيار ، ولكن الموجة البشرية كانت لا تزال كثيفة بحيث كانت المحفة تدفع بدون شفقة لدى كل محاولة . وقال مارجولا :

ـ يجب الانتظار حتى تتسع هذه قليلاً .

فقال الكورسكي وقد ترك رجل المحفة بشراسة :

ـ باستا ! اذن يجب ان ألحق بالرئيس كي اقول له ان ينتظر .

فصاح الدركي العجوز تاركاً المحفة بدوره :

ـ هيه ، باولي . لن تتركني هنا !

ولكن باولي كان بعيداً عن سماع النداء ، فقد دخل في الحشد نشيطاً كسمك السلّور ، وقبعته الزرقاء ، وعنقه القصير الذي لوحته الشمس اختفيا حالاً :

وقال مارجولا مجدفاً : « واسم الله » وانحنى نحو جاك كما كان يفعل حين يقدم له الماء ليشرب . ولمع في عينيه بريق غضب .

ـ كان كل هذا بسببك ايها القذر .

ولكن جاك لم يسمع ، فقد فقد وعيه .

وأبعد الدركي الأغصان وحاول أن يمسك بكتف أحد الجنود المشاة :

ـ ساعدني على حمل هذا .

فقال الآخر متخلصاً بعنف :

ـ لست حامل محفـّات .

واستهدف الدركي رجلاً ضخماً أشقر ذا هيئة لطيفة .

ـ ساعدني ايها الكبير .

ـ أتعتقد !

وتمتم مارجولا : ماذا أعمل بهذا الشخص ؟

وسحب منديله ومسح وجهه بصورة آلية .

بعد قليل اصبحت الموجة أقل كثافة ، لو عاد باولي فبامكانهم التقدم ، بالتأكيد . وتمتم مارجولا : يا حضرة النقيب .

فقد مر ضابط يسحب جواداً بعنانه. كان ينظر أمامه دون أن يلفت رأسه. وكان المارّون الآن هم من الذين تأخروا . انهم يسرعون مشتتين ، منخفضي الرؤوس ، منهوكين ، يسحبون سيقانهم ، قلقين لأنهم في المؤخرة . لا فائدة من التجربة : ما من أحد يود أن يزعج نفسه بمحفة .

وفجأة . أصوات وركض سريـع ، من الناحية الاخرى من حدود الغاب ، في الحقول . والتفت مارجولا شاحباً . وبدافع الغريزة فتحت أصابعه غمـد مسدسه وقبض على مسكته . كلا ! أصوات فرنسية : من هنا ! من هنا .

وبرز جريح من بين الصنوبر · وركض كمن يسير في نومه · الجبهة معصوبة ، والوجه قليل الدم · وعلى اثره عشرة من المشاة يسرعون إلى الغابة ، دون حقائب ، دون سلاح . جرحى صغار ، هم أيضاً ذراع معلق بشال ، يد ، ركبة ، محاطة بالضمادات ·

– هل الطريق مـن هنا أيها الشيـخ ؟ قل . ايمكن السير من هنا ؟ انهم ليسوا بعيدين كما تعلم ·

فتمتم مارجولا : ليسوا بعيدين ؟

وانفصلت الأغصان مـن جديد · وظهر طبيب عسكري (ماجور) متراجع · وفتح الطريق لمرضين يحملون على أيديهما المعقودة بشكل مقعد رجلاً كبيراً عاري الرأس ، لونه كالجثة ، مطبق العينين ؛ وسترته ، سترة ضابط ، مفتوحة ، أربـع شرائط . البطن منتفخ تحت قميص ملوث بالدم ، « بهدوء ، بهدوء ! » وشاهد الطبيب الدركي وجاك عند قدميه · فالتفت بسرعة :

– نقالة ! ما هذا ؟ مدني ؟ جريح ؟

فقال مارجولا وهو يؤدي التحية : جاسوس يا سيدي الطبيب .

– جاسوس ؟ يعوزه أكثر من ذلك ! نحن بحاجة إلى النقالة لأجل الرائـد (القومندان) . . هيا ، بسرعة ·

فأطاع الدركي وبدأ يفك السيور ويحل الأربطة ، وارتجف جاك وحرك يداً ، وفتح العينين . . قبعة ماجور ؟ انطوان ؟ وبذل جهداً فوق طاقة البشر

ليفهم ، ليتذكر . سينقذونه ، سيعطونه ليشرب . . ولكن ماذا يفعلون به ؟ المحفة ارتفعت : آخ ! ليس بقوة كبيرة . الساقان . . ألم مفرط : لقد دخلت قصبتا الساق الكبيرتين المحطمتين في اللحم رغم الخشبتين،ورؤوس حراب محمّاة دخلت في اللب . . لم ير أحد شفتيه تلتويان من الألم ولا نظره المتمدد من الرعب. لقد قلب باسترخاء عن المحفة كما تقلب عربة يد تفرغ . وانهار على الجنب بأنـة بحّاء ، وبرد مفـاجىء ، برد آتٍ من الساقين يتصاعد ببطء مميت حتى القلب . .

ولم يعترض الدركي . فقد اخذ ينظر حوله بهلع . الماجور يفحص خارطته بينما اجلس المرضون الرائد على المحفـة بسرعة وهو مطبق العينين ، وقميصه أصبح أحمر . وتمتم مارجولا : اليسوا بعيدين يا حضرة الماجور ؟

وأصوات حادة رتيبة لعصافير الليل تمزق الهواء تبعها بعنف انفجار قريب يجعل الدماغ يثب في القحف . وعلى الاثر تقريباً جاء من الحقول أزيز رصاص بنادق .

وصاح الماجور :

– إلى الامام . نكاد نقع بين نارين . . سنموت إذا بقينا هنا .

وانبطح مارجولا كالآخرين على الأرض اثناء الانفجار . وشعر بالألم فانتصب واقفاً . وشاهد المحفة التي أخذت ، وفصيلة الجرحى التي دخلت الغاب . فعوى بصوت مخنوق من القلق :

– وبعد ؟ وأنا ؟ . . **والضعيف** ؟

فالتفت صف الضابط العجوز ذو الذراع المربوط ، والذي يسير في المقدمة دون ان يقف . وردد مارجولا متوسلاً :

– وأنا ؟ لن تذهب . ماذا افعل بهذا ؟

فصنع صف الضابط ناقل صوت بيده السليمة ، وهو متطوع للمرة الثانيـة وجندي قديم في المستعمرات ذو جلد مدبوغ :

– جاسوسك بضاعة رديئة : صفّ حسابه أيها الأبله وسر إذا لم تشأ أن تعلق كالجرذ .

فعوى الدركي :

ــ اسم الله . اسم الله !

هو الآن وحيد : وحيد مع نصف الجثة هذه ، المقلوبة على جانبها،والعينان مطبقتان . وحوله صمت احتفالي غير عادي .. ليسوا بعيدين صف حسابه .. فأدخل يده في غمد مسدسه وعينه خائفة ، وأهدابه ترف. الخوف من أن يُقبض عليه وهو يكافح خوفه من القتل . انه لم يقتل أحداً أبداً ! حتى ولا بهيمة .. بدون شك ، لو انفتحت عينا الجريح مرة أخرى في هــذه اللحظة . لو اضطر مارجولا إلى مجابهة نظرة حية .. ولكن هذا الوجة الجانبي الشاحب الذي يبدو ان الحياة قد استلت منه ، وذلك الصدغ الذي يقدم نفسه كليــاً .. مارجولا لايتطلع . شنج جفونه، وفكيه . ومد ذراعه . ولمست ماسورة المسدس شيئاً . الشعر ؟ الاذن ؟ وصاح لكي يكتسب الشجاعة ، وليبرر عمــله أيضاً ، واسنانه تصر : زبل .

وانطلقت الصرخة والرصاصة في الوقت نفسه .

انه حر ! انتصب الدركي وقفز إلى الغابة بدون ان يلتفت. الأغصان تسوط وجهه . وقد رسم أثر التراجع طريقاً ، الرفاق قريبون . لقد نجا ! وركض . هرب من الخطر ، ومن وحدته ، ومن جريمته .. واستعاد نفسه ليركض بسرعة أكثر . وعند كل وثبة جديدة ، ولكي يظهر حقده وخوفه ، أخذ يردد دون ان يرخي أسنانه :

ــ زبل ! زبل ! زبل !

الخاتمة

١

– ألم تسمع الهاتف يا بييريه ؟

كان الحاجب في امانة السر ، مغتنماً فرصة الساعة الصباحية التي يكون فيها الاطباء والمرضى مشغولين بالمعالجة ويتركون الطابق الأرضي فارغاً ،يتنشق عبير الياسمين ، منحنياً على دربزين الشرفة . فألقى سيكارته بسرعة وركض يرفع السماعة :

– ألو !

– ألو ! هنا مكتب دي غراس . برقية لمستشفى موسكيه .

فقال الحاجب وهو يسحب الدفتر والقلم الرصاصي :

– دقيقة .. أنا مصغٍ .

وبدأ رئيس المكتب يملي :

« باريس – ٣ أيار ١٩١٨ – الساعة السابعة والدقيقة الخامسة عشرة – الدكتور تيبو – مستشفى المتسممين بالغاز – لوموسكيه بقرب غراس . الالب البحرية – أمتابع أنت ؟ » .

فردد الحاجب : الـبحـرية .

– سأكمل : العمة دي ويز و ، مثل ولاديمير ، و ي ، ز ..

العمة دي ويز ماتت – الدفن في المأوى نهار الاحد الساعة العاشرة–تعزيتي . التوقيع ! جيز . هذا كل شيء . سأعيد القراءة .. »

وخرج الحاجب من القاعة الكبرى وسار نحو الدرج : في تلك اللحظة ظهر على باب المكتب ممرض عجوز بربلة بيضاء يحمل طبقاً :

– أصاعد انت يا لودفيك ؟ احمل هذه البرقية إلى الرقم ٥٣ .

والغرفة رقم ٥٣ فارغة ؛ السرير ممهد، والغرفة مرتبة . فاقترب لودفيك من النافذة المفتوحة وبحث في الحديقة . لم يكن الماجور تيبو فيها ، بعض المرضى الناقهين بپيجامات زرقاء ينتعلون الخفّ وعلى رؤوسهم قبعات جندي أوضابط. وكانوا يروحون ويجيئون في الشمس ويتحادثون ؛ وآخرون مصفوفون أمام أشجار السرو يقرؤن الصحف ، متمددين في الظل على مقاعد من قماش .

وحمل الممرض طبقه من جديد حيث تبرد عليه طاسة من مـــاء الحشائش ، ودخل إلى الرقم ٥٧ . منـــذ خمسة عشر يوماً ونزيل الرقم ٥٧ لم ينهض . فهو متكىء على الوسائد ، الوجه يرشح عرقاً ، والقسمات شاحبة ، واللحية غير حليقة . وكان يتنفس بصعوبة ،ونفسه الأبح يسمع من الرواق . فسكب لودفيك ملعقتين من الدواء في الطاسة ، وأسند الرقبة ليساعد المريض عـــلى الشرب ، وأفرغ المبصقة في المغسلة ؛ ثم ذهب بعد كلمات التشجيع باحثاً عـن الدكتور تيبو . وبعامل من الضمير فتح باب الرقم ٤٩ قبل أن يترك الطابق. الكولونيل متمدد على كرسي طويل من الخيزران ، ومبصقته بجانبه ، وهو يلعب البريدج مع ثلاثة ضباط . ولم يكن الماجور بينهم .

وقال الدكتور باردو الذي التقى به لودفيك في أسفل الدرج :

– يجب أن يكون في الحمام البخاري . هات انا ذاهب إلى هناك .

كان عدة مرضى جالسين يلفون رؤوسهم بمناشف ، منحنين عـــلى جهاز التنشق وكان بخار تشتم منه رائحة المنتول واوكاليبتوس يملأ القاعة الصغيرة الحارة والصامتة ، حيث يكاد الناس لا يرون بعضهم إلا بالجهد .

– برقية يا تيبو .

وخرج انطوان من تحت المناشف محتقن الوجه ، تسيل منه قطرات الماء . فمسح عينيه وأخذ البرقية بدهشة من يد باردو وقرأها .

– هل الأمر خطير ؟

فهز انطوان رأسه سلباً . وبصوت اجوف ، مخنوق بدون رنة ، قال :

– عجوز من اقربائي .. قد ماتت .

ووضع الورقة في جيب بيجامته واختفى من جديد تحت المناشف . فلمس باردو كتفه :

– لدي نتيجة الفحص الكيماوي . تعال إلى عندي حين تنتهي .

كان الدكتور باردو من نفس جيل انطوان.وقد تعارفا في باريس،في السابق حين بدءا معاً دراستهما الطبية . ثم اضطر باردو إلى قطع دراسته ليذهب للاعتناء بنفسه سنتين في الجبال . وقد شفي ، ولكنه بداعي الحيطة ، وبسبب تهيبه فصول الشتاء الباريسية ، فقد نال شهاداته من جامعة مونبليه وتخصص في الأمراض الرئوية . وحين أعلنت الحرب كان يدير مصحاً في اللاند . وفي عام ١٩١٦ فان الاستاذ سيفر ، وكان باردو تلميذاً له في مونبليه ، طلبه كمعاون في مستشفى المصابين بالغازات السامة ،والذي كلف بانشائه في الجنوب : فأسسا معاً هذا المستشفى في موسكيه بالقرب من غراس حيث كان فيه حالياً أكثر من ستين جندياً وخمسة عشر ضابطاً قيد المعالجة .

وانطوان الذي تعرض لقنبلة من الغازات السامة في نهاية تشرين الثاني ١٩١٧ اثناء عملية تفتيش على جبهة شامبانيه ، جاء إلى هناك في بدء الشتاء ، بعد ان عولج دون نجاح في مختلف المصالح الصحية في المؤخرة .

في موسكيه ،وفي الجناح المخصص للضباط ،وجد انطوان انه الطبيب العسكري (الماجور) الوحيد الذي اصيب بالغاز السام.ومن الطبيعي أن تقرب ذكريات المراهقة المشتركة بين الطبيبين مع ان مزاجها يختلفان . فقد كان باردو تأملياً ، ذا عقل دؤوب على الدرس ، قليل الإقدام ، ذا إرادة ضعيفة؛ولكنه كأنطوان شغوف بالطب ، ذو ضمير مسلكي متطلب ، وأدركا بسرعة انهما يتكملان

نفس اللغة ؛ وانعقدت بينهما أواصر الصداقة . وباردو الذي ترك له الاستاذ سيفر العمل كله ، لم يكن يتعاطف إلا قليلاً مع معاونه الدكتور مازيه . وهو طبيب عسكري قديم في جيش المستعمرات . وجاء إلى مستشفى موسكيه بعد جراح خطيرة . وكان يسر كثيراً بأن يفضي بأفكاره وبما يحيره إلى انطوان ، ويستشيره ، ويحيطه علماً بأبحاثه ، وبذلك العلاج المكتشف حديثاً والذي لا تزال فيه كثير من النقاط غامضة . ومن المعلوم انه ليس وارداً ان يحل انطوان محل باردو في مهمته . فقد كان مصاباً إصابة خطيرة، وهو كثير الاهتمام بنفسه، كثير التوقف بسبب الانتكاس ، جل همـــه منصرف إلى العنايات الدقيقة التي تتطلبها حالته . ولكن هذه الحالة لم تمنعه من الاهتمام الدائم بحالات المرضى الآخرين ؛ وحين تعيد اليه بعض التحسينات العابرة شيئاً من القوة ، شيئاً من حرية الذهن ، شيئاً من الفراغ ، كان يظهر في استشارات باردو ، ويشترك في تجاربه . حتى انه كان يحضر احياناً المحاضرات التي كانت تجمع كل مساء باردو ومازيه في مكتب الاستاذ سيفر . وبفضل ذلك فان جو المستشفى هذا ، الذي لم يكن يحيا فيه حياة مريض بل حياة طبيب بين فترة واخرى ، أصبـح غير مؤلم بالنسبة اليه : لم يكن يجد نفسه مفصولاً تماماً عما كان السبب الحقيقي الوحيد لحياته منذ خمس عشرة سنة ، في وقت السلم كما في وقت الحرب .

وما ان أنهى انطوان حمامه البخاري حتى عقد منديلاً حول عنقه احتراساً من تغير مفاجىء في الحرارة . وسار لملاقاة الدكتور الذي كان يقضي نصف ساعة كل صباح في ملحق المستشفى ليراقب شخصياً تمارين الجيمناستيك التنفسية التي يأمر بعض المتسممين بالغاز بالقيام بها .

باردو واقف وسط مرضاه ، يترأس هذه الأصوات المتنافرة اللاهثة البحاء بانتباهٍ باسم . وكان يتجاوز اكبرهم بنصف رأس . وقـــد انقذت جبهته صلعة مبكرة ، وكبرتها أيضاً ، وكان حجم الجسم متناسباً مع القامة . كان هـــذا المسلول القديم عملاقا . ومن الكتفين حتى الحقوين فان الجذع إذا رؤي من الظهر يقدم تحت قماش البلوزة المشدود مساحة مربعة تقريباً ذات أبعاد مهيبة .

وقال وهو يسير بانطوان إلى الغرفة الصغيرة المستعملة كغرفة ملابس، حيث اصبحا لوحدهما :

ـ أنا مسرور . كنت خائفاً .. ولكن كلا : رد فعل الآحين سلبي . وهذه علامة حسنة .

وكان قد سحب ورقة من قفا كمه . فأخذها انطوان واجال عينيه فيها :

ـ سأعيدها اليك هذا المساء بعد ان أنسخها .

(منذ بدأ تسممه امسك مفكرة خاصة ، عبارة عن سجل يومي طبي كامل جداً عن حالته) .

وقال باردو موبخاً :

ـ لقد مكثت وقتاً طويلاً في الحمام البخاري ، الا يتعبك هذا ؟

فقال انطوان :

ـ كلا ، كلا ، اني احرص كثيراً على هذه الحمّامات ـ كان صوته ضعيفاً ، قصير النفس ، ولكنه واضح : ـ عند القيام من النوم تكون الافرازات التي تغطي فم قصبة الرئة من الكثافة بحيث يكون فقدان الصوت كلياً . وأنت ترى انه يخفّ جداً حين ينظف البخار الحنجرة .

فلم يقلع باردو عن رأيه :

ـ صدقني . لا تفرط في ذلك . ففقدان الصوت ، مهما كان مزعجاً ، فهو أقل ضرراً . والحمامات البخارية التي تدوم طويلاً يخشى ان توقف السعال فجأة .

كان لفظه الرتيب يشي بأصله البورغينيوني ؛ فهو لا يزال يشدد على تعبير اللطف والجدية الذي ينبعث من النظرة .

وكان جالساً . وقد أجلس انطوان . كان يسعى ليجعل المرضى يشعرون انه ليس متعجلاً ، وان لديه الوقت كله ليصغي اليهم ، وان لا شيء يثير اهتمامه سوى شكاياتهم ! وقال بعد ان سأل انطوان عن نهار البارحة وعن الليل :

ـ انصحك بأن تعود في هذه الأيام إلى تناول أحد ادويتك المسببة للقيء ،

تربين أو دروزيرا ، فاختر ما يحلو لك . وفي نقيع نبات لسان الثور .. نعم ، نعم : دواء خرافي .. عرق كثير قبل النوم بشرط الا تصاب بالبرد – لا شيء أفضل من ذلك .

والطريقة التي يشد بها على بعض الحروف الصوتية وعلى الصوتية المزدوجة حيث يمدد وهو يغني النهايات (« ادوية تسبب القيء .. نبات لسان الثور .. عرق كثير ») . تبعث على التفكير بتشدد القوس على اوتار الفيولنسيل المنخفضة .

وكان يجد سروراً بمضاعفة نصائحه : فهو يؤمن بشكل ديني بفعالية علاجه ، ولن يدع لأي اخفاق ان يثبط عزمه . ولم يكن يحب شيئاً أفضل من إقناع الغير . وعلى الخصوص انطوان ، الذي كان يشعر بتفوقه دون غيرة خسيسة .

وتابع دون ان يرفع عينيه عن مريضه :

– وبعد، إذا اردت التخفيف من الافرازات الليلية فلماذا لا تستعمل معالجة السيلفو – أرسنيك لبضعة أيام ؟ اليس كذلك ؟

أضاف العبارة الاخيرة موجهاً الكلام إلى الدكتور مازيه الذي دخل آنذاك .

ولم يجب مازيه . فقد فتح خزانة في داخل غرفة الثياب وأبدل بلوزته البيضاء بلباس من القماش الكاكي ذي الخيوط المستلة ،الشاحب اللون من الغسيل ولكنه مزين بالاوسمة . وانتشرت في الغرفة عفونة عرق .

وتابع باردو :

– في حال ازدياد فقدان الصوت نستطيع دائماً الالتجاء من جديد إلى الستركنين . لقد حصلت في هذا الشتاء على نتائج جيدة مع شابوي ..

فالتفت مازيه ساخراً :

– إذا لم يكن لديك مثل اكثر تثبيطاً للعزم تقترحه !

كان ذا رأس مربع ، والجبهة قصيرة تقطعها ندبة عميقة ، وشعره الأشيب الشديد الكثافة نابت بشكل منخفض ومهندم بالفرشاة . وبياض العينين

يحتقن بسهولة . والشارب الأسود يشق بقساوة صبغته المحروقة ، صبغة رجل قديم من المستعمرات .

وتطلع انطوان إلى باردو بهيئة مستفهمة ، فقال هذا بسرعة :

– لحسن الحظ ، فان حالة تيبو ليس لها اية علاقة بحالة شابوي .

وكان مستاء ، ويخفي استياءه بشكل سيء . واوضح ، موجهاً الكلام هذه المرة إلى انطوان :

– ذلك المسكين شابوي لا يسير بقوة . كان الليل سيئاً وقد ايقظوني مرتين . وتسمم القلب يحرز تقدماً سريعاً : نبض مضطرب وانقباض غير عادي في القلب عند خروج الدم منه .. اني انتظر المعلم هذا الصباح لأسير به إلى الرقم ٥٧ .

واقترب مازيه وهو يزرر بلوزته . وتحدثوا بضع لحظات حول الاضطرابات القلبية عند المتسممين بالغاز « الذين يختلفون جداً عن بعضهم البعض وفقاً للسن» كما أكد باردو . (كان شابوي كولونيلاً في المدفعية ، وهو قيد المعالجة منذ ثمانية أشهر وقد تجاوز الخمسين من سنه) .

وأضاف انطوان :

– .. وفقاً لسوابقهم .

كان شابوي جاره في وسط الدرج . وقد عاينه انطوان عدة مرات ، وكان يفترض ان الكولونيل مصاب بانقباض تاجي خفي قبل ان يصاب بالغاز : ويبدو ان سيفر وباردو ومازيه لم ينتبهوا إلى ذلك . وكان على وشك ان يقول له . (كان ايضاً يشعر اكثر من السابق بسرور خبيث من الكبرياء بأن يكشف خطأ الغير ويؤكد له – ولو كان صديقاً – : وكان ذلك انتقاماً صغيراً من تلك الدونية التي قضى بها المرض عليه) . ولكن الكلام كان يتطلب منه جهداً ، فأقلع عن ذلك .

وسأل مازيه :

– هل اطلعت على هذه الأوراق ؟

فأتى انطوان بإشارة سلبية . وصرح باردو :

– يبدو أن هجوم البوش – الالمان – في الفلاندر قد توقف حقيقةً .

فقال مازيه :

– نعم ، هكذا يبدو . فقد صمدت إيبر[١] . وأعلن الانكليز رسمياً ان خط إيزر بقي مصاناً .

ولاحظ انطوان :

– هذا يكلف غالياً .

واتى مازيه بحركة من الكتف يمكن ان تعني : « غالياً جداً » و « قليلاً ما يهم » . والتفت نحو الخزانة وبحث في جيوب ردائه وعاد نحو انطوان :

– خذ ، تماماً : هذه صحيفة سويسرية أرسلهـا الي غواران .. سترى : وفقاً لبلاغات (سنترو) ، فان الانكليز في شهر نيسان وحده يجب أن يكونوا قد فقدوا أكثر من مائتي الف رجل على الإيزر وحده !

ولاحظ باردو :

– لو عرف الرأي العام الحليف هذه الأرقام ..

فهز انطوان رأسه ، وضحك مازيه ضحكة مجلجلة . كان بقرب الباب وقال من فوق كتفه :

– ولكن لا يصل إلى الرأي العام اية معلومات صحيحة ! انها الحرب !

كان يبدو دائماً انه يحسب الآخرين بلهاء .

وتابع باردو حين خرج مازيه :

– أتعلم بماذا كنت افكر هذا الصباح ؟ بأن ليس هناك اليوم أية حكومة تمثل الشعور الوطني لبلادها ، لا في هذه الناحية ولا في تلك . ما من أحد يعرف بماذا تفكر حقيقةً جماهير الشعب . ان صوت القادة يغطي على صوت

---

١ – إيبر : مدينة بلجيكية في الفلاندر الغربي . وقد تعرضت كثيراً لهجمات الالمان في الحرب العالمية الأولى .

المقادين .. انظر ، في فرنسا ! اتعتقد انه يوجد محارب فرنسي واحد من بين عشرين يتمسك بالالزاس واللورين إلى درجة القبول بتمديد الحـــرب شهراً للحصول عليها ؟

– ولا واحد من بين خمسين .

– هذا لا يمنع من أن العالم كله مقتنع ان كليمنصو وبوانكاريه هما ، حقيقةً ، الناطقان باسم الرأي العام الفرنسي .. فالحرب خلقت جواً من الكذب الرسمي لم يسبق له مثيل ! في كل مكان ! أتساءل إذا كانت الشعوب ستستطيع من جديد ان تُسمع صوتها الحقيقي وإذا كانت الصحافة الأوروبية ستستطيع استرجاع ..

فقاطعه دخول الاستاذ .

وأجاب سيفر عسكرياً على تحية الطبيبين . وشد على يد باردو ولكن ليس على يد انطوان . وذقنه الطويلة المروسة ، وأنفه الأعقف ، ونظارتاه الذهبيتان ، وقامته الصغيرة التي تعلوها ذؤابة بيضاء بخارية ، كل هذا يجعله يشبه صور السيد تيير الهزلية . كان معتنياً جداً بملبسه ، حليقاً من وقت قريب ، وكلامه مقتضب ؛ وهو كثير التهذيب حتى مع معاونيه . يعيش معتزلاً في مكتبه حيث يتناول طعامه . شغيل كبير يقضي نهاراته وهو يكتب الى مجلات طبية مقالات حول علاج المصابين بالغاز السام ، وفقاً للملاحظات باردو ومازيه . وكانت علاقتة مع المرضى نادرة : عند الوصول ، وفي حالةٍ خطيرة مفاجئة .

وأراد باردو ان يعلمه عن حالة الرقم ٥٧ . ولكن الاستاذ قطع الحديث منذ العبارة الأولى وسار نحو الباب قائلاً :

– لنصعد .

ورآهم انطوان يخرجون ففكر : « ان باردو هذا نموذج ممتاز . من حسن حظي انني حصلت عليه » .

كان من عادته في تلك الساعة ان يذهب الى غرفته وان يكمل فيها علاجه

ويرتاح حتى وقت الظهر . وفي اغلب الأحيان يكون متعباً جداً من علاجات الصباح بحيث كان يغفو على أريكته . ويوقظه جرس الغداء مرتجفاً .

وتبع الطبيبين تاركاً مسافة بينه وبينهما . وقال لنفسه فجأة : « لو قيض لي ان أموت هنا فان صداقة واحد كباردو لا تأتيني بأية نجدة .. »

وكان يمشي متمهلاً مراعياً تنفسه. وصعود طابقين ، إذا لم يتخذ الاحتياطات اللازمة ، يصيبه أحياناً بذات الجنب ، وهذا ليس كثير الألم ولكنه يظل بضع ساعات ليزول .

ونسي جوزف أيضاً ان يسدل الستائر ، فكان الذباب يحوم حول الخزانة الصغيرة التي صُفت فيها الادوية . والمذبّة معلقة في مسمار ؛ ولكن انطوان كان متعباً جـــداً فلا يستطيع صيد الذباب . ودون ان يلقي أية نظرة على المنظر الطبيعي المنبسط أمام النافذة ، فانه أسدل الستار وجلس في أريكته وأغمض عينيه لحظة . ثم سحب من جيبه البرقية وأعاد قراءتها آلياً .

العجوز المسكينة اتمت وقتها .. ماذا بقي لها ان تفعله سوى أن تختفي ؟ ومع ذلك فليست مسنة كثيراً .. « في الستين وزيادة يا انطوان ، وانت تفهم ، لا أريد أن أكون عالة على أحد » . هكذا كانت تردد وهي تهز رأسها ، حين وضعت في ذهنها ان تذهب وتقضي أيامها في مأوى « العمر الناضج » . وكان ذلك بعد موت السيد تيبو بأيام قليلة ، في كانون الأول ١٩١٣ . وربما في كانون الثاني ١٩١٤ .. ولكن عام ١٩١٨ : لقد مضى اكثر من أربع سنوات . هل بلغت عامها السبعين قبل ان تموت ؟ واستعاد في فكره صورة الجبهة الصغيرة الصفراء تحت الثريا بين الضفيرتين الرماديتين، واليدين الصغيرتين العاجيتين اللتين كانتا ترتجفان على السماط ، والعينين الصغيرتين كعيني اللامـا [١] النافرة . كان

---

١ ـ اللاما : من الحيوانات المجترة في بلاد البيرو . ذو قامة كبيرة وعنق طويل وصوف جميل يسهل تدجينه .

كل شيء يخيفها : فأرة في خزانة ، هزيم رعد بعيد ، كما تخيفها حالة طاعون اكتشفت في مرسيليا ، أو هزة أرضية سجلت في صقلية ، وصوت اغلاق باب . ورنة جرس قوية قليلاً تجعلها ترتجف : « ايها الإله الطيب ! » وكانت تصالب ذراعيها الصغيرين بقلق تحت معطفهـــا القصير من الحرير الأسود الذي كانت تدعوه « برنسها » . وضحكتها .. لأنها كانت غالباً ما تضحك ، ودائماً لسبب تافه ، ضحكة فتاة صغيرة ، لؤلؤية ، دالة على سلامة الطوية .. يجب أنتكون فاتنة في شبابها . وتخيلها وهي تلعب لعبة الحلقات في ساحة أحد البنسيونات ، وشريط من المخمل الأسود في عنقها ، والضفائر ملفوفة في شبكة الشعر .. ماذا يمكن أن يكون شبابها ؟ انها لم تتكلم عن ذلك أبداً . ولم يسألها أحد . هل يعرف اسمها الأول على الأقل ؟ ما من أحد في العالم ناداها باسمها الأول . حتى انهم لم يكونوا يدعونها باسم عائلتها . بل كانوا يدلون عليها بوظيفتها . فقد كان يقال : « المدموازيل » كما يقال : « حارسة البيت » وكما يقال « المصعد » .. عشرون سنة متتالية ، عاشت بخوف تقي تحت استبدادية السيد تيبو . عشرون سنة متتالية وهي منسية ، صامتة ، لا تتعب . لقد كانت مدار العمل في البيت دون أن يفكر أحد بأن يعرف لها دقتها وسبقها إلى الخدمة . حياة لاشخصية ، من الاخلاص ، وانكار الذات ، وبذل النفس ، والتواضع ، والحنان المحدود الرصين الذي لم يبادلها إياه .

وقال انطوان لنفسه : « يجب ان تكون جيز حزينة » .

لم يكن واثقاً ولكنه كان يرغب في اقناع نفسه بذلك : لقد كان بحاجة إلى شكايات جيز ليصلح ظلماً طويل الأمد .

وفكر بملل : « يجب ان اكتب » (منذ اعلان التعبئة لم يعد يكتب إلا ما لا غنى عنه . ومنذ أن أصبح مريضاً أقلع عن الكتابة تماماً ؛ بعض كلمات هنا وهناك على بطاقة مرسلة إلى جيز ، وفيليب ، وستودلر ، وجوسلان) وقرر : « سأرسل برقية تعزية طويلة . وهذا سيكسبني عدة أيام لاجل كتابة الرسالة..

لماذا ذكرت لي ساعة الدفن ؟ مهما كان الأمر فانها لم تفترض انني سأقوم بالرحلة .. »

لم يكن قد وضع رجله في باريس منذ بدء الحرب . وماذا يريد ان يفعل فيها ؟ اولئك الذين كان يسر برؤيتهم قد جندوا مثله . رؤية البيت من جديد ، والشقة المقفرة ، وطابق المختبرات المتغير المعالم ، ما فائدة ذلك ؟ كان دائماً يترك ادواره بالاجازات لغيره . في الجبهة كان على الاقل خاضعاً لحياة عملية ومنتظمة تساعده على عدم التفكير . ومرة واحدة ، في أبفيل ، قبل هجوم السوم ، رضي أن يأخذ اجازته ، وذهب يختبىء في دييب في نهاية الشتاء. ولكن بعد وصوله بيومين ركب القطار ولحق بتشكيلته لكثرة ما اثقلت عليه بطالته في تلك المدينة التي تعبق بعفونة الجزر والمد ، والتي يهاجمها هواء مبلل نهاراً وليلاً ، والتي كان يسكنها الجرحى الانكليز .. لم يكن قد رأى جيز ثانية (ولا فيليب ولا جني ، ولا أحد) ، منذ التعبئة . حتى أنه لم يرضَ أن تأتي جيز لرؤيته في سان ـ ديزيه أثناء نقاهته بعد جرحه الأول . والبطاقة الرقيقة المختصرة التي كانا يتبادلانها كل شهرين أو ثلاثة كانت تكفيه للاحتفاظ بأقل اتصال بعالم المؤخرة ، وبالماضي .

وعرف بالمراسلة ان جني حامل ؛ وبالمراسلة حصل على تأكيد نهائي عن وفاة جاك . فأثناء شتاء ١٩١٥ ، فان جني التي تبادل معها عدة رسائل ، ورسائل خاصة جداً ، كتبت اليه معلنة عن رغبتها في الذهاب إلى جنيف . وقد جعلت لهذه الرحلة هدفاً مزدوجاً : كانت تريد أن تضع حملها في جنيف بعيدة عن أهلها ؛ وكانت تنوي اغتنام فرصة إقامتها في سويسرا لتسرع بالابحاث عن موت جاك ـ موت ظل حتى ذلك الحين غامضاً .. وكانت الضجة قد انتشرت في الأوساط الثورية التي ظلت جني على علاقة بها . لقد اختفى جاك في الأيام الأولى من آب اثناء « مهمة محفوفة بالخطر » . وخطرت لأنطوان الفكرة آنذاك ان يرسل جني إلى روميل . وكان الدبلوماسي قد تجند في باريس ، في مركزه في وزارة الخارجية . وبدون جهد كبير حصل للمرأة الشابة على جوازات المرور

اللازمة . وفي جنيف وجدت جني فانهيد . وقد ساعدها الشاحب الوجه في بحثها . ورافقها إلى مدينة بال وقدمها إلى بلاتنر .ومن صاحب المكتبة حصلت اخيراً على تفاصيل واضحة عن ايام جاك الاخيرة ، واحيطت علماً بكتابة البيان ، وبالموعد مع طائرة مينستريل ، وبالطيران نحو جبهة الالزاس في صباح العاشر من آب . ولم يكن بلاتنر يعرف شيئاً زيادة على ذلك . ولكن انطوان الذي اخبرته جني بالامر ، أطلق روميل وراء الأثر . وهكذا بعد تفتيش على غير طائل في لوائح الاسرى في المعسكرات الالمانية ، انتهى روميل بأن اكتشف في محفوظات وزارة الحربية في باريس مذكرة صادرة عن المقر العام لفصيلة من المشاة مؤرخة بالتحديد في ١٠ آب . وهذه المذكرة المتعلقة بانكفاء جيوش الالزاس ، اشارت إلى أن طائرة محترقة سقطت في الخطوط الفرنسية . والبقايا البشرية المتفحمة لم تسمح بأي تحديد هوية . ولكن وفقاً لهيكل الطائرة ، كان من الممكن التأكيد ان الامر يتعلق بطائرة غير مسلحة ، من صنع سويسري . وأضاف التقرير انهم ، بين رزم من الاوراق المحترقة ، نجحوا في فك طلاسم بقايا منشور ضد دعاة الحرب بشكل عنيف . ليس ثمة شك . البقايا البشرية كانت بقايا جاك وربانه .. نهاية سخيفة ! لم يستطع انطوان ابداً ان يتحزب لشروط هذه الميتة السخيفة . واليوم ايضاً ، بعد اربع سنوات ، يشعر من ذلك بالاهتياج اكثر مما يشعر بالحزن .

ونهض ، واخذ المذبّة ، وقتل بغضبٍ دزينة من الذباب ، واراد اصطياد الباقي بالمنشفة ؛ ولكن نوبة سعال جمدته ، فانطوى على نفسه ويداه على مسند كنبته . وحين استطاع الانتصاب بلل رفادةً بالتربنتين ووضعها بضع لحظات على صدره . وحين خف ما به آنياً اخذ وسادتين عن السرير وعاد إلى الجلوس مستقيم الجذع ليتجنب الوقوف .وبدأ تمارينه التنفسية باحتراز ، قارصاً حنجرته بين الابهام والسبابة ، جاهداً لإخراج اصوات مميزة ، وبنفس ثابت اكثر فأكثر .

A.. E.. I.. O.. U.. —

وكان نظره يشرد هنا وهناك خلال الغرفة . وهي صغيرة مبتذلة تبعث على التقزز . في هذا الصباح كان هواء البحر يحرك الستائر، وانعكاسات النور ترقص على الجدران المغطاة بالك، كالقرميد الوردي اللون، عارية حتى افريز اللبلاب الذي بلون الشوكولا، والذي يتموج تحت الطنف . وفوق مرآة الزينة صورة صف من بنات اميركيات، بأطواق عنق بحرية، قطعت من إحدى المجلات، يرفعن ستة سيقان ذات أقدام متقوسة : آخر أثر للزخرفة الفنية التي كان سلف انطوان قد زين بها الغرفة ذات الرقم ٥٣ قبل موته ؛ زخرفة نجح انطوان في إخفائها باستثناء هؤلاء البنات الست المجنونات، الموضوعات في مكان مرتفع فلا يستطيع الوصول اليهن دون جهد غير حكيم . كان في نيته دائماً أن يقوم بتنفيذ هذا الحكم الاخير بواسطة جوزف غلام الطابق ؛ ولكن جوزف كان صغير القامة . وكان الموطىء – كرسي خشبي عال بدون ظهر – في الطابق الأرضي. وصار انطوان يفضل الا يفكر بذلك. وعلى الطاولة الضيقة من خشب الصنوبر، حيث توجد مبصقة من البورسلين، وحيث تتكدس بين زجاجات وعلب الأدوية، صحف قديمة، ومجلات، وخرائط للجبهة، واسطوانات – لا يكاد يبقى له مكان كل مساء ليفتح مفكرته ويسجل فيها ملاحظات النهار الطبية. وزجاجات اخرى من الأدوية تملأ لوح المغسلة الزجاجي . وبين طاولة وخزانة خشبية بيضاء (تحتوي على ملابسه الداخلية وأشيائه) يقوم صندوق فارغ لا يزال يُقرأ عليه الكتابة النظامية مقشرة : الدكتور تيبو – ماجور في المفرزة الثانية . وهذا الصندوق مستعمل كقاعدة لفونوغراف غير مستعمل .

منذ ما يقارب الخمسة اشهر وانطوان منفي في هذه الزنزانة الوردية اللون يراقب تقلبات مرضه، ويرصد على غير طائل اعراض شفاء واضحة . منذ ما يقارب الخمسة اشهر، تألم فيها وعدّ الدقائق، وأكل، وشرب، وسعل، وبدأ قراءات لم ينهها أبداً، وحلم بالماضي، وبالمستقبل، وتلقى زيارات، ومزح، وناقش قضايا الحرب والسلم حتى الالتهاث .. وقد اخذ يتقزز من هذا السرير،

من هذه الكنبة ، من تلك المبصقة ، شهود على ساعات من الحمّى ، والاختناق ، والأرق . من حسن الحظ ان حالته كانت تسمح له في أغلب الأحيان بالنزول والهرب . وكان عندئذ يلتجىء مع كتاب لم يكن يقرأه ، ولكنه كان يحمي وحدته قليلاً ، في ممشى السرو ، أو تحت أشجار الزيتون ، واحياناً حتى بستان البقول بالقرب من الناعورة التي كان سيلانها يُشعر بالبرودة . أو أيضاً إذا رأى نفسه قادراً على أن يبقى بعض الوقت واقفاً فانه يذهب ويغلق على نفسه في المختبر مع باردو ومازيه . وعلى الاثر يتنشق هناك هواء مألوفاً . وقد اعاره باردو بلوزته وأشركه في أعماله . وكان يخرج من هناك عاجزاً عن المشي . ولكن هذه الأيام كانت أفضل أيامه .

لو كان يستطيع فقط ان يستفيد للمستقبل من هذه البطالة الاجبارية ، من هذه الاسابيع ، من هذه الاشهر التي أضاعها هنا منتظراً شفاءه ! ومرة بعد مرة حاول الشروع بعمل شخصي ، ولكن كان دائماً يحدث انتكاس يضطره إلى تعليق جهوده قبل ان تعطي نتيجة . وهناك مشروع كان يعمره بشكل خاص: ان يكثف ، في دراسة طويلة ، الملاحظات التي جمعها قبل الحرب حول اضطرابات التنفس عند الاطفال في علاقتها بالنمو الفكري وقوة الانتباه عند الأولاد . وهذه المستندات أصبحت تشكل الآن مجموعة غنية بشكل يتيح له ان يستخرج منها كتاباً صغيراً ، وعلى الأقل مقالاً كبيراً لمجلة ؛ وكان متعجلاً ليكتبه لأجل أن يضع له تاريخاً ، لأن هذا الموضوع كان « في الهواء » ويخشى انطوان أن يسبقه اليه أحد الاختصاصيين بالاولاد . ولكن صحته تتيح له القيام بهذا المجهود الذي لم يستطع الشروع به بسبب وجود ملفاته واختباراته كلها في باريس . ولا يوجد أية وسيلة لجلبها : فأمين سره ، مانويل روا الشاب ، قد اختفى مع فرقته كلها في هجوم تحت آراس ، منذ الشهر الثاني من الحرب ، وجوسلان كان أسيراً منذ سنتين في معسكر سيليزيا ، أما الخليفة الذي جرح في روان عام ١٩١٦ ، ثم شفي ولكنه ظل ثقيل السمع ، فقد تخصص بالراديو وعُين في المصلحة الصحية في جيش الشرق .

وأول رنة للطبق [١] ، والتي تعلن اقتراب موعد الغداء ، جعلته ينهض فأشعل مصباح المغسلة لينير أعماق حلقومه . قبل ان يجلس إلى المائدة كان عادة يحتاط بان يقطر بعض القطرات ليخفف صعوبة الابتلاع ا صعوبة تصبح في بعض الأيام مؤلمة بحيث يضطر إلى اللجوء إلى باردو وإلى مكواته الكهربائية .

وبانتظار النداء الثاني دفع كنبته إلي قرب النافذة ورفع الستار . كان يمتد أمامه منحدر واسع من الأراضي المزروعة المدرجة ، متوجة بذرى صخرية ؛ وإلى اليمين يتموج الخط المألوف للتلال التي تتتابع في غبار شمسي حتى أفق البحر الأزرق الداكن . وتحته الحديقة ، حيث يتصاعد عبير أزهار،وأصوات . فانحني ليتابع لحظة ذهاب وإياب المرضى في المشى الكبير الذي تغطيه اشجار السرو . كان يعرفهم كلهم : غواران وفوازينه شريكه في الذنب (الاثنان هما المريضان الوحيدان اللذان لم تمس اوتارهما الصوتية ، واللذان يثرثران من الصباح إلى المساء) ، وداروس مع كتابه تحت ابطه ، وإيكمان الذي كان يدعى « القنغر [٢] » ؛ والرائد ريمون الذي كان ينشر خارطة بين جماعة من صغار الضباط ، شأنه كل صباح ، ويعلق على البلاغ الرسمي . لا شيء سوى أنه يراهم يتململون ويقومون بحركات . وكان يعتقد انه يسمعهم ، ويشعر من ذلك بنفس العياء كما لو انه كان بينهم .

ورن الطبق من جديد ، وانتعشت الحديقة كلها كنملة أنذرت بالخطر .

وانتصب انطوان متأوهاً ، وفكر : « لا شيء أقل جاذبية من هذه الرنة المشؤومة . لماذا لا يكون جرس في كل مكان ؟ ».

ولم يكن يشعر بجوع. كان يشعر أنه بدون قوة ليهبط الطابقين مرة اخرى أيضاً ، ويجابه مرة اخرى رائحة الطعام ، والخدمة الصاخبة ، وعدم ترتيب

---

١ ـ الطبق Le gong : طبق معدني يضرب عليه بعصا فيخرج صوتاً رنانا ، بدلا من الجرس .

٢ ـ القنغر Kangourou : حيوان موجود في اوستراليا أصبح نادر الوجود. ذو رجلين طويلتين ويدين قصيرتين وله كيس في بطنه يضع أولاده فيه .

المطعم « لابوبوت [1] » الخالد ، ويصغي بابتسامة مجاملة إلى الثرثرات اليومية عن مشاريع المانيا ، والحسابات عن مـــدة الحرب ، وتفسير ما خفي من البلاغ الرسمي .. وكل هذا ممزوج بالمشاحنات المذهبية ، وذكريات الجبهة ، والحكايات الخشنة والرديئة أيضاً : مسارات ساذجة حول مظهر شيء من المـادة المخاطية ، وحول النخام في الليل .

وحين أبدل سترة البيجاما بسترة قديمة عليها ثلاث شرائط من القماش الأبيض ، أخرج من جيبه برقية جيز وجمد فجأة : « لو ذهبت إلى هناك .. »

لم يستطع منع نفسه من الابتسام . كان يعلم أنه لن يفعل شيئاً من ذلك. وهذا اليقين الداخلي ترك لمخيلته الحرية الكاملة لتشرد لحظة حول هذا المشروع الوهمي. لم يكن ، في دخيلته ، يرى في هذا المشروع انـــه مستحيل التحقيق . فمع الاحتياطات ، وبأن لا يقطع معالجته ، وبالاعتناء بان يحمل معه جهاز التنشق ، ومؤونة من العقاقير ، فان انطوان لا يتعرض لأي خطر يزيد من حالته . **الدفن الاحد الساعة العاشرة** .. يكفي ان يركب غـــداً السبت قطار بعد الظهر السريع ، ليكون في باريس صباح الأحد .. ولن يرفض له سيفر اجازة ، وهذا اكيد : الم يمنح دوس إجازة رغم حالته ؟ كانت الفرصة مغرية من ناحية بعض الاعتبارات .. وجذابة أيضاً لأنها غير متوقعة .

ورأى نفسه فجأة كما كان في زمن ما قبل الحرب - في زمن الحياة السهلة والصحة – جالساً ، وحيداً صامتاً ، إلى المائدة المجهزة جيداً في عربة مطعم ..

في باريس يستطيع استشارة استاذه العجوز فيليب عن حالته .. وخصوصاً سوف يجد ملفاته ، واختباراته : سوف يحمل حقيبة ملأى بالملاحظات والكتب وسوف يجد ما يشتغل به ، وما يفيد من فترة النقاهة هذه التي لاتنتهي .

باريس ! ثلاثة أو أربعة ايام من الهرب ! ثلاثة أو اربعة ايام دون مطعم

---

١ - بوبوت La popote : كلمة دارجة تعني : مطبخ ، مطعم ، وتعني ايضاً اجتماع اشخاص يأكلون معاً .

« بوبوت » المصح !
وبعد ، فلماذا لا ؟

٢

نواس يلعب في الصمت ، وشباك الراهبة المكلفة ببوابة الدير انفتح قليلاً . وشاهد انطوان كمّاً من الجوخ الأبيض ، ويداً شاحبة يلمع فيها خاتم . وتمتم فم غير منظور :

– رأساً في الساحة ، في نهاية الرواق .

وامتد الدهليز برواق مبلط ، فارغ ، لامع ، يغوص في أعماق المأوى الصامتة . والى الشمال عجوزان مجتمعتان كأنهما في وضع لأخذ صورة ، جالستان القرفصاء على درجات السلم الأولى ، والكتفان مشدودان في مناديل من المخرمات السوداء ، تثرثران بصوت متحفظ ، منحنيتين الواحدة على الأخرى .

والساحة التي تنير الشمس ثلاثة أرباعها كانت قفراء . في نهايتها كنيسة أحد مصاريعها المفتوح يفتح في واجهة البناء مستطيلاً من الظل ؛ ويتفلت منه صوت أرغن . كانت خدمة القداس قد بدأت . واقترب انطوان . وشاهد نظره الغائص في ظلمات الكنيسة مسلفة من اللهبات الصغيرة . كان البلاط أكثر انخفاضاً من أرض الساحة . ويجب الهبوط درجتين . وشق انطوان طريقه بين مستخدمي موكب الجنازة الذين كانوا يسدّون الممر . كان صحن الكنيسة الصغيرة مليئاً بالناس وتسوده برودة سرداب . فارتفع على رؤوس أصابعه بجهد ، مستنداً بيدٍ إلى جرن الماء المقدس . النعش موضوع أمام المذبح بين أربع شمعات ومغطى بشكل سيء بقطعة من الجوخ الأسود . وهناك قزم بنظارات وشعر أبيض واقف وراء ذلك النعش المتواضع ، متصالب الذراعين بجانب ممرضة راكعة ، يخبىء الخمار الأبيض وجهها ؛ وقد لفتت رأسها ، فعرف انطوان وجه جيز الجانبي . وفكر : « دون أقارب ، دون أصدقاء .. لا أحد سوى هذا الأبله دي ساشل .. لقد أحسنتُ بمجيئي .. جني ليست هنا .. ولا

مدام دي فونتانان ، ولا دانيال. هذا أفضل. سأقول لجيز حتى لا تعلن عن وجودي في باريس : فهذا يجنبني الذهاب إلى ميزون - لافيت » . وتأكد مرة اخيرة من انه لم يكتشف وجهاً من معارفه في الصفوف القليلة من المقاعد التي تتكوم عليها عجائز يضعن على رؤوسهن المناديل وبعض الراهبات بقلانس عريضة . « لن استطيع ابداً ان اظل واقفاً حتى النهاية .. بصرف النظر عن ان الطقس بارد في الداخل .. » وحين تهيأ للخروج قرقعت المقاعد، ونهض الحاضرون ليركعوا . والكاهن الذي كان يقوم بالقداس التفت نحو المؤمنين رافعاً يديه . فعرف انطوان القامة العالية والجبهة العارية للأب فيكار .

وصعد الدرجات ، ووجد نفسه في الساحة فاستهدف مقعداً في الشمس سار اليه وجلس عليه . كان يتألم من وخزة مؤلمة بين عظمي الكتف . الا ان تلك الرحلة الطويلة في القطار لم تتعبه كثيراً : فقد استطاع ان يتمدد قسماً من الليل . ولكن المسافة من محطة ليون عند طلوع النهار ، في سيارة اجرة قديمة ، على بلاط الارصفة الكثير الحصى قد حطمته .

وفكر : « تابوت طفل كثير الصغر ! » وتخيلها تمشي قافزة خلال الشقة في شارع الجامعة ، أو في غرفتها ، جالسة بعكس النور على حافة كرسي ، أمام مكتبها المبرقش ، — « أثاثها » العائلي كما كانت تقول ؛ التذكار الوحيد الذي حملته معها حين جاءت تدير بيت السيد تيبو . وكانت تلف فيه نقود الشهر في أحد الأدراج « السرية » ، وتحفظ فيه جميع ذخائرها الثمينة ، وتكدس فيه مدّخراتها . وهناك كانت ترتب عنابها وفواتيرها ، وأوراق رسائلها ، والعلبة المحتوية على عطر الفانيليا ، وبقايا الأقلام الرصاصية التي يلقيها السيد تيبو ، وبياناتها ، وإيراداتها ، وخيطها ، وابرها ، وازرارها ، وسم فئرانها، ونسيجها الحريري المصمغ ، واكياس بزور السوسن وزهور الأرنيكه ، وجميع مفاتيح البيت القديمة ، وكتب الصلاة ، وصور شمسية ، ومرهم الخيار الذي يطرّي جلد اليدين والذي كانت رائحته التافهة الممزوجة برائحة الفانيليا ورائحة السوسن تنتشر حتى الدهليز حين يكون المكتب مفتوحاً . وقد ظل لهذا

المكتب ميزة كنز سحري بنظر انطوان وجاك حين كانا طفلين · وفيما بعد عمّده جاك وجيز باسم « قرطاسية وخردة القرية » لأنه كان كتلك الأسواق في الريف والتي يوجد فيها كل شيء .

وجلبة وقع أقدام جعلته يرفع رأسه . لقد دفع الرجال السود المصراع الثاني ووضعوا أكاليل على الأرض ، في الساحة . فنهض انطوان .

وانتهى القداس . امرأتان من الخدم بملابس كتانية مقرونتان إلى سلة كبيرة ذات عجال ، محملة بالخضار ، مرّتا وعيونهما منخفضة ، وأسرعتا بالاختفاء في أحد الابنية المحيطة بالساحة . وفي نوافذ الطابق الأول كانت الستائر مرفوعة ، وعجائز واهنات يرتدين صدرات كن يجلسن وراء الزجاج. ونزيلات البنسيون الصحيحات الجسم بدأن يخرجن من الكنيسة واحتشدن وهن يعرجن عرجاً خفيفاً إلى جانبي البوابة . وكان الارغن قد صمت . وبرز صليب فضي وثوب اكليركي في الظلام . وظهر النعش يحمله رجلان . وتبع ذلك الأطفال الذين يخدمون القداس ، ثم كاهن عجوز ، ثم الاب فيكار ·

وصعدت جيز الدرج بدورها وظهرت في النور . وكان السيد شاسل وراءها . وتوقف حملة النعش ليتيحوا لمستخدمي موكب الجنازة الوقت الكافي لوضع الاكاليل على التابوت . كانت عينا جيز مليئتين بالدمع وملتفتتين نحو النعش . ولاحظ انطوان على وجهها المتأمل تعبير نضجٍ أدهشه : حين كان يفكر بها كان دائماً يستحضر في فكره الطفلة ذات الخمسة عشر ربيعاً . وقال لنفسه ، وهو مرتبك قليلاً لاستطاعته تفحصها على هواه دون ان ترتاب بشيء : « انها لم ترني .. وهي بعيدة عن الظن انني هنا .. » وكان قد نسي انها ذات صبغة بلون الصدأة . « ان ذلك الشريط الأبيض على الجبهة هو الذي يظهر البشرة أكثر دكنة .. »

والسيد شاسل بقفاز أسود يمسك بيده قبعة ذات شكل أثري ، وكان يمد عنقه ويحرك يميناً وشمالاً رأسه الصغير كرأس العصفور . وفجأة ، شاهد انطوان ووضع حالاً يده على فمه كأنه يخنق صرخة . ولفتت جيز عينها ،

واستقر نظرها على انطوان . فتفرست به ثانيتين كأنها لم تعرفه لأول وهلة ؛ ثم ركضت اليه وانفجرت باكية ، فعانقها بشكل أخرق . ورأى حملة التابوت يتابعون سيرهم فتخلص بلطف . وهمست :

– تعال إلى جانبي . لا تتركني .

وراحت تأخذ مكانها ، وتبعها ، ورآهما السيد شاسل يأتيـان ، وهو متدله الوجه ، فتمتم كأنه في حلم حين مد انطوان يده اليه :

– آه ، اهذا انت ؟

وسأل انطوان جيز :

– هل المقبرة بعيدة ؟

فأجابت بصوت منخفض :

– ان مدفننا في ليفالوا .. ويوجد عربات .

واجتاز الموكب الساحة ببطء .

وكانت عربة بحصانين تنتظر في الشارع . واناس من الحي وأولاد يشكلون سياجاً على الرصيف . ونوع من عربة ذات ثلاثة مقاعد كانت جاثمة على ظهر العربة القديمة كهودج على ظهر فيل ، ويصعد اليها بعدة درجـــات . وكانت الأماكن الثلاثة محفوظـة لجيز والسيد شاسل ومنظم الاحتفال ؛ ولكن هذا الاخير تخلى عن مقعده لأنطوان وصعد إلى المقعد الموجود بجانب الحوذي الذي يعتمر قبعة ذات قرنين . واهتزت العربة وسارت متمهلة ، مرتجة باستمرار على بلاط الضاحية . وتبعهم الكاهنان في عربة جنائزية .

وليصعد انطوان إلى مقعده اضطر إلى بـــذل جهود متتابعة هيجت قصبة الرئة . فما كاد يجلس حتى هزته نوبة سعال شديد ، واضطر إلى البقاء فترة ليست بالقليلة منخفض الرأس والمنديل على شفتيه .

وكانت جيز جالسة بين الرجلين.فانتظرت حتى مضت نوبة السعال ولمست ذراع انطوان :

– انت طيب لمجيئك . قليلاً ما كنت أتوقع ذلك .

فتأوه السيد شاسل وقال بحكمة :

– آه ! يجب توقع كل شيء .

وكان قد انحنى ليرى انطوان وهو يسعل · واستمر يتأمله من فوق النظارات وهز رأسه :

– عفواً . لقد بذلت جهداً لأتذكرك . انه يبعث على الحيرة ، اليس كذلك يا آنسة جيز ؟

فلم يستطع انطوان ان يتمالك من الشعور بالاشمئزاز . إلا انه اظهر الحزم :

– هيه ، نعم .. لقد هزلت نوعاً . الاحتقان .

والتفتت جيز مذعورة من هذا الصوت غير الرنان · في اللحظة الأولى ، في الساحة ، دهشت تماماً من مظهر انطوان العام ! ولكنها لم تتفحصه أبداً . ومع ذلك فليس ما يدهش في أن يبدو متغيراً بعد هذه السنوات الخمس من الغياب ، وفي هذا الزي . وساورتها الآن فكرة من انه مصاب أكثر مما كانت تظن . لم يكن لديها أية تفاصيل عن هذا التسمم · كانت تعلم انه قيد المعالجة في الجنوب. « في طريق الشفاء » كما كانت تقول الرسائل ·

وردد السيد شاسل بهيئه راضية خبيرة :

– الاحتقان ؟ .. الغاز السام بالضبط · والذي يدعى أيضاً **خردل** .. اختراع الحضارة الحديثة – وكان دائماً يتفرس بانطوان بفضول : – لقد أضناك هذا الغاز ·· ولكنه أعطاك صليب الحرب · مع سعفين وربما أوسمة اخرى لا علم لي بها · وهذه مأثرة مجيدة .

ونظرت جيز إلى ملابس انطوان . انه لم ينبس بكلمة في رسائله عن هذه الأوسمة . وجازفت قائلة :

– وأطباؤك ؟ ماذا يقولون ؟ أيفكرون بابقائك طويلاً في مستشفاهم ؟

فاعترف انطوان :

– التقدم بطيء .

وبذل جهداً ليبتسم . وأراد ان يضيف شيئاً ، فتنفس بعمق ولكنه صمت :

لقد أخذت الخيل تسير خبباً وقطعت الهزات نفسه .

وتكلم السيد شاسل ، مع فتحة فمٍ مستميلة :

– اننا نبيع كل اللوازم الضرورية ، والكمامة أيضاً في محلنا للمبتكرات ·

وأرادت جيز ان تقول كلمة لطيفة :

– أتسير تجارتك جيداً يا سيد شاسل ؟ أأنت مسرور ؟

– تسير ، ايه ، تسير .. كالجميع في هذا الوقت يا آنسة جيز . يجب أن نتلاءم مع الواقع · لقد جندوا جميع مخترعينا كما تعلمين ؛ وفي الجبهة لا يقومون بشيء نافع ·· ومن وقت لآخر تخطر لأحدهم فكرة· مثلاً « لعبة أوز الحلفاء» التي خرجت إلى السوق ·· وهي سهلة الحمل ·· صور صغيرة مستعارة من العمليات الحربية : المارن ، ليزيبارج ، دومون .. لها قيمة كبيرة في الخنادق .. يجب ان نتلائم مع الواقع يا آنسة جيز .

وفكر انطوان : « على كل حال ، فأنت لم تتغير » ·

ولكي تسير العربة من بوان – دي – جور إلى ليفالوا سارت في طريق الجادات الخارجية . وهذا النهار ، الأحد ، بدا ساطعاً مرحاً · وكانت الشمس حارة · وعلى التحصينات جنود يهوّمون . وعلى باب دوفين باريسيات بثياب فاتحة كن يسرن إلى الغاب مع أولاد وكلاب ، وعلى محاذاة الارصفة عربات للفصول الأربعة تقف محملة بالزهور كما في السابق .

وسأل انطوان بصوت كسرته رجة العربة :

– بماذا ·· ماتت ·· المدموازيل ؟

– بماذا ؟ العمة المسكينة ·· لقد بليت كما يقال· المعدة ، الكليتان، القلب· لم تكن تهضم شيئاً منذ اسابيع · والليلة الاخيرة افلت القلب من عقاله فجأة – وصمتت بضع ثوان – لن تتصور إلى اية درجة تغيرت طباعها منذ ان اصبحت في المأوى ·· لم تكن تهتم إلا بـه ، نظامه ، رفاهيته ، صندوق توفيره ·· وكانت تجور على خادماته وراهباته ·· ولكن نعم ! كانت تشكو من كل شيء · وتعتقد انها مضطهدة · وقد وصل بها الأمر إلى اتهام جارة لها بأنها

سرقتها : حكاية كاملة ·· كانت تبقي اياماً بكاملها دون ان تشرب ، مقتنعة ان الراهبات يحاولن تسميمها !

وصمتت من جديد ، وساد الصمت . وفسرت صمت انطوان تفسيراً سيئاً ، فقد فسرته كتوبيخ · كانت منذ هذه الأيام الاخيرة فريسة وساوسها : لم تكن تنقطع عن التساؤل إذا كانت احسنت صنعاً مع عمتها مقابل كل ما هي مدينة لها به · وكانت تقول : « لقد ربتني ، وقد تركتها منذ ان استطعت تركها ولم اكن اذهب لزيارتها في المأوى إلا بالجهد » ·

وتابعت رافعة صوتها قليلاً كأنها تبرر نفسها :

– في ميزون كنا دائماً محجوزين في مستشفانا ! وأنت تعلم ، كان من الصعب علي المجيء · وهذه الأشهر الأخيرة على الخصوص ، ظللت وقتاً طويلاً دون ان أراها · وثم ، في الشهر الماضي كتبت إلي الرئيسة ، وجئت حالاً · لن انسى ابداً ·· عمتي المسكينة ·· وجدتها في داخل الغرفة حيث كانت ترتب ثيابها ، جالسة على صندوق ، بالقميص والتنورة ، هيئتها ذاهلة ، قلنسوتها من الشبك الأبيض على ضفائرها ، في ساقها جورب والساق الاخرى عارية · كانت هيكلاً عظمياً · الجبهة منتفخة ، والخدان متقعران ، والعنق معروق ·· ولكن الساق ظلت فتية بشكل مدهش ، نضرة أيضا · ساق فتاة . . لم تسألني عن اخباري ولا عن احد · بل اخذت تشكو من جاراتها ، ومن الراهبات · ثم فتحت مكتبها · أتعلم ؟ ارادت ان تريني الدرج الذي كانت تخبىء فيه نقودها المدّخرة : « لدفع ثمن الخدمة » وعندئذ بدأت تتكلم عن دفنها : « لن تريني ، سأكون ميتة » · ثم قالت لي : « ولكن لا تخافي · سأقول للرئيسة ان ترسل اليك هداياك » · فحاولت ان امزح : « ولكن يا عمتي ، منذ سنوات وانت تقولين انك ستموتين ! » فغضبت : « اريد ان اموت ! فالحياة تتعبني ! » ثم نظرت إلى ساقها : « انظري ما اصغر قدمي · أما انت فقد كان لك دائماقدما غلام ! » وفي ساعة الذهاب اردت أن اعانقها ولكنها انتفضت : « لا تعانقيني اني أشعر بالرداءة ، أشعر بالكبر » وعندئذ تكلمت عنك · كنت عند الباب

فنادتني من جديد : « تعلمين انني فقدت ست اسنان ، اقتلعوا هكذا كالجزر ! » واخذت تضحك بمرح بضحكتها الصغيرة ،أتعرفها ؟ « ست اسنان ! قولي ذلك لأنطوان وليسرع إذا أراد رؤيتي ! » .

كان انطوان يصغي ليس بدون تأثير . انه يشعر الآن بنوع من الفضول إلى حكايات المرض والموت . ومن ناحية اخرى فهذه الثرثرة تعفيه من الكلام .

ــ هل كانت تلك زيارتك الاخيرة ؟

كلا . منذ عشرة أيام رجعت . لقد كتبوا الي انها تلقت الاسرار المقدسة . كانت الغرفة مظلمة . لم تكن تحتمل نور النهار . وقد قادتني الأخت مرتا حتى السرير . كانت عمتي مكومة تحت اللحاف ، صغيرة ، وحاولت الأخت ان توقظها من خدرها : « هذه صغيرتك جيز ! » وتحرك اللحاف . لا اعلم اذا كانت فهمت ، إذا كانت عرفتني ، فقد قالت بوضوح شديد : « هذا طويل ! » وبعد لحظة : « ما هناك من جديد عن هذه الحرب ؟ » فكلمتها ولكنها لم تجب لم يكن تبدو انها تفهم ، وقد قاطعتني مرة بعد مرة : « وبعد ؟ ماذا من جديد ؟ » وحين أردت تقبيلهافي جبهتها دفعتني : « لا اريد ان يُعرّى رأسي ! » العمة المسكينة ! لا اريد ان يعرى رأسي ، آخر عبارة سمعتها منها .

ومسح السيد شاسل عينيه بمنديله . ثم طوى المنديل باعتناء على الطيات الأولى . وتمتم بين اسنانه بلهجة نفي :

ــ هذا لم يكن له لزوم .. ما كان يجب ان يعرى رأسها !

فخفضت جيز رأسها بسرعة ، ومرت على وجهها كالبرق ابتسامة لاارادية ، فتية وماكرة . وفاجأ انطوان هذه الابتسامة ، وفجأة، عادت جيز وأصبحت قريبة جداً منه ؛ وشعر بالرغبة في ان يدعوها « نيغريت » وأن يعاكسها كما في السابق .

واجتازت العربة سياج باب شامبريه وتوقفت لأجل الشكليات . في الساحة تقف سيارات مدافع الدفاع الجوي وسيارات رشاشات ، واجهزة مطلقة للاشعة يقوم عليها حرس ، وهي مغطاة باغطية كثيفة للتعمية .

وحين واصل الموكب سيره ودخل في شوارع ليفالدوا المأهولة ، تنهد السيد شاسل :

– اه مهما كان الأمر فقد كانت سعيدة في «مأوى العمر الناضج» المدموازيل الصالحة . هـــذا ما أبحث عنه أنا يا سيد انطوان : مأوى للرجال مستوفي الشروط ... وعندئـــذ يصبح المرء مطمئناً ... ولن يبقى عليه أن يهتم بما يجري ...

ورفع نظارتيـــه ليمسحها . وكان لعينيه المنتقتين من زجاجها نظرة طارفة ، مؤثرة ، عذبة . وتابع : .

– سوف أترك لهم الدخل الذي نلته من السيد والدك . وسوف أكون في المأوى حتى النهاية .. سوف أستطيع أن أنام في الصباح ، وأستطيع أن افكر بأموري .. وقد زرت واحداً في لاني Lagny . ولكن هذا كثير في الشرق في مثـل هذه الأوقات . وهل يستطيع المرء الوثوق بشيء مع أولئـك البوش ؟ ثم ، أقبيتهم ، كلا ؛ إنها ليست أقبية حقيقية . في هـذه الأوقات يلزم أقبية حقيقية .

ولفظ عبارة **في هذه الأوقات** بصوت خائف ، رافعاً يديه المغلفتين بقفاز اسود أمام عينيه كأنه يبعد طيرة مشؤومة : قفازان من السويـد ، باليان ، طويلان جداً ، وجلدهما الجاف كان منطوياً عند أطراف الأصابع كخرقـــة ملفوفة ، شنيعة ، شبيهة بالسندانات الصغيرة .

وصمت انطوان وجيز . لم يكونا راغبين بالضحك . وتابع الرجل الساذج بصوت نائح :

– لا شيء مأمون . لا يوجد اطمئنان في أي مكان . إلا في ليالي الانـذار بالخطر حين يستطاع الحصول على قبو حقيقي .. هناك ، إنه مكان آمن .. في التاسع عشر ، تجاه بيتي كان لدي واحد ، قبو ، قبو حقيقي .. – وصمت لحظة لأن انطوان كان يسعل ، ثم قال مختتماً : – ليالي القبو يا سيد انطوان ، في هذه الأوقات ، انها الأفضل كما ترى .

وخففت الخيول خطوها لتسير إلى جانب جدار . فقالت جيز :
– يجب أن يكون هنا .
وسأل انطوان :
– وبعد ، الى أين تذهبين ؟
وكان يسند كتفيه بقوة الى مسند العجلة ليخفف الهزات التي كانت تصدم اضلاعه .
– ولكن إلى شارع الجامعة ، عندك .. اني أنام هناك منذ أول البارحة .. والعربة يجب أن تسير بي . وهذا متفق عليه في الثمن .
فقال مبتسماً :
– من الأفضل أن نحاول ايجاد سيارة اجرة حسنة .
منذ أن تسلق الهودج ، كان يتألم لأنه مضطر إلى البقاء بقدر ما كان يخشى ان ينزل منه . ولأجل العودة ، كان عازماً على البحث عن طريقة أخرى للانتقال.
وتطلعت اليه مندهشة ولكنها لم تسأل أي ايضاح .. وفضلاً عن ذلك كانت العربة قد اجتازت عتبة المقبرة .

٣

– كلها عالقة . ستبقيها عشر دقائق ؟
– عشرون اذا أردت .
كان انطوان جالساً منفرج الساقين على كرسي في مكتبه الصغير في شارع الجامعة . وثمانية محاجم – كاسات هواء – ملصقة على ظهره العاري . وقالت جيز :
– انتظر . لا تتعرض للبرد .
وكانت قد وضعت معطفها ، معطف المرضة ، على مسند الكنبة وغطت به كتفيه . وفكر وهو مضطرب لاكتشافه في دخيلة نفسه حناناً سليماً كان ينعش قلبه : « كم هي عذبة ولطيفة ! لماذا أبقيتها بعيدة في هذه السنوات

الأخيرة ؟ لماذا لم أكن أكتب اليها ؟ » وفكر فجأة بغرفتـه الوردية اللون في موسكيه ، وبالبنات الست اللواتي يرفعن سيقانهن فوق المرآة ، وبعدم ترتيب طعامـــه ،وباعتناءات جوزف المخلصة ولكنها قاسية. « كم سيكون حسناً أن أبقى هنا ، مع جيز كممرضة .. » وقالت :

– سأترك الأبواب مفتوحة . فإذا احتجت لشيء فنادِ . اني سأجهز الطعام (البوبوت [1]) .

فقال بحدة :

– كلا ، ليس (البوبوت) كلا ، كلا ، كثير من البوبوت كما ترين ، منـــذ اربع سنوات .

فابتسمت واختفت ، وتركته وحده .

انه وحده مع ذلك الاحساس بالبيت الذي لقيـه ثانية ، ذلك الحلم بعذوبة امرأة بجانب سرير مرضه .

وهو وحده ايضاً مع **الرائحة** : فقد امسكت به منـــذ وصوله . وحين اجتاز الغرفـة الملاصقة ليعلق ، آلياً ، قبعته العسكرية في ذلك المشجب الى الشمال حيث كان يعلق قبعته المدنية في الماضي ؛ ومنذ ذلك الحين وهو في كل لحظة يفتح منخريه بفضول لا يشبهه شيء ، ليعبّ روائح بيته تلك ، المنسية ، والتي تعرّف عليها بسرعة ، طافيـة مبهمة ، يستحيل تحليلها ، والتي تنشأ عن الصور ، والطنافس ، والستائر ، والمقاعد ، والكتب ، والتي أُشبع بها الطابق كله بسرعة – مزيج من عشر عفونات متنوعة ! صوف ، دهان ، تبغ ، جلد ، صيدلية ...

العودة من المقبرة والرحلة الى محطة ليون لجلب حقيبته منها ، بدتا له غير منتهيتين . وازدادت الوخزة في جنبه ، وتضاعف ضيق نفسه . وعند نزوله من

---

١ – استعملت هنا كلمة (بوبوت) التي تعني مطعم او مطبخ . الخ . وقد مرت معنا . واعترض عليها انطوان لأنها هي الكلمة المستعملة في مصح موسكيه .

سيارة الأجرة امام بابه، وهو منحرف المزاج بشكل جدي، لام نفسه بمرارة لقيامه بهذه الرحلة . ومن حسن الحظ كان معـــه مواد علاجه . وما ان وصل حتى استطاع ان يجري حقنة او كسيجين هدأت من ضيق تنفسه . وبناء على تعليماته وضعت له جيز محاجم ـ كاسات هواء ـ وقد بدأت تعمل: اولاً انعتقت قصبات الهواء ، واصبح التنفس اكثر سهولة .

وهو جامد ، منطوي الرقبة ، ممتد الظهر ، ذراعاه الهزيلان متصالبان على مسند الكرسي ، وكان يجيل حوله عيناً قد لطفت . لم يكن يتوقع أن يشعر بكثير من الاضطراب عند رؤية بيته ، وايجاد مكتبه الصغير . لم يتغير شيء . وبدورة يد ، رفعت جيز الأغطية ، واعادت المقاعد الى اماكنهـــا ، وفتحت المصاريع ، واسدلت الستائر حتى النصف . لم يتغـــير شيء ، ومع ذلك فكل شيء كان غير منتظر : هذه الغرفة التي كان من عادته في السابق ان يجلس فيها ، كانت بالنسبة اليه مألوفة ، وغريبة معاً ، كتذكارات الطفولة التي تنبثق على حين غفلة بوضوح خيالي ، بعد سنوات من النسيان الكلي . وكانت نظرته تشرد بمحبة على الطنفسة الهافانية الجميلة . والكنبـــات الجلدية ، والأريكة ، والوسائد ، والمدخنة وساعتها ، والشمعدانات ، ورفوف المكتبة . وقال لنفسه : « وعلى كل واحد من تلك الكتب ، والتي لم يفكر بها ولو مرة واحدة منذ اربع سنوات ، كان يضع العنوان الصحيح ، كأنه حركه البارحة . وكل قطعة اثاث ، كل متـــاع ، ـ الطاولة المستديرة ، قاطعة الورق ، المرمدة البرونزية مع ثنيتها ، علبة سكاير ، ـ كان يذكره بشيء ، بلحظة من حياته ، بالزمان والمكان اللذين اشتراه فيهما ، عرفان جميل من أحد الزبائن بعد مرض لا يزال يعرف مراحله ، حركة من آن ، فكرة من الخليفة ، تذكار من والده ، لأن هذا المكتب كان غرفة زينة للسيد تيبو . لم يكن عليه الا ان يغمض عينيه ليرى من جديد المغسلة الكبيرة من الأكاجو السميك ، والخزانة ذات المرآة ، والحمّام ذا الأرجل النحاسية الحمراء ، والآلة الـــتي يخلع به الحذاء والواقفة في الزاوية .. وربما كان اقل دهشة لو انه وجد هذه الغرفة كما عرفها طوال فترة

طفولته كلها ، من ان يراها كما كانت اليوم بعد ان حوّلها هو . .

وفكّر : « غريب.. منذ قليل ، عندما اجتزت الباب الكبير لم اشعر انني دخلت إلى بيتي ، بل إلى بيت ابي . . » .

وفتح عينيه من جديد وشاهد جهـــاز الهاتف على الطاولة المنخفضة من الاريكة . الرجل الشاب الذي طالما تحدث بالهاتف من هنا ، انتصب امامه ، زاهراً ، فخوراً بقوته ، متسلطاً ، متعجلاً دائماً ، سعيداً بالحياة والعمل بشكل لا يتعب . بين ذلك الرجل وبينه يوجد اربع سنوات من الحرب ، والتمرد ، والتأمل ؛ وكان يوجـــد شعور بالألم ، وانحطاط جسدي موقت ، وشيخوخة مبكرة لا تنسى ولا لحظـة واحدة . وأحس فجأة بالارهاق فأسند جبهته الى ذراعه . لقد امّحى الحاضر امام الماضي . والده ، جاك ، المدموازيل : لقد اختفى الجميع . لقـد بدت له الحياة العائلية القديمة من خلال موشور الشباب والصحة. ماالذي لا يعطيه ليستعيد ذلك الزمان السابق ؟ ان الحسرة على ما لم يكن ، امتزجت بحزن اليوم. وكان على وشك مناداة جيز لينجو من وحدته . ولكنه كان لا يزال قادراً على ضبط النفس ، وعلى مجابهة الواقع . كل هذامسألة صحة . اولاً ، استعادة الصحة . وعزم على أن يجري في اقرب وقت حديثاً جدياً مع معلمه الدكتور فيليب ، وان يبحث معه عن معالجة اكثر فعالية ، واكثر سرعة . فالمعالجة التي اتبعها في موسكيه يجب ان تكون مجلبة للضعف مع طول المدة . ولم يكن من الطبيعي ان يصبح قليل القوة بهـذا الشكل ؛ سوف يعاونه فيليب على استعادة قواه . فيليب .. جيز .. اصبحت افكاره مشوشة . اصطحاب جيز إلى موسكيه .. الشفاء .. وفجأة غفا .

وعندما استيقظ بعد بضع دقائق ، كانت جيز جالسة على ذراع كنبة تنظر اليه . والانتباه ـ مع وخزة قلق ـ جعله يقطب حاجبيه . انه يقرأ ما كانت تفكر به على وجهها الاملس بحيث لم تعرف جيداً كيف تخفيه .

ـ تجدينني تالفاً ، اليس كذلك ؟

ـ كلا ، هزيلاً .

ـ فقدتُ من وزني تسعة كيلو منذ الخريف ·
ـ أتشعر الآن بشيء من الراحة ؟
ـ جداً .
ـ رنة صوتك لا تزال .. غير جهيرة قليلاً (بين جميع التغييرات التي لاحظتها فيه ، فان الذي أدهشها اكثر من غيره هو ذلك الضعف ، وتلك البحّة في الأوتار الصوتية) .
ـ في هذه اللحظة لا شيء . ولكن هناك ساعات ، في الصباح مثلاً ، اكون فيها فاقد الصوت تماماً .
وساد صمت قطعته وهي تثب على قدميها :
ـ اذن · ننزعها ؟
ـ اذا شئتِ .
فأدنت كرسياً وجلست الى جانبه ، وأدخلت يدها تحت المعطف لئلا يصاب بالبرد ، وبلطف انتزعت المحاجم . وكانت تضعها بين ركبتيها · ثم رفعت زوايا مريلتها وحملت الاقداح لتغسلها .
ووقف ، وتأكد من انه يتنفس بكثير من الحرية . وتفحص في المرآة ظهره المظمي المدموغ بدوائر بنفسجية ، وارتدى ملابسه .
وكانت قد أنهت وضع الطعام حين لحق بها .
وأجال عينيه في قاعة الطعام الواسعة ، وبالعشرين كرسياً المصفوفة ، والخوان الرخامي الذي كان ليون يقدسه في السابق · وصرح :
ـ تعلمين ، منذ ان تنتهي الحرب فسأبيع البيت .
فالتفتت مندهشة وعيناها محدقتان به ، وبيدها صحن :
ـ البيت ؟
ـ لا أريد ان احتفظ بشيء من كل هذا · لا شيء · سأستأجر شقة صغيرة بسيطة ، عملية .. و ..
وابتسم لم يكن يعلم جيداً ما سوف يفعل ، ولكن شيئاً واحداً كان

مؤكداً : بعكس ما كان يظنه هذا الصباح فانه لن يستعيد قطار حياته كما كان في السابق .

– قطعة لحم (اسكالوب) وطحين وبيض بالزبدة ، وفريز .. أيلائمك هذا؟

سألت ذلك وهي ترفض أن تفهم كراهية انطوان لإطار صنع بكامله وفقاً لمراده . وكانت تملك قليلاً من المخيلة ولا تهتم كثيراً بمشاريع المستقبل .

وقال متفحصاً المائدة الصغيرة الجاهزة :

– لقد ارهقت نفسك ايتها الجنية الصغيرة .

– لا أزال بحاجة إلى عشر دقائق . ولم أجد مناشف .

– أنا ذاهب لأبحث عن ذلك .

كانت خزانة البياضات مسدودة بسرير مطوي، مفتوح ، مفكك . وشاهد في تجويف الفراش دزينة المسابح ، والملابس الملقاة على كرسي وتساءل :

– لماذا لم تأخذ الغرفة الأخيرة ؟

وفتح خزانة في الحائط ، ثم ثانية ، ثم ثالثة . كانت الخزائن الثلاث ملأى ببياضات جديدة : أغطية ، أغشية مخدات ، مآزر من نسيج اسفنجي ، مماسح ، مريلات خدمة ؛ والدزينات كانت لا تزال مربوطة بخيوط البائع الحمراء . فهز كتفيه : « كل هذا حماقة .. اللازم الضروري . والباقي إلى قصر البيع ! إلا أنه أخذ رزمة المناشف وسحب منها اثنتين . « أعرف لماذا ، بالتأكيد ! لقد أرادت أن تدخل إلى هنا لئلا تنام في غرفة جاك القديمة .. »

وعاد إلى الرواق بخطوة متلكئة ، لامساً هنا وهناك الصور الملصقة على حائط ، فاتحاً الأبواب التي كان يمر أمامها . ملقياً نظرة فضولية إلى الداخل كأنه يزور مسكن رجل آخر .

وعاد إلى الدهليز ، وتوقف أمام باب غرفة عيادته ذي المصراعين . وتردد في الدخول . وأخيراً أدار القفل . كانت النوافذ مقفلة . وأمام المكتبة لُفّت قطع الأثاث المغطاة بأغطية . وكانت الغرفة لا تزال تبدو كبيرة . ونور النهار المنزلق من صفائح النوافذ نشر ضوءاً كثيراً ، كما في تلك الصالونات الكبرى في

الريف ، التي لا يُدخل اليها إلا أيام الاستقبال .

وتذكر فجأة آخر أيام تموز ١٩١٤ .. الصحف التي جاء بها ستودلر . والمناقشات . والقلق .. وزيارات أخيه .. ألم يأت جاك إلى هنا مع جني ؟ يوم التعبئة بالذات ؟

كان يتنفس بدفعات صغيرة ، مستنداً إلى إطار النافذة . وجذعه منحن : الرائحة هنا محفوظة بشكل أفضل . وأكثر نفاذاً من غير مكان ؛ مختلفة قليلاً ، وأكثر عطراً .. في الوسط ، المكتب الكبير المختفي تحت غطاء ، كان يشبه نعش طفل .

« ماذا استطاعوا أن ينضدوا هنا ؟ »

وعزم على الدخول ورفع القماش . كان المكتب يختفي تحت ركام من الصرر والكتب الصغيرة . منذ بدء الحرب كانت حارسة المنزل تحمل إلى هنا جميع أنواع المطبوعات ، والبيانات ، والصحف والمجلات ، والمساطر المتعددة التي كانت ترسلها المختبرات . وقال لنفسه : « ماذا يشتم من كل هذا ؟ » كان يمتزج بالرائحة المألوفة عطر خاص ، ثقيل ، بلسمي بشكل مبهم .

ومزق بصورة آلية غلاف بعض المجلات الدورية الطبية ليتصفحها . وفجأة ، فكر براشيل ، لماذا ؟ لماذا ليس بآن ؟ لماذا بالضبط بتلك التي لم تدخل أبداً إلى هذا البيت ، والتي لم يكن يستحضر ذكراها منذ شهور ؟ ماذا حلّ بها ؟ أين يمكن أن تكون ؟ في إحدى النواحي الاستوائية ، مع هيرشها ، بعيدة عن أوروبا ، بعيدة عن الحرب ... » والقى على المدخنة عدة نشرات كان يتمنى ان يحملها إلى موسكيه . « إن الأطباء الذين يستأثرون الآن بهذه المجلات كلهم شيوخ لم يتجندوا .. حظ غير متوقع ! يستفيدون منها ، ويكشطون داخل ادراجهم ..» واجال عينيه في الملخّصات . من وقت لآخر ، ومن عربة اسعاف في الجبهة ، كان احد الشبان يجد الوقت ليرسل تقريراً موجزاً عن حالة عجيبة . جراحون بشكل خاص .. « الحرب على الأقل خدمت ذلك : جعلت الجراحة تتقدم .. » وظل هناك منقباً في الكدسة ،

مخرجاً من هنا وهناك كراسة كان يرسلها إلى المدخنة . « لو كنت استطيع فقط ان انشر مقالي حول اضطرابات التنفس عند الأولاد . وسيبيون بالتأكيد سيأخذه في مجلته .

هناك رزمة تختلف عن الأخريات استلفتت انتباهه ، بسبب الطوابع المبرقشة التي كانت تغطيها . فأخذها ، وتشممها : من جديد ، تلك الروائح العطرية التي لاحظها منذ قليل أقلقته فجأة . فقرأ اسم المرسل ، ومنخراه في حالة يقظة : **الآنسة بونيه . مستشفى كوناكري . الغينه الفرنسية .** كانت مختومة في آذار ١٩١٥ . ثلاث سنوات . فدهش وقلب الرزمة الصغيرة في يده ووزنها . ادوية ؟ عطور ؟ وقطع الخيط وأخرج من الورقة علبة مستطيلة من الخشب الأحمر ، مسمّرة على جميع وجوهها . « هوم .. يصعب فتحها » . وبحث بعينيه عن أداة . وكاد يقلع عن إرضاء فضوله حين فكر أن سكينه العسكرية موجودة في جيبه . وصرّت الشفرة وهي تحز الخشبة ؛ جهد خفيف وخضع الغطاء . عطر شديد صعد اليه ؛ عطر بجمرة شرقية ، لبان ، بخور ؛ عطر معروف ومع ذلك فلم يتوصل إلى تحديد هويته . وبحيطة ، وبطرف الظفر . ابعد طبقة النشارة : فظهرت بيوض صغيرة صفراء لامعة مكسوة بالغبار . وفجأة ، قفز الماضي إلى وجهه : هذه الحبوب الصفراء . عقد العنبر والمسك ! عقد راشيل .

امسكه بين أصابعه ومسحه باحتراس . وغامت عيناه . راشيل ! عنقها الأبيض ، رقبتها .. الهافر ، رحيل الباخرة رومانيا عند الفجر ... ولكن لماذا هذا العقد ؟ من تكون تلك الآنسة بونيه من كوناكري ؟ آذار ١٩١٥ .. ماذا يعني كل هذا ؟

وسمع وقع خطى في الرواق فوضع العقد في جيبه بسرعة .

كانت جيز تبحث عنه للغداء . وقد وقفت على العتبة وتنشقت الهواء :

– رائحة غريبة .

وأعاد الغطاء على مجموعة النشرات والأدوية .

ه

– ذلك لأنهم كدسوا هنا كل ما يتعلق بالأدوية .

– أتأتي ؟ الطعام جاهز .

فتبعها . في داخل جيبه ، وفي تجويف كفه ، كان يشعر بالحبوب الباردة تصبح فاترة . وكان يفكر بجسد راشيل الأبيض الأشقر .

٤

ما ان جلسا جنباً إلى جنب إلى أحد أطراف الطاولة الكبيرة حتى اتخذت جيز هيئة حازمة :

– حدثني الآن جدّياً عن صحتك .

فأرخى شفتيه . كان قليل الميل إلى التحدث عن نفسه ، عن مرضه ، عن علاجه . ولكن لم يكن يكدره أن يتباطأ في الإجابة . وأجاب دون عجل على أولى أسئلة الفتاة .

وأدرك بسرعة أن هذه الأسئلة ليست بلهاء . فجيز الصغيرة هذه ، حيث كان يميل دائماً إلى معاملتها كطفلة ، قد اكتسبت طاقات لا بأس بها من إقامتها ثلاث سنوات في المستشفى . وبالمستطاع التكلم طبياً معها .. وهذه زيادة رابط بينهما .. وتشجع من انتباهها فعرض حالته ، ومر بمختلف المراحل التي اجتازها في هذه الأشهر الأخيرة . فلو بدت أنها تأخذ ما كان يقوله بدون تروٍّ ، ولو اعتقدت أن من المفيد أن تفيض عليه بالأقوال المشجعة ، لكان ذلك مما يضاعف قلقه . ولكنها كانت تصغي اليه بوجه شديد الجد ، وتثبت عليه نظراً كثير الاهتمام ، دقيق البحث بحيث اتخذ ، على العكس ، نبرة مطمئنة لكي يقول مختتماً :

– بعد البحث الدقيق سأنجو من ذلك . (وبالفعل كان هذا أساس تفكيره) .

وتابع مبتسماً بثقة :

– ستطول المدة أو تقصر . ولكن لأنجو منه ، فهذا نعم . سأنجو من

ذلك .. فقط : هل أشفى كلياً ؟ تصوري أن أبقى معوهاً من الحنجرة ، أو سريع العطب في الأوتار الصوتية ، فهل سأستطيع العمل كما في السابق ؟ أنت تفهمين . لا يكفيني اليقين بأنني سأعيش . ولا أهتم في المستقبل أن أعيش عيشة رجل ناقص . بودي أن أكون واثقاً من أنني سأستعيد صحتي السابقة ! وهذا أقل تأكيداً .

كانت قد انقطعت عن الأكل لتسمع وتفهم بصورة أفضل . كانت تتأمله بعينيها المستديرتين ، المندهشتين ، الجامدتين ، الصبيانيتين والمخلصتين كعيون الكائنات البدائية . هذا الاهتمام الحنون الذي حرم منه منذ سنوات ، كان يبدو له كثير العذوبة . وضحك ضحكة صغيرة مطمئنة :

ــ انه أقل تأكيداً ولكنه ليس مستحيلاً . والأمور المستحيلة تظل قليلة جداً مع الملازمة ! كل ما أردته بعزم حتى الآن قد فعلته . فلماذا لا أنجح هذه المرة ايضاً ؟ اريد أن اشفى . وسأشفى .

وشدّ صوته على هذه الكلمات الأخيرة واضطر إلى التوقف ليسعل . وكانت النوبة شديدة ودامت دقيقة كبيرة ، كانت جيز أثناءها منحنية على صحنها تلاحظه خلسة . وحاولت ان تطمئن نفسها : « انه يستطيع ما يريد . سيعرف كيف يعتني بنفسه . وسيعرف أن يشفى » .

وحين مرت النوبة التفتت نحوه فأتى بإشارة تفيد أنه يفضل البقاء بضع لحظات دون كلام . فقالت وهي تملأ كأسه :

ــ اشرب قليلاً من الماء .

وكانت غير قادرة على الاحتفاظ بالسؤال الذي يحرق شفتيها :

ــ كم يوم ستبقى معنا ؟

فلم يجب . ان هذا موضوع يوده لو تجنبه . في الواقع ، كانت إجازته لأربعة أيام . ولكنه كان يفكر بتقصير أمدها ! لم يكن راغباً ابداً في أن يقضي اربعة ايام في باريس يخضع فيها لعناية مرتجلة ، ويتعرض لمئة فرصة متعبة . وقالت وهي تستجوبه بالنظر :

– كم ؟ ثمانية ؟ ستة ؟ خمسة ؟

فهز رأسه سلباً . وتنفس تنفساً عميقاً ، وابتسم ، وقال اخيراً :

– سأرحل غداً ٠

– غداً ؟ – كانت مخدوعة بارتجـــاف صوته – إذن لن تأتي لرؤيتنا في ميزون – لافيت ؟

– غير ممكن يا صغيرتي جيز ٠٠ غير ممكن هذه المرة ٠٠ فيما بعـــد ٠٠ ربما اثناء الصيف ٠

– ولكني لم أكد اراك بعـــد ذلك الوقت الطويل ٠٠٠ غداً ؟ حتى اني لا استطيع البقاء معك في باريس : يجب ان اعود لأنام هذا المساء في ميزون . فلدي خدمتي غداً صباحاً تنتظرني ٠ فكـّر اذن ! لقد جئت منذ ثلاثة ايام ، وعشية رحيلي جاء ستة جدد ٠ فقال مصالحاً :

– لدينا على الأقل نهار نقضيه معاً .

فهتفت مذعورة :

– ولكن هذا مستحيل أيضاً . فلدي موعـــد في المأوى بعد قليل . يجب الانتهاء هناك من قضايا عمي وأثاثها : انهم بحاجة إلى الغرفة ..

وورمت الدموع عينيها . وتذكر احزانها حين كانت طفلة ، ومرت مـــن جديد هذه الفكرة في ذهنه : « سيكون حسناً ان تعتني بي وان اشعر حولي بهذه المحبة .. »

لم يكن يعرف ماذا يقول . هو نفسه كان يشعر بخيبة أمل لأن هذا اللقـــاء كان قصيراً .

وجازف بالقول بمراءاة :

– ربما استطيع الحصول على تمديد .. لا ادري .. استطيع التجربة ..

وتألقت عينا جيز دفعة واحدة واصبحتا ضاحكتين . كانتا جميلتين مـــن خلال الدموع ..(وهذا أيضاً كان يذكر انطوان بالسنوات الماضية) . وقررت وهي تضرب كفاً بكف :

– هذا ما يجب عمله . وستأتي لقضاء بضعة أيام في ميزون ، معنا .

فقال لنفسه : « انها لا تزال طفلة . وفيها صبيانية تتناقض مع نضجها كامرأة ، هي مليئة بالفتنة » .

ولتغيير الحديث مال بهيئة مستفهمة :

– ولكن اوضحي لي امراً ، كيف لم يأت أحد معك إلى باريس ؟ ميزون ليست كثيرة البعد . ان يتركوك وحدك مع هذه الجنازة ..

فاعترضت حالاً :

– ولكن ليس لديك اية فكرة عن العمل الذي نقوم به هناك ! كيف تريد ؟ إذا انا سافرت فسيصبح لدى الاخريات زيادة عملٍ يقمن به !

لم يستطع الامتناع عن الابتسام من هذه الهيئة الساخطة . وعندئذ ، لكي تقنعه ، اندفعت في ايضاح سهلٍ سريع عما هي الخدمة في المستشفى ، وعن حياتها في ميزون . الخ .

(منذ منتصف ايلول ١٩١٤ ، بعد معركة المارن ، فان مدام دي فونتانان التي كانت تلتهمها الحاجة لتكون مفيدة ، انشأت مشروعاً لتأسيس مستشفى في ميزون ـ لافيت . كانت لا تزال تملك املاك والدها ، على حافة غاب سان جرمان ؛ والمستأجرون ، وهم انكليز ، تركوا فرنسا عند اعلان الحرب ؛ إذن فقد كان البيت العائلي القديم فارغاً ، ولكن بالاضافة إلى كونه صغيراً ، فقد كان بعيداً عن المحطة والموارد . وعندئذ خطرت لمدام دي فونتانان فكرة الطلب من انطوان إذا كان يرضى باعارتها منزل السيد تيبو ، الذي كان أكثر اهمية من منزلها وقائماً على مقربة من « البلاد » وطبيعي ان يرضى انطوان ؛ وعلى الاثر كتب إلى جيز ، التي ظلت في باريس ، ان تضع نفسها مع الخادمتين تحت تصرف مدام دي فونتانان لاجل تحويل الدارة . ومدام دي فونتانان ، من ناحيتها ، تأكدت من معاونة ابنة اخيها نيكول هيكيه ، زوجة الجراح ، التي كانت قد نالت شهادة التمريض. وتألفت لجنة للادارة وضعت تحت رقابة جمعية اسعاف الجرحى العسكريين . وبعد ستة اسابيع فان دارة تيبو التي جهزت

بسرعة سجلت تحت اسم : المستشفى رقم ٧ على محاضر الدائرة الصحية ، وأصبح جاهزاً لاستقبال أول دفعة من الناقهين . ومنذ ذلك الوقت ، والمستشفى رقم ٧ ، الذي تديره مدام دي فونتانان ، ونيكول ، لم يعطّل يوماً واحداً) .

وكان انطوان قد أعلم بكل ذلك بواسطة رسائل . وكان سعيداً لأن املاك والده استخدمت في شيءٍ ما ؛ وسعيداً على الخصوص لأن جيز ، وقد كان قلقا لوجودها بدون عمل في باريس ، لاقت استقبالاً حاراً في عائلة فونتانان ولكنه ، والحق يقال ، لم يكن يعلق اهمية كبيرة على عمل المستشفى رقم ٧ ، وكذلك على تنظيم بيت آل فونتانان الذي أصبح تحت إدارة كلوتيلد القوية ، طاهية السيد تيبو القديمة ، مسكنا جماعيا غريباً - كانت تسكنه نيكول وجيز - وحيث دانيال كان قد جنح اليه بعد بتره - وحيث جاءت جني تسكنه مع ولدها ، بعد عودتها من سويسرا . وكان أيضا يصغي بفضول إلى ثرثرة جيز : ان حياة تلك الجماعة البشرية الصغيرة التي لم يكن يفكر بها في الغالب أصبحت واقعا امام عينيه فجأة .

واوضحت جيز وهي مشبعة بموضوعها :

- من بيننا جميعاً ، فان جني هي التي تجهد نفسها اكثر من غيرها . ليس عليها فقط ان تهتم بجان بول ، بل انها تدير مصلحة الغسيل . ولك أن تتخيل هذه المصلحة . الغسيل ، والكوي ، والرفو ، والمحاسبة ، والترتيب ، والتوزيع اليومي لجميع الغسيل اللازم لمستشفى يتألف من ثمانية وثلاثين سريراً ، وأحياناً من اربعين ، وحتى خمسة واربعين ! وهي تعود مساءً منهوكة ، وتقضي كل فترات ما بعد الظهر في المستشفى . ولكنها تبقى صباحاً في البيت للاعتناء بالصغير .. اما مدام دي فونتانان فهي تسكن بالقرب من مرضاها ، وقد اقامت غرفة فوق الاسطبلات ، اتعلم ؟

كان هذا يبدو غريباً على انطوان ان يسمع جيز (ابنة اخ المدموازيل المفرطة في الحرص على كل ما يتعلق بالعفة) تتكلم عن جني وعن امومتها كما

تتكلم عن امر طبيعي جداً . وقال لنفسه : « صحيح ان هذا يعود تاريخه إلى ثلاث سنوات .. وثم ، ان ما كان يسبب شيئاً من الفضيحة في الماضي اصبح اليوم مقبولاً بكثير من السهولة ، في الانقلاب العام لجميع القيم » .

وتأوهت جيز وقالت بنبرة لائمة : – واكثر من ذلك . اتأتي الى باريس دون ان ترى صغيرنا على الاقل ؟ ان جني لن تتعزّى .

–ليس عليك الا ان لا تقولي شيئاً ايتها الحمقاء الصغيرة .

فقالت بنبرة حازمة بشكل غريب خافضةً جبهتها :

ـ كلا ، لا اريد ان اخفي شيئاً عن جني .

فنظر اليها مندهشاً ، ولم يلحّ . وسألت :

ـ أأنت واثق على الاقل من الحصول على ذلك التمديد ؟

ـ سأجرّب .

ـ كيف ؟

فاستمر في الكذب : سوف اطلب من روميل ان يتكلم هاتفياً مع المكاتب العسكرية التي تتعلق بها هذه الأمور .

فقالت حالمة : روميل ..

ـ في نيتي ، بجميع الطرق ، ان اقوم اليوم بزيارته . اني لم أره ابداً منذ زمن بعيد .. اريد أن اشكره علي الجهد الذي بذله في سبيلنا .

كانت هذه هي المرة الأولى في النهار والتي أُشير فيها إلى موت جاك . وانقبض وجه جيز ودكنت مادة صبغتها بقعاً .

(اثناء خريف ١٩١٤ ظلت وقتاً طويلاً ترفض الاعتقاد بموت جاك . فصمت جاك المستمر ، واعلان اختفائه بواسطة اصدقائه في جنيف ، وتأكيد جني وانطوان ، كل هذا لم يكن يُعدّ شيئاً بالنسبة اليها . وكانت تفكر بعناد : « لقد اغتنم فرصة الحرب ليهرب من جديد . وسيعود الينا مرة اخرى » . وهذه العودة كانت تنتظرها بقلق وهي تصلي التساعيات . وفي ذلك الوقت تعلقت بجني . تعلقٌ رسخ في بادىء الأمر وفقاً لحساب شنيع : « حين يعود

جاك يجدنا صديقتين: وسأظل شخصا ثالثاً في حياتها . وربما يكون شاكراً لي اعتنائي بجني في غيابه .. » وحين ُعرف بواسطة روميل عن سقوط الطائرة محترقة ، وحين قرأت نسخة المذكرة الرسمية كان اللازم ان تذعن للملموس . ولكن كان في قلبها حدس مبهم يقنعها بان هذه ليست الحقيقة الصحيحة . والآن ايضاً كان يحدث لها ان تقول لنفسها : « من يدري ؟») .

وخفضت جبهتها من جديد لئلا يلتقي نظرها بنظر انطوان ، وكما ان كل شيء فيها قد انقلب فجأة ، فقد ظلت بضع ثوان جامدة ، متضايقة ، ممسكة دموعها بجهد . واخيراً نهضت بسرعة لئلا تنفجر باكية وسارت نحو المكتب .

ولاحظ انطوان وهو يتبعها بعينيه ، منزعجـــاً من هذا الاضطراب الذي اثاره بدون ارادته : « لـكم ثقلت .. هذان الخصران ! الجذع ، الجسم . تبدو اكبر من عمرها بعشر سنوات ؛ تبدو انها تجاوزت الثلاثين ! » .

وكان قد اخرج العقـــد من جيبه . حبيبات من المسك ، شهباء رصاصية ، كبيرة كنواة الكرز ، تتناوب مع كرات العنبر القديم التي بحجم الخوخ الصغير الناضج . ولف العقد آلياً بين اصابعه . واصبح العنبر فاتراً ، وخيل لانطوان انه انتزع العقد من عنق راشيل .

وحين عادت جيز حاملة ملء صحنه من الفريز ، كانت حدة حزنها لا تزال تُقرأ بوضوح على وجهها بحيث تأثر انطوان من ذلك . وحين وضعت الفريز على الطاولة داعب صامتاً المعصم المعتدل الذي يحيط به سوار من فضة . فارتعشت، واهتزت أهدابها .. كانت تتجنب النظر اليه . وجلست في مكانها ، وتشكلت دمعة جديدة على حافة جفونها . وعندئذ التفتت نحوه بابتسامة مشوشة ، بدون ان تحاول إخفاء حزنها ، وظلت هكذا بضع دقائق دون ان تستطيع الكلام، وتأوهت اخيراً :

ـ انا حمقاء .

وبدأت ، بحكمة ، تحلّي الفريز بالسكر . ولكن على الأثر تقريباً وضعت اناء السكّر وانتصبت بعصبية قائلة :

ـ اتدري ما الذي يزيد من عذابي يا انطوان ؟ هو ان احداً حولي لا يلفظ اسمه .. جني لا تنقطع عن التفكير به ، واعرف ذلك ، وأشعر به : انهـــا لا تحب ذلك الصغير كثيراً إلا لأنه ابن جاك .. وجاك حاضر بيننا دائماً. وهذه المحبة التي اشعر بها الآن نحوها مؤلفة من ذكرى جاك . وهي ، لماذا تستقبلني بكثير من الرقة ، ولماذا تعاملني كأخت ، بدون ذلك ؟ ولكنها لا تتحدث عنه أبداً .. انه كالسر الذي يجمع بيننا ، الذي يربطنا إلى الأبد ، والذي لم تجر أية اشارة اليه ! وهذا يخنقني يا انطوان — وتابعت بنوع من اللهاث : — أقول لك ان جني ذات كبرياء ، صعبة ! وأعرفها الآن جيداً ! اني أحبها ، واعطي حياتي في سبيلها وفي سبيل ذلك الصغير ! ولكني اتعذب . اتعذب لأنها كما هي ، مستغلقة ـ لا اعرف كيف اقول .. واعتقد انها تتعذب لفكرة ان جاك كان مجهولاً من الجميع ـ ما عداها . هي تتصور انها الوحيدة التي فهمته ! وتحرص بنفور عـلى انها الوحيدة ! واذن ، فهي ترفض التحدث عنه مـــع أي شخص . وخصوصاً معي ! ومع ذلك ، مع ذلك ..

وكانت دموع ثقيلة تجري الآن على خديها ، بالاضافة إلى ان وجهها الذي شاخ فجأة لم يكن يعبر عن الحزن ، بل فقط عن الألم ، والغضب . مـع شيء وحشي لم يستوضحه انطوان جيـــداً . كان يفكر . وكان مندهشاً : لم يكن يرتاب أبداً بأن جني وجيز اصبحتا صديقتين حميمتين بهذا الشكل .

وتابعت جيز بصوت منخفض ولكن بنفس الصوت المضطرب :

ـ لم اكن واثقة أبداً انها كانت تعرف .. عواطفي نحو جاك . وكنت أحب ان استطيع التحدث اليهـــا عن ذلك بنفسي ، بقلب مفتوح ! ليس عندي ما اخفيه عنها .. احب ان تعرف كل شيء ! ان تعلم إذا كنت قد ابغضتها في السابق ـ اوه ، نعم : ابغضتها بشكل عميق ـ والآن ، بالعكس ، منذ ان مات جاك ، فان كل ما كنت اشعر به نحوه (واتخذت نظرتها بريقاً مغناطيسياً) قد حولته نحوها ونحو ولدها .

كان انطوان ، منذ لحظة ، قد نسي ان يصغي اليها ، كان منتبهاً فقط لرفيف

جفونها السمراء ، لتلك الأهداب الطويلة التي ترتفع وتنخفض ببطء ، وتغطي وتكشف بريق حدقتيها الساطع ، كشماع المنارة المتقطع . وكان قد وضع مرفقه على الطاولة وأسند خده على يده ، متنشقاً بشغف طرف اصابعه التي ظلت مشبعة بالمسك .

وتابعت جيز وهي تبذل الجهد لتبدو اكثر هدوءاً :

ـ هذه كل عائلتي اليوم . وقد وعدتني جني بأنها ستبقيني دائماً إلى جانبها .

وتساءل : « هل ستأتي لتعيش معي إذا اقترحت عليها ذلك ؟ » .

ـ نعم . لقد وعدتني بذلك . وهذا ما يساعدني على الحياة ، على قبول المستقبل ، اتفهم ؟ لا شيء في العالم له قيمة عندي : لا شيء غيرها ـ وطفلنا .

وقال لنفسه ! « لن تقبل » . الا انه كان مندهشاً لإدراكه في اهتزاز هذا الصوت بعض الرنات المتنافرة التي بدت له كاشفة . وفكر : « كم من أمور مضطربة دون شك في صداقة هذين القلبين النسائيين ـ قلبي ارملتين ! حنان ، لا أشك به . ولكنها بالتأكيد غيرة . ومن المحتمل انه بغض بجرعات ماكرة ! وكل هذا يشكل مزيجاً عنيفاً يشبه الحب بشكل شيطاني .. »

وتابعت جيز ، وكانت الآن مناجاة شاكية تخفف عنها ولا تستطيع إمساكها :

ـ ان جني هذه كائن غير عادي .. نبيلة ، نشيطة .. رائعة ! ولكن كم هي صارمة حيال الآخرين ! هكذا ، انها صارمة وغير عادلة بالنسبة لدانيال.. وبالنسبة الي ايضاً اشعر انها .. اوه ، لها الحق ، فأنا شيء قليل بجانبها ! ومهما كان الأمر فهي ليست دائماً على حق . انها تتعامى ، ولا تثق إلا بنفسها ، ولا تقبل ان يكون بالمستطاع الحصول على افكار اخرى .. ومع ذلك فأنا لا اطلب المستحيل ! إذا كانت لا تريد ان ينشأ جان ـ بول على دين والده فاني لا استطيع شيئاً ولن أقنعها .. ولكن ، عندئذ يجب على الأقل ان يعمّده قس !

وأصبح نظرها قاسياً ؛ وكما كانت تفعل المدموازيل في السابق ، حركت

جبهتها المنتفخة حركات صغيرة عنيدة ، وشفتاها المضمومتان كانتا مطبقتين على كل مصالحة . وهتفت وهي تلتفت بعنف نحو انطوان :

ـ الاترى ذلك ؟ لتجعل منه بروتستانتياً صغيراً إذا ارادت ! ولكن يجب الا تربي ابن جاك كالكلب .

فاتى انطوان بحركة مراوغة . وتابعت :

ـ انك لا تعرفه ، ذلك الصغير . انه طبيعة محتدمة ، وسيكون بحاجة إلى تقوى ـ وتأوهت واضافت بنبرة اخرى ، مؤلمة : ـ مثـــل جاك ! لم يكن ليحدث شيء لو لم يفقد جاك ايمانه .

ومن جديد ، وبخفة متناهية ، تبدلت سحنتهـــا ، فاصبحت لطيفة بينما ابتسامة فاتنة اضاءت عينيها تدريجياً :

ـ ان هذا الصغير يشبه جاك تماماً ، فهو اشقر قاتم مثله ! وله عيناه ويداه ! وهو في سنواته الثلاث الآن ، كثير العناد ، حرون احياناً ، ورقيق في بعض الاحيان ـ واختفى كل أثر للحقد من صوتها . وضحكت بسلامة طوية : ـ انه يدعوني : **العمة جي !**

ـ هل هو ذكي ؟

ـ جداً ! يفهم ويدرك كل شيء . وذو حساسية ! يمكن الحصول على كل شيء منه باللطف ، ولكن إذا صُدم ، إذا مُنع من شيء عزم ان يفعله ، فان حاجبيه ينقبضان ، وقبضتاه تتشنجان ، وتصعب معاشرته .. كجاك تماماً ـ وظلت حالمة بعض الوقت : ـ وقـــد صنع دانيال له صورة جيدة ، فهل ارسلتها جني اليك ؟

ـ كلا . لم ترسل جني اليّ اية صورة لولدها .

فدهشت ورفعت عينيها اليه ، وبدت انها تسأله . وكادت ان تقول شيئاً ولكنها اقلعت عن ذلك ، ثم قالت :

ـ تلك الصورة موجودة معي هنا ، في حقيبتي . اتريد رؤيتها ؟

ـ نعم .

فركضت تبحث عن حقيبة يدها واخرجت منها صورتين كتجربة هاو .

في الصورة الأولى التي يجب ان يعود تاريخها إلى السنة الماضية ، كان جان ـ بول مع والدته : جني وقد سمنت قليلاً · الوجـــه اكثر امتلاءً من السابق ، والقسمات هادئة وعابسة أيضاً . فقال انطوان لنفسه : « انها تشبه مدام دي فونتانان » · كانت جني ترتدي ثوباً أسود ، وكانت جالسة على احـــدى الدرجات المسطحة وهي تضم الطفل اليها .

وفي الاخرى ، وهي احدث عهداً بالتأكيد ، كان جان ـ بول وحـده : يرتدي كنزة مخططة تقولب جسماً صغيراً عضلاً بشكل يدعو إلى الدهشة ، وهو واقف ، متشدد ، منخفض الذقن بهيئة مستاءة .

وتأمل انطوان الصورتين طويلاً ، وذكرته الثانية على الخصوص بجاك: نفس مفرس الشعر ، نفس النظرة المغمضة ، النافذة ، نفس الفم ، نفس الفك ـ فك آل تيبو القوي .

وأوضحت جيز ، وهي واقفة منحنية على كتف انطوان :

ـ ترى انه على أهبة اللعب بالرمل . واليك رفشه هناك : وقد ألقاه بحركة غاضبة لأنه قوطع في لعبه ، وتقهقر حتى الحائط ·

فرفع انطوان رأسه نحوها ضاحكاً :

ـ اتحبين اذن هذا الصغير بهذا المقدار ؟

فلم تجب . ولكنها ابتسمت ، ولم يكن هناك شيء اكثر تعبيراً من تلك الابتسامة المتفتحة المطبوعة بحنان عجيب .

الا ان اضطراباً لم يفطن اليه انطوان قد استولى عليها ـ ككل مرة تتذكر ذلك العمل الجنوني الذي قامت به . (وقد مر على ذلك سنتان ، واكثر أيضاً: كان جان ـ بول لا يزال رضيعاً غير مفطوم .. ولم تكن جيز تحب شيئاً اكثر من ان تحمله بين ذراعيها ، وتهدهده ، وتنيمه على صدرها ، وحين كانت ترى جني وهي ترضع الولد فان عاطفة مفرطة من اليأس والغيرة كانت تستولي عليها . وذات يوم من أيام الصيف ، اعطتها جني الطفل لتحرسه ـ وكان الحر

عاصفاً مهيجاً للاعصاب – وخضعت لرغبة جنونية فأقفلت غرفتها عليها وعلى الرضيع واعطته ثديها . آه ، كيف ان هذا الفم الصغير النهم انقض عليها ، وكيف مصها وعضها ، واثخن فيهـا ! وقد تألمت جيز عدة ايام مـن تلك التآليل الدامية بقدر تالمها من الخجل .. فهل كانت هذه خطيئة ؟ ولم تجد شيئاً من الهدوء إلا بعد ان اعترفت بذلك بنصف كلمة على كرسي الاعتراف وعوقبت بعقوبة طويلة . ولم تعد إلى ذلك ابداً) .

وسأل انطوان :

– هل هيئته دائماً هكذا ؟ هذه الهيئة الدالة على انه لا يريد الخضوع ؟

– اوه ! هذا نعم ، في اغلب الأحيان . إلا ان دانيال هنا هو الذي أزعجه. وهو يطيع دانيال أكثر من غيره ، لأنه رجل على ما أعتقد . نعم . انه يحب امه ، وانا ، انه يحبني جداً ولكننا نساء. كيف اقول ؟ هو واعٍ تفوقه كرجل. أتضحك ؟ اؤكد لك ! وهذا يبدو في أشياء كثيرة .

– اعتقد بسهولة ان سلطتك تضعف لأنك دائمـاً بجانبه ، بينما خاله يراه في النادر..

– في النادر ؟ ولكنه مع خاله في اغلب الأحيان أكثر مما هو معنا ، بسبب المستشفى . فدانيال هو الذي يحرسه كل النهار تقريباً .

– دانيال ؟

وسحبت يدها التي ظلت على كتف انطوان . وابتعدت قليلاً وجلست :

– نعم . لماذا ؟ ايدهشك هذا ؟

– انني اتخيل دانيال بشكل سيء في دور الممرضة هذا .

ولم تفهم جيز . انها لم تكن تعرف دانيال دي فونتانان إلا منذ بتره .

– بالعكس . الصغير يرافقه . والأيام طويلة في ميزون .

– ولكنه الآن ، وقد سرح من الخدمة ، يجب ان يكون قـد عاد إلى الشغل .

– في المستشفى ؟

ـ كلا . في الرسم .
ـ في الرسم ؟ لم أره يرسم ابداً .
ـ اولا يذهب في اغلب الاحيان إلى باريس ؟
ـ ابداً . حتى انه لا يترك البيت أو الحديقة .
ـ اصحيح انه يجد صعوبة في المشي ؟
ـ اوه ، ليس هذا . حتى انك يجب ان تلاحظه بانتباه لتفطن إلى عرجه ، وخصوصاً منذ جهازه الجديد.. ولكنه لا يرغب في الخروج . فهو يقرأ الصحف ، ويراقب جان ـ بول ، ويجعله يلعب ، ويتنزهه حول البيت . وأحيانا يذهب لمساعدة كلوتيلد في قشر الحمص وتقشير الاثمار لأجل المربيات . واحياناً ايضاً يجرف حصى السطيحة . ليس غالباً .. اعتقد انها طبيعة كهذه ، مطمئنة ، الامبالية ، نائمة قليلاً ..
ـ دانيال ؟
ـ ولكن نعم .
ـ لم يكن ابداً كما تقولين .. يجب ان يكون في منتهى التعاسة .
ـ يالها من فكرة ! حتى انه لا يبدو ضجراً . وعلى كل حال فهو لا يشكو بداً وإذا عبس قليلاً أحياناً ـ مع الآخرين وليس معي ابداً ـ فذلك لأنهم لا يعرفون كيف يأتونه . نيكول تنكده وتزعجه بدون فائدة . وجني أيضاً خرقاء : انها تجرحه بصمتها وتصلبها .. ان جني طيبة ، طيبة جداً . ولكنها لا تعرف كيف تظهر ذلك : ليس لديها ابداً الكلمة والحركة اللتان تسرّان ..
فلم يعترض انطوان ولكنه احتفظ بهيئة منذهلة بحيث أخذت جيز تضحك .
ـ اعتقد انك لا تعرفين جيداً طبيعة دانيال . كان دائما يبدو على شيء من الفساد وهو كسول بشكل مخيف !
وكان الأكل قد انتهى منذ وقت طويـــل . فاستشارت ساعتها ونهضت بسرعة :

– سأنظف الطاولة ، ثم يجب أن أذهب .

كانت واقفة أمامه تتأمله بحنان . وكانت يائسة لتركه بمفرده ، مريضاً في ذلك البيت غير المسكون · وترددت في قول شيء · ومرت في نظرتها ابتسامة جذابة خجولة وجاءت حتى شفتيها ·

– لو جئت آخذك في نهاية النهار ؟ لو قضيت السهرة معنا في ميزون بدلاً من البقاء هنا بمفردك ؟

فهز رأسه :

– على كل حال ، ليس هذا المساء . علي اليوم ان ارى روميل · وغداً يجب ان ارى فيليب · ثم هناك ترتيبات يجب عملها تحت ، وملفات أبحث عنها ·.

كان يفكر · يكفي ان يعود الى موسكيه مساء الجمعة · اذن لا شيء يمنعه من الذهاب لقضاء يومين في ميزون – لافيت .

– ولكن اين انزل هناك ؟

وقبل أن تجيب ، انحنت بسرعه وقبلته بفرح ·

– اين ؟ في البيت بالتأكيد ! فقد بقيت غرفتان غير مشغولتين .

وكان قد احتفظ بيده بصورة جان – بول · ومن وقت لآخر كان يلقي عليها نظرة ·

– حسناً ، سأجري اللازم لأجـــل التمديد ·· وغداً في نهاية النهار . – ورفع الصورة بين اصابعه : – أتعطيني اياها ؟

٥

مع أن النهار هو الاحد ، فان روميل كان في مكتبه في وزارة الخارجية ، حين كلمــه انطوان بالهاتف ، وقد بقي وحده بعد ذهاب جيز . واعتـــذر الدبلوماسي لعدم استطاعتـــه التصرف بساعة في فترة ما بعد الظهر ، ودعا انطوان ان يأتي ويأخذه إلى العشاء ·

في الساعة الثامنة وصل انطوان الى الوزارة . وكان روميــل ينتظره في

أسفل الدرج حيث يضيء مصباح صغير . وفي هذا الاظلام الخفيف الذي تفرضه القوانين فان الذهاب والإياب الصموت للمستخدمين الذين كانوا يتركون مكاتبهم ، وبعض الزائرين المتأخرين ، كان يتخذ مظهراً غريباً ، في الخفاء .

ـ سآخذك الى عند مكسيم ، فهذا سيغير قليلاً من حياتك في المستشفى .

هكذا اقترح روميل بابتسامة واقية بلطف ، وهو يسير بأنطون نحو احدى السيارات ذات الراية الصغيرة التي كانت واقفة في الساحة .

واعترف انطوان :

ـ أنا مؤاكل ضعيف ، ففي المساء لا اتناول سوى الحليب ٠

فأكد روميل الذي كان قد قرر أن يتناول عشاءه عند مكسيم :

ـ لديهم حليب ممتاز في زجاجات مبردة .

فوافق انطوان بحركة رأس . كان منهوكاً في نهاره الذي قضاه في بيته وهو ينبش في خزائنه ومكتبته ٠ وتلك الأمسية من الحديث لم تمض دون أن تسبب له خوفاً ، فأسرع باعلام روميل بانه يتكلم بجهد وعليه أن يراعي اوتاره الصوتية ٠

فهتف الدبلوماسي :

ـ انه حظ غير متوقع لثرثار مثلي ٠

وتصنع نبرة مرحة لئلا يفسح مجالاً لظهور التعبير المحزن الذي سببته له القسمات الشاحبة والصوت غير الجهير المتضايق لصديقه في قاعة الطعام المتألقة . فهزال انطوان وسوء هيئته زادا من دهشته ٠ ولكنه تجنب أن يسأله بكثير من الاهتمام عن صحته ٠ وبعد بضعة اسئلة غير دقيقة ، أسرع يتكلم بشيء آخر :

ـ بدون ثرائد . بعض المحار ٠ انها نهاية الفصل ٠ ولكنها لا تزال جيدة .. اني غالباً ما أتناول عشائي هنا ٠

فتمتم انطوان :

ـ لقد اتيت انا ايضاً كثيراً الى هنا .

ودار نظره متمهلاً في القاعة وتوقف على مدير الخدم العجوز الذي كان واقفاً ينتظر الطلب :

– ألم تعرفني يا جان ؟

فقال الآخر وهو ينحني بابتسامة مبتذلة :

– اوه ! بالتأكيد بلى أيها السيد :

ففكر انطوان : « انه يكذب . فقد كان دائماً يدعوني : يا سيدي الطبيب .. »

واكمل روميل :

– هذا قريب جداً من مكتبي . وفي امسيات الانذار بالخطر هو مريح بشكل كافٍ : ليس علي الا أن اجتاز الشارع لأجد ملجأ صالحاً في وزارة البحرية .

ولاحظه انطوان حين كان ينظم لائحة بطعامه . لقد تغير هو أيضاً ، فقناعه الأسدي قد سمن ؛ واللبدة ابيضت بشكل متوسط ؛ وحول العينين غضون صغيرة لا تحصى تثني في جميع الجهات بشرته الشقراء الشائخة . وظل النظر ازرق حياً ؛ ولكن تحت الجفون السفلى انتفاخات خبازية اللون تزيد عن الوجنتين اللتين احدث فيهما التهاب الغدد الوردية خطوطاً كالدود .

وأنهى بهيئة متعبة وهو يُعدّ اللائحة لمدير الخدم :

– أما لما بعد الطعام فسأرى .

وقلب رأسه ، ووضع يديه مسطحتين على وجهه لحظة ، وأسند أصابعه على جفونه المضطرمة وتأوه تأوهاً عميقاً :

– كما تراني يا صديقي العزيز . لم آخذ نهار عطلة منذ التعبئة . أنا في منتهى العياء .

وكان هذا ظاهراً . فالتعب المتكدس كان يظهر عند هذا العصبي بحمّى متناهية . وانطوان ترك روميل عام ١٩١٤ مطمئناً ، مسيطراً على نفسه ، على شيء من الاعجاب بالنفس ، يتكلم باسهاب عن كل شيء ولكن بتحفظ

مدروس . أربع سنوات من الاجهاد جعلت هذا الرجل ذا الضحكة الشديدة المتشنجة ، والنظر المتنقل ، هذا الرجـل المتحرك الذي كان يقفز من موضوع الى آخر بدون اي رابط ، والذي كان وجهه المحتقن ينتقـــل فجأة من بلبلة مرضية إلى الضعف الأكثر غماً . إلا أنـــه كان يحاول أن يبدو حسناً كما في السابق . وكل اعتراف بالتعب ، كل استسلام ، يعقبه نهضة مقتضبة : كان يقلب رأسه قليلاً ، ويمشط شعره بحركة واسعة من يده ويغتصب ابتسامة ملأى بالنشاط المستعاد .

وأراد انطوان ان يشكره على بحثـــه الطويل حول موت جاك ، وعلى المساعدة التي أسداها لجني حين أرادت الذهاب إلى سويسرا . فأوقفه روميل بحـدة :

– انه امر طبيعي جداً . دع عنك هـــذا يا عزيزي – ثم قال بطيش : – المرأة الشابة بدت لي فاتنة ، فاتنة جداً .

ففكر انطوان : « رجـــل اجتماعي جداً لكي لا يكون ابله في اغلب الأحيان » .

وكان روميل قد قطع له كلامه ولم يتركه ابـداً . وشرع بقصة مفصلة عن المساعي التي قام بها ، كما لو أن انطوان كان غريباً عن القضيـة : كان كل شيء لا يزال واضحاً في رأسه بشكل يدعو إلى الدهشة . فقد ذكر دون تردد اسماء الوسطاء والتواريخ ، وتأوه مختتماً :

– يا لها من نهاية محزنة ! ألم تشرب حليبك ؟ يكاد يسخن .

والقى على انطوان نظرة مترددة ، وغمس شفتيه في كأسه ، ومسح شاربيه المشعثين كشارب الهر وتأوه من جديد :

– نعم ، نهاية محزنة .. اؤكد لك أنني فكرت بك كثيراً .. ولكن ، اذا أخذنا بعين الاعتبار الظروف ، وافكارك .. وشرف الاسم .. يمكن التساؤل اذا كانت هذه النهاية – لأجل العائلة على الأقل – لم تكن امراً موفقاً ؟

فعبس انطوان دون أن يجيب . ان حديث روميل جرحه وأثخن . الا أن هذه الفكرة ، وقد اضطر إلى الاعتراف ، كانت فكرته هو نفسه ، حين عرف الحقيقة عن أيام جاك الأخيرة . نعم ، كانت فكرتـــه ؛ ولكنها اليوم ليست فكرته ، حتى أنه كان يشعر باضطراب مؤلم لتذكره انـه اعتنقها . فسنوات الحرب الأخيرة هذه ، والأفكار التي توصل اليها أثنـاء ليالي الأرق الطويلة في المستشفى ، احدثت تشويشاً كبيراً في معظم أحكامه السابقة .

لم يكن لديه اي ميل لأن يطرق مع روميل ، هــذه المسائل الشخصية . وهنا اقل مما في غير مكان . فوجوده في هـــذه القاعة حيث كان يأتي كثيراً لتنـــاول العشاء مع آن ، سبب له منذ وصوله مزيداً من القلق . وقد دهش ، بسذاجة ، لوجود كثير من الناس في هذا المطعم الفخم ، في هذا الشهر الرابـع والأربعين من الحرب . كانت جميع الطاولات مشغولة كما في السابق في أمسيات الازدحام . وربما كانت النساء اقل عدداً ، وأقل أناقـة ايضاً : كثيرات منهن كن يحتفظن بسلك الممرضات ، والأكثرية العظمى من الرجـــال ينتمون الى الجيش : محزومون بحمائـل سيوفهم المطلية جيـــداً . وكانوا يجلسون جلسة متعجرفة . السترة مخططة بأشرطة متعددة الألوان . بعض المأذونين من ضباط الجيش ؛ ولكن معظمهم من ضباط موقع باريس او من القيادة العامة الكبرى. عدد كبير من الطيارين ، صاخبون محتفلون ، النظرة حزينة ، مجنونة قليلاً . وكانوا يبدون سكارى قبل أن يشربوا . مسطرة مبرقشة من الأزياء الرسميـة الايطالية ، والبلجيكية ، والرومانيـــة ، واليابانية . بعض ضباط البحرية . ولكن انكليز على الخصوص — سترات باللون الكاكي ذات اطواق مفتوحة ، وملابس لا عيب فيها — كانوا يأتون الى هنا ليتناولوا عشاءهم مع الشامبانيا .

وقال روميل متحبباً :

— لا تنس أن تعلمني حين تصبح في نهاية نقاهتك . يجب ألاّ تعاد إلى الجبهة. فقد دفعت نصيبك واكثرت ..

وأراد انطوان أن يصحح . منذ شتاء ١٩١٧ ، في الوقت الذي اعتُبر أنه

شفي من جراحه الاولى ، عينوه في مستشفيات المؤخرة . ولكن روميل استمر في الكلام :

– انا الآن واثق تقريباً انني سأنهي الحرب دون أن اترك الوزارة . عند مجيء السيد كليمنصو كدت أن أرسل إلى لندن . ولولا الرئيس بوانكاريه الذي ظللت معه على علاقة ممتازة ، وعلى الخصوص لولا اعتراض السيد برتلو الذي أعرف جميع عاداته ، وهو بحاجة الي ، لكنت ذهبت . ومن المؤكد أن الحياة هناك في هذه الفترة ليست بدون فائدة . ولكني لن أكون هناك في محور كل شيء ، كما أن هنا . الأمر الذي يدعو الى الترغيب .

– اعتقد ذلك دون جهد .. فأنت على الأقل من ذوي الامتياز الذين يستطيعون فهم شيء عن الحوادث .. ومن يدري ؟ ومعرفة شيء عن المستقبل !

فقاطع روميل :

– أوه ! الفهم ، كلا ؛ ومعرفة المستقبل ، أقل أيضاً .. عبثاً معرفة ما يخبئه القدر . ولا يمكن فهم شيء مما يجري ؛ وبالنسبة إلى الماضي لا يكاد يُفهم شيء مما جرى . لا تظن أن رجل دولة يستطيع معرفة الوقائع معرفة مباشرة ، ولو كان كاملاً ذا سلطة كالسيد كليمنصو . انه ينقاد للظروف .. الحكم في وقت الحرب أمر كقيادة سفينة يدخلها الماء من جميع النواحي : يجب بين ساعة وأخرى ابتكار حيل لسد طرق المياه الأكثر تهديداً ! انهم يعيشون في جو غرق ؛ ولا يكاد الوقت يتسع لهم لإجراء حساب يحدد موضع السفينة ، والنظر إلى الخريطة ، والاشارة الى اتجاه مبهم .. والسيد كليمنصو يفعل كالآخرين : انه يحتمل الحوادث ويستغلها حين يستطيع . وقد رأيته عن قرب في المركز الذي أنا فيه . انه ظاهرة غريبة – واتخذ هيئة مفكرة وقال بتردد مدروس : – السيد كليمنصو ، كما ترى ، مزيج متناقض من الارتيابية الطبيعية .. والتشاؤم المفكر .. والتفاؤل الحازم ؛ ولكن يجب الاعتراف ان مقدار الجرعة ممتاز .

وابتسم بنعومة حتى في زاوية جفونه ، كما لو انه هو نفسه كان يلهو

بابتكاره ويتذوق نوعية المعادلات التي وجدها . وبكل وضوح ، هي (كليشه) كان يستعملها منذ اشهر مع كل متحدث جديد . وتابع :

– ثم ان هذا الارتيابي الكبير مزود بإيمان فحّام : يعتقد ، وهو صلب كالحديد ، ان وطن السيد كليمنصو لا يمكن ان يُغلب . وهذه يا عزيزي قوة لا مثيل لها ! حتى في هذه اللحظة – حيث ارى الثقة الاكثر تفاؤلاً تترنح ، ولنعترف بذلك بصوت منخفض – أجل ، فالنصر بنظر هذا الوطني الهرم ظل مؤكداً . مؤكداً كما لو أن قضية فرنسا لا يمكن إلا أن تنتصر انتصاراً مجيداً ، بواسطة الحق الالهي .

وانطوان الذي كان يسعل سعالاً خفيفاً – وعلى الطاولة المجاورة ماجور انجليزي أولع سيكارة – حاول أن يتناول الكلام ، ولكن الصوت كان ضعيفاً جداً ، ومخنوقاً أيضاً بالمنشفة التي كان يضعها على شفتيه . وبعض الكلمات فقط كانت غير مفهومة :

– مساعدة اميركية .. ويلسون .

ورأى روميل أن يتظاهر ، بكل بساطة ، انه سمع . حتى انه اتخذ هيئة مهتمة بشكل خاص . وقال مداعباً خدّه بحركة حالمة :

– بوه ! انت تعلم ، الرئيس ويلسون بالنسبة إلينا .. نحن مضطرون في فرنسا ، وفي انكلترا ، ان نتظاهر باعتبار محترم لتخيلات هذا الاستاذ الاميركي ؛ ولكننا لن نخطىء على حسابه . انه عقل جاف وليس له أي إلمام بالنسبي .. بالنسبة إلى رجل دولة ! فهو يعيش في عالم غير واقعي خلقته مخيلته الصوفية من جميع القطع .. ليحفظنا الله لنرى الاخلاقية ، الاخلاقيـــة المبسطة لهذا البوريتاني تأتي وتزيف وسائل العمل في قضايانا الاوروبية القديمة .

كان انطوان يتمنى لو يستطيع التدخل . فحالة صوته لم تكن تسمح له أبداً . كان ويلسون هو الوحيد بين المسؤولين الكبار في الساعة الحالية الذي بدا له قادراً على النظر إلى ما بعد الحرب ؛ انه القادر الوحيد على التفكير في مستقبل العالم . واكتفى برسم حركة اعتراض قوية .

فابتسم روميل لاهياً :

– كلا ، بدون مواربة يا عزيزي .. مهما كان الأمر فانك لن تركن إلى اباطيل الرئيس ويلسون ! وهذا يمكن أن يؤخذ مأخذاً جدياً في الجهة الأخرى من الاطلنطيك ، في بلد اطفال ، نصف متوحشين . ولكن في اوروبتنا القديمة الحكيمة ، هيا اذن ! ان أقلمة هؤلاء الطوباويين عندنا ستكون بمثابة اعداد ورطة جميلة ! وانت ترى انهم لا يحذرون الشر الذي يمكن أن تحدثه بعض الكلمات الكبيرة أمثال : « حق » ، « عدالة » ، « حرية » الخ .. ففي فرنسا نابليون الثالث يجب أن نعرف إلى أية مصائب تقودنا السياسات « السمحة » !

ومد ذراعيه ، ووضع على السماط يده المكتّلة ، المبقعة بالنمش ، وانحنى مسرّاً :

– ومع ذلك ، فالعارفون يزعمون ان الرئيس ويلسون اقل سذاجة مما يبدو ، وانه هو نفسه ليس مخدوعاً برسائله .. وهذا البطل « للسلم بدون نصر » لديه بكل بساطة مطمع واقعي جداً بأن يغتنم الظروف ليضع البر القديم تحت الوصاية الاميركية ، وذلك بأن يمنع الحلفاء من ان يحتلوا غداً ، في قضايا العالم ، المركز المتفوق الذي يمكن ان يؤمنه النصر ، الأمر الذي يكشف عن كمية عظيمة من المهارة ! لأنه يجب ان يكون المرء ساذجاً جداً للافتراض ان فرنسا وانكلترا سوف تقبلان بأن تُستنزفا طوال سنوات في صراع متلف دون أن تستخرجا مكاسب مادية مهمة !

واجاب انطوان في نفسه : « ولكن هل اقرار سلم حقيقي ، سلم دائم ، لا يكون للشعوب الاوروبية هو الاكثر مادية من مكاسب الحرب ؟ » وصمت . فالحرارة ، والضجة ، ورائحة الاطعمة الممزوجة بدخان التبغ ، كانت تسبب له انحراف مزاج متزايداً . ولم ينقطع ضيق نفسه عن الازدياد . وفكر غاضباً من نفسه : « لماذا انا هنا ؟ اني اهيء لنفسي ليلة جميلة » .

ولم يفطن روميل الى شيء . فقد بدا انه يجد سروراً شخصياً في تحقير ويلسون . وقد كان في اروقة وزارة الخارجية منذ اشهر هو المرمى الذي كانت

حمية اولئك السادة تتمرن عليه بضراوة . وكان يقطع عباراته بضحكة من الحنجرة ، حقودة ويتململ على كرسيه كأنه جالس على شوك .

– من حسن الحظ ان الرئيس بوانكاريه والسيد كليمنصو ، كواقعيين ، ولاتينيين ممتازين ، ادركا ليس فقط بطلان اوهامه ، بل ايضاً مرض العظمة الخفي عند الرئيس ويلسون .. هذا المرض الذي يمكن الافادة منه في نهايات.. تثمر ! والمهم في الساعة الحالية هو الحصول من اميركا على اكثر ما يمكن من البترول والمواد، والطائرات والرجال . ولاجل هذا يجب الاحتراس من معاكسة القوي المموّن . وعنــد الحاجة يجب ملاطفته في هوسه ايضاً ، كما نفعل مع المجانين الهادئين . ولعمري فان نتائج هذه الخطة كانت ذات قيمة حتى الآن – وحنى جذعه نحو انطوان وهمس في اذنه : « هل علمت اننا استطعنا ان نقاوم ببسالة هذه السنة ، بعــد كارثة الانكليز في بيكاردي ، بفضل الالفي طن من البنزين التي زودنا بها في بضعة اسابيع ، وبفضل الثلاثمائة الف رجل التي يرسلها الينا في كل شهر ؟.. اذن لم يبق إلا الاستمرار .. وإطراء الهوس الوهمي لهذا اللوهانغرين [1] ذي النظارتين .. حين نحصل في ارضنــا الفرنسية على جيش اميركي قوي يحل محل جيشنا ، فعندئذ يصبح باستطاعتنا التنفس قليــلاً والانتظار ، كمتفرجين ، ان تخرج اميركا لنا الكستناء من النار !

كان انطوان يتطلع مفكراً إلى روميل وهو ينهش شريحته – التي طلبهــا « مشوية قليلاً: زرقاء » ورفع يده كأنه يطلب الكلام :

– وهكذا ، اتعتقد ايضاً بعدة سنوات من الحرب ؟

فدفع روميل صحنه وانقلب قليلاً إلى الوراء :

– عدة سنوات ، كلا ؛ في الواقع لا أعتقد . حتى اني اعتقد اننا سنحصل على مفاجآت سعيدة – وفحص لحظة اظافره صامتاً ، وتابع خافضاً صوته من

---

١ – لوهانغرين Lohengrin : بطل اوبرا من ثلاثة فصول بهذا الاسم ، وضع موسيقاها وشعرها روبرت واغنر عام ١٨٥٠ .

جديد لئلا يسمعه الجيران – اسمع يا تيبو . اني اذكر . كان ذلك في شباط عام ١٩١٥ . وقد صرح السيد ديشانيل [١] امامي ذات مساء : « ان مدة ونهاية هذه الحرب لا يمكن حسابها . وفي نظري فهي إعادة الحروب بين الثورة والامبراطورية . ربما يكون هناك **مهادنات** . ولكن **السلام النهائي بعيد !** »

اجل ، في تلك الفترة ظننت انها فورة غضب . واليوم .. اليوم انا مستعد لأن اعتبر ذلك كرؤيا تنبؤية . – وصمت ، ولعب لحظة بالملحة واضاف : – والبرهان على ذلك ان الوسطيين [٢] اذا اقترحوا غداً، بعد نصر ساحق للحلفاء، القاء السلاح ، فاني اعتقد مع السيد ديشانيل : هذه هي **المهادنة** ؛ ولكن **السلام النهائي** لا يزال بعيداً .

وتأوه . ودون أن يترك هذه النبرة التي تشبه نبرة امثولة تعلمها ، والتي كانت تزعج انطوان ، اندفع في نقد شديد لمختلف مراحل الحرب منذ غزو بلجيكا . وهكذا كانت الحوادث تتسلسل بمنطق مؤثر ، مصبوبة ، متحولة إلى صور مبسطة واضحة جداً . فكأنها حكاية جولة شطرنج . وهذه الحرب – التي عاشها انطوان يوماً بعد يوم بدت له فجأة مع عودة الزمن وتحت مظهرها التاريخي . ومن فم الدبلوماسي الفصيح ، فان المارن ، والسوم ، وفردان – هذه الاسماء التي تثير حتى الآن عند انطوان تذكارات حسية ، شخصية وفاجعة – اصبحت ، وقد عُريت فجأة من واقعها ، هي الصورة المحددة لعرض تقني وعناوين فصول كتاب مختصر لأجل اجيال المستقبل .

واختتم روميل :

– وها نحن في عام ١٩١٨ . ودخول الولايات المتحدة الحرب هو تضييق الحصار ، وإثباط عزيمة الشعوب الجرمانية .. ومنطقياً ، هو اندحارها الذي

---

١ – بول ديشانيل : ولد في شيربيك (١٨٥٥ – ١٩٢٢) سياسي فرنسي . عضو المجمع العلمي . كان رئيساً للجمهورية الفرنسية من ١٨ شباط حتى ٢٢ ايلول ١٩٢٢ .

٢ – المقصود الامبراطوريات الوسطى : المانيا والنمسا .

لا يمكن تجنبه . وامام هذا الواقع الجديد كان لها الخيار بين موقفين : امـــا المفاوضة في سبيل سلم اعرج ما دام هناك وقت . وأما متابعة الهجوم بيـأس لتحاول التغلب قبل مجيء الاميركيين الضخم . وقد اختارت الهجوم . ومن هنا كانت نطحة الكبش الرهيبة في اذار ، في بيكاردي · ومرة اخرى كانوا بحاجة إلى شيء مما لم يحصلوا عليه وهم يعيدون التجربة ايضاً . ونحن هنا · فهـــل سينجحون في هذه الضربة ؟ هذا ممكن : لا شيء يسمح بالقول اننا سنتحول إلى طلب السلام قبل هذا الصيف . ولكن إذا اخفقوا فانهم يكونون قد لعبوا ورقتهم الاخيرة ، وعندئذ يكونون قد خسروا الحرب . فاما أن ننتظر دون أن نعمل شيئاً ساعة الهجوم الاميركي ، واما ان نلقي بآخر قوانا في هجوم على جميع الجهات – وهـــذا سيكون مشروع الجنرال فوش كما يبدو – ونحرز انتصارات خطيرة قبل ان يتحرك الاميركيون . ولهذا اقول بمـــلء ارادتي : السلم الحقيقي ، **السلم النهائي** ، ربما لا يزال بعيداً ؛ ولكن **المهادنة** هي اكثر قرباً بوجه الاجمال ·

واضطر إلى مقاطعة نفسه : فقد كان انطوان عرضة لنوبة سعال كانت من العنف بحيث اصبح من الصعب هذه المرة الا يظهر انه فطن اليها ·

– عفواً يا عزيزي .. لقد أرهقتك بثرثرتي ·· لنذهب ·

وأشار إلى مدير الخدم ، واخرج من جيب بنطلونه – على طريقة الجنود الاميركيين – قبضة من الاوراق النقدية المدعوكة وسدد الحساب بعدم اهتمام .

كان الشارع الملكي مظلماً · والسيارة كانت تنتظر على حافة الرصيف مطفأة النور · ورفع روميل انفه في الهواء ·

– السماء صافية · انهم يستطيعون المجيء هذه الليلة . . انا عائد إلى الوزارة لأرى إذا كان هناك شيء جديد · ولكن قبل كل شيء اريد أن أضعك في بيتك .

وقبل الصعود إلى السيارة ، حيث اتخذ انطوان مكانه فيها ، اشترى عدة صحف مسائية من بائعة صحف .

وتمتم انطوان :

ـ حشو جمجمة .

فلم يجب روميل حالاً . وقد احتاط بسد إطار النافذة الزجاجية التي تفصلها عن السائق . وعندئذ قال ملتفتاً نحو انطوان بشكل هجومي تقريباً :

ـ بالتأكيد حشو جمجمة . كيف لا تدرك ان التموين المنتظم بالاخبار المطمئنة هو جوهري للبلاد كالتموين بالمواد الغذائية والمعدات ؟

فقال انطوان ساخراً :

ـ هذا صحيح ، عليكم عبء ارواح .

فربّت روميل على ركبته بدالّة :

ـ هيا ، هيا يا تيبو . كن جدّياً . فكّر . ماذا تستطيع حكومة في حالة حرب ؟ تقود الحوادث ؟.. انت تعرف جيداً ان لا . اما قيادة الرأي العام ؟ فهذه ، نعم . انه الشيء الوحيد الذي يمكن ان تفعله . اجل اننا نستعمله . وشغلنا الرئيسي هو ـ كيف اقول ؟ ـ النقل المنسّق للحوادث .. يجب دون انقطاع تغذية ايمان الامة بنصرها النهائي .. يجب يومياً صيانة الثقة التي وضعتها ، عن خطأ أو عن صواب ، في قيمة زعمائها العسكريين او المدنيين .

ـ وجميع الوسائل تبدو لكم صالحة !

ـ بالتأكيد .

ـ الكذب المنظم .

ـ بصراحة : اتعتقد ان من الممكن السماح بالقول ـ وانا نفسي لا أعلم ـ ان قصفنا الجوي لشتوتغارت وكارلروش احدث في السكان المدنيين من « الضحايا الأبرياء » اكثر بكثير مما تستطيع ان يقذفه مدفع برتا على باريس ؟ اوايضاً ، ان معركة الغواصات الالمانية التي عرضناها كجريمة ضد الانسانية كانت بالنسبة للوسطيين عملية ضرورية ، والحظ الوحيد الذي بقي لهم ليحطموا

مقاومتنا بعد إخفاق الهجوم عام ١٩١٦ ؟٠٠ او ايضاً ان النسف الشهير بالطوربيد للباخرة لوزيتانيا كان عملاً ثأرياً مبرراً تبريراً كاملاً ، وجواباً مفرطاً في التساهل على ذلك الحصار الحقود الذي قتل في ألمانيا وفي النمسا من النساء والاطفال عشر أو عشرين مرة اكثر مما قتل على لوزيتانيا ؟ كلا ، كلا . من النادر جداً ان تكون الحقيقة صالحة للقول ! مما لا غنى عنه ان يكون العدو دائماً على خطأ ، وان قضية الحلفاء هي الوحيدة العادلة ! مما لا غنى عنه ٠٠

– ... ان نكذب !

– نعم ٠ ليس الا لنخفي عن اولئك الذين يتحاربون ما يحاك في المؤخرة : ليس إلا لنخفي عن اولئك الذين في المؤخرة الأمور الرهيبة التي تحدث في الجبهة ! لا غنى عن السكوت امام هؤلاء ، وامام اولئك ، عما يحدث في مقاصير المستشاريات ، عند الخصم ، وعند الحياديين ! ولكن نعم يا عزيزي ! وايضاً فإن الأكثر وضوحاً في فعاليتنا – أريد ان اقول فعالية الزعماء المدنيين– قد استُعمل .. ليس فقط في الكذب كما قلت ، بل في أن نحسن الكذب ! الامر الذي ليس بالسهل دائماً ، أرجو أن تصدق ذلك ! الامر الذي يحتاج إلى تجربة طويلة ، ومهارة ، وروح ابتكار لا تكون قليلة أبداً . ويلزم لذلك نوع من العبقرية .. واستطيع التأكيد : المستقبل يعطينا الحق ! وعلى هذا الصعيد من الكذب المفيد فإننا في فرنسا قمنا بالاعاجيب منذ أربع سنوات !

بعد أن سارت العربة سيراً خفيفاً في بولفار سان جرمان وشارع الجامعة المنارين بشكل ضعيف جداً ، وقفت أمام باب انطوان . وهبط الرجلان : وتابع روميل :

– اسمع . اني اتذكر اسبوع هجوم نيفيل في نيسان ١٩١٧ – .. ووشى صوته فجأة بانتكاس محموم ، فأمسك انطوان من ذراعه ليسير به بعيداً عن السائق : – لن تتصور ما يمكن أن يكون ذلك ، بالنسبة إلينا نحن الذين كنا نعرف ساعة فساعة – وشاهدنا تراكم الأخطاء – وكنا نستطيع أن نحسب كل

مساء بمجموع الخسائر ! أربعة وثلاثون ألف قتيل ، وأكثر من ثمانين ألف جريح في اربعة أو خمسة أيام ! وتمرد ذلك الفليق الذي قـتل عدد كبير منه ! ومع ذلك فلم يعد الأمر يتعلق بأن يكونوا صادقين ، وان يكونوا عادلين . كان يجب مهما كلف الأمر قمع عصيان الفرق بدون رحمة قبل أن يعم الجيش كله ! مسألة حياة أو موت للبلاد .. كان يجب ، مهما كلف الامر ، مساندة القيادة ، وتغطية أخطائها ، والمحافظة على سلطتها .. وأسوأ من ذلك أيضاً ؛ كان يجب ، عن علم ، الاستمرار في الخطأ ، ومعاودة الهجوم ، وقذف فصائل أخرى في الأتون ، وتضحية عشرين أو خمسة وعشرين ألف جندي جديد على طريق دام Dammes أمام لافو Laffaux .

– ولكن لماذا ؟

– للحصول على نجاح صغير مهما كان تافهاً لنستطيع تلقيحه **بكذبة شافية !** وإعادة تقويم الثقة المتقهقرة في جميع النواحي ! وأخيراً حصلنا على هجوم كرون الناجح . واستطعنا ان نصنع منه انتصاراً باهراً . ونجونا ! وبعد عشرة أيام نزعت الحكومة ثقتها من الرؤساء ، وعينت الجنرال بيتان ..

وانطوان المنهوك ، العاجز عن البقاء واقفاً مدة طويلة ، كان قد استند إلى حائط . وسنده روميل حتى الباب الكبير . وتابع :

– نعم . لقد نجونا . ولكني اقسم لك انني اعطي سنة من عمري ولا أعيش من جديد تلك الأسابيع الأربعة أو الخمسة ! – وكان يبدو صادقاً – اني اتركك . كنت سعيداً جداً برؤيتك – وحين اجتاز انطوان العتبة – : اعتن بنفسك جدّياً يا عزيزي ! الأطباء هم أنفسهم دائماً : حين يتعلق الأمر بصحتهم الخاصة فان اكثرهم انقياداً للضمير يكون مهملاً !

كانت الغرفة قد رتبتها جيز . والمصاريع والستائر كانت مغلقة ، وسُحبت الأغطية عن المقاعد . وجُهّز السرير . ووُضع قدح وزجاجة ماء طازج بمتناول اليد على طاولة السرير . وهذه الانتباهات الدقيقة بعثت الاضطراب شديداً في انطوان بحيث قال لنفسه : يجب ان اكون اكثر تعباً

مما أظن » ..

وكانت عنايته الأولى أن يحقن نفسه بالاوكسيجين . وبعدها يسقط في كنبة ويبقى جامداً عشر دقائق ، مستقيم الجذع ، والرقبة مستندة إلى المستند .

كان يفكر بروميل بعداوة مفاجئة ، عنيفة ، غير عادلة دون شك . وهو نفسه قد دهش منها : « أولئك الذين **صنعوها** .. اولئك الذين لم **يصنعوها** .. لن يكون التوفيق ممكناً بيننا وبينهم » !

وتخلّى عنه ضيق النفس شيئاً فشيئاً . فنهض ليزن حرارته ٠ ٣٨و١ درجة ٠٠ لاشيء متجاوز الحد بعد يوم كهذا .

واتسع وقته أيضاً ليقوم بعملية استنشاق قبل ان يندس في سريره . وقال لنفسه وهو يغمس رأسه في الوسادة بغضب ! « كلا ، لا يمكن التفاهم معهم ! يوم تسريح الجيش فعلى أولئك الذين لم **يصنعوها** ان يختبئوا ، ان يختفوا . ففرنسا ، وأوروبا الغد ستكونان من حق المحاربين القدماء . ان اولئك الذين **يصنعونها** لن يقبلوا ، ولا في أي مكان ، ان يكونوا مع اولئك الذين لم يكونوا فيها » !

كان الظلام يثقل عليه . ولكنه أمسك نفسه عن إعادة اشعال النور . كانت غرفته هي غرفة السيد تيبو القديمة ، تلك التي طالما كافح فيها الشيخ ، وتعذب قبل أن يموت . وكان انطوان يتذكر اقل التفاصيل ، والحمّام الأخير ، وجاك ، والابرة المنقذة ، وكل تعليقات ذلك الاحتضار . كانت هي غرفة والده ، بسرير الأكاجو الكبير ، ومركع الصلاة المغطى بطنفسة ، والخزانة ذات الأدراج المحملة بالأدوية ، بحيث ان عينيه المفتوحتين في الظلام كانتا تعتقدان انهما تشاهدان ما حوله .

٦

لم تكن الليلة سيئة بفضل حقنة الاوكسيجين ؛ ولكن انطوان لم يكن قد نام إذا صح القول . وأخيراً عند القول ، استولى عليه النعاس لحظة قصيرة :

الوقت الذي انتفض فيه للتخلص من كابوس غير معقول ، انقذته منه نوبة من العرق ، عنيفة بشكل اضطر معه إلى تغيير ملابسه الداخلية . وعـــاد الى الاضطجاع متأكداً انه لن ينام . وحاول ان يتذكر تفاصيل الحلم المضحك الـذي رآه :

« لنسر : هناك ثلاثـــة حوادث مميزة .. ثلاثة مشاهد ، ولكن في اطار زخرفي واحد : دهليز بيتي .

« في اول الأمر ، وجدت نفسي مع ليون ، فريسة لقلق مجنون لأن ابي سيصل بين دقيقة واخرى . كان الموقف رهيباً . فقد اغتنمت فرصة غياب ابي لأستولي على كل ما يملكه ، لأقلب البيت رأساً على عقب . وابي يكاد يعود ، ويكاد يقبض علي متلبساً بالجريمة . لقد كان ذلك مخيفاً ، كنت اذرع الدهليز ، غير عارف ما افعل لتجنب الكارثة . وكان يستحيل علي الهرب . بسبب ماذا؟ بسبب جيز التي ستعود حالاً .. وليون أيضاً ، وهو أكثر جنونـــاً مني ، كان بالمرصاد ، خده ملصق بباب الدخول . ولا ازال ارى عينه البلهاء الجاحظة من الخوف .. وذات لحظـــة ، لفت رأسه ليقول : « لو ذهبت بسرعة لأخبر السيدة ؟ » .

« هذا هو المشهد الأول . وبعد ذلك ؟ وُجد ابي هناك فجأة ، امامي واقفـــاً في منتصف الدهليز ، بالمعطف ، وبقبعة مجهزة (بالكريب) كقبعة دي شاسل ، بسبب الدفن أي دفن ؟ وحوله على الأرض حقيبة جديدة (كتلك التي سافرت وهي معي أول البارحة) . وكان ليون قد اختفى . وكان ابي يبحث في جيوبه ، بهيئة وقورة وعاملة وشاهدني وقال لي : « آه ، اهذا انت ؟ اليست المدموازيل هنا ؟ .. » ثم قال لي أيضاً : « سأقص عليك يا عزيزي:انني زرت بلداناً جميلة جداً .. (بتلك النبرة الابوية الاحتفالية التي يتخذها في مثل هذه الحالات) . أما انا فقد كان فمي جافاً . وكنت غير قادر على قول كلمة . وشعرت انني عدت ذلك الغلام الصغير الذي يرتجف أمام تأديب عن استحقاق.. وفي الوقت نفسه كنت اتساءل بذهول : « كيف حدث انه لم يلاحظ ، عنـد

صعوده ، تغيير الدرج ؟ وإزالة الزجاج ؟ والطنفسة الجديدة ؟ » ثم فكرت برهبة : « كيف امنعه من الدخول إلى غرفتنا ، ومن رؤية السرير ؟ .. » ثم ، لا اعرف شيئاً . واعتقد انه يوجد قطع هنا .

« وعلى كل حال ـ وهذا هو المشهد الثالث ـ عدت ورأيت ابي واقفاً في نفس المكان ولكنه ينتعل حذاءً من نسيج ، وهو في دراعته القديمة التي يرتديها في البيت . وكان يبدو مستاءً ، ورفع لحيته الصغيرة ، وسحب عنقه المقروص بين رؤوس طوقه المستعار . وعندئذٍ قال لي بضحكته الصغيرة الباردة : « قل لي يا عزيزي ! اين وضعت نظارتي ، بحق الشيطان ؟ » . وتلك النظارة التي يطلبها ، هي تلك المرصعة بالقشور والتي اذكر انني وجدتها على مكتبه ، والتي اعطيتهامع خزانة ثيابه وكل امتعته الى راهبات « الاخوات الصغيرات للفقراء » . وعندئذ انفجر غضبه . وتقدم الي صائحا : « وألقابي ؟ .. ماذا فعلت بالقابي ؟ » فتمتمت : « اية ألقـــاب يا ابي ؟ » وكان العرق يقطر مني بقطرات كبيرة ، فجففت نفسي ، واثناء ذلك تذكرت انني ارهفت السمع : كنت انتظر بين لحظة واخرى ان اسمع حركة المصعد وان ارى جيز تدخل (بلباس ممرضة لأنها الساعة التي تعود فيها إلى مستشفاها) .. وفي تلك اللحظة افقت وانا مغمس فعلا بالعرق » .

وابتسم لذكرى رعبـــه . ولكنه كان لا يزال مضطربا . وقال لنفسه : « يجب ان تكون حرارتي قد ارتفعت قليلا .. بالفعل ، ٨و ٣٧ درجة ، اقل من مساء البارحة بقليل ، ولكن اكثر مما يجب ان تكون هذا الصباح .

بعد ساعتين ، وقد فرغ من زينته وعلاجه ، اعاده تفكيره إلى تذكر حلمـــه .

ولاحظ : « عجيب . هذا الحلم بالاجمال كان قصيراً جداً ، والكل ، ثلاث لوحات سريعة : الانتظار المقلق مع ليون ، ثم هجوم الاب مع الحقيبة ، ثم تلك القصة عن النظارة والالقاب . نعم ؛ ولكن مع كل ما كان حوله ! كل ذلك

الماضي ، الخاص جداً ، الكامل جداً ، الذي اتخذ هذا الحلم جذوره منه ! » .

وبما انه شعر بشيء من ضيق النفس لأنه وقف طويلاً امام مغسلته ، فقد جلس على حافة المغطس وظل مفكراً لحظة :

« ذلك الماضي الذي تسبح فيه الاحلام بشكل ما ، هو بالحقيقة ظاهرة معروفة ويجب أن تكون قد دُرست ·· اني لم أفكر في ذلك قبلاً ·· وفيما يتعلق بحلمي في هذه الليلة فان الحالة واضحة بشكل خاص ·· إلى درجة ان هذا يستحق التسجيل لو كانت لدي الشجاعة .. وبدون هذا فاني انسى ذلك كله في مدى يومين ·

ونظر الى الساعة . لا شيء يستعجله · وأخذ المفكرة التي كان يسجل فيها كل مساء ملاحظاته كمريض ، والتي لم ينس ان يحملها ، منتزعاً بعض الصفحات البيضاء · (وقال لنفسه مبتسماً : « لقد فكرت هذه الصغيرة بكل شيء·») وراح يضع نفسه في سريره ·

كان يكتب بنشاط منذ ثلاثة ارباع الساعة حين قاطعته رنة جرس ·

انها رسالة من المعلم · يعتذر الدكتور فيليب بعبارات محبة جداً لعدم استطاعته استقبال انطوان قبل مساء بعد غد : فقد ترك باريس ليومين على رأس لجنة مكلفة بتفتيش بعض المستشفيات في الشمال ·

واصيب انطوان بخيبة امل شديدة · وقد قال مخففاً عن نفسه انه لا يزال لديه حظ في عودة فيليب قبل رحيله · سوف يتناول عشاءه معه نهار الاربعاء، ونهار الخميس يستقل القطار الى غراس ·

كانت الاوراق مبعثرة على السرير · وكان عددها خمسة ، مغطاة بخطه الهيروغليفي الغريب ، حيث كل حرف كان منفرداً ــ وهي عادة يعود تاريخها الى الوقت الذي كان يقوم فيه بأبحاث باليونانية · وجمعها انطوان، واعاد قراءتها · كانت الاثنتان الاوليان مخصصتين لقصة الحلم التحليلية ، مع التفاصيل المميزة التي كان يتذكرها · والثلاث الأخريات تتضمن تعليقاً مشوشاً . ودمدم غاضباً : « الأمر الذي يُفهم جيداً ·· » كان في السابق يبرع في كتابة هذه

الملاحظات الجوهرية ، حيث كان عقـله النيّر يعرف أن يكثّف ، ببضعة اسطر ، الخلاصة الجوهرية لتفكير طويل . وقال لنفسه : « يجب المران من جديد اذا أردت العودة الى العمل لأجل المجلات .. »

وهذا ما كتبه :

« هناك شيئان مميزان تماماً في حلم :

١ – الحلم نفسه ، الحادث (الذي يتدخل فيـه الحالم بشكل يكثر أو يقل) . **عمل** ، عادةً مقتضب ، مجزأ ، متحرك ، شبيه بمشهد مسرحي يمثـله ممثلون .

٢ – حول هذه اللحظة الدرامية القصيرة يوجد **وضعية معطاة** ، تقود هذه اللحظة وتجعلها قريبة إلى المعقول . وضعية تظل في الخارج ، على هامش العمل. ولكن الحالم يعيها بوضوح : وضعية يجـد الحالم نفسه ، وفقاً لتنسيق حوادث الحلم ، مستقراً فيها منذ وقت طويل ، اشبه ما يكون بما يمثـله ماضينا لكلٍ منا ، في حالة اليقظة .

« وفي مثل الحلم الذي حلمته ، ألاحظ حول الحوادث الثلاثة التي تشكل العمل ، باقة من **الظروف** التي تكون موجودة في حلمي بشكل حتمي دون أن تشكل جزءاً متمماً له . ويجب الاعتبار ايضاً أن هـذه الظروف هي نوعان ، يتشكلان كمنطقتين مختلفتين : فهناك الظروف المباشرة التي يكون الحلم كأنه مغلف بها . ثم ، هناك منطقة ثانية اكثر بعـداً في الزمن ! مجموعة من الظروف اكثر قدماً ، تشكل ماضياً خيالياً لا يكون الحـلم ممكناً بدونـه . وهذا الماضي ، الذي كنت ، انا الحالم ، اعيـه بشكل دائم ، لم يلعب اثناء الحلم اي دور ، كان فقط **موجوداً قبل هذا الحلم** ، كما أن ماضي الأشخاص موجود قبل العمل الذي يجمعهم على المسرح بشكل عرضي .

« لنوضح قليلاً . ان ما أفهمه بعبارة ظروف المنطقـة الاولى ، هو مثلاً ، انني **كنت اعرف** ساعة الحلم مع أنه لم يكن هناك قضية ساعة اثناء الحلم . **كنت اعرف** أن الوقت كان الظهر الا بضع دقائق ، وانني كنت أنتظر جـيز للغداء

كل يوم . **كنت اعرف** أنه في الصباح نفسه ، وفي غيابها ، وبدون أن استطيع اعلامها ، تلقيت برقية من أبي يعلن فيها عن عودته بسبب الدفن . (هنا نقطة ظلت غامضة ! دفن من ؟ لم يكن دفن المدموازيل . بل كان دفن أحد الأقرباء لأن هذا الحداد أصابنا كلنا) . **وكنت اعرف** أن سيارة اجرة محملة بالأمتعة وضعته امام البيت (اعتقد ايضاً أن باستطاعتي القول انني **رأيت** سيارة الأجرة هنا في الشارع ، في نفس الوقت الذي كنت ارى فيه أبي في الدهليز .) الخ ..

« ظروف المنطقة الثانية . افهم من ذلك سلسلة من الحوادث قديمة بشكل كافٍ ، كان انطوان الحلم يعرف وجودها . وهذه الحوادث لا أستطيع القول بدقة انني كنت فيها أثناء الحلم ؛ ولكن ذكراها كانت فيّ كما هي ذكريات حياتنا الواقعية . وهكذا **كنت اعرف** (في الواقع بودي ان اكتب : كنت عارفاً) ان أبي كان قد ترك فرنسا منذ وقت طويل مبعوثاً الى الطرف الآخر من العالم ، من قِبَل ما لا ادري أية جمعية خيرية للقيام بتحقيقات متعلقة باعمالها (تفتيش دوائر الاصلاحيات الأجنبية او شيء من هذا النوع) . رحلة بعيدة جداً كما لو أنه لن يعود منها ابداً .. **وكنت اعرف** ايضاً ردود الفعل التي نشعر بها أثناء هذا الرحيل الذي استقبلناه كلنا كحظ غير متوقع وغير منتظر . **وكنت اعرف** أنني حالما تحررت من وصايته تزوجت جيز . واننا استولينا على الشقة ، التي نقلنا منها كل شيء ، وبعنا الأثاث ووزعنا على الراهبات امتعة الأب الشخصية ، وهُدمت الحواجز لتغيير البيت بشكل كلي . (وما هو غريب : ان هذه التغييرات في الحلم لم تكن تلك التي اجريتها في الواقع . وهكذا ، فدهليز الحلم قد أعيد دهانه بالحبر الفاتح ؛ ولكنه كان مجهزاً بطنفسة حمراء ليست هافانية . ومكان منضدة البهو القديمة كانت توجد الساعة القديمة من خشب السنديان والتي كانت موجودة في غرفة أبي الملاصقة) . وليس هذا كل شيء . لم أنته من تسجيل ما **كنت اعرفه** . هذا مثلاً : كنت اعرف بدقة أن غرفتنا ، جيز وأنا (والتي لم يجر فيها أي مشهد من الحلم) كانت هي غرفة أبي القديمة ، والتي اصبحت شبيهة بغرفة آن ، في شارع واغرام . وفضلاً عن ذلك ،

كنت اعرف ان ليون في هذا الصباح لم يكن لديه الوقت ليقوم بتدبير البيت، وان سريرنا الكبير ظل بدون ترتيب ، وكنت خائفاً لفكرة ان ابي سيفتح باب هذه الغرفة .. واخيراً كنت اعرف ألف تفصيل آخر عن حياتنا ، وحياة المحيطين بنا . وعلى الخصوص تلك التي تبدو لي غريبة ، لأن اخي لم يكن له أي دور في هذا الحلم : وكنت اعلم ان جاك ، وقد اصابه اليأس بسبب الغيرة من زواجنا ، هاجر إلى سويسرا ، وانه .. »

وتوقفت الكتابة هنا . لم يكن لدى انطوان أية رغبة في المتابعة . فأخذ قلمه الرصاصي وكتب على الهامش :

« البحث عما قاله في هذا الموضوع اولئك الذين كانوا يهتمون بالحلم » .

ثم طوى الأوراق ونهض ، ووضع ماء ليسخنه لأجل الاستنشاق . وبعد بضع لحظات ، والرأس مخبأ تحت المنشفة ، والوجه مبلل ، والعينان مغمضتان، كان يتنشق البخار المحسن بعمق ، وهو مستمر في اجترار حلمه الليلي . وخطر بباله فجأة ان موضوع هذا الحلم نفسه يشهد على حالة ضمير سيء ، على شعور بالمسؤولية ، وبحالة الذنب أيضاً ، وعلى ان كبرياءه في حالة اليقظة توصل إلى البقاء في الظل . واعترف : « بالفعل لا مجال لدي لأن اكون فخوراً بكل ما جرى بعد موت والدي » . (وكان يقصد بذلك ليس مسكنه الفخم فقط ، بل أيضاً علاقته بآن ، وخروجه مساء ؛ وانزلاقه الذي لا يقاوم نحو الحياة السهلة) . واضاف : « حساب خسارة قسم كبيرمن الثروة التي تركهاوالدي.. » (فقد بذّر فيالنفقات المدفوعة لتغيير البيت نصف الثروةالمنقولة ؛ والباقي،وقد احتقر فوائد توظيفات السيد تيبو الحكيمة ، حوّله إلى اوراق مالية روسية هبطت اليوم إلى الصفر) وقال لنفسه : « لا لزوم لحسرات عقيمة .. »وهكذا كان من عادته ان يهدىء وساوسه . إلا انه – وهذا الحلم كان الدليل الأكيد – كان يحتفظ في اعماقه بالمفهوم البورجوازي « للمال العائلي » ، بالأموال المقتصدة التي تنتقل . ومع انه ليس عليه ان يقدم حساباً لأحد ، فقد كان يشعر بشعور خجل لأنه بدد في أقل من سنة ، التركة التي أنشأتها عدة أجيال بحكمة .

وأعتق رأسه لبضع ثوان ، وتنفس قليـــلا من الهواء الطري وسد عينيه المحتقنتين ، ثم تلبد من جديد تحت الاقمشة الرطبة المحرقة .

وهذه التأملات في هذا الصباح حول شتائه عام ١٩١٤ قـــد انضمت إلى الانطباعات المكدرة التي شعر بها البارحة ، بعد رحيل جيز ، وهو يجول في مختبراته الجميلة المقفرة ، والغرفة التي عمُدت بأبهة باسم « المحفوظات » مـــع مجموعةمن البطاقات (الفيش) العائدة للتجارب ، وصفوفها الكرتونية الجديدة، المرقمة الفارغة . ودخل إلى قاعة « الضماد » المرتبة جيداً والتي لم تستعمل مرة واحدة . وهناك ، وقد تذكر سكنه السابق المتواضع ، في الطابق الأرضي ، وحياته العملية المفيدة كطبيب شاب ، وادرك انه منـــذ موت والده سار في طريق خاطىء .

والمنشفة ، وقد بردت ، لم تعد تنتج سوى بخار خفيف . فألقى المناشف المبللة بعيداً عنه ، ونشف وجهه وبلغ غرفته .

وقال وهو واقف أمام المرآة ليجرب صوته :

– آه .. إيه .. آه .. اوه !

كان صوته أبح ولكنه استعاد رنته . وشعر ان حنجرته قد انعتقت وقتياً.

« عشرون دقيقة من الجيمناستيك التنفسي .. ثم ، عشر دقائق راحـــة . وبعدها سأرتدي ملابسي ، واجهز حقيبتي . وبما انني لا استطيع ان ارى فيليب اليوم ، فسأذهب وآخذ أول قطار إلى ميزون » .

في السيارة التي سارت به إلى المحطة ، حين اجتار القسم المخصص للزهور في التويلري ، ونظر تحت شمس ايار إلى التماثيل البيضاء تنتصب على العشب الاخضر . وبخار بلون الخباز يحتك بما يحيط بقوس الكاروزيل ، تذكر فجأة ذلك الصباح من فصل الربيع حين تواعد مع آن على اللقاء في ساحة اللوفر . واجتازت ذهنه فكرة مباغتة ، فصاح بالسائق :

– سر بي إلى مدخل الغاب . وستسير في شارع سبونتيني .

وحين وصل إلى جدار قصر باتنكور خفف السير وانحنى على النافذة. جميع المصاريع كانت مقفلة ؛ والسور الحديدي مغلق . وقد علق على منزل حارس القصر اعلان :

قصر جميل للبيع

باحة داخلية – مرآب – حديقة

المساحة الاجمالية ٦٢٥م٢

وفوق كلمة **للبيع** اضيف باليد عبارة : **او للآجار** .

وسارت السيارة متمهلة على محاذاة جدار الحديقة . ولم يكن انطوان يشعر بشيء . لا شيء بالضبط ، لا تأثر ، لا حسرة . وكان يتساءل لماذا اتى للقيام بهذه الزيارة .

وصاح بالسائق :

– عُد .. محطة سان لازار .

وقال لنفسه على الاثر تقريباً كما لوان تأملاته الصباحية لم يقطعها شيء: « نعم كنت ، انا نفسي ، مخدوعاً باقناع نفسي بانه لا بد من تنظيم حياتي المهنية بشكل أفضل .. بدلاً من تحريك الشغل فان جميع تلك السهولات المادية قد شلته . كل ذلك الجهاز الآلي الجميل يعمل في الفراغ . كل شيء كان جاهزاً لاجل انجازات واسعة النطاق . وفي الواقع لم افعل شيئاً .. » وتذكر فجأة موقف اخيه من التركة الأبوية وذلك النفور عند جاك من المال ، بحيث حكم عليه انطوان آنذاك انه أبله .. « انه هو الذي كان على حق . كم كنا اليوم نتفاهم جيداً .. التسمم بواسطة المال . بواسطة المال الموروث على الخصوص . المال الذي لم يربحه المرء .. لولا الحرب لكنت فاسداً ولما كنت تطهرت من هذا التسمم . ولكنت وصلت إلى الاعتقاد ان كل شيء يشترى . وكنت ادعي لنفسي آنذاك الحق بالشغل القليل وبأن اجعل الآخرين يشتغلون ، وذلك كامتياز طبيعي لرجل غني . وأعزو لنفسي بدون خجل فضل أول اكتشاف يقوم به جوسلان أو ستودلر في مختبراتي .. نفعي . هذا ما كنت مستعداً لأكونه ! لقد

عرفت سرور السيطرة بواسطة المال . عرفت سرور كوني معتبراً بسبب مالي.. ولم اكن بعيداًابداً عن ان اجدهذا الاعتبار طبيعياً ، وليس بعيدا عن الاعتقاد ان المال منحني تفوقاً .. ليس جميلا .. وهذه العلاقات الزائفة ، المبهمة التي يقررها المال بين الغني والآخرين ! واحدة من اكثر مساوىء المال مرارة! وقد بدأت احذر آنذاك من كل شيء ومن الجميع . وبدأت افكر بأفضل اصدقائي: « لماذا قص علي ذلك ؟ هل يهدف من ذلك الى دفتر (شيكاتي) ..؟» ليس جميلا، ليس جميلا !

وشعر بتحريكه هذه الثمالة بمرارة ، بحيث ان وصوله الى محطة سان لازار بدا له خلاصاً . واندفع بين الجموع الغفيرة التي تزحم القاعة الكبرى ، دون ان يحترز للهاته ، سعيدا بهذه الألهية التي اتاحت له ان ينجو من نفسه ..

– بطاقة .. كلا . درجة ثالثة عسكرية إلى ميزون – لافيت . القطار في اية ساعة ؟

لم يكن يركب مقصورة الدرجة الثالثة في اغلب الاحيان . وقد شعراليوم فيها بسرور شديد .

٧

طرقت كللوتيلد الباب . والطبق متوازن على يد ، وانتظرت بضع ثوان ، ثم طرقت من جديد . لا جواب ، فغضبت لفكرة ان انطوان خرج دون ان يتناول غداءه . وفتحت الباب .

كان الظلام يسود الغرفة . وكان انطوان لا يزال في السرير . لقد سمع ؛ ولكن في الصباح ، قبل ان يجري عملية التنشق ، كان فاقد الصوت بحيث اقلع مسبقاً عن كل جهد لاخراج صوت . وهذا ما جرب ان يفهمه لكلوتيلد بالاشارات .

ومع انه كان يصحب ايماءاته بابتسامة مطمئنة ، فان المرأة الباسلة ظلت على

العتبة ، مرفوعة الحاجبين من الدهشة والتأثر : فبرؤيتها انطوان غير قادر على لفظ كلمة – مع انه عند وصوله مساء البارحة جاء يتحدث معها في المطبخ – اجتازت ذهنها بغتة فكرة انه تعرض لهجوم ، وانه نصف مشلول . وادرك انطوان فكرتها بشكل مشوش فزاد من ابتسامته لها ، واشار اليها ان تحمل الطبق حتى السرير ، وأخذ القلم والدفتر الموضوع على طاولة السرير وكتب :

« ليلة ممتازة . انا دائماً ، في الصباح ، بدون صوت .. »

ففكت ببطء رموز الورقة وتأملت انطوان بذهول . ثم صرحت بدون مواربة في الكلام :

– هذا لا قيمة له . لم نكن ننتظر ان نجد السيد في هذه الحالة .. لقد سوّوا امورك بدقة .

وراحت تفتح المصاريع . واجتاحت الشمس الصباحية الغرفة . كانت السماء زرقاء ومن وراء اطار الكرمة غير المشذبة ، والمتدلية من الشرفة الخشبية ، فان الصنوبر القريب ، وقمم غابة سان جرمان الخضراء الاكثر بعداً ، كانت ترتعش تحت نسمة خفيفة .

وقالت وهي تعود إلى جانب السرير :

– هل يستطيع السيد ان يأكل ؟

وملأت الفنجان بحليب ساخن ، وحين فتت انطوان فيه شيئاً من الخبز تراجعت خطوة ، منتبهة ، ويداها في جيبي مريلتها . وكان يلتهم بصعوبة بحيث لم تتمالك من الترديد :

– لم يكن ذلك منتظراً ، كلا ، بالتأكيد ! كنا نعلم فقط ان السيد متسمم بالغاز . ولكننا كنا نقول : « مهما كان الأمر فالغاز أقل سوءاً من الجرح » .. يجب الظن ان لا ! صحيح انني لا اعرف شيئاً عن الأمراض . وحين كتب السيد إلينا ، لأختي ولي ، ان نأتي مع الآنسة جيز الى عند مدام دي فونتانان ، قالت لي ادريان على الأثر : « اريد ان اعتني بالجرحى » .. اما انا فقد قلت : « كل ما يريدون ، مطبخ ، تدبير البيت . انا لا انفر ابداً من الشغل . اما فيما

يتعلق بالجرحى فلا ، لأن ليس هذا ذوقي » . وقد حدث ان اولئك السيدات اخذن ادريان إلى المستشفى ، وأنا بقيت في البيت . أنا لا اشكو من عدم وجود وقت للعبث ، وسيعلم السيد ذلك : فلكي تستطيع امرأة واحدة ان تعمل كل ما يجب عمله هنا ، يلزمها ايام بخمس وعشرين ساعة . اما انا فهذا يسرني اكثر من ان اسيء العناية بالجراح .

كان انطوان يصغي اليها مبتسماً (لعدم وجود جيز فليس من المستكره ان تعتني به هذه الفتاة . ومن المؤسف انها قليلة الميل لتكون ممرضة) ..

ولكي يشير الى انه يعرف أن يقدّر عبء هذه المهمة اليومية ، فقد قرص شفتيه وهز رأسه عدة مرات .

فقالت وقد استولى عليها الوسواس :

— اوه ! اذا نظرنا جيداً رأينا ان هذا يسبب متاعب اقل مما يُظن . فأولئك السيدات يذهبن دائماً الى المستشفى . ولا يأتين الى العشاء . وعند الظهر لدي فقط السيد دانيال والسيدة جني مع الصغير .

كانت اكثر دالّة من الماضي ، كأن سنوات الحرب قد ألغت المسافات القديمة ، وقد اصمّت انطوان بثرثرتها ، متكلمة بكل حرية عن كل فرد : « .. الآنسة جيز تسرع دائماً للخدمة معنا » .. « مدام دي فونتانان ليست متكبرة في دخيلة نفسها ، ولكنها تبعث على الرهبة ، بحيث لا نعرف كيف نحدثها » .. « .. والسيدة نيكول ، التي عندها شيء من النظام — والتي تعرف جيداً كيف تُخدم » ! « .. والسيدة جني ، ليست كثيرة الكلام ، ولكنها قوية في الشغل وتفهم الأمور » .. وتعود دائماً الى « الصغير » بلهجة الاعجاب والحنان : « صغير يبشر بالكثير ؛ وسيعرف ان يقود كالسيد المرحوم ! (فقال انطوان لنفسه : « صحيح انه حفيد ابي ») . ولو تُرك لحوّل كل عالمه الى حمير .. السيد لا يتصور ما هو : زئبق ، يتدخل بكل شيء ! لا يصغي الى شيء ولا الى شخص .. ومن حسن الحظ ان السيد دانيال موجود دائماً هنا لحراسته : فأنا ، مع شغلي ، لا استطيع . يجب الا يغيب عن العين .. والسيد

دانيال ، هذا يشغله : كل النهار هنا ، وحده ، لا يفعل شيئاً سوى مضغ العلكة ، وبدون هذا يشعر بطول الوقت » .. وهزت رأسها لحظة بهيئة ملأى بالافكار المضمرة : « لن ينتزع احد الفكرة من رأسي . مع الزمن المسرع لن يبقى احد الا ويغضب لانه لا يستطيع ان يعرج » ..

فأخذ انطوان الدفتر وكتب : ليون ؟

ـ آه ! ليون المسكين ..

لم يكن لديها ابداً اية معلومات تدلي بها عن الخادم (فقد أسر بالقرب من شارلروا بعد اربع عشرة ساعة من المعركة ، في نفس غداة اليوم الذي وصل فيه الى الجبهة ؛ وانطوان ، منذ ان عرف رقم المعسكر كلف كلوتيلد ان ترسل كل شهر طرداً من المؤونة . وكان ليون يشكر بانتظام ، بثلاث كلمات على بطاقة . ولا يدلي بأية تفاصيل عن حياته .

ـ والسيد يعلم انه طلب منا نايأ . وقد اشترت الآنسة جيز له واحداً من باريس .

كان انطوان قد انهى شرب حليبه منذ وقت طويل . وقالت كلوتيلد وهي تريحه من الطبق :

ـ يجب ان انزل لمساعدة السيدة جني . فالثلاثاء هو يوم غسيلها ، والغسالة ثقيلة على التحريك : والصغير يلوّث ..

وكانت قد بلغت الباب حين التفتت لتلقي نظرة اخيرة على انطوان . ووجهه المسطح اتخذ فجأة هيئةً مفكرة :

ـ لقد رأينا الكثير في هذه السنوات يا سيد انطوان . رأينا من جميع الاشياء ! وغالباً ما كنت اقول مع ادريان : « لو عاد السيد المرحوم ! لو كان يستطيع ان يرى كل ما حدث منذ غيابه » !

وظل انطوان وحده ، فبدأ زينته متلكئاً . لا شيء يدعو الى العجلة . كان ينوي ان يعالج نفسه باجتهاد .

« لو عاد السيد المرحوم » .. اعادت عبارة كلوتيلد الى ذاكرته حلمه

البارحة . وفكر : « اي تأثير لا يزال ابي يمارسه علينا جميعاً » !

وكانت الساعة الحادية عشرة قد مضت حين اعاد فتح النافذة التي أغلقها ليقوم بتمارينه التنفسية دون ان يسمعه احد .

وارتفع صوت رجل في الحديقة : « جان ـ بول ! انزل من هناك ! وتعال الى جانبي » . وكصدى بعيد ، ارتفع صوت امرأة ، هادئاً وطرياً : « جان ـ بول ! اتريد ان تطيع خالك دان » !

وتقدم الى الشرفة . وبدون ان يزيل ستار الكرمة غير المشذبة ارسل نظره الى الخارج . كانت تمتد تحته السطيحة الضيقة المشرفة على الخندق الذي يفصل الحديقة عن الغاب . وفي ظل شجرتي دلب (حيث كانت مدام دي فونتانان تقف دائماً في السابق) ، كان دانيال متمدداً على كرسي من الخيزران ، وعلى ركبتيه كتاب . وعلى بضع خطوات ، غلام يرتدي كنزة شاحبة اللون ويحاول تسلق سور الشرفة بمساعدة سطل صغير مقلوب عمداً عند اسفل الجدار . ومن الناحية الأخرى من التراب المركوم ، في بيت البستاني القديم الذي كان بابه المعرّض للشمس مفتوحاً على مصراعيه ؛ كانت جني تغسل الغسيل بالصابون ، عارية الذراعين نصف راكعة امام وعاء الغسيل .

وردد دانيال :

– تعال يا جان بول .

وقد ألهب شعاع شمسي الشعر الأشقر لحظة . وكان الغلام قد قرر ان يلتفت . ولكن لكي لا يبدو انه انصاع ، فقد جلس على الأرض برصانة ، واخذ الرفش وملأ السطل بالرمل .

وحين هبط انطوان الدرج المسطح بعد بضع لحظات ، كان جان ـ بول لا يزال في مكانه . وقال دانيال :

– تعال وقل صباح الخير لعمك انطوان .

والغلام الجاثم عند أسفل السور اشتغل بتحريك رفشه دون ان يظهر انه سمع . ورأى انطوان يقترب فترك رفشه وزاد من خفض رأسه . وحين أُمسك

بوسط جسمه ورُفع ، فحص برجليه هنيهة ؛ ثم رضي باللعب وانفجر بضحكة واضحة . فقبله انطوان على شعره وسأله في اذنه :

ــ أتجد العم انطوان رديئاً ؟

فصاح الولد : نعم .

وكان الجهد قد ضيق نفس انطوان . فأراح الولد على الأرض وعاد الى جانب دانيال . وما كاد يجلس حتى عاد جان ـ بول إليه راكضاً وصعد على ركبتيه وتلبّد على سترته وتظاهر بالنوم .

ولم يكن دانيال قد تحرك من كرسيه الطويل . كان بدون ربطة عنق ، يرتدي بنطلوناً قديماً داكناً وسترة تنس قديمة من الفانيلا المخططة . وفي ساقه الاصطناعية حذاء اسود ، وكانت القدم الاخرى عارية في خف . وكان قد سمن ولا يزال يحتفظ بقسمات نبيلة ولكنه ذو وجه سمين . وبشعره الكثير الطول ، وتلك الذقن الزرقاء ، يبعث على التفكير هذا الصباح باحد ممثلي المآسي الريفيين الذي يهمل نفسه في المدينة ولكنه في المساء ، في نور المسرح ، لا يزال يحدث تأثيراً كامبراطور روماني .

وانطوان الذي كان يهتم منذ نهوضه من النوم بقصباته الرئوية وحنجرته ، لاحظ دون ان يعلق على ذلك اهمية ان الشاب ، بعد ان شد على يده ، لم يكن يفكر حتى بسؤاله عن صحته . (مساء البارحة كان لديهما فرصة ليتحدثا عن حالتها ويفضيا بشقائهما) . وانحنى بحركة مستفهمة نحو الكتاب المجلد الذي اطبقه دانيال ووضعه على الحصى . فقال دانيال :

ــ هذا ؟ انــه « دورة حول العالم . . » مجلة دورية قديمة للسياحة . السنة ١٨٧٧ . ـــ وأخذ الكتاب من جديد وقلب أوراقه باصبع متكاسلة ـــ انه مليء بالصور . . لدينا المجموعة كلها ، فوق .

وكان انطوان يداعب لاهياً شعر الصغير الذي كان يبدو ضائعاً في حلم عميق ، الرأس مستند إلى صدر عمه ، والعينان مفتوحتان بشكل واسع .

ــ ماذا من جديد هذا الصباح ؟ أعندك الصحف ؟

فقال دانيال : كلا ·
– لقد بدا مجلس الحلفـــاء انه قرر في هذه الايام ان يمد نفوذ فوش إلى الجبهة الايطالية .
– آه ؟
– هذا يجب ان يكون الآن رسمياً .
وكأن جان – بول اكتشف فجأة انه ضجر فانزلق على الارض . وقال العم انطوان والخال دانيال معاً :
– الى اين ذاهب ؟
– مع ماما .
وقفز الغلام مرتين على كل رجل · واندفع بمرح نحو بيت البستاني . وتبادل الرجلان نظرة لاهية .
وكان دانيال قد اخرج من جيبه علبة علكة وقدمها إلى انطوان :
– كلا . شكراً .
فأوضح دانيال :
– هذا يلهي . أنا لا أدخن .
واختار حبة وأدخلها بكاملها في فمه وبدأ يمضغ .
وكان انطوان ينظر اليه وهو يفعل ذلك مبتسماً :
– لقد ذكرتني بتذكار من الحرب ·· في فيليه – بريتونيه ·· كان علينا ان ندخل عربة الاسعاف الموجودة معنا في مزرعة كانت قد احتلتها وقتاً طويلاً تشكيلات صحية اميركية . وقد اضـــاع ممرضونا نهاراً كاملاً وهم ينتزعون بضربات المطارق لصقات مضغات التبغ الجامدة التي ألصقها هؤلاء المقرفون في كل مكان . في قاعدات الأعمدة ،على الأبواب ،تحت الطاولات ، تحت المقاعد . وقد اصبحت تلك القذارة قاسية كالاسمنت . . ولو بقي الاحتلال الانجلو – ساكسوني عدة سنوات ايضاً لفقد جميع اثاث الارتوا وبيكاردي شكله البدائي ليصبح كتلات مشوهة من العلكة · – وقاطعه سعــال خفيف بضع ثوان :

- وبالطريقة التي اصبحت فيها بعض صخور بيكاردي جبالاً من سماد براز العصافير .

فابتسم دانيال ؛ وانطوان الذي كان دائماً ، كجاك حساساً بسحر هـذه الابتسامة ، شعر بعاطفة سرور لتأكده ان هـــذه الابتسامة لم تفقد شيئاً من فتنتها ، وانه رغم فساد القسمات فـان الشفة العليا كانت تتقلص دائماً نحو اليسار ، بانحراف ، ببطء روحي ، بينما ألق ماكر يتألق بشكل لاشعوري بين الجفون المتغضنة .

ولم ينته من السعال . وأتى بحركة ملل وخمود عزيمة . وقال بجهد :

- كما ترى .. أي مزكوم قديم اصبحت .. - ثم بعد ان استعاد انفاسه :

- لقد سوّوا امورنا جيداً كما تقول كلوتيلد . وايضاً : نحن بين المتازين دون شك .

فقال دانيال بسرعة وبصوت منخفض :

- انت ، ربما .

وسادت دقيقة صمت وكان دانيال هو الذي قطعها هذه المرة :

- تسألني إذا كنت قرأت الصحف ؟ كلا. اقل ما يمكن . كثيراً ما افكر بكل هذا . ولا استطيع التفكير بشيء آخر .. قراءة البلاغ الرسمي ، حين يعرفون مثلنا ما تعني الكلمات : **مناوشات خفيفة على جبهة** .. او ايضاً : **مساعدة مجدية لـ** .. كلا .

وقلب الرأس على مسند كرسيه الطويل وأطبق عينيه مستمراً بصوت منخفض :

- لكي يفهم المرء يجب ان يهاجم ، ويهاجم كجندي من المشاة .. وحين كنت من سلاح الفرسان فانني لم اعرف الحرب .. الا انى عانيتهـــا ، نعم ، ثلاث مرات .. وهذا لا شيء . حملة لا يمكن التحدث عنها . ولكننا لا شيء إلى جانب هجوم المشاة ، إلى جانب « خروج » في الساعة ش بالحراب .

وارتعش ، وفتح عينيه من جديد ونظر امامه وهو يمضغ علكته بغضب

قبل أن يتابع :

- في الاساس كم كان عددنا في المؤخرة، نحن الذين نعرف جلية الأمر ؟.. وكم عدد الذين عادوا ؟ وهؤلاء لماذا لا يتكلمون عن الحرب؟ انهم لا يستطيعون، ولا يريدون ان يقولوا شيئاً · فهم يعرفون انه لا يمكن فهمهم ·

وصمت . وبقي الرجلان عدة دقائق دون تبادل كلمة ، دون ان ينظرا إلى بعضهما البعض · ثم بدأ انطوان بدوره ، بصوت متردد يقطعه السعال :

– هنالك فترات اقول فيها ان هذه هي الأخيرة ، وان بعدها ، كلا ،ليس من الممكن التفكير ان بالمستطاع حصول غيرها ! لحظات اكون فيها متأكداً . . ولكن في لحظات اخرى اشك ·· لا اعرف شيئاً .

وكان دانيال يعلك صامتاً ، شارد النظرات · ترى بماذا يفكر ؟

وسكت انطوان · بالحقيقة كان يشعر بكثير من الألم حين يتكلم عدة دقائق متتابعة . ولكنه كان يستمر في التفكير بالامور نفسها للمرة المئة ، للمرة الالف · وكان يقول لنفسه : « يشعر المرء بالرعب حين يقيس ببرودة كل ما يعترض احلال السلام بين الناس ·· كم من قرون تمر بعد ، قبل أن يطهر التطور الاخلاقي – إذا كان هناك تطور اخلاقي – الانسانية من تصلبها الغريزي ، من احترامها المولود معها للقوة العنيفة ، من ذلك السرور المتعصب الذي يشعر به الحيوان البشري لدى انتصاره بواسطة العنف ، وحين يفرض بواسطة العنف طرقه في الشعور ، في العيش ، على اولئك الذين هم اكثر ضعفاً منه ، والذين لا يشعرون ولا يعيشون مثله ؟ وثم ، هناك السياسة ، والحكومات .. فللسلطة التي تحرك الحرب ، لرجال السلطة الذين يقررونها ويعلنونها على الآخرين ، سيكون دائماً ، وفي ساعات الفشل ، حلٌ مغرٍ وسهل جداً .. فهل يمكن الأمل بألا تلجأ إليه الحكومات ؟ اذن يجب أن يكون ذلك مستحيلاً عليها : يجب أن يكون لنزعة السلام جذور في الرأي العام ، وان يكون لها امتداد ، وان تقيم عائقاً لا يمكن اجتيازه لسياسة الدول الحربية · ان الامل في ذلك وهم ··· ثم هل يكون انتصار النزعة السلمية

ضمانة جديدة للسلام ؟ وحتى لو تسلمت الاحزاب السلمية السلطة في بلادنا ، فمن يقول لنا انها لن تخضع للميل الى الحروب لمجرد سرورها بأن تفرض الايديولوجية السلمية على بقية العالم بواسطة العنف ؟

وصاحت كلوتيلد بمرح من بعيد :

– جان – بول .

كانت تتقدم نحوهما حاملة على طبق طاسة حساء وخوخاً مجففاً ، وقدح حليب ، وضعتها على طاولة الحديقة .

ونادى دانيال :

– جان – بول .

فاجتاز الغلام السطيحة ، راكضاً في الشمس بكل سرعة ساقيه . وزرقة ثوبه الناصلة من الغسيل كان لها لون عينيه تماماً . ومشابهته لجاك وهو طفل أدهشت انطوان من جديد . وكانت كلوتيلد القوية قد رفعت جان بول وأجلسته على مقعد . وكان يفكر : « نفس الجبهة ، نفس الترتيب في الشعر . نفس الصبغة المشوشة ، نفس بقع النمش حول الأنف الصغير المنقبض .. » وابتسم له ؛ ولكن الطفل ، وقد ظن أنه يسخر منه ، لفت رأسه ، وشنج حاجبيه ، والقى عليه نظرة خفية حاقدة . وكانت عيناه الشبيهتان بعيني جاك ذات تعبير لا يُدرك ، متغير كثيراً : تارة ضاحكتان ماكرتان ، وطوراً ، كما في هذه اللحظة ، وحشيتان وقاسيتان كالفولاذ . ولكن تحت هذه التعبيرات المتنوعة ، تظل النظرة حادة ، ملاحظة بشكل غير عادي .

وجني بدورها اجتازت كومة التراب التي تنيرها الشمس . كان كمّاها مشمّرين ، واليدان منتفختين من الماء ؛ وكانت مريلتها مبللة . وابتسمت ابتسامة مودة موجزة لانطوان .

– كيف انقضت الليلة ؟ كلا . أصابعي مبللة .. هل نمت ؟

– افضل من المعتاد . شكراً .

امام هذه الأم الفتية ، ذات الجذع المتفتح ، والتي تقوم بأعمال ربة بيت

بكل بساطة ، تذكر انطوان فجأة الفتاة الصغيرة المتحفظة ، البعيدة ، المتشددة في ملابسها من الجوخ القاتم ، واليدان في قفازين – والتي جاء بها جاك إلى شارع الجامعة يوم اعلان التعبئة .

والتفتت نحو دانيال :

– لطفاً دعه يأكل حساءه فاني لم أنشر غسيلي بعد .

ودنت من ولدها وعقدت له المنشفة في عنقه وداعبت الرقبة الصغيرة كرقبة عصفور .

– ان جان – بول سيأكل حساءه مع الخال دانيال بكل تعقل . – وأضافت وهي تبتعد : – اني عائدة .

– نعم يا ماما : (كان يلفظ كلمة ما ما مفصلاً المقاطع كما كان يفعل ايضاً دانيال وجني) .

وترك هذا كرسيه الطويل ليأتي ويجلس بجانب الطفل . ولم ينقطع عن متابعة تفكيره ، لأنه قال حين ابتعدت اخته ، كما لو أن شيئاً لم يقاطعه :

– وشيء آخر ايضاً لا يمكن التكلم عنه ، شيء لن يستطيع انسان ، في المؤخرة ، أن يكوّن عنه فكرة : ذلك النوع من المعجزة الذي ينتج دائماً منذ الدخول إلى منطقة النار : قبل كل شيء ، ذلك الاحساس بالانعتاق المتناهي الذي يحدثه الخضوع المطلق للصدف ، ومنع الاختيار ، والتخلي عن كل إرادة فردية ! – وأضاف بصوت يشي بتأثره : – وثم ، الرفقة ، الاخاء الذي يوجد هناك بين الجميع ، في تهديد الخطر .. وكان صحيحاً جداً أنه يكفينا أن نسير « متساندين » ، وأن نقطع اربعة كيلومترات إلى الوراء ، لكي نعود رجالاً من جديد .

ووافق انطوان صامتاً . هناك ذكريات من الوحل والدم عن الحرب بشكل خاص . ولكنه كان يفهم ما أراد دانيال قوله . فقد عرف تلك « المعجزة » ، تلك الوحدة الصوفية للجيوش في النار ، ذلك التطهير للفرد ، ذلك التكوين الفجائي لروح جماعية واخوية تحت ثقل القدر نفسه .

وجان – بول ، وقد أخافه وجود انطوان ، ترك دانيال يطعمه ، بحيث أن المهارة في إدخال الملعقة ملأى ، وهو يتحدث ، في فم الطفل المفتوح كانت تشهد على أنه لم يكن مبتدئاً في هذا الدور للأب المرضع . وقال انطوان لنفسه فجأة : « إن ما يجري هنا أمامي لم يكن بالامكان توقعه في الماضي .. دانيال ، كسيح ، سيء الملبس ، متحول إلى طفل جيد ! وهذا الصغير ، الذي هو ابن جني وجاك ! ومع ذلك فهذا كائن . ولا يكاد يدهشني ... ما دام الواقع واضحاً .. وما دام هذا الوضوح يفرض نفسه ! حين تحدث الأمور فاننا لا نفكر بأنه كان يمكن ألا تكون .. أو أن من الممكن أن تكون مختلفة تماماً .. » وارتبك نصف دقيقة في هذه الأفكار المشوشة ، وقال ملاحظاً : « لو كان غواران يسمعني لما كنت أقاطعه في خطاب من أربع نقاط حول حرية الارادة » .

وهمهم الخال دانيال : هيه ، انتبه .

فقد اصبح التلقيم اكثر إتعاباً منذ أن أخلى الحساء مكانه للخوخ . فالغلام اللاهي كان يتبع بعينيه رواح ومجيء أمه التي كانت في الناحية الأخرى من السطيحة تعلق الغسيل على شباك خم الدجاج : وكان دانيال يبقى في معظم الأحيان فترة طويلة رافعاً الملعقة ، منتظراً أن يرضى جان – بول بفتح منقاره. ولكنه لم يكن يفرغ صبره .

وحين أنهت جني عملها ، أسرعت بالمجيء لتنوب عن أخيها . ورآها انطوان تجتاز الفسحة المشمسة من جديد ؛ وكانت قد خلعت مريلتها ، وأنزلت كميها وهي تمشي . وأرادت أن تريح دانيال ولكنه اعترض :

– دعيني . فقد انتهينا .

فقالت بصوت مرح :

– وحليبنا ؟ بسرعة ! ماذا يقول العم انطوان إذا لم يشرب جان – بول حليبه ؟

والطفل الذي كان قد رفع مرفقه ودفع القدح ، توقف ليرمق العم انطوان

بنظرة ارادية مشحونة بالتحدي . كان يتوقع شيئاً من التهديد ، الا أنـه تردد لحظة ، وقد أدهشته الابتسامة المتواطئة وطرفة العين التي رشقه بها انطوان ؛ ثم أنارت وجهه بهجة ماكرة ؛ وبدون أن يترك انطوان بعينيه ، كأنه يتخذه شاهداً على طاعته ، أفرغ قدحه دون أن يستعيد نفسه .

وقالت جني وهي تفك المنشفة وتساعد الصغير على النزول عن مقعده :

- الآن سيأتي جان - بول لينام فترة كافية لتستطيع أمه أن تتناول فطورها باطمئنان مع العم انطوان والخال دان .

وظل الرجلان بمفردهما .

وخطا دانيال بضع خطوات في مكانه ، وانتزع من جـذع شجرة الدلب قشرة صغيرة تأملها لاهياً قبـل أن يحطمها بين أصابعه . ثم سحب من جيبه حبـة جديدة من العلكة وأخذ يمضغها . وأخيراً عاد إلى مقعده الطويل وتمدد عليه .

وصمت انطوان . كان يفكر بدانيـال ، بالحرب ، بالهجوم ، كان يفكر بتلك الأخوية الصوفية في الخط الأول ، لوبان في موسكيه - ذلك الصغير لوبان الذي كان غالباً ما يذكره بمساعده القديم مانويل روا الشاب - ألم يقـل ذات يوم ، على المائدة ، برعشة في صوته وحنين في نظرتـه ، ان بالمستطاع قول مـا يراد ، وان للحرب جمالها ايضاً ؟ بالتأكيد : لقد كان غلاماً في العشرين من سنه ، انتقل فجأة من مقاعد السوربون إلى الثكنة ، من فريق كرة قدم إلى الخنادق ؛ والذي كان قد وصل إلى الجبهة دون أن « يبدأ » شيئاً في الحياة المدنية ، دون أن يترك شيئاً وراءه . وقد افتتن بانبساط في هـذه الرياضة الحربيـة . وكان انطوان يقول لنفسه : « جمال الحرب . فهل يُعَدُّ هذا إلى جانب كل الرعب الذي رأيته ؟ »

وفجأة تذكر امراً . ذات ليلة - في اول ايلول ١٩١٤ ، أثناء تلك المعركة الطويلة التي استمر انطوان يدعوها بينه وبين نفسه : « هجوم البروفان » والتي هي معركة المارن بنظر الجميع - كان عليه أن ينقل مركز الاسعاف تحت قذف عنيف بالقنابل . وبعـد أن نجح في إخراج الجرحى ، توصل وهو يزحف في

حفرة ويتبعه ممرضوه ، إلى أن يبتعد عن نقاط السقوط ، وأن يبلغ بيتاً متداعياً ، حيث الجدران الكثيفة والقبو المعقود يمكن أن تقـدم ملجأ احتياطياً. في تلك اللحظة أطالت مدافع العدو حقل نيرانها. واقتربت القنابل. فأنزل حالاً كل رجاله إلى القبو وأغلق بنفسه الباب عليهم . وكان قد بقي بمفرده حوالي العشرين دقيقة في الطابق الأرضي من البيت ، مستنداً إلى باب الدخول ، مترقباً نهاية القذف . عندئذ حدث الأمر . انفجار عنيف على بعـد ثلاثين أو اربعين متراً جعله يتراجع بسرعة إلى داخل القاعة تحت سحابة من بقايا الجبس ؛ وهناك اصطدم برجاله وهم واقفون ، مصفوفون في الظـلام . كيف اصبحوا هنا ؟ لقد رأوا أن الماجور يربأ بنفسه أن « يتنحّى » معهم ، فرفعوا الباب ، واحداً اثر واحد ، وجاؤوا يقفون بالصف صامتين وراء رئيسهم دون اتفاق مسبق فيما بينهم .

وفكر انطوان : « الا انها كانت لحظة قذرة . ولكن هذا البرهان على التعاضد والاخلاص أتاح لي دقيقة سرور لن أنساها ابداً . ولو أن لوبان قال لي تلك الليلة : « ان للحرب جمالها ايضاً » لربما قلت : نعم .

وامتلك نفسه حالاً وقال : كلا !

فدهش دانيال ولفت رأسه . كان انطوان يتكلم بصوت منخفض دون ان ينتبه . وابتسم ابتسامة خفيفة وقال :

– اريد أن اقول ..

وابتسم كأنه يعتذر ، وسمع بكاء جان – بول الذي كان يرفض أن يضعوه في سريره .

٨

كانت جني قد أنامت الطفل في سريره الصغير ، وككل صباح ، بانتظار ان يغفو ، كانت ترتدي ملابسها لتستطيع ، بعد تناول الفطور ، ان تذهب وتتسلم عملها في مستودع بياضات المستشفى . وبينما كانت تمر امام احدى

النوافذ شاهدت من خلال النسيج الدقيق الرجلين اللذين كانا يتحدثان بدالّة تحت أشجار الدلب . وصوت انطوان العادم الرنة لم يكن يصل اليها ؛ وصوت دانيال المتعب ، كان يتصاعد مرة بعد مرة بشكل مباغت ، دون ان تستطيع جني تمييز الكلام .

وتذكرت ، بانقباض قلب ، الشابين اللذين كانا قويي البنية ، لامباليين ، مليئين بالمشاريع الطموحة . فصنعت الحرب منهما ما هما عليه اليوم .. انهما هنا على الأقل ، ولا يزالان يعيشان ! وسوف تتحسن حالتهما ؛ فانطوان سيستعيد صوته ، ودانيال سوف يعتاد على عرجه ؛ وسيعاودان حياتهما عما قليل ! أما جاك فلا ! هو ايضاً ، في هـذا الصباح المنير ، لو كان من الممكن أن يكون حياً في ناحيةٍ ما .. لتركت كل شيء للحاق به .. ولأصبحا اثنين لتربية ولدهما .. ولكن كل شيء قد انتهى الى الأبد .

وكان صوت دانيال قد صمت . فاقتربت جني من النافـذة ، ورأت أن انطوان يسير نحو البيت . كانت تبحث عن فرصة منذ البارحة لتراه بمفرده . وتأكدت بلمحة عين من أن جان بول لا يتحرك ، فأنهت تبكيل تنورتها ، وأحدثت بسرعة شيئاً من الترتيب في غرفتها ، وفتحت الباب على سطح الدرج .

كان انطوان يصعد الدرج متمهلاً ، ويده متمسكة بالدرابزين . وحين رفع رأسه وشاهدها ابتسمت ، ووضعت اصبعاً على شفتيها وجاءت الى امامه :

– تعال لتراه نائماً .

وكان ضيق النفس فلا يستطيع الاجابة ، وتبعها على رؤوس أصابعه .

الغرفـة المغطاة بقماش جوي Jouy ذي الرسوم الزرقاء ، كانت كبيرة ، طويلة اكثر منها عريضة . وكان يشغل داخلها سريران متشابهان وضعت بينهما سرير الطفل . « يجب أن تكون هذه هي غرفة آل فونتانان القديمة » قال انطوان ذلك لنفسه محاولاً الاستيضاح عن هـذين السريرين التوأمين اللذين يبدوان ، وهـذا مستغرب ، انهما مستعملان ، كلاهما ، لأن كلاً منهما كان

مسنوداً بطاولة سرير مجهزة بأشياء مألوفة. وفوق السريرين ، في اطار ، كانت معلقة صورة لجـــاك بالحجم الطبيعي ، تجتذب النظر كوجود طبيعي : صورة زيتية ، من النسق الحديث ، رآها انطوان لأول مرة .

وكان جان بول نائماً منطوياً . وكتفه مخبأ تحت الوسادة ، الشعر متشابك ، والشفتان مشقوقتان رطبتان ، والذراع الحر كان ممدوداً على الغطاء . ولكن بدون استرخاء . فقد كانت القبضة الصغيرة . منكمشة كأنها قبضة ملاكم .

وأشار انطوان إلى الصورة بايماء استفهامي ، فقالت جني بصوت منخفض:

– قماشة جئت بها من سويسرا .

وتأملت الصورة بدورها ، ثم الطفل وقالت :

– كم يتشابهان !

– لو كنت تعرفين جاك وهو في هذا السن !

وفكر : « ولكن هذا لا يستلزم ان يتشابها اخلاقياً .. فالعناصر التي لا تحصى ، الغريبة عن جاك ، والتي يحملها هذا الطفل .. »

وأكمل فكرته بصوت منخفض :

– غريب ، اليس كذلك ؟.. ذلك العـــدد الكبير من الجدود الادنين والأبعدين ، المباشرين وغير المباشرين ، الذين ساهموا في هذه الحياة الصغيرة ! من منهم الذين سيتغلب تأثيرهم ؟ غموض .. كل ولادة هي اعجوبة جديدة؛وكل كائن هو مجموعة من العناصر القديمة ، ولكن جمعها جديد بكامله .

والولد ، بدون أن يستيقظ ، وبدون أن يحل قبضته ، طوى ذراعه فجأة امام وجهه كأنه يريد ان يختبىء من الفحص ، فابتسم انطوان وجني معـــاً . وقال لنفسه حين تراجع الاثنان صامتين إلى الطرف الآخر من الغرفة : « غريب ايضاً . مع جميع امكانات اختلافها ، تلك الامكانات التي يحملها جاك في نفسه ، فان هذا وحده – هذا المركّب هنا ، جان بول وليس غيره – وجد شكله . وخرج إلى الحياة ... »

وسألت وهي تحبس صوتها قليلاً :

ـ بماذا كان يكلمك هذا المسكين دانيال بحيوية ؟

ـ عن الحرب . . مهما فعل المرء فانه يعود دائماً إلى هذا الوسواس .

فتصلبت قسمات جني :

ـ هذا موضوع لا أطرقه ابداً معه .

ـ ابداً ؟

ـ انه في أغلب الأحيان يدلي بآراء تجعلني اخجل عنه . . اشياء يجدها في صحفه الوطنية . . اشياء ما كان جاك يحتمل ابداً ان تقال امامه .

وتساءل انطوان : « وهي ، اي صحف تقرأ اذن ؟ « الاومانيته » تذكاراً لجاك ؟ » واقتربت فجاة :

ـ مساء التعبئة . (لا ازال ارى المكان : امام مجلس النواب ، بالقرب من مرقاب حارس) قال لي جاك وهو يمسك بذراعي : « ترين يا جني ، انه ابتداءً من اليوم يجب تصنيف الناس وفقاً لقبولهم او لرفضهم فكرة الحرب!».

وظلت لحظة جامدة ؛ كانت اقوال جـــاك لا تزال ترن في داخلها . ثم تاوهت آهة مختنقة ، ودارت على نفسها وجاءت تجلس امام مكتب من الأكاجو كان باب خزانته مفتوحاً . وبحركة ، دعت انطوان لياخذ كرسياً .

فظل واقفاً ، يتفحص الصورة . كان جاك مرسوماً فيها بثلاثة ارباعه ، جالساً ، مرفوع الرأس بجرأة ، ويد متشنجة على الفخذ . وكان يوجد شيءمن التحدي في ذلك الوضع . ولكنه طبيعي . وكان جاك يحب ان يجلس هكذا . وخصلة الشعر الشقراء القائمـــة تغطي الجبهة بقساوة . (قال انطوان لنفسه : « سوف يصبح شعر الصغير فيما بعـــد قائماً ايضاً ») . النظرة المغمضة ، والفم الكبير ذو الثنيـــة اللاذعة ، والفك المتوتر كانت كلها تكسب الوجه تعبيراً متألماً ، نفوراً تقريباً . اما الأرضية فلم تكن كاملة .

واوضحت جني .

ـ انها مؤرخة في حزيران ١٩١٤ . وهي من صنع رجل انكليزي يدعى باترسون ـ الذي يحارب الآن في صفوف البلاشفة كما يبدو . وقد اخذ فانهيد

هذه الصورة عنده واعطانيها في جنيف . وانت تعرف فانهيد الصغير ،الشاحب الوجه ، صديق جاك . . وقد حدثتك عنه في رسائلي .

ومن ذكرى إلى ذكرى ، اخذت تسرد حكاية إقامتها في سويسرا (كانت تبدو سعيدة بالتحدث إلى انطوان عن تلك الامور التي تكتمها عن الجميع) وقد سار بها فانهيد إلى « فندق الكرة » وسار بها إلى مقهى « لاندول » ، وإلى « المكان » وقدمها إلى الاحياء في اجتماعات « لابارلوت » ووجدت بين هؤلاء ستيفاني مساعد جوريس القديم في « الاومانيته » (والذي عرَّفها جاك عليه في باريس) . وكان ستيفاني قد نجح في الوصول إلى سويسرا حيث أنشأصحيفة « حربهم الكبرى » . وكان واحداً من الأكثر فعالية بين هذه الجماعة من صفوة الاشتراكيين الأمميين .. وقالت وعيناها حالمتان : لقد رافقني فانهيد إلى بال ايضاً » .

وانحنت على مكتبها وفتحت درجاً مقفلاً بالمفتاح . وبحيطة ، كما يكون الامر مع ذخائر مقدسة ، اخرجت منه رزمة اوراقٍ مخطوطة . وقبل ان تعطيها لانطوان ابقتها بضع ثوان في يديها .

وارتبك انطوان واخذ الأوراق وقلبها . هذا الخط ..

« ها أنتم اليوم وجهاً لوجه ، والرصاص في بنادقكم ، مستعدون ببلاهة لقتل بعضكم البعض .. »

وفهم فجأة . كان يمسك هنا ، بين أصابعه ، الصفحات الاخيرة التي كتبها جاك عشية موته . كانت الأوراق مدعوكة ، ملأى بالشطب ، مبقعة بحبر مطبعة . وكانت الكتابة بخط جاك ، ولكنه لا يكاد يُعرف ، مشوه منالسرعة والحمّى ، تارة عنيف متساند ، وطوراً مرتجف كخط ولد :

« هل كان للدولة الفرنسية والدولة الالمانية الحق بانتزاعكم من عائلاتكم ، من عملكم ، والتصرف بجلودكم ضد مصالحكم الشخصية الاكثر وضوحاً ، ضد ارادتكم ، ضد يقينكم ، ضد الاكثر انسانية ، والأكثر نقاءً ، والاكثر شرعية في غرائزكم ! ما الذي اعطاهم هذه السلطة الشنيعة عليكم ، سلطة

الحياة والموت ؟ جهلكم ! استسلامكم ! » .

ورفع انطوان عينيه . وتمتمت جني بصوت مضطرب :

– مسودة البيان . وقد اعطانيه بلاتنر في بال .. بلاتنر صاحب المكتبة الذي كان مكلفاً بطبعه .. وقد احتفظوا بالمخطوطة و ..

– من هم ؟

– بلاتنر والماني شاب ، كابل ، الذي عرف جاك .. طبيب .. كان لي عوناً ذا قيمة اثناء الولادة . وقد جعلوني ازور الكوخ الذي سكنه جـــاك ، والذي كتب فيه هذا .. وساروا بي إلى الهضبة التي ذهب منها بالطائرة .

وانتعشت وهي تقص عليه اقامتها في المدينة الواقعة على الحدود ، الملأى بالجنود ، والاجانب والجواسيس .. واستعادت رؤية ضفاف الرين التي حاولت ان تصفها لانطوان ، والجسور المحروسة عسكرياً ، وبيت مدام ستامف القديم. وطبقة المطبخ التي سكنها جاك . والنافذة الضيقة التي تفتح على منظر فحمي لحوض السفن .. والمسافة التي قطعتها حتى الهضبة مع فانهيد وبلاتنر وكابل في عربة اندريجوف المهتزة ، نفس العربة التي سارت بجاك إلى مكان الموعد مع مينستريل .. وكانت لا تزال تسمع صوت بلاتنر الحلقي يوضح : « هنا تسلقنا المنحدر .. وكان الوقت ليلاً .. وهنا ، نمنا بانتظار الفجر .. وهنا في تجويف القمة ظهرت الطائرة .. ووقفت هناك .. وصعد اليها تيبو .. »

وتأوهت :

– ماذا فعل ، بماذا كان يفكر اثناء ذلك الانتظار على الهضبة ؟ يقولون انه ابتعد عنهم .. وانه تمدد وحده في احدى النواحي .. ويبدو انـــه شعر باقتراب اجله . فماذا كانت افكاره الاخيرة ؟ لن اعرف ذلك ابداً .

وانطوان ، ونظره منجذب نحو الصورة ، كان يفكر هو أيضاً ، وهو يصغي الى المرأة الشابة ، بتلك السهرة على الهضبة وبوصول تلك الطائرة المشؤومة – وبتلك التضحية الحمقاء ! كان يفكر بعدم الفائدة الفاجع لهذه البطولة ولكثير غيرها .. وبعدم فائدة جميع البطولات تقريباً . وعاد إلى ذهنه عشرون تذكاراً

عن الحرب . جليلة على غير طائل . وكان يفكر : « هناك بصورة دائمة خطأ في الحكم موجود في اساس هذه الجنونيات الباسلة ! ثقة وهمية ببعض القيم التي لم يجر التساؤل ببرودة إذا كانت تستحق هذا الانكار السامي للذات .. » لقد كان يعبد النشاط والارادة ـ حتى الوثنية ـ ولكن طبيعته اصبحت تكره البطولة ؛ وأربع سنوات من الحرب مكنت هذه الكراهية . لم يكن يحاول أبداً ان يقلل من أهمية عمل اخيه . فقد مات جاك دفاعاً عن معتقداته ؛ كان منطقياً مع نفسه حتى التضحية. ونهاية كهذه لا يمكن ان توحي سوى الاحترام. ولكن في كل مرة يفكر انطوان « بافكار » جاك كان يصطدم دائماً بذلك التناقض الاساسي : كيف ان اخاه الذي كان يكره العنف بجميع قوى مزاجه وذكائه ـ (أو لم يكن قد برهن على ذلك البغض العميق ، عندما لم يتردد بالمجازفة بحياته في الكفاح ضد العنف ، لكي يبشر بالاخوة وبعرقلة الحرب ؟) ـ كيف استطاع طوال سنوات انيناضل لأجل الثورة الاجتماعية ، أي مساندة اسوأ عنف ، العنف النظري المحسوب ، الحقود لآباء المذهب ؟ وقال لنفسه : « وعلى كل حال فان جاك لم يكن كثير السذاجة ، ولم يكن كثير الاوهام حول طبيعة الانسان ليعتقد ان الثورة الكلية التي يأمل بها يمكن ان تحدث دون مظالم دامية ، دون تقدمة ضحايا لا يحصى عددها ككفارة ».

ونظراته ، وقد انقطعت عن استجواب وجه الصورة اللغزي، عادت تستقر على وجه جني . كانت تتابع قصتها ببساطة ، وحمية داخلية رائعة غيرت وجهها . وقال لنفسه : « بعد كل شيء ، فاني لم اقم ابداً بما يخولني حق مقاضاة اولئك الذين يقذف بهم ايمانهم إلى العمل النهائي .. اولئك الذين يملكون الجرأة على محاولة المستحيل » .

واضافت جني بعد صمت قصير :

ـ هناك أمر يعذبني اكثر من غيره ، هو التفكير بانه لم يعلم انه سيكون لي طفل .

وكانت وهي تتكلم قد استعادت الأوراق واعادتها إلى الدرج . وصمتت من

جديد بضع ثوان . ثم كأنها استمرت في التفكير بصوت مرتفع (وكان انطوان يعرف انها ترضى إلى النهاية عن هذه الثقة) :

– انا سعيدة كما تعلم لأن الصغير ولد في بال ، هناك حيث عاش والده ايامه الاخيرة ؛ هناك حيث عاش ، بدون شك ، الساعات الأكثر حدة في حياته ..

كل مرة تستحضر فيها ذكرى جاك ، فان زرقة حدقتيها كانت تدكن لاشعورياً ، ويجتاح صدغيها قليل من الاحمرار ، ويظهر على الوجه كله ، تعبير خاص ، محتدم ، لا يشبع ، يتلاشى على الأثر . وقال انطوان لنفسه : « لقد طبعها هذا الحب بطابعه إلى الابد » . وكان غاضباً من ذلك ، ودهش من هذا الغضب . ولم يكن يستطيع الامتناع عن التفكير : « حب مستحيل » . فالحب بين هذين الكائنين المصنوعين احدهما للآخر بشكل سيء وظاهر لا يمكن ان يكون سوى سوء تفاهم سوء تفاهم . . لم يكن ليدوم دون شك ، ولكنه يمتد الآن في الذكرى التي تحفظها من جاك ويدخل في كل ما تقوله عنه ! » (كانت هذه فكرة يتمسك بها : فهناك ، في أساس كل حب شديد ، وبقدر محتوم ، سوء تفاهم ، وهم سخي ، خطأ في الحكم ؛ مفهوم خاطىء بأن احدهما خُلق للآخر . وبدون ذلك ما كان يمكن ان يتحابا بشكل اعمى) .

وقالت :

– ان الواجب الذي بقي لي ثقيل . ان اصنع من جان – بول ما كان جاك يريد ان يصنعه من ولده . وبين وقت وآخر هذا يخيفني . .

ورفعت الجبهة ، ومر في نظرتها ألق من الكبرياء . كانت تبدو انها تفكر : « ولكن لي ثقة بنفسي » . وقالت :

– ولكني اثق بهذا الصغير .

وشاقه ان يراها كثيرة الشجاعة ، كثيرة الاقدام في وجه المستقبل . ووفقاً لنبرة بعض الرسائل ، فانه كان ينتظر ان يجدها أكثر تردداً وأكثر قابلية للجرح واقل استعداداً لمهمتها . وتأكد بسرور انها استطاعت التخلص من تأثير اليأس ؛

وبأنها لم تكن كبعض النساء اللواتي تعرضن للتجربة ، فتقدم نفسها طعاماً للمصيبة لترتفع بحبها المحطم ، بنظرها وبنظر الجميع . كلا . فقد قامت بالتجديد الشافي لحياتها ، واستعادت سيطرتها على نفسها بنشاط ، واخذت على عاتقها قيادة حياتها . وأسمعها كم ان موقفاً كهذا يوحي اليه الاحترام :

– في هذا قد اظهرت قوة سجيتك .

وكانت تسمعه صامتة ، ثم قالت بكثير من البساطة :

– ليس لي اية مزية . والذي ساعدني بشكل ملحوظ كما اعتقد ، هو انه لم يكن لنا حياة مشتركة ، جاك وانا . وموته لم يغير شيئاً في عادات حياتي اليومية .. نعم . في البدء على الأقل ، فقد ساعدني هذا .. وبعد ذلك ، كان الصغير . وقبل ولادته كان وجوده يسندني. فحياتي كانت لا تزال تحتفظ بهدف: تربية الولد الذي تركه جاك لي ..

وصمتت من جديد ، ثم تابعت :

– انها مهمة صعبة .. فتلك الطبيعة الصغيرة يحتاج تحريكها إلى دقة كبيرة ! هذا الصغير يخيفني احياناً – وشملته بنظرة فاحصة ، شبه مرتابة – من الطبيعي ان يكون دانيال قد حدثك عنه .

– عن جان بول ؟ كلا ، ليس بشكل خاص .

وشعر حالاً ان الاخ والاخت لم يكن حكمهما واحداً حول طباع الولد . وان هذا الاختلاف في الرأي خلق بينهما نقطة خلاف .

– يعتقد دانيال ان جان بول يشعر بلذة في عدم الطاعة . وهذا ظلم . هذا خطأ . ان الامر اكثر تعقيدا من ذلك . وقد فكرت فيه جيدا . صحيح ان هذا الولد يقول : كلا ، بدافع الغريزة . ولكنها ليست ارادة سيئة : انها حاجة إلى المعارضة . اريد ان اقول : حاجة إلى اثبات وجوده . شيء ما كالحاجة إلى ان يبرهن لنفسه انه موجود .. وهذا ، بشكل ظاهر جدا ، تعبير عن قوة داخلية لا تقاوم ، ولا يمكن ان نحقد عليه بسببها .. انها غريزة فيه كغريزة البقاء ! وانا في اغلب الاحيان لا اجرؤ على معاقبته .

كان انطوان يصغي بانتباه لاهٍ . واتى باشارة استحسان لتشجيع جني على المتابعة . فقالت بابتسامة مطمئنة واثقة :

– اتفهمني ؟ انت المعتاد على الأولاد ، من المحتمل الا يدهشك هذا .. أما انا ، فأمام هذا الطبع الحرون اشعر انني أمام لغز .. نعم : في اغلب الاحيان، اراه يعصاني ، بنوع من الذهول ، من الدهشة الخائفة . واذهب إلى حد القول! من الاعجاب – كما انظر اليه وهو يكبر ، وينمو ، ويفهم .. وإذا كان وحده في الحديقة وسقط ، فانه يبكي ، ولكن نادراً ما رأيته يبكي إذا اصابه اذى بحضور احدٍ منا .. انه يرفض الملبّس الذي اقدمه له ، بدون أي سبب مفهوم ، ولكنه يعود في الخفاء ويسرق العلبة ، ليس بدافع البطنة ، انه لا يحاول حتى ان يفتحها ، بل يذهب ويخبئها تحت وسادة اريكة ، أو يخفيها في كومة الرمل التي صنعها . لماذا ؟ .. لمجرد الرغبة البسيطة ، كما اعتقد ، في ان يقوم بعمل استقلالي .. وإذا وبخته يسكت : كل عضلاتــه الصغيرة تتصلب من التمرد ، وتغير نظرته لونهـــا وتتفرس بي بشكل قاس بحيث لا أجرؤ على الاستمرار . نظرة لا تتبدل .. ولكنها أيضاً نظرة صافية ، منفردة .. نظرة تفرض نفسها علي ! نظرة جاك الطفل ، دون شك .

– وربما نظرتك انت يا جني .

فأبعدت هذا الافتراض بحركة من يدها وتابعت على الاثر :

– يجب ان اقول انه إذا قاوم كل مضايقة ، فانه مقابل ذلك يخضع لأقــل حركة حنان .. وهكذا اثناء حالة استياء ، فان كل شيء يسلم حين اتوصل إلى اجتذابه بين ذراعي : يخفي وجهه في عنقي ، ويقبلني ويضحك : ذلك كأن شيئاً قاسياً يحمله في نفسه قد استرخى وذاب فجأة .. كأنه تخلص فجأة مــن شيطانه !

– يجب ان يكون اكثر عصياناً مع جيز .

فقالت بتشدد فجائي :

– ليس الشيء نفسه . فالعمة جي ، انها عاطفة . منذ ان توجد فلا يعود

لشيء حساب !
– هل تحصل منه على ما تريد ؟
– اقل مني أو من دانيال . لا يستطيع الاستغناء عنها ، ولكن ذلك لكي يخضعها لجميع نزواته ! والخدمات التي يتطلبها منها هي على العموم تلك التي لا يتطلبها من أحد غيرها ، بدافع الكبرياء ، كأن تفك له ازرار سرواله أو ان تتناول شيئاً لا يستطيع الوصول اليه بالنسبة لصغره . ولو لم اكن موجودة لما شكرها ابداً ! يجب ان تسمع بأية هيئة يأمرها ! حتى ليظن – وقاطعت نفسها هنيهة قبل ان تتم فكرتها : – ان ما اقوله هنا ليس لطيفاً بالنسبة لجيز ، ولكنني اعتقد انه صحيح ؛ قد يتبادر إلى الذهن ان جان بول قد اشتم فيها انها عبدة بالولادة .
وانطوان الذي اقلقته هذه الكلمات الاخيرة تأمل جني بانتباه استفهامي . ولكنها تجنبت نظرته . وبما ان جرس الغداء اخذ يقرع في تلك اللحظة فانها نهضت .
واقتربا معاً من الباب . كانت جني تبدو راغبة بقول شيء . ووضعت يدها على القفل ، ثم سحبتها . وتمتمت :
– لقد افادني هذا . فمنذ عودتي من سويسرا لم استطع الكلام مع احد عن جاك .
فجازف انطوان ، متذكراً مسارات وحسرات الفتاة :
– ولماذا لا تفعلين ذلك مع جيز ؟
كانت جني واقفة ، منخفضة العينين ، والكتف مستند إلى اطار الباب ، وبدت انها لم تسمع ، ورددت اخيراً :
– مع جيز ؟
كأن الصوت ظل بضع ثوان حتى وصل اليها .
– جيز هي الوحيـــدة التي باستطاعتها فهمك .. كانت تحب جاك . هي أيضاً شديدة الحزن .

وهزت جني رأسها دون ان ترفع جفونها ، كانت تبدو انها تريد التفلت من كل استيضاح . ثم تطلعت إلى انطوان ، وقالت بقساوة غير منتظرة : جيز ؟ لها مسبحتها ! وهذه تشغل أصابعها ، تساعدها على ان لا تفكر ! وحنت رأسها من جديد ، واضافت بعد دقيقة : – اني احسدها احياناً !

ولكن النبرة ، وجلبة حلقية شبيهة بضحكة مجهضة ، كانتا تكذبان كلامها بعنف . وبدت على الأثر آسفة على ما قالت ، وتمتمت بصوت ملطف وبلهجة صادقة :

– انت تعلم يا انطوان ان جيز اصبحت صديقة حقيقية لي . وحين افكر بمستقبلنا فانها تحتل فيه مكاناً كبيراً . انه نوع من التعزية لي ان آمل انها ستبقى معنا دائماً دون شك ..

وكان انطوان ينتظر كلمة « ولكن » التي اتت فعلاً بعد تردد قصير :

– ولكن جيز هي كما هي . اليس كذلك ؟ لكل امرىء طبيعته .. ان لجيز صفات عظيمة . ولجيز عيوبها ايضاً – وصرحت بعد تردد جديد : – مثلاً ، جيز ليست كثيرة الصدق .

– جيز ؟ بنظرتها الكثيرة الاستقامة !

كانت أول حركة لأنطوان هي ان يعترض . وبعد التفكير ، استشف ما ارادت جني ان تقوله ، فجيز ، بدون ان تكون كاذبة ، تحتفظ فعلا ببعض الأفكار السرية : كانت تتجنب ان تؤكد ما تفضله وما تنفر منه ؛ وتتهيب الاستيضاحات ، وتعرف ان تسكت حقداً ، وان تبدو دون جهد مبتسمة ، خدومة مع اولئك الذين تحبهم أقل من غيرهم . خجل رصانة ؟ مداجاة ؟ أو بالاحرى مداهنة اولئك السود الغريزية ، حيث يجري في شرايينها قليل من دمهم – دفاع طبيعي لأعراق استعبُدت طويلا ؟ « عبدة بالولادة » .

وصحح على الأثر :

– اجل ، اجل ، افهم .

– اذن فأنت ترى لماذا ، رغم مودة كبيرة جداً ، ورغم إلفة يومية .

اجل .. رغم كل شيء .. يوجد مواضيع لا استطيع أن أطرقها معها .. ـ واعتدلت ـ ابداً مطلقاً .

وبحركة حية فتحت الباب ، كأنها تضع نقطة النهاية للحديث :

ـ هيا الى المائدة .

٩

كانت لوازم المائدة موضوعة في الخارج تحت مدخل المطبخ .

وكان الفطور سريعاً . ولم يكن لدى جني اية شهية . وانطوان الذي فاته وقت علاجه قبل الطعام ، كان يلتهم بصعوبة . وكان دانيال هو الوحيد الذي شرّف لحم العجل بالجلبّان ، الذي طبخته كلوتيلد . كان يأكل صامتاً ، لامبالياً ولاهياً . وفي نهاية الطعام ، وبمناسبة ملاحظة من انطوان حول روميل « والمجندين في المؤخرة » خرج فجأة عن صمته ليندفع في تبرير ضارٍ « للانتهازيين » (الوحيدين الذين عرفوا ان يوصلوا الحوادث الى مستوى الانسان) .. وذكر كمثل ، وبإعجاب ضاحك ، التقدم الذي ناله معلمه القديم « ذلك اللص العبقري لودفيكسون » الساكن في لندن منذ بدء الغزو والذي زاد ثروته عشرة أضعاف ، كما يؤكدون ، اذ اسس بمساعدةٍ مريبة من اصحاب المصارف في المدينة ، وبعض السياسيين الانكليز ، شركة مغفلة لكربير الاوكسيجين . شركة ش ـ ك ـ م الشهيرة .

« نعم ، فيما بعد سيشبه امه شبهاً غريباً » . كان انطوان يقول ذلك لنفسه ، مندهشاً لرؤيته مقدار تبدل جسم جني في هذه السنوات الأربع . الامومة ، والرضاع أنميا الخصرين والنهدين وكثّفا قاعدة العنق . ولكن هذا الثقل لم يكن كريهاً ؛ كان يصلح ما زال باقياً من التشدد البروتستانتي في هيئتها ، وفي هيئة الرأس ، وحتى في الرقة الجافة قليلاً في القسمات . كانت النظرة لا تزال هي نفسها : لا يزال لها ذلك التعبير عن الوحدة ، والشجاعة الصامتة ، والشقاء ، والذي طالما حيّر انطوان فيما مضى ، للمرة الأولى حين رآها طفلة

أثناء هرب أخيها وجاك .. وكان يقول لنفسه : « ولكن رغم كل شيء فانها تبدو الآن اكثر راحة في شخصها .. وانا مندهش من الجاذبية التي مارستها على جاك .. كم كانت مقيتة في السابق ! ذلك المزيج غير المريح من الخجل والكبرياء .. ذلك التحفظ الجليدي ! وهي الآن على الأقل لا تعطي ذلك الانطباع بأنها تقوم بجهد فوق طاقة البشر لتعطي شيئاً منها للغير .. في هذا الصباح حدثتني حقيقةً بثقة .. نعم ، وكانت بالحقيقة كاملةً معي هذا الصباح . اوه ! ليس لديها ابداً كياسة ووداعة امها .. كلا : يوجد دائماً في ذلك النوع من التمييز الذي لديها ، شيء لا أعرفه ، ويبدو انه يقول : « انا لا أسعى إلى الظهور . لا أهتم بالإرضاء . اني اكتفي بنفسي » .. بعيد عن جميع الأذواق . وهذا لن يكون ابداً النموذج الذي اريده .. لا يمنع : لقد ربحت كثيراً » .

كان المتفق عليـــه ان يرافق انطوان جني إلى المستشفى ، حالما ينتهي الفطور ، ليزور مدام دي فونتانان .

وبينما كان دانيال يتناول قهوته ، متمدداً على مقعده الطويل ، صعدت جني لتوقظ جان ـ بول ؛ فاغتنم انطوان الفرصة ليذهب هو ايضاً الى غرفته ويقوم بعملية استنشاق سريعة : كان يتهيب متاعب النهار .

وكان من عادة جني ان تقطع المسافة على الدراجة . فأخذت دراجتها لتكون معها عند العودة . وسارت على الاقدام مع انطوان خلال الغاب .

وجازف انطوان ، منذ ان اجتازا الحديقة وبلغا الشارع :

– يبدو لي دانيال متغيراً كثيراً . فهل صحيح انه لا يشتغل ابداً ؟

– مطلقاً .

كانت النبرة مشحونة باللوم . وقد لاحظ انطوان أثناء فترة الصباح وأثناء الطعام بعض الدلائل على سوء التفاهم بين الاخ والاخت . وقد دهش من ذلك ، متذكراً الملاطفات التي كان دانيال يغدقها في الماضي على جني . وتساءل اذا كان دانيال لم يتهاون على هذا الصعيد ايضاً .

ومشيا بضع دقائق صامتين . وكان ورق الزيزفون النابت حديثاً يلقي على الأرض طلاً مبذوراً ببقع ساطعة . والهواء ، تحت هذه الاشجار القديمة كان ثقيلاً ورخواً كما يكون قبل المطر ، مع ان السماء كانت صافية .

وقال رافعاً رأسه :

ـ أتشمّين ؟

هناك فوق سور حديقة ، سياج من اللبلاب ذو زهور تعبق رائحتها .

وتابعت دون ان تعلق اهتماماً على اللبلاب :

ـ بامكانه لو اراد ، ان يكون ذا فائدة في المستشفى . وقد طلبت منه والدتي عدة مرات ، فيقول : « مع قدمي الخشبية لا أصلح لشيء ! » ولكن هذا ليس سوى ذريعة . ـ وبدلت اليد الممسكة بالمقود لتقترب من انطوان : ـ والصحيح انه لم يكن ابداً جديراً بعمل شيء ذي قيمة للآخرين . والآن أقل من اي وقت .

فقال انطوان لنفسه : « انها غير عادلة . كان يجب ان تعلم انه يهتم بالطفل بملء رضاه » .

وكانت جني قد صمتت . ثم قررت بقساوة :

ـ لم يكن لديه أبداً أي حس اجتماعي .

كانت الكلمة غير منتظرة . ولاحظ منزعجاً : « انها تعزو كل شيء الى جاك . وهي الآن تقاضي اخاها بالنسبة الى جاك » .

وقال بكآبة :

ـ تعلمين ان المرء عندما يكون ناقصاً يستحق ان يتأسف عليه الناس .

ولم تكن تفكر بسوى دانيال . فأجابت بشراسة :

ـ كان من الممكن أن يُقتل ! مم يشكو ؟ انه لا يزال حياً .

وتابعت على الأثر دون أن تعي قسوتها :

ـ ساقه ؟ انه يعرج عرجاً خفيفاً جداً .. ما الذي يمنعه من مساعدة امي في

مسك دفاتر المستشفى ؟ أو حق ، اذ لم يشعر بالرغبة في أن يكون مفيداً للجماعة ..

ففكر انطوان : « كلمة اخرى ايضاً جاءت من جاك » .

— .. ما الذي يمنعه من العودة الى الرسم .. كلا . كما ترى ، هناك شيء آخر . ليست المسألة مسألة صحة ، انها مسألة طبع .

وجعلتها حمّاها تزيد من سرعة سيرها بدون ان تشعر . وضاق نفس انطوان ، ففطنت وخففت السير .

— كان دانيال دائماً يرى الحياة سهلة .. كان كل شيء مديناً له ؛ واليوم ، وبكل حماقة ، فقد اصيب بزهوه . فهو لا يخرج ابداً من الحديقة ، ولا يذهب ابداً الى باريس ، لماذا ؟ لأنه يخجل من اظهار نفسه . ولا يقوم بعمله لأنه مضطر الى الاقلاع عن « نجاحاته » السابقة ! ولأنه لا يستطيع ان يعيش الحياة التي كان يعيشها ! حياته كشاب جميل ! حياته الفاسقة ، حياته الخليعة قبل الحرب !

— انت قاسية يا جني .

فنظرت الى انطوان الذي كان يبتسم ، وانتظرت ان تتلاشى هذه الابتسامة لتصرح بنبرة قاطعة :

— اني اخاف على صغيري !

— على جان بول ؟

— نعم . فقد افهمني جاك أموراً عديدة .. اني اختنق الآن في هـــذا الوسط — الذي ليس هو محيطي ! ولا استطيع قبول فكرة ان جان بول مدعو للنشأة في هذا الجو !

فرفع انطوان جذعه قليلاً كما لو انه لم يفهم . فقالت :

— اقول لك كل هـــذا لأنني اثق بك . لأنني ساكون بحاجة الى نصائحك فيما بعــد ... اني احب والدتي حبـــاً عميقاً . واعجب بشجاعتها ، وكرامة حياتها . ولا أنسى ما فعلته من اجلي .. ولكن

ماذا استطيع بشأنها ؟ ليس لدينا اية فكرة مشتركة حول أي شيء ! ومن الواضح أنني لست الفتاة التي كنتها عام ١٩١٤ . ولكن أمي تغيرت كثيراً هي ايضاً ! ها قد مضت اربع سنوات وهي على رأس هذا المستشفى ؛ اربع سنوات وهي تنظم ، وتقرر ، ولا تعمل شيئاً آخر سوى اصدار الأوامر ، وان تُحترم وتُطاع .. لقد اصبحت راغبة في السلطة ، هي .. واخيراً لم تعد هي نفسها . وأؤكد لك .

فرسم انطوان حركة مراوغة ، قليلة التصديق بشكل مبهم . وتابعت جني :

– كانت امي كثيرة التسامح ، كثيرة التدين . لم تكن تحاول ابداً أن تفرض على الآخرين وجهة نظرها . واليوم ! لو كنت تسمعها وهي تلقن مرضاها التعليم المسيحي ! والأكثر طاعة دائماً هم الذين يحصلون على أطول مدة للنقاهة ..

فردد انطوان :

– انت قاسية ، غير عادلة دون شك .

– ربما .. نعم .. ربما كنت مخطئة بان اقص عليك كل هذا .. لا أعرف كيف اجعل نفسي مفهومة .. خذ مثلاً : تقول أمي : « ابطالنا » .. وتقول امي : « البوش » ..

– نحن كلنا !

– كلا . ليس بنفس الطريقة .. جميع الجرائم التي ارتكبت منذ اربع سنوات باسم الوطنية تبررها أمي ! تستصوبها ! وأمي مقتنعة أن قضية الحلفاء هي الوحيدة الطاهرة ، الوحيدة العادلة ! ويجب أن تدوم الحرب ما دامت المانيا موجودة ! والذين لا يفكرون مثلها هم فرنسيون أردياء ... والذين يبحثون عن أصول الشر الحقيقية ، ويجعلون الرأسمالية مسؤولة عن هذا ، هم . . .

كان يصغي اليها بدهشة . ان ما كشفته هذه المسارّات عن حالة جني

الروحية ، وعن نظرتها الى العالم ، وعن هذا السلّم الجديد للقيَم الذي اختارته تحت تأثير جاك بعد وفاته ، قـــد أثار اهتمام انطوان أكثر من التغييرات التي طرأت على طباع مدام دي فونتانان . وكان راغباً في أن يقول بدوره : « إني خائف على هذا الصغير ! » لأنه كان يتساءل بقلق إذا كان هذا التطور عند جني (الذي لا يمكن أن يكون ، حسب نظره ، سوى مختلق وسطحي) لا يُخشى منه أن يخلق حول جان بول جواً خطراً ، وأكثر خطراً على كل حال . لأجل تنمية دماغ فتي ، من مَثل الخال دان العاطل عن العمل ، أو من الوطنيـــة المتطرفة ذات النظرة القصيرة عند الجدة .

وأطلاّ على المستديرة المشمسة التي يُشاهَد منها مدخـــل دارة تيبو . وانطوان اللاهي رغماً عنه كان يجيل نظره في هذه الأماكن التي بدا له أنه عرفها من ماض بعيد ، في حياة سابقة .

ومع ذلك فإن كل شيء ظل كما كان بدون تغيير : الجـــادة العريضة ذات الجوانب التي يحدها فقط منظر القصر الاحتفالي ؛ والساحة الصغيرة بحوضها المستدير ونوفرتها المائيـــة أيام الآحاد ، ومساكب ازهارها المغطاة بالعشب وحواشيها من أشجار البقس ، وأسوارها البيضاء . وهناك في أسفل ، يختبىء تحت الأغصان المنخفضة لأشجار الحديقة الوالدية ، حاجز الخدمة حيث كانت جيز وهي طفلة تأتي لتترقب مجيئه . هنا ، يبدو ان الحرب لم تمس شيئاً .

ووقفت جني قبل أن تجتاز الساحة :

– ان أمي ، منـــذ اكثر من ثلاث سنوات ، تعيش على اتصال دائم بآلام الحرب . ويبدو أنها غير قادرة على أن تتأثر ما دامت حساسيتها قد قست وهي تقوم بهذه المهنة المنغصة .

– مهنة الممرضة ؟

فقالت بقساوة :

– كلا . المهنة التي تقضي بالاعتناء بشفاء شبان لسبب وحيد هو أن يستطيعوا العودة من جديد ليُقتلوا ! كما يخيطون من جديد خيول مصارعي الثيران المبقورة

البطن قبل أن تطلق ثانية" في الميدان . — وخفضت جبهتها ، والتفتت فجأة نحو انطوان بخجل متأخر : هل صدمتك ؟

— كلا ..

ودهش هو نفسه من تلقائية هذه الـ « كلا » ؛ دهش لإدراكه أنه كان اليوم بعيداً إلى ما لانهاية له عن وطنية واحدة كمدام دي فونتانان أكثر مما هو بعيد عن نفور وغضب واحدة كجني . وردد لنفسه مرة أخرى ، مفكراً بأخيه : « لكم أفهمه أفضل من السابق ! » .

ووصلا الى السور الحديدي .

وتأوهت ؛ وأسفت لأن نزهتها بلغت نهايتها . وابتسمت له بمودة :

— شكراً . حسن جداً ان يستطيع المرء ، ولو مرة ، أن يتكلم بقلب مفتوح .

١٠

ان سور الدارة المصنوع جيداً (بطغرائه المؤلفة من حرفي .O. T . والتي لم لم يذهب الزمن بطلائها الذهبي الا قليلاً) كان مفتوحاً . وعجلات عربات الاسعاف حفرت آثاراً في الممشى ، حيث لم يبق أي أثر للحصى الدقيقة التي كان السيد تيبو يأمر بجرفها كل يوم . ومعظم نوافذ البيت كانت مفتوحة ايضاً ، حيث تشاهد الواجهة المشمسة من بين الأغصان ، والمزينة ببهجة ، بستائر حريرية ذات خطوط حمراء .

وقالت جني حين وصلا الى أمام ابواب المرائب القديمة :

— هنا مكاني كوكيلة على البياضات . اني اتركك . فاجتز الشرفة وادخل الى اليمين ، الى المكتب ، وستجد أمي فيه .

وظل وحده ، فوقف بضع ثوان ليتنفس . كل دغل ، كل منعطف ممشى كان يستقر نظره عليه يصبح مألوفاً لديه حالاً . وأصوات البيانو التي كانت تصل اليه على دفعات ، أثارت فجأة رؤية ماضيه : جيز جاثمة على مقعد صغير ،

وضفيرتها على ظهرها ، متلجلجة بالسلّم الموسيقي تحت مراقبة مزدوجة من المدموازيل العجوز ومن آلة تدل على سرعة الحركة الموسيقية ، ذات ايقاع إلزامي .

ومن خلال الاشجار المتلاصقة شاهد أمام الدارة حركة سوق خيرية ، شبان يعتمرون قبعات الشرطة ويرتدون الفانيلا الرمادية ، مصفوفون على الدرجات المسطحة ، يتحادثون في الشمس . وآخرون مجتمعون حول طاولات حديقة يلعبون بالورق أو يقرأون الصحف . وجنديان بدون سترات ، وببنطلونات زرقاء لبزات رسمية وبعصائب جلدية ، كانا يقطعان عشب الارض الخضراء . وعرف انطوان الصليل المغيظ لآلة قص العشب . وابعد من ذلك ، تحت أشجار الزان ، نصف دزينة من الناقهين كانوا يشخرون حول لعبة البرميل القديمة . وكان يسمع رنين الحجر المسطح على الضفدعة البرونزية .

ولدى اقتراب هذا الماجور الغريب ، فان الرجال المتمددين على الدرجات نهضوا ليؤدوا التحية العسكرية . واجتاز انطوان الدرج . كانت الشرفة مزججة كلها ومحولة الى حديقة شتوية ، مسدودة ، وفاترة كأنها مستنبت دافيء[1] . هنا كان يأتي ويتمدد المرضى الذين لا تسمح لهم حالتهم بعد بالخروج . وإلى الشمال يقوم البيانو التي كانت جيز تتمرن عليه وهي طفلة . وهناك جندي جالس إلى المفاتيح يبحث فيها باصبع مبتدئة عن لازمة « لاماديلون » .

وصمت البيانو ، وارتفعت أيدٍ لتحية مرور الماجور . ودخل انطوان إلى الصالون . كان مقفراً في تلك الساعة . وقد اتخذ مظهر باحة كبيرة في فندق : مقاعد وكراسي كانت متجمعة حول اربع طاولات لعب .

وكان باب غرفة السيد تيبو مقفلاً . وعلى كرتونة مثبتة بمسامير ذات

---

١ – مستنبت دافيء Une serre : المقصود هنا بناء زجاجي تستنبت فيه نباتات البلاد الحارة التي لا تتحمل البرد .

طبعات ، قرأ : « امانة السر » . ودخل . في بادىء الأمر لم ير أحداً . كانت الغرفة محتفظة بأثاثها : والطاولة الكبيرة من خشب السنديان ، والكنبة ، والمكتبة ، كانت متربعة بشكل احتفالي في أماكنها الخاصة . ولكن الغرفة كانت مقسومة إلى قسمين بحاجز منشور . وعلى جلبة الباب توقفت آلة كاتبة وبرز رأس سكرتير شاب من فوق الحاجز . وما كاد يتصفح وجه القادم الجديد حتى هتف بسرور :

– السيد الدكتور .

وابتسم انطوان محتاراً . انه والحق يقال لم يعرف ابداً الغلام الكبير الذي جاء اليه ؛ ولكنه يجب أن يكون لولو ، اصغر اليتيمين في شارع فرناي ، الغلام الذي عالجه في الماضي من دمل في ذراعه . (عندما ترك انطوان باريس في بدء الحرب أوكل أمر الولدين الى كلوتيلد وادريان . وتذكر بشكل مشوش انه علم أن مدام دي فونتانان وجدت لهما عملاً في المستشفى) . وقال :

– ذلك لأنك كبرت ! كم عمرك الآن ؟

– من (قرعة) عام عشرين يا سيدي الطبيب .

– وماذا تفعل هنا ؟

– بدأت بأن كنت موزع رسائل وحوالات . والآن فاني أقوم بالكتابة .

– وأخوك ؟

– في شامبانيه .. وكان قد جرح . هل رأيته ؟ في يده . في نيسان عام ١٩١٧ ، بالقرب من فيسم . هل تعرفها ؟ وكان قد تطوع عام ١٦. وقطعوا له هذين الاصبعين .. ومن حسن الحظ أنها اليد اليسرى .

– وعاد إلى الجبهة ؟

– اوه ، انه يعرف كيف يتملص . وقد تخصص في علم الظاهرات الجوية . وهو لا يتعرض لأي خطر .

كان لولو ينظر إلى انطوان بفضول مشفق . وتمتم اخيراً :

– انت ، هل هو الغاز ؟

فأجاب انطوان : نعم .

واستهدف كنبة صغيرة من المخمل العقيقي ذات مسامير مذهبة ذكّرته بطفولته ، وجلس بهيئة متعبة .

واكد لولو مشنجاً حلقومه :

– الغاز ، بشع . ثم اني اجده غير شرعي ، غير نظامي .

وقاطعه انطوان :

– مدام دي فونتانان ليست هنا ؟

– لقد صعدت .. سأنبئها .. اننا بانتظار وصول جرحى جدد .. وفي كل مكان تضاف اسرة جديدة .

وظل انطوان وحده . وحده مع والده . ان شخصية السيد تيبو القوية لا تزال تسكن هذه الغرفة . انها تبرز من كل متاع ، من المكان المختار لهذه الامتعة وفقاً لاستعمال معين . – من المحبرة ذات الغطاء الفضي ، من مصباح المكتب ، من لفافة ورق نشاف ، من ممسحة الريشة ، من ميزان الطقس المعلق في الجدار . شخصية متماسكة بحيث لم يكن يكفي نقل قطعة اثاث ، او وضعية حاجز للانتصار عليها : لقد بقيت بعناد غارسة جذورها في هذه الأماكن التي ملأتها طوال نصف قرن بتفوقها المتسلط . ولم يكن على انطوان الا ان يلقي نظره على ذلك الباب من السنديان المزيف ليسمعه يفتح ويغلق بطريقة معينة لا تنسى، هي معاً مكتومة ، مدارية وعنيفة . لم يكن عليه الا أن ينتظر على الطنفسة تلك السحبة من البلى ليرى والده حالاً في سترته ذات الذيول المسترسلة ، والعينان نصف مطبقتين ، ويداه الكبيرتان المنتفختان المعقودتان بمتانة على ردفه وهو يروح ويجيء بخطوة ثقيلة ، من المكتبة إلى المدخنة . وكان يكفيه ان يتأمل هنيهة تلك النسخة من مسيح بونا Bonnat ، وتحتها تلك الكنبة الفارغة بتلك الحروف الأولى المشبكة بشكل مجوف في الجلد : لقد احيا فيها وجود السيد تيبو الفخم المكوم بتثاقل على مقعده ، الكتفان مستديران ، وهو يرفع لحيته الصغيرة نحو احد الزائرين الهامين ، وقبل أن يتكلم ، يأخذ نظارته من بين

حاجبيه ليضعها في جيب صدرته بحركة متأملة حازمة تشبه اشارة الصليب .

وجعلته جلبة القفل ينهض · ودخلت مدام دي فونتانان ·

كانت ترتدي البلوزة كممرضاتها ؛ ولكنها لا تضع خماراً على الشعر الذي اصبح ابيض تماماً · كان الوجه شاحباً هزيلاً . ففكر انطوان آليـاً « صبغة مصاب بالقلب ، ربما لن يعيش صاحبها طويلاً .. » وامسكت بكلتا يديـه واجلسته ، وراحت تجلس في الناحية الأخرى من الطاولة الكبيرة ، في الكنبة ذات الحروف الاولى · لقـد كان واضحاً ان هذا هو المكان المعتـاد « للبروتستانتية .. » (لو كان السيد المرحوم يعود .. !) .

وسألته حالاً عن صحته . وكانت تلك الدقائق القليلة من الانتظار قـد أراحته ؛ وابتسم :

– لو كنت بقيت لانتهى كل شيء .. من حسن الحظ ان الاساس متين ..

وسألها بدوره عن المستشفى ، عن الحياة التي اوجدتها لنفسها . فانتعشت حالاً .

– ليس لي اية ميزة ·· لدي مجموعة من القائمين بالعمل يستحقون الاعجاب. تحت امرة نيكول . لقـد نالت الابنـة العزيزة شهاداتها كما تعلم . وأدت الي خدمات عظيمة .. نعم . مجموعة عاملين يستحقون الاعجاب ! مؤلفون كلهم من نساء شابات وفتيات يسكنّ ميزون ، بنوع ان جميـع غرفي هي للمرضى . وممرضاتي متساهلات ، الامـر الذي يتيح لي انهـاء ميزانيتي رغم قلة المبالغ الممنوحة . ولكنني اساعد كثيراً . وكنت كذلك منذ اول يوم ! واظهرت البلاد كثيراً من الكرم ! تصور ان كل موادي من اسرة ، وطسوت ومغسلة ، وبياضات ، كل ذلك جهزه لي الجيران ! وانظر : اننا نتوقع وصول مرضى جدد .. وقد ذهبت نيكول وجيزيل تبحثان عن فرش ولوازمها · وأنا واثقة انهما ستجدان كل ما ينقصني !..

كانت عيناها المرفوعتان ، وابتسامتها المنتصرة ، المتفتحة بالشكر تبدو انها تشكر الله لانه عمر العالم ، وميزون – لافيت بشكل خاص ، بمخلوقات

خدومة وقلوب رحيمة ·

ووصفت بالتفصيل التغييرات التي أحدثت للدارة ، وتلك التي تنوي احداثها ايضاً · وفكرة أن الحرب وحياتها في المستشفى يمكن ان تنتهيا لم تكن تساورها ابداً .

وقالت بفرح : تعال وانظر ·

بالفعل ، كان كل شيء متبدلاً . قاعة البليار أصبحت ردهة للمرضى ؛ والمكتب غرفة للمعاينة ، وغرفة الحمام غرفة الضماد . والغرفة التي يوضع فيها البرتقال ايام الشتاء قد دفئت جيداً وُحولت إلى غرفة وضع فيها ١٢ سريراً براحة .

– لنصعد .

الغرف المقفرة في هذه الساعة تشكل غرف نوم صغيرة . خمسة عشر مريضاً كانوا يسكنون الطابق الأول ؛ وعشرة في الثاني ؛ وفي الطابق المليء فان نصف دزينة من الأسرة الاضافية كانت تستعمل عند الازدحام .

وشعر انطوان بفضول ليرى غرفته القديمة ، ولكنها كانت مقفلة بالمفتاح . وكانوا بانتظار مصلحة التطهير ؛ فالغرفة قد شغلها مصاب بالباراتيفوئيد ، وقد نقل هذا الصباح إلى مستشفى سان جرمان .

كانت مدام دي فونتانان تسير من غرفة إلى غرفة ، فاتحة الأبواب بسلطة رئيس مشروع ، مفتشة كل شيء بعين حذرة ، متأكدة أثناء وجودها من نظافة المغاسل ، وحرارة المشعّات (رادياتور) ، وحتى من عناوين الكتب والمجلات الملقاة على الطاولات . وبشكل متواتر ، وبحركة اصبحت عادة مضحكة . كانت ترفع معصمها وتتأكد من الساعة .

وكان انطوان يتبعها ، لاهثاً قليلاً . وكانت عبارة كلوتيلد تخب في رأسه : « لو كان السيد المرحوم .. »

في الطابق الثاني ، وقد ادخلته مدام دي فونتانان إلى غرفة مفروشة باوراق ذات زهور ، تطل نافذتها على رؤوس اشجار الكستناء ، فوقف على

العتبة ، وقد استولت عليه ذكرياته :
- غرفة جاك . .
فنظرت اليه مندهشة . وفجأة ، امتلأت عيناهـا بالدمع · وراحت تقفل النافذة . ثم قالت كأن هذه الذكرى غير المتوقعة جعلتها ترغب بحديث خـاص :
- الآن اسير بك إلى جناح الاسطبلات حيث اقمت مركز قيادتي. سنكون فيها افضل لـكي نتحدث .
وهبطا الدرج صامتين ليتجنبا المرور من الشرفة ، وبلغا الحديقة من باب الخدمة . هناك اربعة جنود في الظل يعيدون دهان اسرّة حديدية بالابيض . فاقتربت مدام دي فونتانان :
- لنسرع يا أبنائي ·· يجب أن تكون جافة غداً .. وانت يا روبله انزل من مكانك (انه رجل جاثم على افريز المطبخ يعيـد ربط فروع الياسمين) . اول البارحـــة كنت لا تزال في السرير ، واليوم تتمشق على السلالم ؟ .. — والرجل ، ملتحٍ ، يجب أن يكون من أهالي الاقليم ، وقد اطاع مبتسماً. وحين اصبح على الأرض سارت نحوه وفكت زرين من سترته وجست اضلاعه وقالت:
- من الطبيعي ان يرتخي رباطك . اذهب واظهر ذلك في غرفة التمريض - واتخذت انطوان كشاهد : - غلام أجريت له عملية ولم يمض على ذلك ثلاثة اسابيع .
وقام بدورة في الأرض الخضراء ليصل إلى الاسطبلات القديمـــة · وكان المرضى الذين يلتقون بها يلفتون نحو مدام دي فونتانان وجهاً صديقاً ويرفعون قبعاتهم البوليسية على طريقة المدنيين ·
وقالت وهي تدفع باب البناء :
- منزلي فوق .
في الطابق الارضي طاولات لأصحاب المهن تشغل امكنة الخيل ؛ وكانت الارض مغطاة بالبقايا · وأوضحت وهي تسير في درج المطحنة الصغير الموصل

إلى مسكن الحوذي القديم :

— هنا ، ما يسمونه مشغل **الحرف العديدة** . ليس عندي أي اشغال اصنعها في الخارج· فهؤلاء الأولاد الشجعان يقومون لي بجميع الاصلاحات : الترصيص ، النجارة ، الكهرباء ..

وتقدمته إلى أولى الغرفتين في أعلى البيت ، والتي جعلت منها مكتباً صغيراً ، شخصياً . وكان الاثاث مؤلفاً من مقعدي حديقة ، وطاولة عليها ملفات ودفاتر حسابات ؛ وحصير بالٍ كان ملقى على عرض البلاط . وعرف انطوان قنديله على الطاولة عند دخوله . قنديل كبير يضاء بالبترول ، يعلوه عاكس نور من الكرتون الاخضر ، وفي السابق ، في ليالي حزيران الحارة الداوية بفراشات الليل ، اعدَّ تحته كثيراً من الامتحانات بينما ينام جميع من في البيت · وكان الجدار مبيضاً حديثاً بالكلس · وقد علقت عليه بعض الصور الفوتوغرافيــة : جيروم وهو شاب ، القامة مقوسة ، ويد موضوعة على مسند كنبة من الحرير ، ودانيال ، الساقان عاريان ، بلباس بحري انكليزي ، وجني طفلة ، الشعر مسترسل ، وعلى قبضتها الممدودة حمامة أليفة ، وجني اخرى ، امرأة شابة بملابس الحداد مع ولدها على ركبتيها ·

واضطرت نوبة سعال انطوان إلى ان يأخذ مقعداً دون ان ينتظر دعوته للجلوس · وحين رفع رأسه فاجأ نظرة مدام دي فونتانان المنتبهة متفرسة به ، ولكنها لم تكوّن أية فكرة عن صحته ·

وقالت ضاحكة بدون أي دلال :

— سأغتنم فرصة زيارتك لأقدم اعمال الرفو قليلاً · لم يكن لدي أي وقت لأخيط قطبة .

ودفعت التوراة السوداء التي كانت على الطاولة لتضع مكانها سلة شغلها ، وبعد نظرة جديدة إلى ساعتها جلست · وسألت وهي تخنق آهة .

— هل حدثك دانيال قليلا ؟ هل تركك تفحص ساقه على الأقل ؟ (لم يكن دانيال يدعها ترى ساقه المبتور أبداً) .

– كلا . ولكنه حدثني عن كل شقائه .. وقد اشرت عليه ببعض التمارين المتعلقة ببعض الحركات · فبقليل من المثابرة يمكن الوصول إلى نتائج مدهشة .. إلا انه يعترف انه لا يتعب تقريباً من المشي منذ ان حصل على ذلك الجهاز الجديد .

كانت تبدو انها لم تسمع · اليدان في تجويف تنورتها ، والرأس مرفوع نحو النافذة ، وقد تركت نظرها الحالم يتوه على خضرة الحديقة ·

والتفتت فجأة :

– هل قص عليك ماذا حدث هنا في اليوم الذي جُرح فيه ؟

– هنا ؟ كلا .

فأوضحت برصانة :

– لقد تفضل الله علي وأنذرني .. في اللحظة التي أصيب فيها دانيال تلقيت الانذار من الروح .

وارتفعت يدها ارتفاعاً خفيفاً وصمتت ، مضطربة . ثم تابعت ليس بدون احتفالية في بساطتها المقصودة (كأنها كانت تتلو صفحة من الكتاب المقدس ، أو ايضاً كأن عليها واجباً تقوم به ، حاملة أمام الناس شهادة على حدوث معجزة) :

– ذلك اليوم كان الخميس. وقد استيقظت عند الفجر ، وشعرت بوجود الله ، وأردت ان اصلي. ولكني شعرت بانحراف مزاج شديد .. منذ انشاء المستشفى ، كانت تلك هي المرة الأولى التي أتألم فيها : ولم اشعر بشيء بعدها .. اردت ان اذهب وافتح نافذتي لأدعو احدى ممرضات الليل . فلم استطع الوقوف . ومن حسن الحظ ركضت احداهن حين لم ترني آتي كالعادة ، فوجدتني جامدة في سريري . وحين نهضت عدت وسقطت واصابني دوار · كنت بدون قوى ، كانني فقدت دمي بواسطة جرح . لم انقطع عن التفكير بدانيال . وصليت . ولكن حالتي ازدادت سوءاً طوال فترة الصباح · وجاءتني جني بالطبيب عدة مرات ، واعطوني شراب الأثير · لم أكن استطيع الكلام تقريباً . واخيراً

في الساعة الحادية عشرة والنصف ، بعـــد أول جرس للغداء بقليل ، صرخت صرخة لاارادية واصابني اغماء لفترة قصيرة . وما ان استعدت وعيي حتى شعرت انني افضل . افضل بشكل انني استطعت في نهاية ما بعد الظهر ان انهض وانزل إلى غرفة امانة السر ، واوقع البيانات والبريد . وانتهى الأمر

– كانت تتكلم بصوت لا يتغير ، معتدل . وصمتت قليلا قبـــل ان تتابع :

– اجل يا صديقي ، في نهار الخميس ذاك ، عند الفجر تلقى فيلق دانيال الامر بالهجوم . وطوال فترة الصباح قاتل الولد العزيز كبطل ، دون ان يجرح . ولكن بعـد الساعة الحادية عشرة والنصف بقليل فان شظية قنبلة كسرت فخذه . بعـــد الساعة الحادية عشرة والنصف بقليل .. وحمل إلى مركز الاسعاف ، ومن هناك في سيارة اسعاف حيث بُتر بعد ذلك ببضع ساعات . ونجا – وهزت رأسهـا عدة مرات وهي تنظر اليه : – كل هذا ، من الطبيعي الا أعرف به إلا بعـد عشرة أيام .

كان انطوان صامتاً . ماذا بامكانه أن يقول ؟ هذه القصة اعادت إلى ذاكرته اصابة جني بالتهاب السحايا وهي طفلة ، والتدخل «الاعجوبي» للقس غريغوري. وتذكر أيضاً كلمة كان الدكتور فيليب يقولها في بعض الأحيان مبتسماً : « ان للناس دائماً الحكايات التي يستحقونها .. »

وظلت مدام دي فونتانان بضع لحظات صامتة . وأخذت شغلها . ولكن قبل أن تبدأ الخياطة وجهت نحو صورة جني وجان بول نظارتيهـــا اللتين سحبتهما من علبتهما .

– لم تقل لي أيضاً كيف وجدت صغيرنا ؟

– رائع .

فقالت بانتصار :

– اليس كذلك ؟ دانيال يأتيني به ، من بعيد ، نهار الأحد . وفي كل مرة اجده اكثر نمواً واكثر قوة ! ويشكو دانيال من ان هذا الطفل صعب ، وغير مطيع . ولكن إذا كان لهذا الصغير طبع فكيف ندهش من ذلك ؟ وثم ، يجب

ان يكون للغلام نشاط وارادة – وقالت بمكر ؛ لا تعارضني · يستصعب علي ان لا اراه إلا في النادر · ولكنه اقل حاجة إلي من مرضاي ·

وكمجرى ماء تحول لحظة ثم وجد منحدره من جديد ، اخذت تتحدث عن مستشفاها · وكان يستصوب كلامها صامتاً ، قليل الرغبة بالاجابة لأنه كان يخشى ان يوقظ سعاله · منذ ان وضعت نظارتيها أصبحت عجوزاً · وفكر من جديد : « صبغة مصاب بالقلب »·كانت مستقيمة جداً في كنبتها وتخيط بدون سرعة في وضع مألوف ومهيب معاً ، وهي تشرح سير اعمالها والألف هم من المسؤولية التي تقوم بها ·

وفكر انطوان : « للمصيبة حسناتها · فقد وفرت الحرب لنساء من هـذا النوع وبهذا العمر ، شكلاً من السعادة لم يكن مأمولاً ، فرصة للتفاني ، للفعالية العامة ، لهذه السيطرة في جو من عرفان الجميل » ·

وكأن مدام دي فونتانان أدركت ما يجول بخاطره ، فقالت :

ـ اوه ! انا لا اشكو ! لقد اصبحت مهمتي ضرورية لي مها كانت ثقيلة : لا اظن انني سأستطيـع استعادة حياتي السابقة · انا الآن بحاجة للشعور بانني ذات نفع ـ وابتسمت ـ اتعـلم ؟ يجب فيما بعد ان تؤسس مستشفى لمرضاك : وانا أديره لك ! ـ واضافت على الاثر : ـ مع نيكول ، ومع جيزيل ، وربمـا مع جني ·· ولماذا لا ؟

فردد بجاملاً :

ـ فعلاً ، لماذا لا ؟ ..

وتابعت بعد صمت قصير :

ـ ان جني أيضاً ستكون بحاجة إلى عمل في الحياة ـ وتأوهت فجاة دون ان تحاول ايضاح تداعي أفكارها الخفي : ـ مسكين جاك . لن انسى تلك المرة الاخيرة التي رأيته بها .

وصمتت من جديد · وعادت إلى ذهنها عودتها مـن فيينا غداة التعبئة . ولكنها كانت بارعة في ابعاد الذكريات المؤلمة · وفي نفس الوقت اتت بحركة

من يدها لتبعد خصلة شعر بيضاء مست جبهتها . إلا أنها كانت عازمة على ان تطرق مع انطوان بعض المسائل التي تشد على قلبها ؛ وبدأت (بتلك النبرة الحكيمة المحبوبة التي كانت تبدو انها تقول : « لا تقاطعني ») :

– علينا أن نثق بالحكمة السامية . علينا أن نقبل بالأمور التي أرادها الله . وموت أخيك كان أحد هذه الامور . – واستجمعت لحظة قبل ان تلفظ حكمها : – كان هذا الحب منذوراً لأسوأ الآلام بالنسبة للاثنين .. عفواً لقولي لك ذلك .

فقال بحمية :

– اني افكر مثلك تماماً . لو عاش جاك لكانت حياة الاثنين جحيماً .

فشملته بنظرة راضية ، واستصوبت وهي تهز رأسها عدة مرات ، واخذت تخيط . وبعد صمت جديد سارت قُدماً :

– سوف اكذب إذا لم اعترف انني تألمت كثيراً من .. من كل هذا .. اليوم الذي علمت فيه ان ابنتي جني تنتظر مولوداً .

كان في أغلب الأحيان يفكر بها في هذا الشأن . وحين رفعت عينيها نحوه رف جفونه بهدوء ليفهمها انه يصغي اليها جيداً . فقالت ، خائفةً ان يسهو عما كانت تريد قوله :

– اوه ! ليس بسبب هذا .. بسبب شذوذ هذه الولادة .. كلا .. ليس بسبب ذلك .. كنت مرهقة ، على الخصوص بالتفكير ان هذه المغامرة الرهيبة ستترك في حياتنا هذه الشهادة ، هذه النتيجة الدائمة .. اني اكلمك بحرية ، أليس كذلك ؟ وقلت لنفسي : « هذه حيـــاة جني مقيدة الى الابد .. انه القصاص » ! اجل يا صديقي ، كنت مخطئة ، كان يعوزني الايمان . ان مقاصد الروح لا يمكن النفاذ اليها ؛ طرقها ، سرية ؛ طيبتها ، لامتناهية .. وما شعرت به انه يجب ان يكون تجربة ، عقوبة ، كان ، بالعكس ، بركة إلهية .. علامة عفو .. ينبوع مسرات .. وفعلاً ، لماذا يعاقب الله ؟ اما كان يعرف افضل منا ان الشر لم يلعب اي دور في هذا التجاذب ! وان قلب هذين

الولدين ظل نقياً وعفيفاً حتى في الخطيئة ؟

كان انطوان يفكر : « ما أغرب هذا ! كان يجب ان تزعجني بمعزل عن كل احتياط .. كلا ! يوجد فيها شيء يغتصب الاحترام لا أعرفه · أكثر من الاحترام : التعاطف .. ربما طيبتها ؟ بالاجمال فهي نادرة جداً ، الطيبة الحقيقية ، **الطبيعية** » ·

وتابعت مدام دي فونتانان بصوتها المغني الحازم دون ان تنقطع عن سحب الابرة :

– ان نصيب جني حسن . فهي تملك الآن في أعماقها كنزاً سيشرف حياتها كلها : ذكرى هبة كلية ، لحظة رائعة ؛ لا يتبعها غد مذلّ – وهذا شيء شاذ – ..

فقال انطوان لنفسه : « يوجد اناس صنعوا لأنفسهم ، مرة واحدة والى الابد ، مفهوماً مرضياً عن العالم .. وبعد ، فهذا يحدث من تلقاء نفسه . وحياتهم تشبه نزهة في زورق ، في طقس هادىء : ليس عليهم الا ان يتركوا انفسهم ينزلقون على مجرى الماء – حتى رصيف المرفأ » .

– .. وبقي لها انبل المهام : طفل لكي ..

فقاطع انطوان بحزم :

– لقد وجدتها مختلفة جداً ، شيئاً آخر . ناضجة جداً ، كلا ، ليست ناضجة .. اخيراً ، كثيرة ..

فوضعت مدام دي فونتانان شغلها على ركبتيها ونزعت نظارتيها : سأعترف لك بشيء يا صديقي : اجل ، اعتقد ان جني سعيدة ! نعم .. سعيدة بشكل لم تكنه من قبل ابداً . سعيدة بقدر ما يسمح لها ان تكون .. لأن جني لم تولد للسعادة · كانت وهي طفلة ، تعيسة بشكل عميق وما من أحد كان يستطيع لها شيئاً : فالعذاب أقام فيها . وأسوأ ايضاً : بغض النفس : لم تتوصل الى ان تحب نفسها ؛ الى ان تحب في نفسها مخلوقة الله · وروحها مع الاسف ، لم تكن متدينة ابداً · كانت روحها دائماً معبداً مهجوراً .. اجل ،

انظر الى الاعاجيب التي تصنعها الروح كل يوم فينا ، حولنا ! لكل ألم مكافأته ؛ وكل اختلال يساهم في الانسجام العام .. اليوم حلت النعمة . اليوم – وحدسي لا يخدعني – اليوم وجدت الابنة العزيزة في دورها هذا كأرملة وكأم ، كل ما تستطيع بلوغه من السعادة البشرية ، كل ما تستطيع طبيعتها ان تحققه من توازن ، ورضى . واشعر الآن انها ..

ونادى صوت من الحديقة : عمتي !

– هاهي نيكول قد عادت .

وتابع الصوت :

– ان السيد المختار (العمدة) هنا ، ويريد ان يكلمك .

وبلغت مدام دي فونتانان الباب ، وسمعها انطوان تصيح بمرح من اعلى الدرج :

– اصعدي لحظة يا عزيزتي . ستقومين بمرافقة .. واحد تعرفينه .

حين دفعت نيكول الباب توقفت مرتبكة ، متفرسة بانطوان كأنها غير متأكدة من معرفته . وشعر بقرصةٍ في قلبه فقال متلجلجاً :

– تجدينني كثير التلف ، أليس كذلك ؟

فاحمرت ، وسيطرت على قلقها وأخذت تضحك .

– ولكن كلا .. ببساطة ، لم اكن انتظر ان اجدك هنا .

لم يكونا قد رأيا بعضهما البعض ، لأنها لم تأت البارحة لتناول طعامها في البيت ، وقد ظلت الى جانب ذلك المصاب بالباراتيفوئيد والذي لم تشأ ان توكل أمره الى إحدى ممرضات الليل .

الا انها كانت متجددة الشباب . فبريق صبغتها الحليبي لم يكن قد تغير بسبب هذه الليلة التي لم تنم بها ؛ والعينان الزرقاوان لا يزال لهما دائماً ماؤهما الذي لا مثيل له .

وسألها عن أخبار زوجها الذي التقى به مرتين اثناء الحرب ، فقالت دون ان تنقطع عن ان تجيل حولها نظرها اللامع الذي كان يمتزج فيه براءة فتاة

وشهوانية مغناجة لامرأة ، بدون ان يستطاع فصلها :
– حالياً ، فان عربته العسكرية المعدة للجراحة هي على جبهة شامبانيه. شغل كثير .. ولكنه لا يزال يجد وقتاً ليكتب إلى المجلات .. وقد تلقيت هـــذا الاسبوع شغلاً لطبعه على الآلة الكاتبة .. حول الكتف أو شيء من هذا النوع .

وكان شعاع شمسي ساقطاً على استدارة الكتف التي كان قماش البلوزة يقولبها ، فيلعب في كل حركة من حركاته في ثنايا خمارها ، ويذهّب بشرة الساعد العاري المكسوة بالزغب ، ويجعل اسنانها تلمع عندما كانت تبتسم . وفكر بسرعة : « هذا ما يجب ان يوقظ الرغبات عند اولئك الشبان الناجـــين من الخطر » وقالت : – لقد اسفت البارحة لعدم تمكني من العودة إلى البيت . كيف مضت السهرة ؟ هل كان دانيال محبوباً ؟ هل نجحت في تدجينه قليلا ؟

– ولكن نعم . لماذا ؟

– انه كثير الكآبة ، كثير العبوس .

فرسم انطوان حركة مشفقة :

– انه يستحق الشفقة كما تعلمين .

فتابعت :

– يجب اخراجه من هذا وجعله يعود إلى الرسم .

كانت اللهجة جدية كأن الأمر يتعلق بمشكلة حقيقية ، وانها كانت تنتظر بالتحديد زيارة انطوان لحلها .

– تلك الحياة التي يعيشها هنا لا يمكن ان تدوم . انـــه سيصاب بالخبل ويصبح ..

فابتسم انطوان :

– لم الاحظ ذلك .

– اوه .. بلى .. سل جني . انه حقيقة صعب .. فاما انه يصعد إلى غرفته منذ ان نصل – بدافع التوحش ؟ بدافع الحرد ؟ لا أحد يعلم – وأما ان يبقى

بجانبنا دون ان يفتح فمه ؛ وعندئذ ، كأن درجة الحرارة هبطت فجـأة في الصالون ! وجوده يقلق الجميع .. أؤكد لك : ستسدي اليه خدمة عظيمة إذا اقنعته بان عليه ان يشتغل ، وان يعود إلى باريس ويرى الناس من جديد ، ويعود إلى الحياة !

فاكتفى انطوان بهز رأسه وبأن تمتم من جديد :

– انه يستحق الرثاء .

وجعله حذر غريزي يقف على اهبة الاستعداد دون ان يستطيع ايضاح السبب . شعر ان المرأة الشابة تسيرها أفكار خفية لم توضحها .

(لم يكن ذلك خطأ تماماً . فقد كان لنيكول فكرتها عن دانيال ، منذ احدى امسيات الشتاء الماضي . في ذلك النهار كان الوقت متأخراً ، وجني وجيز صعدتا للنوم . ونيكول المتأخرة لبعض الأعمال التي كانت ترغب في إنهائها ، وجدت نفسها وحيدة مع ابن عمتها أمام مدخنة الصالون. وفجأة قال: «انتظري يا نيكو، لا تتحركي!» وعلى ظهر بيان كان ملقى هناك أخذ يرسم بالقلم الرصاصي صورة جانبية لوجه نيكول . وكانت مستعدة بطيبة خاطر لهذه النزوة غير المتوقعة . ولكن في مدى برهة ، وكأنها انذرت بشعور غامض ، لفتت رأسها فجأة : لم يكن دانيال يرسم ؛ كان يغمرها بعينيه ؛ نظرة بغيضة مشحونة بالرغبة ، والغضب المتجهم ، والخجل ، وربما البغض .. وخفض جبهته حالاً ، ودعك البيان بعنف وألقاه في النار . ثم ترك الغرفة دون أية كلمة . وكانت نيكول قد قالت لنفسها ، منزعجة : « اذن هكذا ! لا يزال يحبني » . لم تكن قد نسيت شيئاً من الزمن البعيد حين كانت تسكن عند عمتها في باريس ، وحين كان دانيال يافعاً يلاحقها كالممسوس ، في جميع زوايا البيت . ذلك الحب الجنوني على غير طائل والذي كانت تظن انه تلاشى منذ وقت طويل ، وقد استيقظ فجأة دون شك بسبب سكنهما معاً في البيت .. ومنذ ذلك اليوم اصبح كل شيء واضحاً في عيني نيكول ، فحب دانيال أوضح كل شيء : هيئته المغلقة ، القلقة ، وغضباته ، واصراره على عدم ترك ميزون وعلى عيشه هذه العيشة

الحبيسة ، العاطلة من العمل والعفيفة المناقضة لعاداته ومزاجه) ٠

وتابعت نيكول دون ان تشك كم ان الحاحها كان يبدو موضع شبهة لأنطوان :

– اتريد رأيي ؟ دانيال يستحق الشفقة ٠ انت على حق ولكنه لا يتألم من عاهته ، كلا .. ان للنساء ذلك الحدس كما تعلم .. يجب ان يكون متألماً من شيء آخر ايضاً ٠٠ من شيء خاص ، ينخره .. ربما حب يائس ٠٠ عاطفة بدون أمل ٠٠

وخافت فجأة ان تكون قد وشت بنفسها، واحمرت احمراراً خفيفاً. ولكن انطوان لم يكن ينظر اليها . فمرأى دانيال وهو متمدد في ظل اشجار الدلب يمضغ علكته ، والعين ذاهلة ، واليدان تحت الرقبة ، مر أمام عيني انطوان ٠ وقال بسذاجة :

– هذا ممكن .

فاخذت تضحك مطمئنة :

– اخيراً ٠ انت تذكر مثلي الحياة التي كان دانيال يحياها في باريس قبل الحرب !

ولم تكمل ، فقد سمعت خطى عمتها على سطح الدرج .

كانت مدام دي فونتانان تحمل رزمة أوراق :

– عفواً ، لقد عدت ، ولكن لأرجع حالاً ٠

ورفعت كدسة الرسائل والغلافات الإدارية التي جيء بها اليها :

– اننا مرهقون بالحالات اليومية التي يجب ان نرسل منها عدة نسخ إلى السلطات . وبريدي بعد الظهر يتطلب مني ساعتين ، في جميع الأيام .

وقال انطوان الذي نهض :

– سأتركك .

– يجب ان تعود ٠ اتبقى وقتاً طويلاً معنا ؟

– هيه ، كلا .. اني ذاهب غداً ٠

فقالت نيكول : غداً ؟

-- يجب ان اعود نهار الجمعة إلى موسكيه ٠

ونزل الثلاثة الدرج الصغير المهتز ٠ واستشارت مدام دي فونتانان ساعة معصمها :

ـ مهما كان فسأرافقك حتى السور الحديدي ٠

وهتفت نيكول :

ـ وأنا، سأتركك ٠ فالى هذا المساء ٠

وما ان ابتعدت المرأة الشابة حتى سألت مدام دي فونتانان بصوت مضطرب، بدون أن تتوقف :

ـ لقد حدثتك نيكول عن دانيال اليس كذلك ؟ الولد المسكين ٠٠ اني افكر به مرات عديدة كل يوم . وأصلي لأجله .. انه ثقيل جداً ذلك الصليب الذي يحمله ٠

ـ على الأقل انت واثقة انه سيعيش يا سيدتي ٠ ورغم كل شيء ، وفي الوقت الذي يسرع ، فان هذا اليقين ليس بدون ثمن ٠

لم تظهر انها تريد ان تفهم ٠ لم تكن ترى الأمور تحت هذه الزاوية .

وسارا بضع خطوات صامتين ، وتابعت :

ـ كل النهار وحده ٠٠ وحده مع عاهته ! وحده مع تلك الحسرة التي لا يبوح بها لأحد ٠٠ وحتى لي ٠٠

ووقف انطوان في منتصف الممر بنظرة مستفهمة صارمة ٠ وتابعت مدام دي فونتانان بنفس النبرة الواثقة المؤلمة :

ـ يُفهم جيداً ما يمكن ان يشعر به الابن العزيز ٠ مع طبيعته المحتدمة ، السمحة .. والشعور أيضاً بأنه مليء بالشجاعة، بالصحة ! ويرى وطنه مجتاحاً مهدداً .. دون ان يستطيع شيئاً لاجله .

فجازف انطوان :

ـ اتظنين ان هذا هو الأمر ؟

كان ينتظر القليل من هذا التوضيح الذي لم يستطع ان يخفي عدم تصديقه .

ورفعت جذعهـــا ، ومرت على شفتيها ابتسامة ماهرة ، متأججة بشيء من الكبرياء :

ـ دانيال ؟ الامر بسيط جداً . وهو مع الاسف لا دواء له .. ان دانيال لا يتعزى لعدم قدرته على القيام بواجبه .

وبما ان انطوان لم يظهر اقتناعه تماماً ، فقد اضافت بوجه عابس مصدوم :

ـ اسمع ، ان ما اقوله لك هو صحيح ، فاذا كان دانيال يتهيب المجيء إلى المستشفى ، فليس ذلك لأن المسافة تتعبه كما يقول . كلا . بل لأن مما لا يستطيع احتماله ان يجد نفسه بين كل هؤلاء الفتيان ، كل هؤلاء الجنود الذين من سنه ، وقد جرحوا مثله ، ولكنهم على وشك استطاعتهم العودة إلى القتال .

فلم يجب بشيء . ووصلا صامتين إلى طرف السور الحديدي . وتوقفت مدام دي فونتانان . وقالت وهي تتأمله بتأثر :

ـ الله وحده يعلم متى سنرى بعضنا البعض مرة ثانية .

واخذت اليد التي مدها انطوان اليها ، وأبقتها لحظة بين يديها :

ـ حظ سعيد يا صديقي .

١١

كان انطوان يفكر وهو يجتاز الساحة : « الجميع يتحدثون عن دانيال كما يتحدثون عن لغز . وكل منهم يسرد علي تأويله الشخصي . ومن المحتمل تمامـاً انه لا يوجد أي لغز ! » .

انه تعب قليلاً ـ ولكنه مندهش وراض لأنه لم يكن تعباً اكثر من ذلك ـ وسار بدون سرعة نحو بيت آل فونتانان . وكان مما يسري عنه أنه وحيـد . كانت جادة الزيزفون الكبرى تمتد أمامه حتى الغاب . وشمس الساعة الرابعة ، المنخفضة آنذاك ، تتسرب بين جذوع الأشجار وتمـتـد على الأرض سحبات

طويلة ساطعة . وبين لحظة وأخرى ، وهو يتذكر طرقات الجنوب الملأى بالغبار ، كان يتجرع بنهم هـذا الهواء الخفيف ، المز ، المشبع بأريج ايل دي فرانس الربيعي .

ولكن مجرى أفكاره كان كئيباً،فهذه الاقامة في ميزون كانت تحرك كثيراً من الذكريات . والزيارة لدارة تيبو انهضت كثيراً من الاشباح . وكانت ترافقه دون ان يستطيع الدفاع عن نفسه منها . شبابه ، صحته في الماضي .. والده . جاك..جاك في هذه الساعات الأربع والعشرين عاد وأصبح قريباً جداً منه . لم يكن قد شعر أبداً ، إلى هذه الدرجة ، ان اختفاء جاك قد حرمه من كائن لا يمكن الاستعاضة عنه : **اخوه** الوحيد . كلا ، ابداً ، منذ موت جاك لم يكن قد قاس بالضبط مقدار هذه الخسارة التي لا تعوض . حتى أنه لام نفسه لانه انتظر حتى الآن ليشعر بهذا اليأس الحقيقي ، هذا اليأس العاري . كيف كان هذا ممكناً ؟.. الظروف ، الحرب .. لقد تذكر جيداً اللحظة التي تلقى فيها رسالة روميل – تلك الرسالة التي اصبح بعدها من الجهل الاحتفاظ بأقل امل . وقد اعطيت له ذات مساء في مستشفى فردان المتنقل . قبل بضع ساعات من رحيل فصيلته إلى قطاع إيبارج . كان يتوقع الخبر ؛ وتلك الليلة ، في هوشة الرحيل، لم يكن لديه وقت للاستسلام للحزن.وكذلك اثناءالاسبوعين التاليين : انتقالات متتابعة تحت المطر ، في الوحل ؛ وصعوبة تأمين خدمته في خرائب تلك القرى في ويفر Woëvre ؛ حياة متعبة لا تدع اي مجال للمتاعب الشخصية . وفيما بعد ، عند الاستراحة ، حين اعاد قراءة الرسالة ، واجاب روميل ، وجد نفسه معتاداً على تلك الميتة ، دون أن يفكر كثيراً بذلك . اما اليوم ، في اطار الحياة العائلية الذي وجده من جديد فان حسرته اتخذت مؤخراً صلابة ، ولازمه ما لا يعوّض بشدة غير اعتيادية ، وحتى هنا ، في هـذه الجادات ، فان كل جزء من المنظر الطبيعي كان يذكره بذكريات ، بألعاب. معاً رغم اختلاف السن؛جاك وهو كانا يقفزان ، بوثبة ، تلك الحواجز البيضاء ؛ ومعاً كانا يتدحرجان في ذلك العشب في شهر ايار ، قبل موعد

حصاده ؛ ومعـاً كان يقلبان برأس عصا تلك الوكنات لحشرات ذات ظهور مسطحة تتحرك بـين جذور الزيزفون المغطاة بالطحلب ، والتي كانا يدعوانها « جنوداً » لأن درعها ذو لون احمر مخطط بخيوط غريبة سوداء . ومعـاً في فترات ما بعد الظهر ، الشبيهة بهذه ، كانا يسيران على محاذاة تلك الدربزينات والسياج ، وينتزعان اثناء سيرهما عناقيد السيتيز Cytise واللبلاب ، ويتبعان تلك الطريق على الدراجة ومعهما ، على المقود ، لباس الحمّام او مضرب التنس . وهناك تلك البوابة الظليلة بالاكاسيا كانت تذكره بالسنة التي كان لا يزال فيها غلاماً . وكان يذهب اثناء العطلة يراجع دروسه عند استاذ كلية مصطاف في ميزون . وفي أغلب الأحيان ، عند هبوط النهار ، في ايلول ، لكي لا يتوه وحده في البارك فان المدموازيل وجاك كانا يأتيان وينتظرانه عند هذه البوابة. وتخيل اخـاه طفلاً ابن ثلاث سنوات ، يتفلت من يدي المدموازيل ويركض لملاقاته ويتعلق بذراعه ليحدثه بلكنته عن الاعمال الصغيرة المختلفة التي قام بها في النهار .

وكان لا يزال يحلم بذلك عندما وصل إلى البيت . وحين دفع الباب الصغير ورأى على مدخل الحديقة جان بول يترك فجأة يد الخال دان ليسرع إلى أمامه ، ظن أنه رأى جاك يركض بشعره الاشقر وحركاته الحازمة . وكان اكثر تأثراً مما كان يريد أن يبدي ، فأمسك الصغير بين ذراعيه ، كما كان يفعل في السابق مع اخيه ورفعه ليقبله . ولكن جان بول الذي لم يكن يحتمل المضايقة ، ولو كان لتلقّي مداعبـة ، أخذ ينتفض ويفحص برجليه بنشاط مما اضطر انطوان اللاهث الضاحك إلى أن يريحه على الارض .

وكان دانيال يتأمل المشهد ويداه في جيبه .

وقال انطوان بكبرياء شبه ابوية :

- انه ذو عضلات ، النشيط ! فتلك الانتفاخات التي يقوم بها ! سمكة خارجة من الماء .

وابتسم دانيال ، وكان يوجد في ابتسامته كبرياء شبيهة بكبرياء انطوان

ثم رفع يده نحو السماء :

– نهار جميل ، اليس كذلك ؟ صيف جديد يبدأ أيضاً ..

وانطوان المتضايق قليلاً من الصراع مع جان بول ، كان قد جلس على حاشية المشى . وسأل دانيال :

– اتظل هنا برهة ؟ مضى علي وقت طويل ، وأنا واقف . يجب ان اذهب وامدد ساقي .. اتريد ان اترك لك الصغير ؟

– بطيبة خاطر .

فالتفت دانيال نحو الطفل :

– ستدخل بعد قليل مع العم انطوان . اتكون عاقلاً ؟

فخفض جان ـ بول جبهته دون أن يجيب . ورشق انطوان بنظرة بدون ان يرفع عينيه ، متبعاً بنظرة مترددة دانيال الذي مشى . وبدا لحظة انه يريد اللحاق به ؛ ولكن الانتباه الذي اجتذبه ُجعل" جاء يسقط على قدميه نسي حالاً الخال دان ، فجثم ، وظل في حالة تأمل امام جهود الحشرة التي لم تتوصل إلى الوقوف على اقدامها .

وقال انطوان لنفسه : « لأجل أقلمته فمن الافضل الا تظهر الاهتمام به » . وتذكر لعبة كان اخوه يلهو بها في مثل هذا السن ! فالتقط قطعة سميكة من قشر الصنوبر ، وأخرج سكينه ، ودون أن يقول شيئاً اخذ يحفر الخشب بشكل زورق .

وجان بول الذي كان يلاحظه خلسة ، لم يتأخر في الاقتراب .

– لمن هذه السكين ؟

– لي .. فالعم انطوان جندي ، اذن فهو بحاجة إلى سكين ليقطع خبزه ويقطع اللحم ..

وبدا ظاهراً ان هذه الايضاحات لم ترق لجان بول .

– ماذا تفعل ؟

– انظر .. الا ترى ؟ اني أصنع مركباً صغيراً. أصنع مركباً صغيراً لك.

فحين تحممك والدتك تضع الزورق في المغطس . وسيبقى في المـاء دون ان يسقط إلى القعر .

كان جان بول يصغي متغضن الجبهة من التفكير . وبنوع من انحراف المزاج ايضاً : ان هذا الصوت الضعيف الأبح كان يسبب له شعوراً رديئاً · إلا انـــه اظهر عدم فهم شيء من كلام انطوان . ربما لم ير مركباً ابداً .. فتأوه آهــة كبيرة وهاجم النقطة الوحيدةالتي ادهشته لأن هذهالنقطة كان فيها خطأفظيـع، وقال مصححاً :

– اولاً ، انا ، حمّامي ، ليس امي ! انه الخال دان !

ثم التفت نحو ُجعْله غير مبالٍ ابداً بصنيـع انطوان الفني .

وألقى انطوان الزورق دون أن يلح ، ووضع السكين بجانبه .

وفي مدى برهة كان جان ـ بول قد عاد · وحاول انطوان ان يعيد عقد العلاقات :

– ماذا فعلت اليوم من الاشياء الجميلة ؟ اكنت تتنزه في الحديقة مع الخال دان ؟

وبدا الولد انه يبحث في اعماق ذاكرته ، واشار ان نعم .

– اكنت عاقلاً ؟

اشارة ايجابية ثانية · ولكن على اثر ذلك تقريباً دنا من انطوان . وتردد مقدار ثانية وأسرّ بوقار :

– لست متأكداً .

فلم يستطع انطوان الامتناع عن الابتسام .

– ماذا ؟ لست متأكداً من انك كنت عاقلاً ؟

فصاح جان بول منزعجاً :

– بلى كنت عاقلاً ·

ثم استولى عليه نفس الوسواس الغريب ، وقلب انفه بشكل هزلي وردد ، مقطعاً المقاطع :

ـ ولكن لست متأكداً .

ومر وراء انطوان كأنه يبتعد ، وانحنى فجأة يريد بواسطة الخداع الاستيلاء على السكين الباقية على الأرض .

فزجر انطوان واضعاً يده على سكينه .

ـ كلا ! ليس هذه .

فرشقه الولد بنظرة غاضبة دون أن يتراجع . وأوضح انطوان :

ـ لا تلعب بهذه ، فقد تجرح نفسك .

وأطبق السكين ووضعها في جيبه . واغتاظ الصغير فظل شامخاً بأنفه في وقفة تحدي . ولأجل احلال السلام بينهما ، فان انطوان قدم له بلطف يده الكبيرة المفتوحة . ولمع برق في الحدقتين الزرقاوين ؛ وأمسك باليد الممدودة كأنه يريد تقبيلها ، وأغرز فيها أسنانه .

وصاح انطوان : آخ .

وكان كثير الدهشة ، كثير الحيرة بحيث لم يشعر بأي ميل للغضب . وقال وهو يحك اصبعه المعضوض :

ـ ان جان بول شرير . جان بول سبّب الأذى للعم انطوان .

وكان الغلام يتطلع بفضول ، وسأل :

ـ كثير من الأذى ؟

ـ كثير من الأذى .

ودار على عقبيه وابتعد واثباً .

وجعل الحادث انطوان مرتبكاً : « حاجة بسيطة للانتقام ؟ كلا .. اذن ماذا ؟ يوجد جميع أنواع الأشياء في حركة من هذا النوع .. ممكن جداً ، انه امام دفاعي ، أمام صعوبة مخالفته ، بلغ الشعور بعجزه فجأة منتهى شدة لا تحتمل .. وربما انقض على يدي لكي يؤذيني ، لكي يعاقبني . وربما كان خاضعاً لحاجة طبيعية ، حاجة لا تقاوم ليرخي أعصابه .. ومع ذلك فللحكم على

رد فعل كهذا يجب البدء بأن نستطيع قياس درجة الطمع . فالرغبة في إمساك تلك السكين ربما كانت ملحّة ، إلى درجة أن مراهقاً لا يرتاب بها .. »

وتأكد بزاوية عينه ان جان بول ظل قريباً . فالولد ، على بعد عشرة أمتار منه كان يحاول تسلق مرتفع من التراب ، غير مهتم بأحد .

وقال انطوان لنفسه : « هذه المعاكسة الحقود كان جاك خليقاً بها ، ولكن هل كان الأمر يصل به إلى العض ؟ »

واستنجد بذكرياته ليفهم بصورة أفضل . ولم يقاوم الميل إلى توحيد الحاضر مع الماضي ، الابن مع الأب . فهذه العواطف الابتدائية مع التمرد ، والحقد ، والتحدي ، والكبرياء المكتومة المنعزلة ، والتي حل رموزها عرضاً في نظرة جان بول ، كان يعرفها : لقد فاجأها عدة مرات في عيني أخيه . وبدا الشبه مذهلاً له بحيث لم يتردد في السير بعيداً ، حتى الاقتناع بأن الموقف المتمرد للطفل كان يخفي تلك الفضائل المكبوتة نفسها ، ذلك الحياء ، تلك الطهارة ، ذلك الحنان غير المفهوم ، والتي كان جاك حتى نهاية حياته يخفيها تحت احتداداته العنيفة .

وكان يستعد للنهوض خوفاً من أن يصاب بالبرد حين استرعت انتباهه الألعاب البهلوانية التي انصرف اليها الصغير . فالتلة الصغيرة التي كان يحاول الوثوب اليها يبلغ ارتفاعها مترين ؛ وإلى اليمين والشمال ذلك المنحدر الذي يتصل بالأرض بسطحين منحنيين . وكان الوصول اليها سهلاً ؛ ولكن المنحدر على وجهه الذي في الوسط كان صعباً . ومن هذه الناحية بالضبط اختار الطفل أن يتسلق . ورآه انطوان عدة مرات متتابعة يستعد للاندفاع ويتسلق نصف المنحدر ويتزحلق ويتدحرج الى الأرض .. لا يمكن أن يصاب بأذى كبير : فهناك بساط من ابر الصنوبر كان يخفف من وقع السقطة . وكان يبدو منصرفاً بكليته لعمله . وحده في الدنيا مع هذا الهدف الذي عيّنه . كانت كل محاولة تقربه من الذروة ، وكل مرة كان يتدحرج من مكان اكثر ارتفاعاً . وكان يفرك ركبتيه ويبدأ من جديد .

وفكر انطوان بسرور : « نشاط آل تيبو . عند والدي ، سلطة ، شهوة السيطرة .. عند جاك ، اندفاع ، تمرد .. عندي ، مثابرة عنيدة .. والآن ؟ تلك القوة التي في دم هذا الصغير ، أي شكل ستأخذ ؟ »

وكان جان بول قد اندفع في الهجوم من جديـــد : وبكثير من الشجاعة الغاضبة ، كاد يبلغ قمة المنحدر ، ولكن التراب انهـار تحت قدميه وكاد مرة اخرى يفقد توازنه ، حين أمسك بباقة من العشب ، وتوصل إلى الوقوف بجهد ، وشد مرة أخيرة واستوى على السطح .

وفكر انطوان : « أراهن أنه سيلتفت لينظر إذا كنت رأيته » . وكان مخطئاً . فالولد قد أدار ظهره ولم يهتم به . وبقي دقيقـــة على الذروة مرتكزاً جيداً على ساقيه الصغيرين . ثم ، وقد رضي دون شك ، نزل بهدوء من أحـــد السطوح المنحنية ، دون أن يلقي نظرة إلى الوراء ، على مكان نجاحه ، واستند الى شجرة ، وانتزع فردة حذائـــه وهز الحصى التي دخلت اليها وعاد ينتعلها برصانة . ولكن لما كان يعلم أنه لا يستطيع أن يزرر بنفسه القدم الجلدي ، جاء نحو انطوان ، وبدون أية كلمة ، مدّ قدمه نحوه . فابتسم انطوان وربط الحذاء مطيعاً .

– والآن سنعود الى البيت ، أتريد ؟

– كلا .

ولاحظ انطوان أن له طريقة شخصية جـــداً بقول : « كلا » . وجني على حق : انهـــا رغبة في التملص من الشيء الخاص المطلوب منه اقل مما هي رفض عام معتمـد ... رفض انتقاص اقل شذرة من استقلاله مهما كان السبب .

– هيا بنا يا جان بول . كن لطيفاً . فالخال دانيال ينتظرنا . تعال .

– كلا .

فقال انطوان ليزيل الصعوبة :

– ستدلني على الطريق . (شعر أنه كثير الحمق في دور المرشد هـذا) من أي ممشى يجب أن نمر ؟ من هذا ؟ من ذاك ؟

وأراد أن يأخذ يد الولد . ولكن الصغير ، وقد أصر ، صالب ذراعيه على صدره وقال :

– انا ، قلت كلا !

فقال انطوان :

– حسناً ! أتريد أن تبقى هنا بمفردك ؟ إبق !

وسار متعمداً في اتجاه البيت ، حيث كان يشاهد من خلال جذوع الأشجار طلاء الجص الوردي الذي ألهبته أشعة المغيب .

ولم يسر ثلاثين خطوة حتى سمع جان بول يخب وراءه ليلحق به . فعزم على استقباله بلطف ، كأن لم يكن هناك أي حادث . ولكن الطفـــل تجاوزه راكضاً ، وبدون أن يتوقف ، وقذفه بوقاحة وهو مار :

– أنا ، أعود الى البيت ، لأنني ، أنا ، أريد !

١٢

كانت فترات العشاء في البيت كثيرة الحيوية بوجه عام ، بفضل ثرثرة جيز ونيكول . انهما سعيدتان لإنهاء مهمتهما اليوميـــة – وربما ايضاً لشعورهما أنهما بعيدتان عن مدام دي فونتانان الأمومية والمتيقظة ايضاً – كانتا تقضيان فترة الطعام وهمـــا تعلقان بحرية على حوادث النهار ، وتتبادلان انطباعاتهما حول القادمين الجدد الى المستشفى ، وتسردان ، بحمية فتيات في مدرسة داخليـــة ، الحوادث الصغيرة التي حدثت في دائرتي عملهما .

ومع أن انطوان كان كثير العياء هذا المساء ، فقد اخـــذ يتسلّى بالمظهر الجدي الذي كانتا تناقشان به ، وبعبارات فنية ، بعض العلاجات ، وتصدران احكاماً على مقدرة الأطباء . وفي عدة مناسبات كانتا ترجعان اليـــه فيما يتعلق باختصاصه ؛ وكان يدلي برأيه مبتسماً .

أما جني المشغولة بولدها الذي كان يتناول عشاءه على الطاولة فلم تعر الحديث سوى انتباهٍ لاهٍ . أما دانيال الصامت كعادته (وخصوصاً عندما تكون اخته ونيكول موجودتين) إلا أنه وجه الكلام عدة مرات الى انطوان .

وكانت نيكول قد جاءت بصحيفة مسائية . وكان الأمر يتعلق بقذف باريس بالقنابل على مدى بعيد ، وقد أصيبت حديثاً عدة بنايات في الدائرتين السادسة والسابعة . وكان هناك خمس جثث بينها ثلاث نساء وطفل رضيع . وموت هذا الطفل أثار في الصحف الحليفة انفجاراً اجماعياً ضد البربرية التوتونية .

وثارت نيكول لإمكان حدوث قساوة مفرطة كهذه . وهتفت :

— هؤلاء البوش يحاربون كالبدائيين ! قبلاً ، قاذفات لهبهم ، وغازهم الخانق ! وغواصاتهم ! أما قتل السكان المدنيين فهذا يتجاوز كل شيء . هذا شنيع ! يجب أن يكونوا قد فقدوا كل حس أخلاقي ، كل شعور بالإنسانية .

وسأل انطوان بخبث :

— هل حقيقة بدا لك قتل السكان المدنيين الأبرياء اكثر لانسانية ، واكثر لاأخلاقية ، واكثر شناعة من قتل الجنود الشبان الذين يرسلون إلى الخط الأول ؟

فنظرت اليه نيكول وجيز منذهلتين .

وكان دانيال قد وضع شوكته . وصمت ، وخفض عينيه . وتابع انطوان :

— انتبهوا .. جعل الحرب قانونية ، وإرادة تحديدها وتنظيمها (أنسنتها ، كما يقال !) والتقدير « بأن هذه بربرية ! هذه لاأخلاقية » . — فهذا يتضمن وجود طريقة اخرى للقيام بالحرب . طريقة متمدنة تماماً . طريقة اخلاقية تماماً .

وصمت ، باحثاً عن نظرة جني . ولكنها كانت منحنية على ولدها لتجعله يشرب . وتابع :

– ان ما هو شنيع ، هل حقيقة ان هذه الطريقة في القتل أو تلك أكثر أو أقل فظاعة ؟ وانها تصيب هؤلاء أكثر مما تصيب أولئك ؟

وانقطعت جني عن عملها ووضعت فجأة القدح الذي كادت تقلبه ، وقالت وهي تصر على أسنانها :

–ان الشنيع هو جمود الشعوب ! انهم العدد ! وهم القوة. وكل حرب تتوقف على قبولهم ورفضهم ! ماذا ينتظرون ؟ يكفي أن يقولوا : كلا ! ليصبح السلام الذي يطلبونه واقعاً في التو واللحظة .

ورفع دانيال جفونه ، وشمل أخته بنظرة مقتضبة غامضة .

وساد صمت .

واختتم انطوان برصانة :

– الشنيع لا هذا ولا ذاك : انها الحرب بدون زيادة !

ومضت بضع دقائق دون أن يجرؤ احد على مواصلة الكلام . وقال انطوان لنفسه ، مفكراً بعبارة جني : « الناس كلهم يطلبون السلام . فهل هذا صحيح؟ انهم يطلبونه منذ أن يضطرب الحبل . ولكن تصلبهم المتبادل وغريزتهم المحاربة يجعلانه قابلاً للزوال حين يحصلون عليه .. إلغاء مسؤولية الحروب على الحكومات والسياسة ، بالتأكيد ! ولكن على أن لا ننسى حصة الطبيعة البشرية في هذه المسؤولية .. هذا المبدأ الأساسي موجود في أساس كل نزعة سلمية : الايمان بتقدم الانسان الأخلاقي . كان لدي هذا الايمان – أو بالأحرى : كنت بحاجة ، عاطفياً ، للحصول عليه . لا أستطيع التفكير بأن الضمير البشري ليس قابلاً أبداً للاصلاح ! أنا بحاجة إلى الظن أن الانسانية ستعرف ذات يوم أن تقر النظام والإخاء على الكوكب .. ولكن لتحقيق هذه الثورة ، لن تكفي ارادة ولا استشهاد بعض الحكماء : سيلزم لذلك قرون من التطور ! وربما ألوف السنين .. (ماذا يمكن أن نأمل من شيء عظيم ، من رجل القرن العشرين ؟) عندئذ ابذل جهدي ولا أتوصل إلى أن أجد في المستقبل البعيد ما يعزيني في أن اعيش بين مجموعة الحيوانات النهمة في العالم الحالي ..

وفطن إلى أن الجميع ظلوا صامتين حوله. لقد ظل الجو ثقيلاً مشحوناً بالكهرباء. وأسف لأنه كان سبب هذه الزوبعة العنيفة . وأراد محاولة إنعاش الحديث ، فالتفت نحو دانيال :

– وصديقك ذلك النموذج المعتوه .. القس . وتعرفه جيداً .. ماذا صار به ؟

– القس غريغوري ؟

كان هذا الاسم كافياً لإحياء ألق من الخبث في جميع النظرات .

فاتخذت نيكول صوتاً حزيناً يتناقض مع تعبير الوجه اللاهي :

– ان العمة تيريز قلقة عليه جداً : منذ عيد الفصح وهو في مصح اركاشون ..

وأضاف دانيال :

– الأخبار الأخيرة تقول أنه لم يترك سريره .

ولاحظت جني أن القس كان في الجبهة منذ بدء الحرب . ثم هبط الحديث . وسأل انطوان لكي يقول شيئاً :

– أكان متطوعاً ؟

فصحح دانيال :

– يعني أنه فعل المستحيل لأجل ذلك . ولكنه لم يتوصل بسبب سنه وصحته . عندئذ حاول أن يقبلوه في إحدى مفارز الاسعاف الاميركية . وقضى على الجبهة الانكليزية كل شتاء عام ١٧ الرهيب .. نقل الجرحى .. نزلة صدرية على نزلة صدرية .. بصق دم .. وقد اضطروا إلى اخراجه بالقوة . ولكن بعد فوات الأوان .

وقالت جني :

– آخر مرة رأيناه فيها كانت عام ١٩١٦ أثناء إجازة . فقد جاء الى هنا .

وأوضحت نيكول :

ـ وكان آنذاك متغيراً لا يُعرف الا بالجهد .. خيال .. لحية طويـــلة على نسق تولستوي .. ساحر حقيقي من حكايات الجن !

فقال انطوان ساخراً :

ـ ألا يزال يرفض استعمال الأدوية ؟ ولا يعتني بالمرضى بغير رقاه ؟

فأخذت نيكول تضحك :

ـ نعم ، نعم .. كان يبتلينا بأحاديثه الهاذية . وحين جاء الى هنا ، منذ سنتين حيث كان ينقل الموتى بشاحنته الصغـيرة ، كان يردد بهدوء : « الموت لا وجود له » !

فقالت جيز : نيكول !

كانت تتألم لرؤية القس عرضة للسخرية امام انطوان .

واستمرت نيكول فقالت :

ـ الا أن كلمة **موت** كلمة لم يكن يلفظها ابداً . بل يقول : **الوهم المميت**..

وأضاف دانيال مبتسماً :

ـ في رسالته الأخيرة الى والدتي يوجد هذه الجملة المدهشة : « سترتد حياتي بعد قليل الى حقل اللامنظور .. »

فالقت جيز نحو انطوان نظرة لوم :

ـ لا تضحك يا انطوان .. انه رجل قديس رغم مضحكاته ..

فقال انطوان مسلماً :

ـ ماذا تريدين ؟ ربما كان قديساً ، ولكنني لا استطيع الامتناع عن التفكير بجميـع اولئك الجنود الجرحى من الانـكليز الذين القاهم سوء الحظ بين براثنـــه المقدسة ـ وأصرّ على الاعتقاد انه مرض خطر .

وكان ما يعقب الطعام من مأكولات قد انتهى .

وأنزلت جني جان بول عن كرسيه ونهضت. وفعل الجميـع مثلها وتبعوها إلى الصالون .. واجتازت الغرفة : كان الوقت متأخراً عـن الأمسيات الاخرى . واسرعت بوضع الطفل في سريره .

بينما جلست جيز بعيداً عن الضوء على مقعد منخفض لتشتغل عليه واحدا ازواج الجوارب التي تعطيها ، كمناولة اخيرة ، للناقهين الذين نالوا الشفاء وهم عائدون إلى قطعاتهم ، وأخذ دانيال عن البيانو مجلداً من « دورة حول العالم » وراح يجلس على الاريكة ، في الداخـل ، وراء الطاولة المستديرة التي يشتعل عليها المصباح الوحيد على البترول في الغرفة . وتسال انطوان وهو يلاحظ الشاب المنحني تحت عاكس النور يقلب الصفحات باجتهاد ولدٍ عاقل : « هل هـذا لهوٌ أم انه يهتم حقيقة بتلك الصور القديمة ؟ » .

واقترب من المدخنة حيث نيكول الراكعة أمام الموقد تزيد النار اشتعالاً .

ـ لقد مر وقت طويل لم أر فيه نار الحطب !

فقالت .

ـ لا تزال الامسيات باردة ، ثم ان في هـــذا كثيراً من البهجة ـ ونهضت نصف نهضة : هنـــا في ميزون تلاقينا لأول مرة · اني اذكر ذلك جيداً · · وانت ؟

ـ وأنا أيضاً ·

وبالفعل فقد تذكر ذلك المساء من صيف بعيد ، حيث استجاب لإلحاحات جاك ، وخفية عن السيد تيبو ، فرضي بمرافقة اخيه إلى عند « الهيفنوت » — ودهشته حين وجد فيلكس هيكيه ، الجراح ، هناك ، والذي يكبره ببضع سنوات ، ـ وجني ونيكول في ممشى الورود ؛ ـ وجاك ، تلميذ ، وقد قُبل حديثاً في دار المعلمين ، — وهو نفسه طبيب شاب · كانت مدام دي فونتانان وحدها هي التي تدعوه : « الدكتور » بشيء من الاحتفالية · الكل فتيان ! الكل ، واثقون من اعمارهم ، ومن الحياة ، جاهلون المستقبل ، وليس لديهم أقل شك بحدوث الكارثة العظيمة التي كان يعدها رجـــال الدولة في اوروبا ، والتي كنست دفعة واحدة جميع مشاريعهم الشخصية الصغيرة ، ولاشت حياة البعض ، ومسخت حياة البعض الآخر ، وكدست ، في كل مصير خاص ، الخراب والموت ، وقلبت العالم إلى كم من السنين بعد ؟

وقالت مفكرة :

ـ كان ذلك في بدء خطوبتي ـ وبدت هذه الذكرى مثقلة بالكآبة ـ لقد جـاء بي فيلكس بسيارته ، وتوقفت السيارة بسبب خلل ، وفي الليل ، في سارتروفيل ..

ورفع دانيال جفونه ، وبدون ان يحرك رأسه ، رشق نظرة سريعة باتجاهها لاحظها انطوان . هل كان يصغي؟ هل هذا الاستحضار للماضي حرك فيه التأثر والحسرات ؟ أو ببساطة ، هل كانت تزعجه هذه الضجة من الكلام الفـارغ ؟ وعاد إلى تصفح كتابه . ولكن بعد ذلك بقليل خنق تثاؤبا ، واطبق الكتاب ، ونهض . وبدون سرعة جاء يلقي تحية المساء مودعاً .

ووضعت جيز شغل التطريز :

ـ اصاعد انت يا دانيال ؟

في الظلام القليل بدا شعرها شبيهاً بالصوف ، وصبغتها أكثر دكنة ، وبياض عينيها أكثر سطوعاً . وهكذا فان تلك القامة المنحنية على ذلك المقعد المضاء بلهيب الموقد ، تبعث على التفكير بافريقية جدودها : امرأة من السكان الاصليين جالسة القرفصاء أمام نار الشوك .

وكانت قد نهضت .

ـ مصباحك ، اظن انه بقي في المكتب . تعال لأشعل لك .

وخرجا معاً من الصالون ، وتبعهما انطوان آلياً بعينيه ، ثم رجع نظره إلى نيكول التي كانت تلاحظه وهي واقفة . كانا وحدهما . وابتسمت بشكل غريب . وقالت بصوت منخفض :

ـ يجب ان يتزوجها دانيال .

ـ ماذا ؟

ـ ولكن نعم . وهذا خير عمل . الا ترى ذلك ؟

كانت الفكرة غير منتظرة بالنسبة لانطوان بحيث ظل جامـداً ، ثابت العين ، مرتفع الحاجبين . وانفجرت ضاحكة : ضحكة من الحنجرة رنانة ،

وهدلت : ـ ما كنت اعتقد انني سأدهشك إلى هذه الدرجة .

وكانت قد ادنت مقعداً من النار · وصالبت ساقيها في وضع غير متحفظ، مثير قليلاً ، وكانت تتفحصه دون ان تقول شيئاً .

وجاء يجلس إلى جانبها :

ـ اتظنين ان هناك شيئاً بينهما ؟

فقالت بحدة :

ـ لم اقل هذا ! وعلى كل حال فدانيال لم يفكر بذلك أبداً ، بالتأكيد · فاكد تلقائياً :

ـ ولا جيز ·

ولا جيز بدون شك . ولكن يظهر جيداً انها تهتم به · دائماً هي التي تقوم بما يكلفها به في المدينة · وتشتري صحفه ، وعلب العلكة . وتحيطه بكثير من الملاطفات · ويقبل ذلك بسرور ظاهر · وربما استطعت الآن ان تلاحظ انها الوحيدة التي يوفرها من حركاته الغاضبة ·

وصمت . ان افتراض زواج جيز كان بالنسبة اليه لأول وهلة ، عملاً مقيتاً ؛ لم يكن قد نسي الماضي تماماً ، ولا المركز الذي احتلته جيز في حياته اثناء فترة قصيرة . ولكن بعد التفكير لم يجد أي اعتراض ذي قيمة يقوم به .

واستمرت في الضحك صامتة ، الأمر الذي حفر ثغرتين في زاوية فمها . هذه البهجة كان فيها شيء يتجاوز الحد ، طبيعي قليلاً ، وتساءل : « هل تحب ابن خالها ؟ » ·

وألحت نيكول :

ـ هيا يا دكتور . اقتنع ان فكرتي ليست مضحكة . فجيز ستكرس نفسها له · وباخلاص من هذا النوع فان فتاة مثلها يكون لها اكبر حظ في ان تخلق لنفسها حياة مقبولة ·· أما دانيال ..

وقلبت رأسها ببطء إلى ان وجدت ضفائرها الشقراء مستنداً على مسند المقعد · وفي انفصال الشفتين الرطبتين رأى انطوان لمعان اسنانها لحظة . ثم

انخفضت الجفون ، وانسابت من بين الأهداب نظرة خبيثة متعمدة :

– انت تعلم ان دانيال هو احد الرجال المستعدين دائماً ليكونوا محبوبين ٠٠

وافلتت منها إشارة ملل تكاد لا تدرك : فقد سمعت صرير درجات الدرج القديم من خلال الحواجز ؛ وهتفت مغيرةً الموضوع بمهـــارةٍ ومخاتلةٍ مقلقتين نوعـاً :

– ذلك كالمصاب بالباراتيفوئيد الذي سهرت عليه هذه الليلة ٠ رجل من السافوى هرم من « قرعة » عام ٩٢ ٠٠ – ودخول جني تتبعها جيز زاد ايضا من سرعة كلامهـــا – كان يهذي بلغة عامية لا تفهم ٠ ولكن في كل لحظة كان ينادي ، « ماما ! » بصوت طفولي ٠ كان ذلك مؤثراً ٠

فقال انطوان مجارياً اللعب بمهارة شعر انه فخور بها :

– اوه ! لقد سمعت هذا ، انا ايضاً ، في اغلب الأحيان . ولكن لا تنخدعي به . فهو من حسن الحظ ليس سوى شكوى آلية ، وعادة تصعد من الماضي بشكل لاشعوري .. ومن بين جميع المحتضرين الذين سمعتهم يصرخون :«ماما» يوجد قليل جداً ، كما اعتقد ، من الذين كانوا يفكرون بأمهاتهم بالضبط .

كانت جني تحمل بين ذراعيها رزمة من لفائف الصوف الاسمر تريد ان تجعلها مكبّبات :

– من يريد ان يساعدني هذا المساء ؟

فاعترفت نيكول بابتسامة كسولة ، متطلعة نحو الساعة .

– انا نعسانة . الساعة الآن هي العاشرة إلا عشرين دقيقة .

فاقترحت جيز : انا .

فرفضت جني بحركة من رأسها :

– كلا يا عزيزتي . انت ايضاً تعبة . إصعدي وارتاحي .

وبعد ان قبلت نيكول جني اقتربت من انطوان :

– عفواً . اننا ذاهبات غداً في الساعة السابعة . ولم اغمض عيني في الليـلة الماضية .

واقتربت جيز بدورها . وكان قلبها منقبضاً لتفكيرها بان انطوان ذاهب غداً ، وإن هذه الإقامة قد انتهت دون ان يريا بعضها البعض منفردين ، ودون ان يستعيدا مودة لقائها في باريس . ولكنها كانت تخشى ان تنخرط في البكاء إذا عبرت عن هذا الاسف . وقدمت له جبهتها صامتة . فقال بصوت منخفض وبعذوبة كبيرة :

ـ وداعاً يا نيفريت الصغيرة .

وخيل اليها انه ادرك ما كانت تفكر به،وانه شعر مثلها بتأثير هذاالفراق، ان هذا اليقين جعل الفراق اقل قسوة عليها .

وتجنبت الالتقاء بنظرته ، ولحقت بنيكول . ولاحظ انطوان : «انهـــا لم تلق تحية المساء على جني » . ولم يتسع له الوقت ليتساءل إذا كان شيء من سوء التفاهم قد حدث بينهما . واجتازت جني الصالون بسرعة ولحقت بجيز على العتبة ووضعت يدها على كتفها .

ـ اخشى الا اكون قد غطيت الصغير بشكل كاف . ضعي لـه شيئاً على رجليه . اتريدين ؟

ـ الغطاء الوردي ؟

ـ الأبيض اكثر حرارة .

وافترقا من جديد دون ان يتبادلا تحية المساء .

وكان انطوان قد ظل واقفاً :

ـ وانت يا جني ، الا تصعدين ؟ يجب الا تبقي من اجلي .

فأكدت وهي تجلس على الكنبة التي تركتها نيكول :

ـ لست نعسانة .

ـ اذن فلنشتغل . سأحل محل جيز . اعطني لفافة .

ـ ابداً .

ـ لماذا ؟ هل الأمر بهذه الصعوبة ؟

واستولى على الصوف وجثم علـــى الكرسي المنخفض ، ورضيت جني مبتسمة .

وقال بعد عمليات خاطئة :

ـ انظري ، ان الأمر الآن يسير من تلقاء نفسه .

وكانت مندهشة ومفتتنة بأن تجده كثير البساطة ، كثير المودة . وشعرت بالخجل لأنها جهلته طويلاً . اليس هو الآن أوثق سندٍ لها ؟ وفكرت حـــين اضطرتها نوبة سعال انطوان الى قطع العمل : « بشرط أن يشفى ، بشرط أن يستعيد صحته السابقة كلها ! » كانت بحاجة الى صحة انطوان لأجل ابنها .

وحين خف السعال صرح بدون ديباجة ، وهو يعود الى عمله :

ـ اتعرفين يا جني ؟ اني أشعر بتعزية كبرى لرؤيتك هكذا .. أريد أن أقول : بحالة حسنة وهادئة .

فرددت مفكرة ، وعيناها منخفضتان على المكب :

ـ هادئة !

وكان هذا صحيحاً رغم كل شيء . وهي نفسها أحياناً كانت تصاب بالدهشة من هـــذا الجو المهدّيء الذي يسبح فيه حزنها الآن . وحين فكرت بملاحظة انطوان ، قارنت حالتها الحالية بفترة التشوش والفراغ الفظيع التي اجتازتها منذ ثلاث سنوات ونصف . رأت نفسها في بدء الحـــرب ، دون اي خبر من جاك ، متوقعة السوء ، عرضة لنوبات متناقضة من الضعف والعنف ، مرهقة بوحدتها ، غير قادرة على احتمال وجود شخص ، هاربة من امها ، من بيتها ، كأنها تبحث عن شيء لاغنى عنه يتفلت منها دون انقطاع . وتكون دائماً على وشك الامساك به ، سائرة احياناً كل فترات بعد الظهر في تلك الباريس التي بدلتها التعبئة ، معيدةً ، دون ان تتعب ، حججها الى جميع الأماكن التي اخذها جاك اليها . ـ محطة الشرق ، حديقة سان فنسان دي بول ، شارع الهلال ، البارات في ضواحي البورصة حيث انتظرته كثيراً ، وازقة مونتروج ، وصالة الاجتماعات تلك ، حيث اثار جاك ضد الحـــرب ذات مساء جمهوراً مهتاجاً .

واخيراً ، الانهاك والليل كانا يعيدانها الى بيتها محطمة . وكانت ترتمي آنذاك منتحبة على ذلك السرير حيث اخذها جاك بين ذراعيه . وكانت تنام بضع ساعات لتستيقظ بعد ذلك على عتبة يوم جديد من اليأس .. بالتأكيد نعم ، فحياتها الحالية إذا قورنت بتلك الاسابيع ، تكون « هادئة » بشكل رائع ! وفي هذه السنوات الثلاث تغير كل شيء حولها ، وفي نفسها . كل شيء – حتى الصورة التي كانت تحتفظ بها لجاك .. ما أغرب الا يستطيع الحب الاكثر اضطراماً الدفاع عن نفسه ضد عوامل الزمن ! حين تفكر الآن بجاك فانها لا تتخيله ابداً كما سيكون اليوم ، ولا كما كان في تموز ١٩١٤ . كلا : ان جاك الذي يستحضره تفكيرها الآن ليس الكائن المحموم ، المتغير الذي عرفته : انه جاك بدون حركة ، متجمد ، جالس بثلاثة ارباعه ، يد على الفخذ ، والجبهة منارة بشدة بواسطة زجاج المشغل : جاك الصورة الموجودة امام عينيهـــا ليلاً ونهاراً .

وفجأة ، وعت شيئاً رهيباً . فقد تخيلت ان جاك عاد فجأة ؛ وما شعرت به كان قلقاً أكثر منه سروراً .. لا فائدة من الكذب : لو أعيد إليها فجأة جاك عام ١٩١٤ ، لو برز بأعجوبة امام جني اليوم ، فإن المكان الذي اعتقدت انها احتفظت له به بورع ، لا يمكنها ان تعيده اليه سليماً لم يمسه احد .

ورفعت نحو انطوان نظرة بؤس لم يرها . كان منتبهاً لحفظ اللفافة بين قبضتيه المنقبضتين ، قائداً عملية حل الغزل ، منحنياً بانتظام الى اليمين والى الشمال . ولم يكن يجرؤ على ان يرفع نظره عن خيط الصوف المسحور . وشعر انه مضحك نوعاً . وكان يتألم من كتفيه . وقال لنفسه ، مستاءً ، انه اخطأ في عرض مساعدته ؛ وان هذه الحركة في رفع الذراع تزيد من برهة الى اخرى ، من ضيق نفسه ، وانه بعد بقائه كثيراً بقرب النار ، على هذا المقعد المنخفض ، يخشى ان يصاب بالبرد ، فوق ، حين يخلع ملابسه .

كانت تريد ان تحدثه عن نفسها ، عن جاك ، عن الولد ، – كما فعلت هذا الصبـــاح في غرفتها . وهذه اللحظة من الثقة غير العادية سببت لها خيراً ظلت

تشعر به طول النهار . ولكنها هذا المساء كانت معقدة من جديد .. انها مأساة حياتها الخاصة في عدم أهليتها للمعاشرة والحكم عليها بأن تظل على غير اتصال مع احد ! وحتى الى جانب جاك لم تكن تعرف ان تستسلم دون ان تكتم شيئاً . كم مرة لامَها لأنها « لا تُفهم » لقد ظلت هذه الذكريات مؤلمة ولا تزال تلازمها . كيف ستكون مع ولدها فيما بعد ؟ ألن تنفصه رغماً عنها بتحفظها وبرودها الظاهر ؟

وجعلها جرس الساعة يرفعان رأسيهما في الوقت نفسه ويعيان معاً صمتها الطويل .

وابتسمت جني :

– لاتهم اللفائف التي تبقى . لننه هذه فقط . اصبح من اللازم أن أصعد ، واسرعت في لف المكبّ الذي بُدىء به . وأوضحت : – اني أخشى أن أجد جيز نائمة وأوقظها في أول غفوها .. انها بحاجة كبيرة الى الراحة .

وتذكر عندئذ السريرين التوأمين وأدرك لماذا لم تلق جيز تحية المساء على جني ! انهما تسكنان غرفة مشتركة . وتنامان كلاهما ، فوق ، تحت صورة جاك ، على جانبي سرير الطفل .. وفكر بطفولة جيز الكئيبة في بيت السيد تيبو وأحس باندفاعة سرور : « لقد وجدت الصغيرة المسكينة عائلة » . وعاد إلى ذهنه كلام نيكول هيكيه : « هل ستتزوج دانيال ؟ » لم يكن يصدق ذلك دون أن يعرف لماذا . ولكن هل يمكن أن تكون سعيدة بدون ذلك ؟ لقد استطاعت ايجاد سبب وجودها وسرورها بالحياة في خط جني وجان بول . سوف تكرس حنانها الشاغر وتعلقها الشبيه بتعلق كلب مخلص ، لهذين الكائنين اللذين يعيش فيهما وجود جاك بالنسبة اليها . سوف تصبح خلاسية ذات شعر أشيب ، « العمة جي » العجوز الوديعة .

وانتهى المكب ، ونهضت جني وجمعت اللفائف ، وغطت النار بالرماد ، وأخذت المصباح الكبير الذي كان على الطاولة .

واقترح انطوان بدون نية : هاتي .
اصبح نـَفـَسه كثير البحة قصيراً ، بحيث أرادت أن تجنبه كل جهد :
ــ شكراً ، أنا معتادة . انا اصعد دائماً في الأخير .
ووصلت الى قرب الباب ، والتفتت ورفعت المصباح لتتأكد من أن كل شيء منظم . وجال نظرها في الصالون العائلي القديم ، ثم عـاد يستقر على انطوان ، وقالت بعزم :
ــ تربية الصغير خارج كل هذا . مـا أن تنتهي الحرب حتى أغير حياتي . وسأسكن في مكان آخر .
ــ في مكان آخر ؟
فقالت بنفس النبرة الثابتة المفكرة :
ــ اريد ان اترك كل هذا . اريد ان اذهب .
ــ الى اين ؟
واجتاز ذهنه افتراض : الى سويسرا ؟
فتأملته بضع ثوان قبل ان تجيب ، وقالت اخيراً :
ــ كلا . من الطبيعي انني فكرت بها . ولكن هناك ، منـــذ ثورة تشرين الأول ، فالحقيقيون ، اولئك الذين كانوا اصدقاء لجاك ، ذهبوا كلهم الى روسيا . وقد فكرت ايضاً في روسيا برهة .. كلا . من المفضل ان يتلقى جان بول تربية فرنسية . سأظل في فرنسا ولكني سأبتعد عن امي ، وسأصنع حيـاةً لنفسي . ربما في الريف . سأسكن في ناحيةٍ ما ، مع جيز . وسنشتغل ونربي هذا الصغير كما يجب ان يكون ، كما كان يريده جاك ان يكون .
فقال انطوان بحرارة :
ــ جني . آمل انا اكون في ذلك الوقت قداستعدت حياتي كطبيب واستطيع ان آخذ على عاتقي ..
فقاطعته بحركة من الرأس :
ــ شكراً . لن اتردد ابداً في قبول مساعدة منـك اذا لزم الأمر . ولكني

احرص قبل كل شيء ان اكون امرأة تكسب معيشتها. اريد ان تكون أم جان ـ بول امرأة مستقلة، امرأة تؤمن بعملها الحق في ان تفكر بما تشاء وتتصرف وفقاً لما تعتقد انه صالح . اتراني مخطئة ؟

ـ كلا .

فشكرته بنظرة محبة . وكما لو انها انهت قول ما تريد ان يعرفه ، فتحت الباب ودخلت الدرج امامه . وقادته حتى غرفته ، ووضعت فيها مصباح الصالون ، وتأكدت من انه لا ينقص شيء . ثم مدت يدها اليه :

ـ اريد ان اعترف لك بشيء يا انطوان .

فقال ليشجعها : نعم .

ـ حسناً .. لم تكن عواطفي نحوك .. دائماً كما هي اليوم .

فاعترف مبتسماً ! ولا انا .

وترددت في الاستمرار، بسبب تلك الابتسامة. وتركت يدها في يد انطوان ونظرت اليه بوقار ، وقررت اخيراً :

ـ ولكن الآن حين افكر بمستقبل الصغير فإنني .. كما تفهم، ان هذا يزيد من شجاعتي حين افكر انك ستكون هنا، وان ابن جاك لن يكون غريباً بالنسبة اليك .. يجب ان تشير علي يا انطوان . يجب ان يكون لجان بول كل صفات والده دون ان يكون له ..

ولم تجرؤ على اتمام عبارتها . ولكنها اعتدلت فجأة (وشعر باليد الصغيرة ترتعش بين اصابعه) وتابعت وهي تبتلع ريقها ، شبيهة بفارس يأتي الى أمام العائق بفرس حرون :

ـ لم تغب عني عيوب جاك . ـ وصمتت من جديد ، ثم اضافت وعيناها في البعيد ، كجملة معترضة لاارادية : ـ ولكنني كنت انساها منذ ان يكون موجوداً .

ورفت جنونها ، وبحثت عن تتمة افكارها على غير طائل . وسألت :

– لن تذهب ، إلا بعد الفطور ، اليس كذلك ؟ اذن . – وبذلت جهداً لتبتسم : – اذن سنشاهد بعضنا البعض قليلاً في الصباح – وخلصت يدها وتمتمت : – استرح جيداً .

وابتعدت دون أن تلتفت ·

١٣

اعلن الخادم القديم بسرور :

– الدكتور تيبو .

وفيليب جالس إلى طاولة في مكتبه يكتب بعض الرسائل بانتظار مجيء انطوان · وقد نهض بسرعة · وبخطوته القافزة المخلعة تقدم نحو انطوان الواقف على العتبة · وقبل أن يمسك يديه شمله باحدى تلك النظرات الحادة التي كانت تبدو لامعة بين جفونه الطارفة ؛ وهز رأسه قليلاً ، بتلك الابتسامة الساخرة التي تساعد على إخفاء تأثره :

– أنت رائع يا عزيزي في هذا الأفق الأزرق ! كيف الحال ؟

وفكر انطوان : « لكم شاخ ! » .

كان كتفا فيليب متقوسين ، وجسمه الطويل اسوأ متانة على ساقيه من السابق . والحاجبان الشائكان . واللحية الشبيهة بلحية المعزاة ، اصبحت بيضاء تماماً ؛ ولكن الحركات ، والنظرة ، والابتسامة احتفظت بحيوية وشباب ، وحتى بفراهة مدهشة ، كأنها في غير موضعها في وجه ذلك الرجل العجوز .

وكان يرتدي سترة ذات اطراف متدلية مدعوكة ، على بنطلون قديم عسكري احمر ذي شرائط سوداء . وهذا الزي المختلط كان يرمز تماماً إلى وظائفه التي نصفها مدني والنصف الآخر عسكري . فقد عُين منذ نهاية عام ١٩١٤ على رأس لجنة مكلفة بتحسين الخدمات الصحية في الجيش . ومنذ ذلك التاريخ جعل لنفسه مهمة ، هي الكفاح ضد عيوب تنظيم بدا له معيباً بشكل فاضح . وشهرته في عالم الطب وفرت له استقلالاً غير عادي · وقد هاجم

الانظمة الرسمية ؛ وشهّر بسوء الاستعمال وانذر السلطات ؛ والاصلاحات الناجحة ، ولكنها متأخرة ، والتي تمت في هذه السنوات الثلاث الاخيرة ،كانت مدينة في قسم كبير منها إلى حملاته الباسلة المتصلبة ٠

كان فيليب لا يزال يمسك بيدي انطوان ويهزهما بتراخ ، ويخرج بعض النقنقات الصغيرة المبللة :

– هيا ! ٠٠ اجل .. منذ زمن ! كيف الحال ؟ – ثم دفع انطوان نحو مكتبه – لدينا الكثير مما نقوله بحيث لا نعرف من أين نبتدىء ٠٠

واجلس انطوان على الكنبة التي يعطيها لزبائنه ؛ ولكن بدلاً من ان يذهب ويجلس وراء طاولته ، فانه مد ذراعه وأمسكه كرسياً متحركاً وجلس منفرج الساقين بالقرب من انطوان وأخذ يتفرس به .

– لنرى يا عزيزي . لنتكلم عنك . حكاية الغاز تلك ، اين اصبحت ؟

واضطرب انطوان ٠ لقد رأى مئة مرة على قسمات فيليب هذا الاهتمام وتلك الرصانة المهنية ؛ ولكنها كانت المرة الأولى التي كان هو موضوع ذلك .

– أتراني في حالة التلف يا معلم؟

– قد هزلت قليلاً ٠ وهذا لا يدعو كثيراً للدهشة .

ورفع فيليب نظارته ومسحها واعاد وضعها باعتناء ، وانحنى وابتسم :

– اذن تكلم !

– حسناً يا معلم . انا ما يسمونه باحترام : **المتسمم كثيرا بالغاز** ٠ وهذا ليس عجيباً .

واتى فيليب بحركة ملل صغيرة :

– تا ، تا ، تا ... لنبدأ من البداية . جرحك الأول ؟ ماذا بقي منه ؟

– لو ان الحرب انتهت بالنسبة الي في الصيف الماضي ، قبل لقائي مع قنابل الغاز السام ، لبقي منه شيء قليل جداً . . وقد تنشقت منه شيئاً قليلاً . وما كان يجب أن اكون في حالتي هذه ٠ولكن من الراهن ان الاضرار الناتجة عن

الغاز قد زادت خطورتها في الناحية اليمنى ، بسبب حالة الرئـة ، تلك التي ثقبت ولم تعد اليها مرونتها العادية .

وكشر فيليب . وتابع انطوان مفكراً :

– نعم . لقد اصبت اصابة بالغة ويجب ألا أوهم نفسي .. مع العـلم أنني سأشفى ، ولكن هذا سيحتاج الى وقت طويل . و .. – وقاطعته نوبة سعال لبضع ثوان – ومن المحتمل جداً أن يتعرقل سيري في بقية المسافة .

وسأل فيليب فجأة :

– أتتغدى معي ؟

– بطيبة خاطر يا معلم . ولكني كتبت لك عن ذلك ، فأنا في الجيش ..

– اصبح دنيس على علم بذلك .. سيتموّن حليباً .. اذن لو تغديت فلدينا الوقت كله . لنعد من الأول . كيف حدث هذا ؟ كنت أظنك في منجى ..

فهز انطوان كتفيه بغضب :

– ببلاهة ! كان ذلك في تشرين الثاني الماضي. وكنت في تلك الفترة مطمئناً في إبرناي حيث كُلفت – وهو اختيار مسبق دون شك – بتنظيم خدمـة للمصابين بالغاز السام . وكنت قد دهشت ، على اثر عمليات جديدة في قطاع شيمان دي دام ـ وكنا قد بلغنا مالميزون ، بارني ـ من أن أتأكد ، بين المتسممين بالغاز الذين أرسلوا إلي ، من وجود عدد كبير من الممرضين وحمـلة المحفـّات . وهذا لم يكن طبيعياً . وتساءلت اذا كانت الاحتياطات ضـد الغاز كافية في مراكز النجدة . وفيما اذا كان الأشخاص المكلفون قد اتخذوها بشكل حسن . كنت أريد أن أظهر حمية . وكنت على معرفة قليـلة بالطبيب مدير المفرزة . ونلت اذناً بالذهاب والقيام ببحث في مكان العمل . وعند عودتي من هذه الجولة وقعت في الخطأ الفادح كالأبله . كان البوش قد قاموا بهجوم بالغاز حين كنت عائداً من الخطوط : اول نحس . والنحس الثـاني : طقس رطب فاتر رغم الفصل . وتعلم ان الرطوبة تجعل المتسمم بالغاز أقل مهارة بسبب ردود فعل الأسيد .

وقال فيليب :أكمل .

وكان قد وضع مرفقيه على ركبتيه ، وذقنه على قبضتيه ، وثبت نظره على انطوان .

- اسرعت لأجد السيارة التي تركتها في مركز الفصيلة . كنت أريد أن أتجنب الممرات الضيقة المزدحمة بجنود المناوبة . ورأيت أن آخذ طريقاً مختصراً . وكانت ليلة سوداء. وغصت في الوحل عشرين دقيقة ، في خندق مليء بالماء حتى نصفه اني أدلي اليك بالتفاصيل ..

- ألم يكن معك كامة ؟

- بلى ، بالتأكيد . ولكنها كامة مستعارة .. ومما لا شك فيه أنني لم أحسن تثبيتها ، أو بعد فوات الأوان . ولم يكن لدي سوى فكرة : إيجاد السيارة . وحين وصلت أخيراً الى المركز وثبت الى السيارة وسرنا . وكان من الأفضل لو كنت توقفت عند عربة الاسعاف التابعة للمفرزة وتغرغرت حالاً بالبيكاربونات .

- نعم ، دون أي شك .

- ولكن لم يكن يساورني الشك انني أصبت . ولم أشعر بالحكة في العنق وتحت الإبط الا بعد ساعة .. وعدنا إلى إبرناي في منتصف الليل . وضعت حالاً دواء من الكولارغول Collargol ، ونمت . وكنت أفكر دائماً أن الأمر ليس هاماً ، ولكن الشجرة الرئوية كانت مصابة أعمق مما ظننت .. وأنت ترى كم هذا مضحك : ذهبت الى هناك لأتأكد اذا كانوا قد اتخذوا جميع الاحتياطات النظامية ، ولم أهتم ، أنا نفسي ، باتخاذ هذه الاحتياطات .

فقاطعه فيليب : إذن ؟

وخضع للرغبة في اظهار عدم جهله بالقضية فقال :

- في الغد عوارض عينية وعوارض هضمية . الخ ..

- لا هذه ولا تلك . في الغد لا شيء تقريباً . في الغد أريتيم Érythème

خفيف في الابطين . بعض الأعراض الجلدية التي تبدو خفيفة . ولا يوجد فليكتيم Phlyctème . ولكن في شعاب الرئة ، أضرار شديدة العمق لم تكتشف الا بعد بضعة أيام . وأنت تدرك الباقي : التهاب متتابع في الحنجرة والقصبة الهوائية .. نزلات صدرية حادة مع أغشية مزيفة .. النتائج الكلاسيكية ، ماذا ! وقد دام هذا منذ ستة أشهر .

– والأوتار الصوتية ؟

– في حالة يرثى لها ! وقد سمعت صوتي . وهذا المساء أيضاً ، بفضل الاعتناءات التي قمت بها طوال النهار ، استطيع الكلام . وفي أغلب الأحيان ، هو الفقد الكامل للصوت .

– التهابات في الأوتار الصوتية .

– كلا .

– التهابات عصبية .

– ولا هذا . تراكم العصابات البطينية المتورمة هو الذي سبب فقدان الصوت .

– بالتأكيد وهذا يجب أن يمنع كل اهتزاز . هل جعلوك تأخذ الستركنين ؟

– حتى ستة أو سبعة ميللغرام بالنهار . دون أي تحسن . ولكن مع نوبات أرق جميلة .

– منذ متى وأنت في الجنوب ؟

– منذ أول السنة . لقد أرسلت أولاً الى إبرناي الى مستشفى مونموريون ، ثم إلى ذلك المستشفى في موسكيه بالقرب من غراس . وذلك في نهاية كانون الأول . والأضرار الرئوية بدت آنذاك انها في طريق الالتئام . ولكن تأكدوا في موسكيه من وجود التيبس الرئوي . وضيق النفس اتخذ بسرعة صفة مؤلمة ، دون سبب ظاهر . والحرارة كانت ترتفع فجأة الى ٣٩،٥ حتى ٤٠ ثم تسقط ايضاً بسرعة حتى ٣٧،٥ درجة . وفي شباط أصبت بالتهاب الغشاء الجنبي الجاف مع ثفل ملوث بالدم .

– ألم تكن تحدث لك هذه التقلبات الكبيرة في درجة الحرارة ؟
– بلى .
– وإلى ماذا عزوتها ؟
– الى العفونة .
– عفونة مستترة ؟
– أو لنوع من العفونة المزمنة . من يعلم ؟
وتلاقت نظراتها . ومر في نظرة انطوان ألق استفهامي . ومد فيليب يده :
– كلا ، كلا يا تيبو ! اذا كنت تفكر بهذا فانك تقلق نفسك خطأ . ان التطور نحو السل الرئوي لم يتأكد ابداً ، حسب علمي ، في حالات من هذا النوع . ويجب أن تعرف هذا افضل مني . فالمصاب بالغاز السام لا يصبح مسلولاً الا اذا ظهرت عليه أعراض **سابقة** لاستنشاق الغاز . – واضاف وهو يعتدل : –ومن حظك أنه ليس لديك أية سابقة مرضية من الناحية التنفسية .
وابتسم بهيئة واثقة . وتفحصه انطوان صامتاً . وفجأة شمل معلمه القديم بنظرة مودة وابتسم بدوره وقال :
– نعم ، اعرف ذلك . انه حظ .
وتابع فيليب كأنه يفكر بصوت مرتفع :
– وأيضاً ، فإن الارتشاح في النسيج الخلوي الرئوي ، والذي هو مألوف ، كما اعتقد ، عند اولئك الذين أصيبوا بالغازات الخانقة ، هو نادر جداً عند المصابين بالغازات السامة . وهذا أيضاً حظ.. ثم ان الاضطرابات الرئوية الناتجة عن الغاز السام هي أكثر ندرة ، كما أعتقد ، وأقل خطورة بوجه عام من تلك التي تنتج عن الغازات الأخرى ، اليس كذلك ؟ وفي المدة الأخيرة قرأت مقالاً عن ذلك .
فقال انطوان :
ـ مقال آشار ؟ ـ وهز رأسه ـ يعتقد بوجه عام أن الغاز السام ، بعكس

الغازات الخانقة ، يهاجم الشعاب الصغيرة أكثر من النخاريب، ويفسد المبادلات الغازية بشكل اقل عمقاً . ولكن اختباري الشخصي والتحقيقات التي استطعت اجراءها على آخرين جعلتني ارتيابياً . والصحيح مع الأسف ، هو أن الرئات المتسممة بالغاز تقدم جميع انواع الآفات الثانوية ، الكثيرة التمرد في معظمها ، والتي ترمي إلى أن تصبح مزمنة . ولاحظت أيضاً عند متسممين بالغاز عدة حالات ينتهي فيها التيبس في النخاريب الرئوية الى سد الرئة .

وساد صمت . واستفهم فيليب :

– من ناحية القلب ؟

– حتى الآن لايزال يقاوم تقريباً . ولكن لكم من الوقت ؟ سوف يكون من الجنون أن تطلب من القلب ألا يتقهقر ، حين يكون منذ أشهر مركز مقاومةٍ لجهازٍ مضنى ومسمم . وأتساءل ايضاً اذا لم يكن التسمم قد بدأ يجتاح الألياف العضلية والمراكز العصبية . وفي هذه الأسابيع الأخيرة تأكدت من بعض الاضطرابات في عروق القلب .

– أمتأكد ؟ وكيف ؟

– لم أستطع بعد أن أجري فحصاً بالأشعة ! وعند الكشف فان اولئك الذين يعتنون بي يؤكدون أنهم لم يجدوا شيئاً . ولكن هل هذا صحيح ؟ هناك طرق اخرى للاستقصاء : معرفة النبض والضغط . أجل ، بدون أن تتجاوز درجة حرارتي ٣٨،٥ أو ٣٩ ، فقد لاحظت ، في وقت ليس أبعد من الاسبوع الأخير ، سرعات غير عادية ، تتغير بين ١٢٠ و ١٥٠ . ولن أدهش اذا كان هناك علاقة بين هذا الخفقان السريع وبدء ارتشاح في النسيج الخلوي الرئوي .. وأنت الست كذلك ؟

فتجنب فيليب السؤال بمهارة :

– لماذا لا تخفف عمل القلب بواسطة (كاسات هواء) متواترة أو عمليات فصد صغيرة عند الحاجة ؟

وبدا انطوان أنه لم يسمع . كان ينظر بانتباه الى معلمه العجوز . فابتسم

هذا وسحب من صدرته الساعة الذهبية الكبيرة ذات الغطائين ، والتي كان انطوان يعرفها دائما ، وانحنى (كانه كان خاضعا لعادة قديمة أكثر منه لفضول حقيقي) وامسك بين اصابعه معصم انطوان .

ومضت دقيقة طويلة ، وظل فيليب جامداً وعينه ثابتة على عقرب الساعة . وفجأة ، احس انطوان بصدمة : فمنظر هذا الوجه المنقبض الغامض بعث من اعماق ذاكرته تذكاراً واضحاً جداً ومنسياً منذ وقت طويل . فذات صباح ، في المستشفى ، وفي بدء علاقاته بفيليب ، بينما كانا خارجين معاً من قاعة المعاينة حيث كان فيليب قد شخص حالة مرض مقلقة بشكل خاص . وقد امسك انطوان من ذراعه بكثير من الدعابة والثقة : «ترى يا عزيزي ان على الطبيب قبل كل شيء ، وفي حالة صعبة ، ان يستطيع عزل نفسه ، ويفكر . نعم ، ولأجل هـذا هناك وسيلة لا تخطىء : الكرونومتر ! يجب ان يكون لدى الطبيب ، في جيبه ، كرونومتر كبير وجميل ، ورائع ، وعريض كالطاسة ! وبهذا ينجو . يمكن ان تهاجمه عائلة قلقة ، ويمكن ان يوجد في شارع أمـام ضحية حادث ، في وسط جمهور يضغط عليه بالأسئلة ؛ فاذا أراد التفكير ، إذا أراد ان يتركوه بسلام ، فليس عليه الا ان يقوم بالحركة السحرية : يسحب بصلته علانية ويجس النبض ! وعندئذ يحدث الصمت التام ، الوحدة ! ومـا دام هناك وعينه على ميناء ساعته ، فباستطاعته ان يزن « المع » و « العلى » بهدوء ، ويشخص مرضـه بكثير من عملية جمع الحواس ، كما لو انـه في غرفته ، ورأسه بين يديه .. ثق بتجربتي يا عزيزي ، وأركض واشتر كرونومتر جميلا ! » .

لم يكن فيليب قد فطن إلى اضطراب انطوان . وقد ترك المعصم واعتدل بدون سرعة :

– نبض سريع بالتأكيد . مهتز قليلاً ولكنه منتظم .

– نعم . وفي بعض الأيام ، بالعكس ، وخصوصاً في المساء يكون خفيفاً ، رخواً يصعب امساكه . فسّر هـذا . ثم ، في فترات الاضطرابات الرئوية الشديدة ، تعود السرعة إلى الظهور .. متقطعة بشكل عام .

– هل جربت الضغط العيني ؟
– لم يأت بأية تبطئة ذات قيمة .
وساد صمت جديد . وصرح انطوان بابتسامة مرغمة :
– انا الآن مصاب بضعف في الرئة ، وسيأتي اليوم الذي اصاب فيه بضعف القلب ..
فأوقفه فيليب بحركة :
– اسكت ! ان التوتر في الأوعية الدموية ، وخفقان القلب السريع ، ليسا في الغالب سوى اعراض دفاعية بسيطة يا تيبو . اني لا اعلمك شيئاً . ففي حالة الانسدادات الضعيفة لعروق الدماغ فان القلب يكافح بانتصار بواسطة توتر الأوعية الدموية والخفقان ، ضد انسداد النخاريب الرئوية . وقد اثبت روجيه ذلك ، وآخرون غيره من بعده .
لم يجب انطوان بشيء ، وجعلته نوبة سعال جديدة ينطوي . وسأل فيليب دون ان يبدي انه يعلق اهمية كبرى على سؤاله :
– ما هي العلاجات ؟
حين استطاع انطوان الكلام رفع كتفيه بعياء :
– كل شيء ! لقد جربنا كل شيء..ومن الطبيعي بدون افيون.. كبريت .. وثم ارسنيك .. وكبريت أيضاً – وارسنيك ..
كان صوته ابح ، ضعيفاً ، متقطعاً . وصمت . هذا الحديث الطويل قد أتعبه . فألقى رأسه إلى الوراء ، وظل بضع ثوان مستقيم الجذع، مستند الرقبة ، مغمض العينين . وحين فتح جفونه فاجأ نظرة فيليب موجهة اليه ومطبوعة بعذوبة كبيرة . هذا التعبير من الطيبة بعث فيه من الاضطراب اكثر مما يبعثه موقف قلق . وتلجلج :
لم تكن تنتظر ان تجدني بهذه ..
فقاطعه فيليب ضاحكاً :
– بالعكس ! لم أكن انتظر، وفقاً لرسالتك الاخيرة ، ان اجدك على الطريق

المستقيم – وقطع كلامه وأضاف : – الآن ، احب ان اسمع ما يجري في الداخل .

فبذل انطوان جهداً ليقف . وخلع سترته . فقال فيليب بمرح :

– لنعمل الاشياء وفقاً للقواعد . تمدد هنا .

واشار إلى الكرسي الطويل المغطى بقماش ابيض ، والذي كان يمدد زبائنه عليه ، واطاع انطوان . وركع فيليب أمامه ، وبدأ صامتاً ، بفحص دقيق . ثم وقف فجأة وقال ، متجنباً نظر انطوان دون ان يظهر ذلك :

– بوه ! بالتأكيد بعض الحشرجات المتفرقة التي يصحبها شهيق . ربما قليل من الارتشاح .. قليل من الاحتقان أيضاً في اعلى الرئة اليمنى كله – وقرر اخيراً ان يدير رأسه نحو انطوان – اني لا اعلمك شيئاً . اليس كذلك ؟

فقال انطوان : كلا .

ونهض ببطء . وقال فيليب وهو يسير بخطوته المخلعة نحو مكتبه حيث جلس أمامه . وسحب قلمه آلياً من جيبه كأن عليه ان يكتب وصفة :

– بالتأكيد . انتفاخ في الرئة . وهذا ليس موضع شك . ولكي أكون صادقاً تماماً ، اعتقد ان من الممكن ان تكون احتفظت وقتاً طويلاً بشيء من الحساسية في الاجهزة التي تفرز المخاط والنخام .

وكان يلعب بقلمه . وحاجباه مرتفعان ، ويتفحص الأشياء الموضوعة على الطاولة لاهياً. وقال وهو يطبق بحركة شديدة دليل الهاتف الذي كان مفتوحاً :

– ولكن ، هذا كل شيء .

واقترب انطوان ووضع كفيه على حافة المكتب . فسدّ فيليب قلمه ووضعه في جيبه ، ورفع رأسه واختتم وهو يشد على الكلمات :

– هذا مزعج . ولكن ليس اكثر !

فانتصب انطوان صامتاً ، وابتعد نحو المدخنة ليضبط طوقه أمام المرآة .

ورنت على الباب طرقتان مكتومتان ، فقال فيليب بنبرة باشّة :

– اصبح طعامنا جاهزاً .

وظل جالساً . وعاد انطوان اليه ووضع يديه من جديد على الطاولة وتمتم بصوت متعب :

– اني بالحقيقة اعمل كل ما يمكن عمله ايها المعـــلم ! واجري بمثابرة جميع العلاجات المعروفة · والاحظ نفسي سريرياً كأن الأمر يتعلق بأحد مرضاي ! ومنـــذ اليوم الأول وأنا اسجل ملاحظات يومية ! ·· واضاعف التحليلات والاشعة ؛ واعيش منحنياً على نفسي لئلا ارتكب هفوة ، لئلا أفلت فرصـــة للعناية – وتأوه – ومع ذلك فهناك أيام تصعب فيها مقاومة خمود الهمة ·

– كلا ! ما دمت تحقق تقدماً ·

فقال انطوان :

– ولكن ذلك لأنني لست متأكداً ابداً من انني احقق تقدماً .

كان يجيب بديهياً دون تفكير · صاح بذلك لا إرادياً تقريباً . وشعر على الاثر بان اضطراباً غير منتظر قد اجتاحه كان ما قاله قد وشى فجأة بفكرة سرية لم يدعها ابداً تصعد إلى السطح بعد ، وتلألأ عرق خفيف فوق الشفة العليا .

هل رأى فيليب هذا الاضطراب ؟ هل أدرك فيه الأمر المؤثر ؟ هل ظـل وجهه هادئاً واثقاً لأنه ظل دائماً مالكاً نفسه ؟ كلا · كان من الصعب جداً الظن بانه يخادع حين نراه يهز كتفيه بمرح ، ونسمعه يقذف بصوته الحاد ، الشديد ، الساخر :

– اتريد أن تقرأ حتى اعماق فكري يا عزيزي ؟ حسناً . اني اقول لنفسي من حسن الحظ ان التقدم بطيء بهذا الشكل – وتذوق دهشة انطوان بضع ثوان – اسمع · من بين ستة من تلامذتي القدماء الذين كنت اعتبرهم كاولادي ، فان ثلاثة قتلوا ، واثنين اصبحوا معوقين مدى الحياة · وأعترف بأنانية انني لم اغضب لأن السادس كان في مأمن . وانه محكوم عليه لعـــدة شهور أيضاً ان يعيش في شمس الجنوب الجميلة ، على بعد الف وخمسماية كيلو متراً عـن الجبهة ! فكر بما تشاء · اني لا احرص على ان اراك وقد شفيت قبل نهاية هذا الكابوس !

ولو لم تصب بالغاز السام في تشرين الثاني الماضي ، فمن يدري إذا كان يظل بامكاننا ان نتناول طعامنا معا كما في هذا المساء ! – ونهض بنشاط : – إلى هناك إلى المائدة !

فقال انطوان لنفسه وقد انتقلت اليه بشاشة صديقه القديم الرائعة المقنعة : « انه على حق ، الاساس متين رغم كل شيء » .

هناك صحن صغير من الحساء يتصاعد منه الدخان على الطاولة في غرفة الطعام . (منذ سنوات وفيليب يتعشى حساء وبعض مربيات الفواكه) .

وجلس انطوان امام الفنجان وزجاجة الحليب المخصصين له .

– لم يسخّن دنيس حليبك ولكن لا يزال هناك وقت .

– كلا ، اني اتناوله بارداً . هذا افضل .

– بدون سكر ؟

ومنعت انطوان نوبة سعال عن الجواب . فاتى باشارة سلبية من يده . وكان فيليب يتجنب النظر اليه ، مقرراً الا يلقي بالاً لهذا السعال والا يتكلم عن الصحة ، وان يعطي الحديث مجرى آخر باسرع ما يمكن ، وكان يدير ملعقته في حسائه بشكل حالم ، منتظراً نهاية السعال . ثم بدأ بنبرة طبيعية ليقطع الصمت الذي اصبح مقلقا :

– لقد قضيت نهاراً أيضا وانا اعارك في لجنتنا الصحية ، ان عدم مطابقة الوصفات الرسمية لحقن المصل ضد الحمى التيفوئيدية لا يصدق .

فابتسم انطوان وشرب جرعة من الحليب لجلاء صوته .

– ومع ذلك فقد قمت بعمل جيد ايها المعلم منذ ثلاث سنوات .

– ليس بدون تعب ، وأوكد لك – وبحث عن موضوع آخر فلم يجد ، وتابع – ليس بدون تعب ! حين كان علي عام ١٩١٥ ان اهتم بتنظيم الخدمات الصحية فلن تتصور ماذا وجدت !

فقال انطوان لنفسه : « كنت في خير مكان لأعرف » . ولكنه كان يريد

ان يتجنب فرص الكلام ؛ فاكتفى بالاصغاء بابتسامة حاذقة . وتابع فيليب :

-- كان ذلك في الوقت الذي كان فيه الجرحى يجلون في قطارات عادية ، تلك التي تأتي بالجنود أو بالاعاشة .. إلا إذا لم تكن عربات للبهائم ! وقد رأيت بؤساء كانوا ينتظرون اربعا وعشرين ساعة في عربات غير دافئة لأنهم لم يكونوا كثيري العدد ليؤلفوا قافلة حسب الانظمة .. وفي أغلب الأحيان كان أهالي البلاد يطعمونهم .. وتضمد جراحهم كيفما اتفق بواسطة سيدات صالحات محسنات ، او بواسطة صيادلة شيوخ من الاهالي ! وحين كان القطار يسير أخيراً كانوا يظلون يومين او ثلاثة متنقلين قبل اخراجهم من قشّهم .. وايضاً ، في كل قافلة تقريباً ، كم كانت النسبة المئوية للمصابين بالكزاز (التيتانوس) ! كانوا يكدسونهم في مستشفيات مكتظة حيث يعوزهم كل شيء ، من الادوية المضادة للتقيح ، والرفادات ، وقفازات المطاط !

فقال انطوان بجهد :

- رأيت على بعد اربعة او خمسة كيلو مترات من الخطوط عربات اسعاف للجراحة .. يغلون فيها الملاقط في طناجر قديمة على نار حطب .

- وهذا ايضاً يمكن ايضاحه عند اللزوم .. فقد كانت هناك كثرة -- وأسمع فيليب ضحكته الصغيرة - العرض يتجاوز الطلب .. والحرب تبالغ في الكسر ولا تطابق تقديرات الانظمة .. - وتابع عائداً الى مظهره الجدي : -- اما ما لا يغفر يا عزيزي فهي الطريقة التي فهمت بها التعبئة الطبية ونُفذت ! لقد كان تحت تصرف الجيش منذ اليوم الاول جسم طبي احتياطي لا مثيل له . وحين كلفت بتفتيشاتي الاولى وجدت اطباء مشاهير امثال دوتش ، وامثال هالوان ، وممرضتين من الدرجة الثانية في عربات اسعاف يديرها اطباء عسكريون في الثامنة والعشرين او الثلاثين من سنهم ! وعلى رأس المصالح الجراحية الكبرى رؤساء جهلة تبدو هيئتهم انهم لم يقوموا بأية عملية سوى الداحوس ، وكانوا يقررون ويقومون بالمداخلات الاكثر خطورة ، ويبترون بدون تمييز ، وبكل بساطة ، لأن على اكمامهم اربعة خيوط ، دون ان يريدوا

الاصغاء الى آراء الاطباء المدنيين المجندين – ولو كانوا جراحين في المستشفيات – والذين كانوا تحت امرتهم ! وظللنا شهوراً . زملائي وانا ، للحصول على الاصلاحات الاكثر بدائية . وكان يلزم تحريك السماء والأرض ليعـــاد النظر بالانظمة ، ولـكي يوكل امر توزيـع الجرحى الى اطباء من المهنة .. للاقلاع مثلاً عن المبدأ الاخرق القاضي بأن تُملأ اولاً المستشفيات الاكثر بعداً ، دون ان يُحسب حساب خطورة الجراح وضرورة معالجتها على الفور .. وكانوا يرسلون بسهولة الى بوردو اوالى بربينيان جرحى في الجمجمة ، ولم يـكونوا يصلون الى المـكان المقصود لأن الغنغرين او الـكزاز كانا يقضيان عليهم اثناء الطريق ! بؤساء كان بالامـكان انقاذهم وذلك باجراء عملية لهم في مدى اثنتي عشرة ســـاعة !

وهبط اشمنزازه فجأة وابتسم :

– اتعرف من ساعدني في بدء حملتي ؟ ستدهش ! واحدة من زبائنك يا عزيزي ! انت تعلم : ام تلك الابنة التي وضعناها معاً في الجبس وارسلت الى بيرك .

فدندن انطوان بسرعة وهو قلق :

– مدام دي باتنكور ؟

– نعم . لقد كتبت لي عنها أتذكر ، عام ١٩١٤ ؟

في شهور الحرب الاولى ، فعلاً ، حين علم انطوان من بطاقة سيمون ان مس ماري تركت المريضة الصغيرة وحدها في بيرك وعادت الى انـكلترا ، طلب من فيليب ان يهتم بهيغيت . فقام هذا برحلة . وقرر ان باستطاعة الفتـاة استعادة حياتها شبه العادية بدون صعوبة .

– لقد التقيت بمدام دي باتنكور عدة مرات في تلك الفترة . كانت تعرف كل باريس ، تلك المرأة ، وقد حصلت لي ، في مدى اربع وعشرين ساعة ، على مقابلة كنت اطلبها منذ ستة اسابيع ؛ وبفضلها استطعت ان ارى الوزير نفسه

على مهل ، وافتح ملفـّاتي ، وكل ما كان يثقل على قلبي .. زيارة دامت ما يقرب من ساعتين يا عزيزي . ولكنها كانت حاسمة .

وصمت انطوان . كان يتأمل فنجانه الفارغ بانتباه لا يبرره شيء في الحقيقة . وفطن الى نفسه ، وسكب فيه قليلاً من الحليب .

وقال فيليب وقد دهش لأن انطوان لم يسأله عن اخبار هيغيت :

ـ لقد اصبحت فتاة جميلة تلك التي كانت تحت حمايتك . لم اغفل عنهـــا ابداً . وهي تأتي لرؤيتي كل ثلاثة او اربعة اشهر .

وكان انطوان يتساءل : « هل عرف بعلاقتي مع آن ؟ » وبذل جهداً ليتكلم :

ـ اتعيش في التورين ؟

ـ كلا ، في فرساي ، مع زوج امها . لقد سكن باتنكور في فرساي ليبقى قريبـــاً من باريس . وشاتينو هو الذي يعتني به .. يا له من سيء الحظ هذا الباتنكور المسكين !

وقال انطوان لنفسه : « كلا ، لو كان يعلم لتجنب كلمة **سيء الحظ** » .

ـ هل عرفت كيف جُرح ؟

ـ بشكل مبهم .. في اجازة اليس كذلك ؟

ـ لقد ظل سنتين في الجبهة دون اي خدش ! وثم ، ذات ليلة ، في سان جوت ـ ان ـ شوسيه ، وكان آتياً في اجازة ، فوقف قطاره في المحطة التي تنظم فيها حركة القطارات . وأثناء هذا التوقف تماماً قذفت طائرات المانيـة المحطة بالقنابل ! وقد التـُقط ووجهه معجون . وفقد عيناً والأخرى مهددة جداً .. وتبعه شاتينو عن قرب . وهو شبه اعمى كما تعلم ..

وتذكر انطوان نظر سيمـون الصافي اللطيف اثناء الزيارة التي قام بها هذا اليه في شارع الجامعة ، قبل التعبئة بقليل ، تلك الزيارة التي جعلت انطوان يقرر قطع العلاقات . وبدأ . وكان لا يكاد يتميز صوته بحيث اضطر فيليب الى الانحناء :

– هل تعيش مدام دي باتنكور معها ؟
– ولكنها في اميركا .
– آه !

لماذا سبب له هذا الخبر نوعاً من التعزية ؟

كان فيليب يبتسم صامتاً ، بينما دنيس وضع على الطاولة جاطاً من الكرز المطبوخ . وتابع فيليب وهو يقوم بخدمة نفسه تاركاً للخادم الوقت ليبتعد : – هوم ! الأم .. مخلوقة عجيبة على ما يبدو ! – واوقف الملعقة مرفوعة : – اليس هذا رأيك ؟

وتساءل انطوان من جديد : « هل يعلم ؟ » وتوصل الى الابتسام مراوغة (كان دائماً يفقد رباطة جأشه بحضور فيليب ويعود آلياً ليصبح التلميذ الشاب الذي طالما ارعبه المعلم) .

– نعم ، في اميركا ! وقد قالت لي الصغيرة في آخر مرة رأيتها : « لقد ذهبت امي دون شك لتستقر في نيويورك حيث يوجد لها كثير من الاصدقاء » . وبناء على المعلومات ، يبدو انها ارسلت الى هناك بمهمة ، من قبل ما لاادري اية لجنة للدعاية الفرنسية .. وهذه المهمة طابقت تماماً إعادة ضابط اميركي برتبة نقيب الى الولايات المتحدة ، وكان يشغل بعض الوقت مركزاً في السفارة في باريس.

وفكر انطوان : « كلا ، بالتأكيد فهو لا يعرف شيئاً » .

وبصق فيليب بعض النوى ، ومسح لحيته وتابع : هذا على الأقل ما يقوله ليبيل الذي يدير المستشفى الذى اسسته مدام دي تنكور في املاكها في تور – مستشفى الا يزال مستمراً في المساعدة بشكل سخي كما يبدو . ولكن اقاويل ليبيل موضع شبهة . ويؤكدون انه هو أيضاً ، رغم صدغيه الأشيبين ، كان .. مساعداً خاصاً .. وهذا ما يفسر سبب تركه كل شيء ليذهب ويدفن نفسه في تورين في اول شتاء من الحرب .. ألم تنه زجاجتك ؟

فتمتم انطوان مبتسماً :

فنجانان ، هذا كل ما استطيع عمله . لقد بت اكره الحليب :

فلم يلح فيليب ، وطوى منشفته بشكل أخرق ونهض :

– لنعد الى تحت ! – وامسك ذراع انطوان بمودة ، وقال وهو يسير الى غرفته : – ارأيت شروط الصلح المفروضة على رومانيا من قبل الوسطيين ؟ مفيدة ، اليس كذلك ؟ هاهم قد تمونوا بالبترول . آه ! انهم لا يزالون يمسكون بالطرف الأفضل . فما هي الأسباب التي تجعلهم يقرون السلام ؟

– دخول الجيوش الأميركية في المعركة .

– باه .. إذا لم يصلوا في هذا الصيف الى نصر حاسم – وهـذا قليل الاحتمال . مع انه يعزى إليهم نية محاولة القيام بهجوم جديد على باريس – ففي السنة القادمة سيجابهون المعدات والجنود الاميركية ، والمعدات والجنود الروس . خزان آخر لا ينضب عملياً .. ماذا تريد ان يحصل من كتلتين متساويتين تقريبـاً تتصارعان ولا تريدان اي تحكيم ، ولا تستطيـع اي منهما ان تخضع الاخرى بتفوق القوة ؟ انهما محكومتان حتماً بأن تتجابها حتى إنهاكهما المزدوج .

– اذن فأنت لا تأمل بشيء من الحس السليم عند ويلسون ؟

– ويلسون يسكن سيريوس .. ثم اني متأكد في الوقت الحاضر انهم لا يتمنون السلام ، لا في فرنسا ولا في انـكلترا ، واتـكلم عن القادة . في باريس كما في لندن ، يريدون نصراً بعناد ؛ وكل ميل الى السلم يوسم بالخيانة . ورجال من امثال بريان هم موضع شبهة . وسيكون ويلسون كذلك اذا لم يكن قد صار الآن .

فقال انطوان ، مفكراً باقوال روميل :

– يمكن ان يجبروا على إحلال السلام .

– لا اعتقد ان المانيا تستطيع أن تكون في حالة تمكنها من فرضه علينـا . كلا . وأكرر لك . انا معتقد بتعادل القوى الحاضرة التقريبي . ولا أرى أي مخرج قبل الانهاك المشترك .

وعاد إلى مكانه ، وراء مكتبه . وانطوان ، المتعب ، أطاع الاشارة الودية التي تلزمه بالتمدد على الكرسي الطويل .

— ربما نعيش كفاية لنرى نهاية الحرب .. ولكن ما لن نراه بالتأكيد هو السلم. أريد أن اقول توازن اوروبا في السلم. — واضطرب اضطراباً خفيفاً واضاف على الأثر : — اقول : نحن ، رغم سنك . فلأيجاد هذا التوازن في رأيي يلزم انتظار عدة اجيال دون شك ! — وقاطع نفسه من جديد ، وألقى نحو انطوان نظرة خلسة ، وجمع لحيته لحظة وتابع هازاً كتفيه بكآبة : — توازن في السلم. هل يمكن تصوره على الاقل مع العناصر الحالية ؟ ان للمثل الأعلى الديموقراطي رصاصاً في الجناح . وكان سامبا على حق : الديموقراطيات لم تُصنع للحرب : انها تذوب فيها كالشمع في النار ، كلما دامت الحرب يقل حظ مستقبل أوروبا في أن يكون ديموقراطيا . ونتخيل جيـــداً في المستقبل الحكم الاستبدادي لواحد مثل كليمنصو او لويد جورج . والشعوب تترك الأمور تسير : فهي معتادة قبلاً على حالة الحصار . انها سوف تتخلّى شيئاً فشيئاً حتى عن ادعائها الجمهوري بالسيادة المطلقة . تأمل فقط ما حدث في فرنسا : توزيع المواد الغذائية المراقب ، حصص الاستهلاك ، تدخل الدولة على كل صعيد ، صعيد الصناعة ، والتجارة ، وصعيد الاتفاقات بين المصالح الخاصة ، - أنظر تأجيل الدفع . — الفكر ، — انظر الرقابة ! اننا نقبل بكل هذا كتدابير استثنائية . ويدخل في الروع انها ضروريات تمليها الظروف . وبالفعل ، فهي تمهيدات للاستعباد الكلي . فاذا أحكم وضع النير مرة فلن يُهز ابداً .

— هل عرفت ستودلر ؟ الخليفة .. مساعدي ؟

— يهودي ذو لحية اشورية وعيني مجوسي ؟

— نعم .. فقد جرح . والآن فهو في ناحية ما على جبهة سالونهيك . ومن هناك يرسل الي من وقت لآخر كتابات تنبؤية على طريقته .. اجل ، ان ستودلر يزعم ان الحرب ستقود حتماً إلى الثورة . عند المغلوبين اولاً ؛ وعند المنتصرين بعد ذلك . ثورة عنيفة ، او ثورة بطيئة ، ولكنها ثورة في كل مكان .

فقال فيليب مراوغاً : نعم .

ـ انه يبشر بافلاس العالم الحديث ، وانهيار الرأسمالية ! وهو ايضاً يعتقد ان الحرب ستدوم حتى انهاك أوروبا . ولكن حين يختفي كل شيء ، حين يصبح كل شيء ممهداً ، فانه يتنبأ بمجيء عالم جديد . ويرى على خرائب مدنيتنا قيام شيء كاتحاد عالمي ، تنظيم حياة كبيرة جماعية على الكوكب ، على قواعد مجددة بكاملها .

وكان قد اجهد صوته للوصول إلى نهاية كلامه . وتوقف وانطوى إلى قسمين بنوبة سعال .

وتبعه فيليب بعينه . ولم يبد انه فطن إلى شيء . وقال بنبرة لاهية :

ـ كل شيء ممكن .

كان دائماً على استعداد ليفلت لمخيلته العنان :

ـ ولماذا لا ؟.. ربما ان الايمان الاعمى عام ٨٩، بعد ان جعلنا نظن لوقت طويل ، ضد جميع حقائق علم الحياة ، ان الرجال متساوون بالطبيعة ويجب ان يكونوا كذلك امام القوانين، ربما هذا الايمان الاعمى الذي عشنا عليه طوال قرن ، يكون قد وصل إلى نهاية فعاليته ، وانه يجب ان يخلي المكان لشيء جميل آخر من نوع يختلف .. ايديولوجية جديدة ، مولدة ، بدورها ، فكراً وعملا ، ستتغذى من الانسانية وتفخر بها ، في وقت ما .. إلى أن يتغير كل شيء مرة أخرى ايضاً .

وصمت بضع لحظات ليترك انطوان يسعل . وتابع بنبرة ساخرة:

ـ هذا ممكن . ولكني اترك هذه الرؤية لصديقك المسيحي .. فالمستقبل الذي أستشفه هو اكثر قرباً ؛ ومختلف تماماً . واعتقد ان الدول غير مستعدة للتخلي عن السلطات المطلقة التي منحتها اياها الحرب . واخشى ايضاً الا يكون عصر الحريات الديموقراطية مقفلا لوقت طويل ، الأمر الذي هو مدعاة لحيرة الناس الذين هم من جيلي ، وأنا مقتنع بذلك . وكنا نظن أن هذه الحريات قد اكتسبت نهائياً ، وانه لا يمكن ان تكون موضع بحث ابداً . ولكن كل شيء

دائماً يمكن أن يوضع موضع بحث ! من يدري إذا لم تكن هذه أحلام ؟ احلام اتخذتها نهاية القرن التاسع عشر كحقائق دائمة، لأن رجال ذلك الزمن كان لهم من الحظ ان يعيشوا في زمن هادىء بشكل غير عادي ، وسعيد بشكل غير عادي.

كان يتكلم بصوته الخشن المخنخن ، كما لو كان وحده ، المرفقان على ذراعي مقعده ، وانفه الطويل المحمر منخفض نحو يديه المضمومتين ، ناظراً الى اصابعه التي كان يعقدها ويحلها بهزات ·

ـ كنا نظن ان البشرية التي بلغت سن الرشد تسير نحو عصر تستعد فيه الحكمة والتدبير والتساهل لتسيطر اخيراً على العالم ·· وحيث الذكاء والعقل يقودان اخيراً تطور المجتمعات البشرية .. من يدري اذا كنا لا نظهر في عيون مؤرخي المستقبل سذّجاً ، جهلة يحدثون اوهاماً تستحق الشفقة حول الانسان وحول قابليته للمدنية · ربما نكون قد اطبقنا اعيننا على بعض معطيات انسانية جوهرية ؟ وربما ، مثلاً ، ان غريزة الهدم ، الحاجة الدورية إلى أن نلقي ارضاً ما بنيناه بتعب ، هي احد تلك القوانين الجوهرية التي تحدد الامكانات البناءة لطبيعتنا ؟ ـ احد تلك القوانين الغامضة الخادعة التي يجب أن يعرفها العاقل ويقبلها ؟ـ واختتم ضاحكاً : ـ ها نحن بعيدون عن تنبؤات خليفتك . ـ وبما ان انطوان ظل يسعل فانه تابع : ـ او تريد ان تشرب شيئاً ؟ جرعة ماء ؟ ملعقة كوديين ؟ كلا ؟

واتى انطوان باشارة رفض · وبعد دقيقتين أو ثلاث (كان فيليب اثناءها يذرع الغرفة صامتاً) شعر بتحسن · ورفع جذعه ومسح الدموع التي سالت على خديه ، وحاول الابتسام . وكانت قسماته شاحبة ، وصبغته محتقنة والجبهة ترشح عرقاً ، وقال وحنجرته ملتهبة :

ـ سأنسحب .. يا معلم .. عفواً · ـ وابتسم من جديد وبذل جهداً ووقف ـ انا في حالة سيئة . إعترف بذلك .

فلم يبد فيليب انه سمع وقال :

ـ يتكلمون ويتنبأون · اني اسخر من **خليفتك** . وأفعل مثله تماماً .. كل

هذا مستحيل . كل ما رأيناه منـــذ اربع سنوات مستحيل . وكل ما تقودنا هذه الاستحالات إلى توقعه مستحيل .. النقد ممكن ، نعم . وبالامكان ايضاً الحكم على ما هو كائن ؛ فهذا ليس مستحيلاً . ولكن أن نريد التنبؤ بمـا سيحدث !... انت ترى يا صغيري اننا نعود دائماً إلى هنا : الموقف الوحيد . كدت أقول : العلمي .. لنكن اكثر تواضعاً .. الموقف الوحيـد المعقول ، الوحيد الذي لا يخدع ، هو البحث عن الخطأ وليس البحث عن الحقيقة ..! الاعتراف بما هو خطأ ، فهذا صعب ، ولكننا نصل اليه : هـــذا كل ما يمكن عمله ! والباقي .. هذر محض !

وانتبه إلى ان انطوان كان واقفاً وهو يصغي اليه ساهياً ، فنهض :

– متى اراك ثانية ؟ متى تذهب ؟

– غداً صباحاً في الساعة الثامنة .

فارتجف فيليب بشكل غير محسوس ، وانتظر بضع ثوان ليستعيد صوته اطمئنانه : آه ، آه !

ثم تبع انطوان الذي سار نحو الدهليز .

كان يتفحص هذا الظهر المقوس ، وتلك الرقبة الهزيلة المفتولة كالحبـــل والبارزة من طوق السترة ، فشعر بالخوف من ان يشي بنفسه ، بالخوف من هذا الصمت ، بالخوف من تفكيره الخاص ، فأسرع بالقول :

– على الأقل ، هل انت مسرور من ذلك المستشفى ؟ هل هم جدّيون هناك ؟ هل هو المستشفى الذي يلزمك ؟

فاجاب انطوان وهو يمشي :

– في الشتاء ، ليس هناك ما هو أفضل . ولكني اخاف الصيف هناك إلى درجة انني افكر بالرحيل إلى غير مكان .. ان الريف هو الذي يلزمني .. بلاد مهوّاة ، غير رطبة .. ربما غابات صنوبر .. اركاشون ؟ حارة جداً اركاشون.. اذن حمامات معدنية في البيرنيه ؟ كونيريه ؟ لوشون ؟

وكان قد بلغ الدهليز ، ورفع ذراعه ليأخذ قبعته حين لفت راسه فجاة قبل

ان يجيب ! « رأيك يا معلم ؟٠٠ » وفجاة ، على هذا الوجه الذي تعلم ، في مدى عشر سنوات من المساعدة ، ان يفك طلاسم اقل تنوع في العينين الصفيرتين الشهباويتين ، الطارفتين وراء النظارة ، فاجأ الاعتراف اللاإرادي ! شفقة شديدة ٠ وكان هذا كحكم . فهذا الوجه وتلك النظرة كانا يقولان : « وما الفائدة ؟ ومايهم الصيف ؟ هناك أو في غير مكان .. لن تفلت . **انت هالك !** » .

وفكر انطوان متخدراً من عنف الصدمة : « بالتاكيد ٠ انا ايضاً **كنت اعرف .. هالك !** » .

وتمتم فيليب بسرعة :

– نعم ، كوتيريه .. – وامتلك نفسه : – ولماذا لا تكون التورين ،بكل بساطة يا عزيزي ؟ التورين ٠٠ او الأنجو .

كان انطوان مثبتاً نظره في الارض ٠ ولم يكن يجرؤ على مجابهة النظرة .. كم ان صوت المعلم يرن خطأ ! كم كان يسبب ألماً .

وبيدٍ كانت ترتجف ، اعتمر قبعته ثم بلغ الباب دون أن يرفع رأسه . ولم يكن لديه سوى فكرة : الاسراع في الوداع . ويكون وحده . – مع رعبه .

وردد فيليب باسترخاء :

– التورين او انجو . سأستعلم وساكتب اليك .

ومد انطوان يده بحركة آلية وعيناه منخفضتان دائماً تحت رفرف القبعة الذي كان يخفي ما يظهر على قسماته من علامات . فامسك بها الطبيب العجوز وأحدثت شفتاه حركة مبللة . وتخلص انطوان ، وفتح الباب ، وسار .

وكان فيليب يقول بصوت مرتجف وهو منحن على الحاجز :

– نعم .. ولماذا لا تكون انجو ؟

١٤

في الخارج كان الظلام مخيماً على المدينة . ومن هناك مصباح مغطى يلقي

على الرصيف دائرة من النور الازرق . قليل من المارة . سيارات قليلة جداً تسير بحذر ، تسبقها ضجة ملحّة من ابواقها .

كان يترنح دون ان يعرف الى اين يسير . فاجتاز بولفـار ماليرب ، واخذ شارع بواسي دانغلاس . وكان يمشي غير مبالٍ بشيء ، على رقبته ثقل ، والنفس قصير ، والرأس رنان فارغ بشكل غريب ، يسير بقرب واجهات البيوت التي كان ذراعه يصدم جدرانها احياناً . ولم يكن يتألم .

ووجد نفسه تحت اشجار الشانزليزيه . وامامه ، من خلال الجذوع ، كانت تمتد ساحة الكونكورد ، وتكاد لا تكون مضاءة ، ولكنها مرئية تحت الضوء الليلي لتلك السماء الربيعية الجميلة ، تخططها العربات الصامتـة التي كانت تظهر كبهائم بعيون فوسفورية ، وتتلاشى في الظلام . وشاهد مقعداً فاقترب منه ، وقبل ان يجلس قال لنفسه بدافع العادة : « يجب الا اصاب بالبرد » . (وليفكر على الأثر : « وماذا يهم الآن ! ») فالحكم السريع الذي التقطه في نظر فيليب كان يعمر ذهنه ، وليس ذهنه فقط ، بل جسده ، شبيهاً بشيء ضخم ، طفيلي ، دمل مفترس اعـاد كل شيء الى الوراء لينفتح بشكل شنيع ويحتل الكائن بكامـله .

انه متكوم على نفسه ، والظهر مستند الى المسند ، والذراعان متصالبان للضغط على ذلك الشيء الغريب الذي انشب مخالبه في لحمه ، والذي يخنقه . كان يعيش أمسيته ذهنياً من جديد . فرأى المعلم منفرج الساقين على كرسيه : « لنبدأ من البداية . جرحك الاول ؟ ماذا بقي منه ؟ » . واستعاد ايضاحاته بتمهل . ولكن شيئا فشيئا ، فان الكلمات التي وافق على قولهـا لم تكن هي نفس الكلمات التي لفظها : وبصفـاء ذهن موضوعي جديد ، اخذ يستعرض الآن حالته تحت يومه الحقيقي .فوصف النوبات المتتابعة بحقيقتها التي لا ترحم ، والتناقض الوقتي لهجوع المرض ، والذي كان يقصر اكثر فأكثر . والانتكاسات التي تكون اكثر شدة في كل مرة. وجعل من اشتداد المرض غير المنقطع، والذي لا شفاء منه ، محسوساً واضحاً .

كان يبدو له انه يتابع ، من ثانية الى اخرى ، على وجه صديقه العجوز المضطرب ، تزايد قلق ظاهر ، والاعداد التدريجي لعلامات المرض المشؤوم . ورشحت الجبهة عرقاً ،والنفس متضايق ومؤلم .فسحب منديله وجفف وجهه .

وفي البعيد صوت رتيب ، نوع من الهدير لم يعره سوى انتباه غامض ، بعث الاضطراب فجأة في هدوء المساء .

ورأى نفسه على المقعد الطويل ، بعد الكشف عليه ، يرفع جذعه بمشقة ويهز رأسه باستسلام مراءٍ : «لقد رأيته يا معلم . لا يمكن الاحتفاظ بأقل امل ! » وفيليب يخفض انفه دون ان يجيب .

ونهض عن مقعده بشدة ليقطع المجال على القلق النفسي الممسك بخناقه . وعندئذٍ ، وبينما كان يقف جامداً - كنسمة رطبة آتية من الهاوية - فان فكرة مهدئة مرت في دماغه : نحن الاطباء لنا دائماً ما نلجأ اليه .. إمكان عدم الانتظار .. عدم الالم .

ولم يقف على ساقيه ، فعاد الى الجلوس .

خيالان ، قامتان نسائيتان خرجتا راكضتين من تحت الاشجار . وعلى الاثر تقريباً فان جميع صفارات الانذار اخذت تعوي في الوقت نفسه والنقاط القليلة المضاءة ، والتي كانت تختلج بضعف حول الساحة قد انطفأت دفعة واحدة .

وفكر وهو مرهف الاذن : « لم يكن ينقص الا هذا » . وهزّ الارض دوي بعيد .

ووراءه في الممرات خطى هاربة ، واصوات مذعورة كانت ترتفع مشوشة في الليل ، وجماعات تركض وتغوص في الظلام . شارع غبريال سيارات بدون نور تسير بسرعة . وفرقة من شرطة المدينة مرت بقربه بخطوة رياضية . فظل جالساً ، ثقيل الكتفين ، متطلعاً دون ان يرى شيئاً ، منفصلاً عن كل حادث بشري .

ومضت عدة دقائق دون ان يعي شيئاً . دوي انفجارات خنقها البعد ، ثم

بعض طلقات مدافع متباعدة انتشلته من هذا الوهن . وتساءل « أهي قطع جبل فاليريان ؟ » .

والمكان الذي دل عليه روميل عاد الى ذهنه : ملجأ وزارة البحرية .

في البعيد مدافع مستمرة في النباح بشدة . وتقدم نحو الساحة حتى حافة الرصيف . فوق باريس سماء بديعة اخذت تدب الحياة فيها . حزمات ضوئية منبثقة من جميع نقاط الافق كانت تكنس القنطرة الظلامية ، مادةً ومشابكة سحباتها الحليبية ، فاحصة ، كالنظرة ، برقشة النجوم العنيفة ، السريعة ، او المترددة احياناً ، متوقفة فجأة لتسجل نقطة مشبوهة ، ثم تبدأ فحصها الزالق من جديد .

ولم يقرر النزول الى الطريق ، بل ظل جامداً مكانه ، مرفوع الرأس الى درجة ان الرقبة سببت له ألماً . وفكر : « اتمدد .. اطبق عيني .. منوّم .. انام » .. لم يكن يتحرك ابداً ، هو مشلول بسبب عياء يعجز عنه الوصف . وقال لنفسه : « الافضل ان اعود الى البيت . لو انني فقط اجد سيارة اجرة » . ولكن الساحة كانت الآن قفراء ، مظلمة ، واسعة . ولم تكن تُميز إلا مرة بعد مرة . كانت ترتسم فجأة ، دافقة بنور مظلم تحت الانعكاسات المتقطعة للجهازات المطلقة الاشعة (بروجكتور) ، بدربزيناتها وتماثيلها الشاحبة ، ومسلّاتها ، وينابيعها ، والاعمدة المأتمية لمشاعلها العالية ؛ شبيهة برؤيا حلم ، بمدينة متحولة بفعل السحر ، اثر مدنية مختفية ، مدينة ميتة مدفونة تحت الرمال منذ وقت طويل .

وبذل جهداً ليتغلب على خدره ، وسار دفعة واحدة كالسائر في نومه ، خلال هذا المدفن الكبير . ومشى رأساً باتجاه المسلّة ليبلغ بانحراف زاوية التويلري والارصفة . واجتياز هذه المساحة القمرية تحت هذه السماء المتقلبة بداله غير منتهٍ . والتقى بجماعة من الجنود البلجيكيين كانوا يركضون متفرقين . ثم تجاوزه زوجان عجوزان كانا يركضان متشابكين بشكل اخرق ،

نفايات . والانتفاضة التي قام بها لئلا يفقد توازنه رنت بشكل مؤلم في شعاب الرئة . فنزل على الرصيف مستدلاً بالسماء على الخندق الذي تنيره مطلقات الاشعة . وسمع وراءه دوي . ولم يكن لديه سوى وقت الصعود الى الرصيف . آلتان غريبتان ، معدنيتان ، لامعتان ، مرّتا كالعاصفة انوارهما مطفأة ، تتبعهما سيارة ذات راية صغيرة .

وقال صوت قريب منه : « رجال اطفاء » . كان هناك رجل ملتصق في تجويف باب ، وكل خمس دقائق يمد عنقه ويخرج رأسه كانه يترقب نهاية وابل من المطر .

وتابع انطوان سيره دون اية كلمة . واستولى عليه تعبه ، فكان يتقدم بتثاقل ، جارّاً فكرته الثابتة ، اشبه ما يكون بصاحب مركب مربوط الى زورق . « كنت اعرف ذلك .. كنت اعرفه منذ وقت طويل .. » ما من مفاجأة في شقائه : كان كمن ينحني تحت ثقل ، لا كمن يتلقى ضربة . فالتأكيد الفظيع وجد فيه مكاناً مهيأً ، ونظرة فيليب لم يكن من شأنها سوى انها ازالت منعاً خفياً ، وحررت فكرة واضحة مخبأة منذ زمن طويل في ظلمات العقل الباطن .

في زاوية شارع الجامعة ، على بضع خطوات من منزله ، انتابه خوف : الخوف الراعب من الوحدة التي كانت تنتظره فوق . فتوقف ، مستعداً للهرب . ورفع عينيه آلياً نحو السماء الخالية من الضياء ، باحثاً في رأسه عن واحد يلجأ اليه ، عن واحد يتلمس عنده نظرة اشفاق . وتمتم : « لا يوجد احد » .

عدة دقائق وهو مستند الى الجدار ، بينما اطلاق النار على الحاجز ، وأزيز الطائرات ، وانفجار القنابل الشديد ، كانت تطرّق جمجمته ، ففكر بهذا الامر الذي لا تفسير له : ليس له اي صديق ! كان دائماً يبدو عشوراً ؛ ميالاً الى الاحسان ؛ كان يكتسب محبة جميع مرضاه ؛ وكان دائماً ينال تعاطف رفاقه وثقة اساتذته ؛ وقد احبته بعض النساء حباً عنيفاً ؛ ولكن لم يكن له صديق

واحد ! ولم يكن له ابداً اي صديق .. وجاك نفسه « لقد مات جاك دون ان اعرف كيف اجعل منه صديقاً » ..

واتجه تفكيره فجاة نحو راشيل . آه ، كم يكون جميلاً هذا المساء ان يتلبد بين ذراعيها ، وان يسمع الصوت المداعب الحار متمتماً كما في السابق : مينو Mon minou .. راشيل ! اين هي ؟ ماذا حل بها ؟ عقدها موجود فوق .. واجتاحته الرغبة في ان ياخذ بين اصابعه تلك البقية من الماضي ، وان يلامس تلك الحبوب التي تصبح فاترة بسرعة كالجسد ، والتي كانت رائحتها المذكرة بالماضي كانها وجود .

وانفصل عن الجدار بجهد ، مترنحاً قليلاً ، واجتاز الامتار القليلة التي كانت تفصله عن الباب .

١٥

رسائل

ميزون ، في ١٦ ايار ١٩١٨

الانفجارات التي عجنت فخذي جعلت مني كائناً دون جنس . ولم استطع ان اقرر القيام بهذا الاعتراف بصوت حاد . انت طبيب ، وربما تكون قد ادركت ذلك . حين تحدثنا عن جاك ؛ وحين قلت لك انني احسده على مصيره ، تطلعت الي بشكل غريب .

إتلف هـــذه الرسالة ، لا اريد ان يعرف احد ، لا اريد ان اكون موضع رثاء . فقد انقذت جلدي ، ووفرت لي الدولة مالاا كون معه عالة على احـــد ، وكثيرون يحسدونني ، وهم على حق دون شك . ما دامت امي حية ، كلا ؛ ولكن اذا فضلت الاختفاء ذات يوم ، فيما بعد . فانت وحدك ستعرف لماذا .

أشد على يديك .

د . ف .

(دانيال دي فونتانان)

ميزون – لافيت ، ٢٣ آيار

عزيزي انطوان

ليس هذا لوماً . ولكننا على شيء من القلق ، فقد وعدت بالكتابة الينا ، ومرّ الاسبوع كله دون خبر . أتكون هذه الرحلة الطويلة قد اتعبتك اكثر مما كنا نعتقد ؟

بودي لو اقول لك عما حملت الي زيارتك من تعزية . هذه اشياء لا اعرف ان اقولها ، ولا اعرف حتى ان اظهرها ، ولكن منذ رحيلك ، يخيل الي انني لا ازال كثيرة الوحدة .

بمودة . **جني**

ميزون – السبت ٨ حزيران ١٨

عزيزي انطوان

الايام تمر . مضى على تركك ميزون ثلاثة اسابيع ودائماً لا شيء منك ، ولا خبر . وقد بدأت أقلق جيداً ، ولا استطيع ان اعزو هذا الصمت الا إلى حالتك . واني اسألك بالحاح ان تقول الحقيقة .

لقد انتابت الصغير حمّى شديدة لبضعة أيام بسبب التهاب اللوزتين ، وهو يتحسن ولكني لا ازال أبقيه في الغرفة ، وهذا ما يعقد الحياة قليلاً في البيت . تصور ، كلنا نشعر انه كبر أثناء هذه الأيام الثمانية في السرير ، ولكن هذا غير ممكن أبداً ، اليس كذلك ؟ واشعر أيضاً ان ذكاءه قد نما اثناء هذا المرض الخفيف ، فاخترع كمية من الحكايات ليشرح على طريقته صور كتبه والرسوم التي يصنعها له دانيال . لا تسخر مني ، فاني لا أجرؤ على قول ذلك إلا لك : اني اجد هذا الولد شديد الملاحظة بشكل غير عادي في سنواته الثلاث. واعتقد حقيقة انه سيصبح شديد الذكاء .

باستثناء ذلك لا يوجد خبر جيد جديد هنا . فقد تلقى المستشفى الأمر باخراج اكثر ما يمكن من الناقهين لإفساح المجال . وقد اضطررنا إلى اعادة

اشخاص كانوا يحسبون انه لا يزال لديهم عشرة أو خمسة عشر يوماً من الراحة . وعندنا قادمون جدد كل يوم . وقد استعارت امي من الجيران الانكليز الدارة الصغيرة ذات نبات الغليسين (١) ، والتي كانت غير مأهولة ، الأمر الذي يزيد الاسرّة عشرين سريراً ، وربما اكثر . ونيكول تلقت رسالة طويلةمن زوجها . وقد تركت عربته الجراحية شامبانيه لتذهب إلى ناحيـــة بلفور . ويقول ان الخسارة في شامبانيه رهيبة . حتى متى ؟ حتى متى سيدوم هذا الكابوس ؟ ان سكان ميزون الذين يذهبون يومياً إلى باريس يقولون ان قذف القنابل بدأ يضعضع كثيراً .

عزيزي انطوان ، حتى لو اخبرتني عن انتكاس خطير ، قل لي الحقيقة ، ولا تتركنا وقتاً طويلاً في هذا الريب .

صديقتك ، جني

غراس ١١ - ٦ - ١٨

الحالة الصحية ليست علىما يرام ولكن بدون خطورة خاصة حالياً. سأكتب اليك في بضعة أيام .

بمودة تيبو

موسكيه ، ١٨ حزيران ١٩١٨

عزمت اخيراً على الكتابة اليك يا عزيزتي جني . كنت على حق في تخوفك علي من تلك الرحلة الطويلة . منذ عودتي ، فان انذاراً خطيراً جداً وضعني في السرير مع تقلب مقلق في درجة الحرارة . علاج جديد ، اعتناءات نشيطة بدت انها اهاجت تقدم المرض مرة اخرى أيضاً ، منذ اسبوع نهضت مـــن جديد واستعدت مجرى حياتي شيئاً فشيئاً . ولكن هذا الانتكاس ليس سبب صمتي .

---

١ - غليسين glycine : نبات متفرع على شكل فراشة .

انت تطلبين مني الحقيقة . هذه هي : لقد حدث لي هذا الأمر الرهيب : لقد علمت وأدركت انني محكوم علي ، دون عودة . وهـــذا سيدوم بضعة اشهر دون شك . ومهما صنعوا لي فلن استطيع الشفاء .

يجب على المرء ان يمر بهذا ليفهم . ان جميع نقاط الارتكاز تنهار أمام إفشاء سر كهذا .

عفواً لأني أقول لك ذلك دون مواربة . ان كل شيء يصبح قليل الأهمية ، غريباً ، بنظر ذلك الذي يعلم انه سيموت . سأكتب اليك .. اني غير قادر اليوم على الكتابة زيادة عن ذلك .

بمودة . **انطوان**

اطلب اليك ان تحتفظي بهذا الخبر لنفسك وحدك .

موسكيه ، ٢٢ حزيران ١٨

كلا يا عزيزتي جني ، ليس كما تظنين (أو تتظاهرين بالظن) انني أقـــاوم ضد مخاوف وهمية . بودي لو كانت لدي الشجاعة لأعطيك مزيداً من التفاصيل. سأجرب ان اكتب اليك اليوم بشكل اقل ايجازاً .

اني أمام واقع . امام يقين . فقد انقضّ عليّ يوم تركتكم ، آخر يوم قضيته في باريس : اثناء حديث مع معلمي العجوز الدكتور فيليب . فللمرة الأولى ، وبواسطة استقصاء مدينٍ لوجوده دون شك ، أستطعت ان اصدر على حالتي حكماً موضوعياً جلياً ، وتشخيصاً صادراً عن طبيب . لقد ظهرت الحقيقة في لمحة البرق .

وقد اتسع وقتي للتفكير في ذلك أثنـــاء رحلتي . كانت لدي الملاحظات اليومية التي اخذتها من البدء والتي تسمح باتباع الايقاع المنتظم المستمر للخطورة، يوماً فيوماً ، ونوبة بعد نوبة . وكان لدي أيضاً الملف الذي انشأته هذا الشتاء ، والذي يحتوي تقريباً على جميع الملاحظات السريرية والتقارير الطبية من فرنسية وانكليزية ظهرت في المجلات المختصة منذ استعمال الغاز . كل هذا ، وما كنت

اعرفه ، تمثل لي تحت ضوء جديد . كان كل شيء يثبتني في يقيني . وعند عودتي إلى هنـا ، ناقشت حالتي مع الاختصاصيين الذين يعتنون بي ، ليس كالسابق ، كمريض يظن نفسه على طريق الشفاء ويقبل كل ما يوطد ثقته ، بل كزميل عالم ، مسلح جيداً ، لا يُخدع أبداً بأكاذيب ورعة . وقد حصرتهم بسرعة في مواقف مراوغة ، في صمت معبر ، وفي إقرارات نصفية .

واقتناعي الآن يرتكز على قواعد لا جدال فيها . فلو اخذنا بعين الاعتبار تطور التسمم منـــذ سبعة اشهر ، وفتكاته التي لم تنقطع ، فليس لي أي حظ – بالتدقيق ، ولا أي حظ – في ان اشفى . حتى ولا ان ابقى في حالةمتوقفة ، مزمنة تجعل مني معوهاً مدى الحيـــاة . كلا ؛ أنا كرة على منحدر ، محكوم عليها بالتدحرج حتى الاسفل ، وان تزداد سرعة تدحرجها . كيف استطعت ان اخدع نفسي وقتاً طويلا ؟ طبيب ، يا لها من سخرية ! اني اجهل المهلة ، فهذه تتوقف على نوبات المستقبل، واهميتها ومدة دوام أدوار هجوع المرض الوقتي . واستطيع وفقاً لصدف الانتكاسات وفعالية العلاج الوقتية ان اقدّر شهرين أو – كحد نهائي – سنة لأموت . ولكن الميعاد محتوم ، وهو قريب . ويوجد في بعض الحالات ما تدعونه « معجزات » . ففي حالتي ، كلا . فحالة العلم الحالية لا تسمح بأقل أمل ، تأكدي انني لم اكتب هذا كمريض يدافع عـــن الأسوأ طالباً المناقضات المطمئنة ، بل كطبيب مزود بالمستندات جيداً أمام مرض مميت ، مصنف نهائياً . وإذا اصررت هكذا ، برصانة ، فلأن ..

– ٢٣حزيران – اني ارجع إلى هذه الرسالة التي بدأتبها البارحة وقطعتها . لا ازال غير مسيطر على نفسي بشكل كاف لأخضع لفترة انتباه طويـلة . ولا اعرف ماذا كنت أريد قوله بعد . اني اكتب برصانة . وهـذا الهدوء النسبي أمام القدر – هدوء غير مستقر مع الاسف لم ابلغه دون اجتياز ثورة داخلية مخيفـة .

اثناء النهارات ، وليالي الأرق التي لا تنتهي ، كنت اعيش في اعماق مهواة . عذابات الجحيم . لا استطيع ان افكر بها دون ان يستولي عـــلي برد مخيف ،

وارتجاج في كل كياني . ما من أحـــد يستطيع ان يتصور ذلك . كيف يقاوم العقل ؟ وبأي سر غامض ينتهي من اجتياز هذا الافراط في الشقاء والتمرد للوصول إلى ذلك النوع من القبول ؟ لن اكلف نفسي الايضاح . يجب ان يكون لوضوح الواقع على الادمغة العقلانية سلطة لا حدود لها . ويجب أيضاً أن يكون للطبيعة البشرية خاصة التوافق القابلة للتمدد بشكل غير قياسي لكي يكون المرء قادراً على الاعتياد على ذلك : على فكرة ان المرء ستنتزع حياته منه قبل ان يتاح له الوقت للعيش ، وانه سيختفي قبل ان يحقق شيئاً من الامكانات الواسعة التي كان يعتقد انه يحملها في نفسه . الا انني لا أعرف ان اجد مراحل هذا التطور . وقد دام ذلك وقتاً طويـــلاً . وهذه النوبات من اليأس الشديد تتناوب مع لحظات الوهن ، وبدون ذلك لما استطعت احتمالها . وكان هذا يدوم عدة اسابيع يكون اثناءها الألم الجسدي وعنايات العلاج المؤلمة هي الالهية الوحيدة للآخر ، للألم الحقيقي . وتنحل الكلابة شيئاً فشيئاً . لا شيء من رباطة الجأش ، لا شيء من البطولة ، لا شيء يشبه الاستسلام . إبلاء الحساسية لتخلق حالة من أقل رد فعل ، أو بالاحرى بدء لامبالاة ، أو بصورة أكثر دقة ، زوال الاحساس . ولم يكن لعقلي أية مساهمة وكذلك ارادتي . أما ارادتي فإني امرّنها منذ بضعة أيام في محاولة إطالة أمد هذا الجمود في الشعور . واني اسعى لأعود إلى ما كنت عليه في الحياة ، واعقد اتصالات مع العالم المحيط بي . وانهض لأهرب من سريري ، من غرفتي . واجبر نفسي على تناول طعامي مع الآخرين . واليوم ، رأيت لبعض الوقت رفاقا يلعبون البريدج . وهذا المساء اكتب اليك دون كثير من الجهد . حتى بسرور غريب وجديد . وقـــد أنهيت هذه الرسالة في الخارج ، في ظل صف من أشجار السرو يلعب المرضون وراءه جولتهم بالكرة نهار الأحد . وظننت أولاً ان هذه المجاورة ، هذه المجادلات ، هذه الضحكات سوف تكون غير محتملة بالنسبة إلي . ولكني اردت ان ابقى ، واستطعت . وترين ان توازناً جديداً يرمي إلى الاستقرار تقريباً .

ومهما كان الأمر ، فقد تعبت ما فيه الكفاية من هذه الجهود . سأكتب اليك

من جديد . اني افكر بك وبولدك في حدود استطاعة ذهني التفكير بالغير .

انطوان

موسكيه ، ٢٨ حزيران

منذ هذا الصباح قرأت عـــدة مرات رسالتك يا عزيزتي جني . انها ليست بسيطة وجميلة فقط . انها كا كنت اتمناها . كما كنت اتمناك . كما كنت اتكهن عنك . لقد انتظرت الليل وصمت البيت لأكتب اليك : في الساعة التي ينتهي فيها العلاج ، حيث يكون المرض الحارس قد قام بدورته ، وحيث لا يبقى أمامي سوى الأرق – والأشباح .. فاني اشعر بكثير من الشجاعة بسببك . وليس الشجاعة هي المقصودة ، ولا الشجاعة هي التي احتاجها . بل ربما كنت احتاج إلى وجود ، وإلى ان اشعر انني اقل وحدة في هذه المواجهة التي يمكن ان تدوم شهوراً . هذه الشهور ، هل تعتقدين انني افكر بها دون رغبة في ان تقصر ! انها مهلة ليس بودي التخلي عنها ! وهذا يثير . تأكدي ان لدي الوسائل للانتهاء منها ، ولكنني احتفظ بهذه الوسائل إلى ما بعد .. أما الآن ، كلا . اني اقبـــل المهلة ، وأتعلق بها . غريب ، اليس كذلك ؟ عندما يكون المرء متعلقاً بالحياة بشغف فلا ينفصل عنها بسهولة ، ويجب الاعتقاد بذلك ؛ وأقل أيضاً إذا شعر انها تتفلت منه . شجرة مجندلة ، يصعد نسغها عـــدة فصول ربيعية متتابعة ، وجذورها لن تنتهي بالموت .

ومع ذلك يا جني ، ينقص هذه الرسالة شيء جميل : اخبار عن الصغير . لقد حدثتني عنه مرة واحدة في رسالة سابقة . وحين تلقيتها كنت لا أزال في حالة من العزلة ، ورفض كل شيء بحيث احتفظت بها يوماً ، وربما اكثر ، دون ان افتحها . وانتهيت بأن قرأتها ، وسقطت على تلك السطور القليلة المتعلقة بجان بول ، وللمرة الأولى استطعت لبرهة ان ابعد الفكرة الثابتة واخرج من خدري ، واوجه اهتمامي لشيء آخر ، وأعود حساساً بالعالم الخارجي . ومنذ ذلك الوقت عدت افكر بذلك الصغير . ففي ميزون رأيته ، ولمسته ، وسمعته

يضحك ، ولا أزال اشعر باختلاج عضلاته تحت اصابعي ؛ فإذا فكرت به أراه ثانية . وقد تبلورت حوله الأفكار ، أفكار المستقبل . وحتى عند محكوم بالموت ، عند ميت أعطي مهلة ، يوجد قابلية للمشاريع ، للآمال ! هذا الطفل، افكر انه موجود ، انه يبدأ ، وان له حياة جديدة يحياها ! وهذا يفتح لي فترات صحو كانت ممنوعة علي . ربما احلام مريض ، لا يهم . اني اتهيب شعوري بالشفقة أقل من السابق (هذا ضعف مريض بالتأكيد !) انام قليلا جداً . ولا اريد الاستعانة بالعقاقير . فقد استعملتها كثيراً قبل ذلك بقليل .

اني اواصل جهودي وفقاً لأسلوب لاجل اعادة الانسجام . تمرين إرادة هو وحده شافٍ . عدت اقرأ الصحف . الحرب ، وخطاب فون كوهلمان في الريخستاغ . انه يصرح بان السلام لن يحدث أبداً بين اناس يعتبرون مسبقاً كل اقتراح للخصم هو مناورة ، وهجوم لإضعاف المعنويات . والصحافة الحليفة تضلل الرأي العام مرة اخرى . هذا الخطاب ليس « اعتدائياً » بالمرة ، انه يدعو إلى المصالحة وذو دلالة .

(وضعت شيئاً من البهرجة في كتابة ذلك . فوسواس الحرب لم ينطفىء في نفسي ، واعتقد انه سيعمرني حتى النهاية . ولكن مهما كان الأمر فانني اضبط نفسي قليلاً في هذه اللحظة) .

اني اتوقف . هذه الثرثرة افادتني وسأعود اليها بعد قليل . لن نتعارف أبداً يا جني ، ولكن رسالتك حملت إلي عذوبة كبيرة ، واشعر انه ليس لي في الدنيا صديق سواك .

انطوان

موسكيه ، ٣٠ حزيران

سأدهشك يا عزيزتي جني . اتدرين بماذا استعملت فترة بعد الظهر نهار البارحة ؟ في عمل حسابات وتصفح أوراق وكتابة رسائل تتعلق بالاعمال. منذ عدة أيام وأنا افكر بذلك . نوع من فراغ الصبر لتسوية بعض المسائل المادية .

استطيع القول انني اترك الأمور منظمة ورائي . فبعد قليل سأصبح غير قادر على جهد من هذا النوع . اذن ، فلأستفد من الاهتمام الموقت الذي لا تزال هذه الشواغل تثيره .

اعتذر عن نبرة هـــذه الرسالة · فالوصية على جان بول يجب ان تطلع على اعمالي ما دام من الطبيعي ان يعود كل ما هو لي إلى هذا الطفل .

وهو ليس بالشيء الكثير · فمن الأموال التي تركها لي والدي لن يبقى شيء دون شك . فقد احدثت فيها ثلمة واسعة حين اجريت تغييراً في البيت في باريس وحولت الباقي ، بدون تبصر ، إلى اسهم روسية اعتقد انها ضاعت إلى الابد . والبناية في شارع الجامعة والدارة في ميزون – لافيت ، من حسن الحظ انهما نجتا من الكارثة .

فيما يتعلق بالبناية يمكن ان تؤجر أو تباع . وما يستخرج من ذلك يمكن ان يتيح لكما العيش المتواضع وتأمين تربية مناسبة لصغيرنا ، انـــه لن يعرف الفخفخة ، وهذا أفضل · ولكنه يكابد التقنين العقيم للفقر .

أما دارة ميزون ، فاني انصحك ، بعد الحرب ، ان تبيعيها . يمكن ان تغري أحد اغنياء الحرب . وهذا كل ما تستحقه . ووفقاً لما قاله لي دانيال فان املاك والدتك مثقلة بالرهن . وقد خيل إلي ان مدام دي فونتانان وانت كثيرتا التعلق بها الا يستحسن ان يستخدم المبلغ الحاصل من بيع دارة تيبو في فك هده الرهونات نهائياً . وبهذا تصبح املاك اهلك عائدة إلى جان بول ؟ سأستشير الكاتب العدل حول الوسائل التي تحقق هذا المشروع .

وحين يصبح لدي تقدير تقريبي لما اتركه فساعين رقم الدخل الصغير الذي أرغب في تأمينه لجيز . وانت يا صديقتي المسكينة سوف تهتمين بادارة كل هذا إلى ان يبلغ ابنك سن الرشد . وستجدين في شخص الكاتب العدلي خاصتي ، الاستاذ بينو ، رجلا كثير التورع ، يهتم بالشكليات ، ولكنه خال من الشبهة وذو نصيحة جيدة ·

هدا ما أردت كتابته اليك . متعزياً لأنني فعلته · ولن اكلمك أبداً عن

ذلك قبل ان استطيع اعطاءك الايضاحات الاخيرة . ولكن يوجد مشروع آخر يعمرني منذ بضعة أيام . مشروع يتعلق بك شخصياً . موضوع دقيق ومع ذلك يجب ان اطرقه . ولا املك الشجاعة اليوم .

قضيت ساعتين في ظلال اشجار الزيتون مع الصحف. ماذا يحاك وراء جمود الجيش الالماني ؟ ان مقاومتنا بين مونديديه والواز يبدو انها أوقفت تقدمهم . وهناك أيضاً اخفاق النمسويين الذي احدث خيبة أمل شديدة عندهم . وإذا لم يقد الجهد الذي يبذله الوسطيون إلى نصر حاسم اثناء اشهر الصيف قبل دخول الاميركيين القتال فمن الممكن ان تتغير الوضعية . هل أكون على قيد الحياة لأرى ذلك ؟ ان البطء الرهيب ، في عيني الفرد ، للحوادث التي تصنع التاريخ شيء جعلني ارتجف عدة مرات منذ اربع سنوات . ولأجل ذلك الذي لم يبق لديه وقت طويل يعيشه ! . .

مع هذا يجب القول انني اظن اني دخلت آنياً في دور أفضل . فهل هو من مفعول هذا المصل الجديد ؟ ان نوبات ضيق النفس أصبحت أقل ألماً . ودفعات الحمّى أقل مما كانت . هذا من ناحية الجسم . أما « المعنويات » — انها لعبارة مألوفة تلك التي تستعملها القيادة العليا لتقيس قصور الجنود الذين على وشك الموت — فهي أفضل ، هي أيضاً ، وربما تشعرين بذلك من خلال هذه الرسالة . فطولها يثبت لك على كل حال السرور الذي يصيبني حين اثرثر معك . لذتي **الوحيدة** ولكن يجب أن اقطعها . ساعة العلاج .

صديقك انطوان

هذا العلاج اخضع له بنفس الوعي الذي كان في السابق . غريب ، اليس كذلك ؟ ان موقف الطبيب حيالي قد تغير بشكل غريب . وهكذا ، في هذه اللحظة ، مع انه تحقق من التحسن ، فانه لم يجرؤ على قول ذلك لي . انه يعفيني من «ها انت ترى جيداً الخ . . » ولكنه يأتي لرؤيتي في اغلب الأحيان ويحمل الي صحفاً واسطوانات. ويظهر لي صداقته بألف طريقة وهذا الأجيب على سؤالك . لا استطيع، ولا في أي مكان، أن أكون أفضل مما انا عليه هنا في انتظار النهاية .

المستشفى ٢٣ ، في رويان (الشارانت)
- السفلى ٢٩ حزيران ١٩١٨

سيدي الدكتور

اما وقد تركت الغينه منذ خريف ١٩١٦ فان لدي رسالتك في الشهر الماضي التي لحقت بي الى هنا حيث اعمل ممرضة في مصلحة الجراحة . اني فعلاً أذكر الارسالية التي حدثتني عنها في رسالتك ، ولكن ذكرياتي ليست واضحة وضوحاً كافياً لأدلي اليك بمعلومات كما تطلب · اني لم اعرف ابداً الشخص الذي كلفني بهذه المهمة اليك والذي وصل الينا مريضاً جداً إلى المستشفى بحمّى شديدة اودت به بعد ذلك ببضعة ايام رغم عناية الدكتور لانسلوست . كان ذلك كما اظن في ربيع عام ١٩١٦ . واذكر جيداً انهم انزلوها – لأن الشخص هو امرأة – حالاً من سفينة في طريقها إلى كوناكري . واثناء حراسة ليلية اعطتني ذلك الشيء وعنوانك في احدى لحظات صحوها . لأنها كانت تهذي باستمرار . وعلى كل حال استطيع التأكيد انها لم تكلفني بشيء اكتبه اليك . كانت تسافر بمفردها حين رست السفينة ، اذ لم يأت اي شخص لرؤيتها خلال اليومين او الثلاثة التي دامت فيها فترة احتضارها ، واعتقد انها دفنت في المقبرة الأوروبية . والرئيس القيم في المستشفى ، السيد فابري ، إذا كان لا يزال موجوداً ، باستطاعته التفتيش في الدفاتر واعطاءك دون شك اسم تلك السيدة وتاريخ وفاتها · آسف لعدم وجود ذكريات اخرى لدي لأطلعك عليها .

سيدي الدكتور ، تفضل بقبول تحياتي المحترمة .

لوسي بونيه

اعود وافتح رسالتي لأرسل اليك هذا الايضاح بأنني اعتقد جيداً ان تلك السيدة هي نفسها التي كان معها كلب كبير اسود من نوع البولدوغ . وكانت تسميه هيرت او هيرش ، وكانت تطلبه حالما تستعيد وعيها ، ولم يكن بالامكان الاحتفاظ به في الطابق بسبب الانظمة ، ولأن هذا الكلب كان شريراً . وقد ارادت احدى رفيقاتي من الممرضات ان تأخذه ولكنها تعرضت لجميع المتاعب

ولم يتمكن احد من ترويضه . وفي النهاية اضطروا إلى اعطائه كرة عجين مسمومة .

١٦

يوميات انطوان

تموز

موسكيه ، ٢ تموز ١٩١٨

حلمت بجاك ، في هذه اللحظة ، في تلك الغفوة القصيرة في نهاية الليل . من المستحيل اعادة عقد خيوط التاريخ . لقد جرى ذلك في شارع الجامعة ، في زمن مضى ، في الطابق الأرضي الصغير . وقد اعاد الى ذاكرتي تلك الفترة التي عشنا فيها معاً ، قريبين . ومن بين الذكريات الأخرى ، اليوم الذي خرج فيه جاك من الاصلاحية ، حيث اسكنته عندي . الا اني اردت ذلك لأنقذه من رقابة الأب . ولكني لم استطع منع نفسي من شعور عدائي شنيع ، من أسف اناني . اذكر جيداً انني قلت لنفسي : « ليكن ، اريد ان يكون هنا ، ولكن على الا يشوش ذلك عاداتي وشغلي ، وعلى الا يمنعني من الوصول » . **الوصول** ! طوال حياتي ، هذه اللازمة : **الوصول** ! الشعار ، الهدف الوحيد ، خمس عشرة سنة من الجهود .. والآن ، هذه الكلمة ، **الوصول** ، هذا الصباح ، في هذا السرير ، يا لها من سخرية !

هذا الدفتر . البارحة كلفت الوكيل بشراء هذا الدفتر لي من محل الادوات المكتبية في غراس . لعلها صبيانيات مريض . سأرى . تأكد لي من رسائلي إلى جني نوع من التعزية التي اشعر بها وانا اكتب ما افكر به . لم امسك دفتر يوميات حتى حين كنت في السادسة عشرة ، كما كان يفعل فرويد وجربرون وكثيرون غيرهم . متأخر قليلاً ! ليس يوميات ، بل ان اسجل ، اذا ساورتني الرغبة ، الافكار التي تشغلني ، الصحية بالتأكيد . في دماغ مريض مصاب

بالارق كل شيء يدور إلى درجة الازعاج · والكتابة ، انها تنقذ . ثم هي تسلية وقتل وقت · (قتل الوقت ، انا الذي كنت في الماضي ارى الوقت كثير القصر ! حتى في الجبهة ، وحتى اثناء هذا الشتاء في المستشفى · لقد عشت تحت الضغط كما فعلت كل حياتي ، دون اية ساعة فراغ ، دون ان اعي معالم الوقت الذي يمر ، دون ان اعي الحاضر . منذ ان اصبحت ايامي معدودة اصبحت الساعات لا تنتهي) . ليلة معتدلة . درجة الحرارة هذا الصباح ٣٧،٧ ·

المساء

معاودة ضيق النفس · درجة الحرارة ٣٨،٨ . لام بين الاضلاع . اتساءل إذا لم يكن هناك خطر من ناحية غشاء الجنب .

تعمرني طول النهار قضية الميراث هذه · تنظيم موتي · (ذلك الاهتمام الملازم بالتنظيم ! ولكن الامر لا يتعلق بي هذه المرة : بل يتعلق بهم ، وبالصغير) . احسب واعيد الحساب عشر مرات · بيع دارة ميزون ، تأجير شارع الجامعة. بيع مواد المختبرات . . ان يكون المستأجر على الأقل مؤسسة منتجات كيماوية ! بامكان ستودلر الاهتمام بذلك · او الاشراف على تفكيك الاجهزة ، عند عدم وجوده ، والبحث عن مشتر ·

التفكير ايضاً بستودلر الذي سيجد نفسه دون وضعية ، دون موارد بعد الحرب ·

ترك ملاحظة له ولجوسلين تتعلق بمستندات الاختبارات (مكتبة الكلية) ؟

٣ تموز

جاءني لوكاس بنتائج تحليل الدم . سيئة بشكل واضح . واضطر باردو إلى الاعتراف بصوته الرتيب : « ليس جيداً » · دمي الممتاز في السابق ! نقاهتي في سان ديزيه بعد جرحي الأول . اية ثقة بجسدي ! واي اعتزاز بنوع

دمي اما سرعة الالتئام ! وجاك ايضاً . دم آل تيبو !

عرضت على باردو قضية تعقيدات الغشاء الجنبي، فهز كتفيه كعملاق طيب وفحصني باعتناء وقال ان ليس هناك ما يُخشى منه .

دم آل تيبو . دم جان بول ! دمي الممتاز في السابق . دمنا ، انه يركض الآن في شرايين هذا الصغير .

اثناء الحرب لم اكن اقبل أن أموت ولو يوماً واحداً ، ولا مرة واحدة ، حتى ولو طوال عشر ثوان فاني لم أكن اضحي بجلدي . وكذلك الآن : اني ارفض التضحية ولا استطيع ان اوهم نفسي . انا مضطر إلى التأكيد وانتظار ما لا دواء له ؛ ولكني لا استطيع القبول ولا ان اكون شريكا في الذنب بواسطة الخضوع .

بعد الظهر

اعرف جيداً اين يكون العقل والحكمة ، واين تكون الجدارة: ان يستطيع المرء من جديد التأمل في العالم وصيرورته الدائمة ، في نفسه . ليس من خلالي وخلال هذا الموت القريب . اقول لنفسي اني شذرة لا معنى لها من هذا الكون. شذرة مهملة . لا يهم . من الذي سيستمر بعدي بالنسبة إلى ما بقي ؟

شيء لا يُعتدّ به . نعم ، ولكني كنت اعلق عليه اهمية كبيرة !

مع ذلك ، تجربة .

علي الآن أدع الامر الفردي يعميني .

٤ تموز

رسالة جيدة من جني هذا الصباح . تفاصيل بديعة عن ولدها . لم اتمالك من قراءة مقاطع منها على غواران المولع بولديه . يجب على جني ان تصوره .

يجب ايضاً ان أعقد العزم على كتابة الرسالة . صعب . انتظر الحصول على ليلة فيها راحة حقيقية .

يا لها من اعجوبة – ولا يوجد كلمة اخرى – في ظهور هذا الطفل في اللحظة المعينة حيث السلالتان اللتان خرج منهما ، فونتانان وتيبو ، كانتا ستنطفئان دون ان تعطيا ما يدل عليهما ! ماذا يحمل في نفسه من وراثته الامومية ؟ افضل العناصر كما آمل . ولكن ما اعرفه ممكناً دون شك هو انه من دمنا ، حازم ، ذو ارادة ، ذكي . ابن جاك . واحد من آل تيبو .

حلمت بهذا طول النهار . هذه الاندفاعة غير المتوقعة من النسغ ، والتي ابرزت هذا الفرع الجديد من طبقتنا ، في الوقت المعين ... هل من الجنون التخيل ان هذا يلبي شيئاً ما ، مقصداً ما للخليقة ؟ ربما كبرياء عائلية . لماذا لا يكون هذا الطفل هو المختار سلفاً ؟ نتيجة للجهد الغامض للعرق في سبيل صنع نموذج كامل لنوع تيبو ؟ العبقرية التي يجب ان تنجح فيها الطبيعة ذات يوم ، والتي لم نكن نحن ، ابي واخي وانا ، سوى رسوم خفيفة لها ؟ هذا العنف المكتوم ، وهذه القوة ، اللذان كانا فينا قبل ان يكونا فيه ، لماذا لا يتفتحان هذه المرة بقوة هي حقاً خالقة ؟

نصف الليل

ارق . اشباح يجب « طردها » .

شهر ونصف الآن . سبعة اسابيع مضت وانا اعلم فيها انني هالك . هذه الكلمات : **معرفة المرء نفسه انه هالك** . هذه الكلمات التي اكتبها ، والتي هي شبيهة بغيرها ، والتي يعتقد الناس كلهم انهم يفهمونها ، ولكن احداً ، باستثناء واحدٍ محكوم عليه بالموت ، لا يستطيع التغلغل إلى معناها كلياً ... ثورة ماحقه تحدث الفراغ الكلي فجأة في الكائن .

الا ان طبيباً يعيش على اتصال بالموت يجب عليه ... مع الموت ؟ موت الآخرين ! جربت عدة مرات ان ابحث عن اسباب هذه الاستحالة الطبيعية للقبول . (والتي ربما تعود إلى صفة خاصة في حيويتي . فكرة جاءتني هذا المساء) .

تلك الحيوية في السابق – تلك الفعالية التي اخذت اتعهدها ، تلك الطفرة الدائمة التي اعزوها ، في قسم كبير منها ، إلى حاجتي في ان اخلد نفسي بواسطة الخلق : بأن « أعيش بعد الموت » . رعب غريزي من الاختفاء (انه عمومي بالتأكيد . ولكن على درجات متنوعة جداً) . عندي خط وراثي . افكر كثيراً بأبي ، وبالرغبة التي كانت تعمره في إعطاء اسمه : لأعماله ، لجوائز في الفضيلة ، لساحة كروي الكبرى . رغبة حققها برؤية اسمه (مؤسسة اوسكار تيبو) محفوراً على اعلى مقدم بناية الاصلاحية . رغبة في فرض اسمه (العنصر الوحيد الذي كان شخصياً بالنسبة اليه في حالته المدنية) ، على كل المتحدرين منه . الخ . هوسه في إلصاق شعاره في كل مكان ، على سور حديقته الحديدي ، على مغسلته ، على كتبه المجلدة ، حتى على جلد كنبته ! انها اكثر من غريزة مالك بكثير (او كما ظننتها علامة زهو) . حاجة رائعة للكفاح ضد الانمحاق ، ان يترك طابعه (الحياة الاخرى ، والماوراء ، لم تكونا تكفيانه) . حاجة ورثتها منه . انا ايضاً ، لدي امل خفي في ان اربط اسمي بعمل يخلدني ، باكتشاف ، الخ ..

المرء لا يتخلص من ابيه .

سبعة اسابيع . خمسون يوماً وخمسون ليلة وجهاً لوجه مع اليقين ، دون اية لحظة تردد ، وشك ، ووهم . ومع ذلك – وهذا ما اردت تسجيله – يوجد رغم كل شيء فترات راحة في هذه الملازمة .. برهات قصيرة ، ليس من النسيان ، ولكن حيث الفكرة الثابتة تتراجع ... يحدث لي ، وبتكاثر يزداد ، ان اعيش بضع لحظات – دقيقتين،ثلاث ؛وعلى الاكثر خمس عشرة او عشرين– يكون يقين الموت اثناءها، والذي لا يشغل واجهة المشهد، قد ضعف . واثناءها يصبح بامكاني فجأة ان اتحرك ، وأقرأ بانتباه ، وأكتب ، وأصغي ، وأناقش ، واخيراً اهتم باشياء غريبة عن حالتي ، كما لو انني تخلصت من التأثير ؛ ومع ذلك دون ان تختفي الفكرة الملازمة ،ودون ان انقطع عن الاحساس بها حاضرة

في الاحتياط ، على المخطط الثاني . (هذا الاحساس الموجود هنا اشعر به ايضاً وانا نائم).

٦ تموز ، صباحاً

أفضل ، منذ الخميس . كل شيء تقريباً يبدو لي جميلاً وحسناً منذ ان قلّ ألمي . في صحف هذا الصباح ، فان المقال حول النجاحات الايطالية في دلتا بياف سبب لي نوعاً من السرور كنت قد نسيت طعمه . علامة حسنة .

لم اكتب شيئاً البارحة . فطنت في الخارج الى انني نسيت دفتري في غرفتي . كسل عن الصعود ، ولكن الدفتر ظل ينقصني كل فترة بعد الظهر . بدأت استسيغ تمضية الوقت هذه .

وقت الكتابة اليوم قليل . كثير من الملاحظات يجب تسجيلها في المفكرة السوداء . فطنت الى انني اهملتها قليلاً ، المفكرة ، منذ ما اشتريت الدفتر . لقد اكتفيت بملاحظات موجزة جداً ، مع ان المفكرة هي التي تستحق الجهد ، والتي يجب ان تكون لها الاولوية . القيام بعمل حصتين : الدفتر لاجل « الاشباح » ؛ والمفكرة لكل ما هو صحة ، ودرجة حرارة ، وعلاجات ، والتأثيرات العلاجية ، وردود الفعل الثانوية ، وتطور التسمم ، ومناقشات مع باردو او مع مازيه . الخ .. ودون ان ابالغ بقيمتها ، فان هذه الايضاحات اليومية التي قام بها منذ اليوم الاول متسمم بالغاز هو في الوقت نفسه طبيب ، يمكن ان تشكل في حالة العلم الحاضرة ، مجموعة ملاحظات سريرية ذات فائدة لا ريب فيها . وخصوصاً اذا سرت بها **حتى النهاية** . وقد وعدني باردو بنشرها في المجلة .

البارحة ، رحيل ديلاهاي الضخم . اجازة نقاهة . اعتقد انه شفي نهائياً . ربما كان كذلك . من يدري ؟ لقد صعد يودعني . احمق . تظاهر بأنه تأخر ، وهو مستعجل . لم يقل لي « سنشاهد بعضنا البعض » ولا شيئاً قريباً من ذلك . وجوزف الذي كان يرتب الغرفة لاحظه ، لأنه عجّل في القول حين اغلق

الباب : « ترى جيداً انه يمكن الافلات يا سيدي الماجور » !

كنت الآن على وشك ان اكتب : « اذا كنت لا ازال عائشاً فبسبب هذه المفكرة » . يجب توضيح قضية **الانتحار** . الاعتراف اخيراً ان المفكرة لم تكن سوى ذريعة . المهازل التي يمثلها المرء على نفسه ! غريب . اني اشمئز من الاعتراف بانني حقيقة لم اشعر ابداً بالرغبة في الانتهاء . كلا ، حتى في اسوأ الساعات . واذا كان علي القيام بالحركة ، ففي باريس ، في الصباح الذي اشتريت فيه الابر التي .. فكرت في ذلك جيداً قبل الصعود الى القطار .. وفي الصباح بدأت امثل على نفسي مهزلة المفكرة ، كما لو ان عليّ واجباً اخيراً يجب القيام به قبل الاختفاء . كما لو كان لدي عمل رئيسي يجب إنهاؤه . كما لو ان الاهمية التي اعلقها على هذه الملاحظات السريرية كانت قادرة على أن تعوض الميل وتبعده . نقص في الجرأة ؟ كلا ، حقيقة كلا . لو كان الميل حقيقياً فليس الخوف هو الذي امسكني . كلا . ليست الجرأة هي التي تعوزني ، انها الرغبة . الصحيح ان الميل لم يفعل شيئاً سوى انه لمسني لمساً خفيفاً ، وكنت ادفعه كل مرة دون جهد . (متظاهراً بقوة النفس ، ومسروراً جداً لحصولي على هذا العذر : امساك مفكرة) ..

ومع ذلك ، باستثناء موت فجائي – غير محتمل مع الاسف – اعلم انني لن انتظر النهاية الطبيعية . **اعرف** ذلك . هنا ، انا صادق وواضح تماماً كما اظن . الساعة ستأتي ، وأنا متأكد . ليس لي الا ان ادعها تأتي . فالعقار هنا . حركة اقوم بها (فكرة تهدىء رغم كل شيء) .

المساء

قبل العشاء تحت الشرفة حمل الينا غواران صحيفة سويسرية ذكرت خطاب ويلسون الجديد بكامله . وقد قرأه بصوت مرتفع . فتأثر ، ونحن أيضاً . كل رسالة من ويلسون نسمة هواء كبيرة صالحة للتنفس تمر على اوروبا ! وتبعث على التفكير بالاوكسيجين الذي يلقى داخل المنجم بعد الانهيار لكي يستطيع

البؤساء المدفونون المقاومة ضد الاختناق ويبقون حتى الخلاص .

٧ تموز ، الساعة الخامسة صباحاً

الفكرة الثابتة . جدار ألقي بنفسي عليه . انهض ، اسرع ، واصطدم ايضاً ، وأعود الى السقوط لأبدأ من جديد . جدار . بين لحظة واخرى ، – دون ان أؤمن به ثانية واحدة ، – اجرب ان اقول ان هذا ربما كان غير صحيح ، وانني ربما لا اكون محكوماً بالموت ، وذلك لأجد ذريعة للقيام من جديد بجميع الملاحظات المنطقية التي تلقي بي ضد الجدار بشكل حتمي .

بعد الظهر ، في الخارج

إعادة قراءة رسالة ويلسون . اكثر وضوحاً من سابقاتها . تحدد مفهومه عن السـلام . تعداد الشروط التي لا غنى عنها لتكون التسوية « نهائية » . مشروع ذو اتساع عظيم :

١ً – إلغاء الانظمة السياسية ذات القابلية للقيام بحروب جديدة .

٢ً – استشارة الشعوب المعنية قبل كل تغيير في الحدود أو ضم ارض .

٣ً – اتفاق بين جميع الدول على قانون في **الحقوق الدولية** يتعهد الجميع بالخضوع لأحكامه .

٤ً – انشاء جهاز دولي يقوم بوظيفة **محكمة تحكيمية** تمثل فيها دون تمييز **جميع** امم العالم المتمدن .

(سرور صبياني اشعر به وانا اكتب هذا واقرره . شعور باستصواب ذلك : بالمساهمة فيه) .

موضوع جميع المحادثات هنا . لهيب امل على جميع الوجوه . كم هو مقلق التفكير بان الامر هو نفسه ، في هذه اللحظة ، في جميع مدن اوروبا واميركا ! رنة هذا الخطاب في كل مكان ينزل فيه الجنود للراحة ، في كل ملجأ في خندق الجميع ، الذين تعبوا جداً من تقاتلهم طوال اربع سنوات ! (من تقاتلهم منذ

قرون بناء على امر القادة ...) كان هذا النداء إلى العقل منتظراً . فهل يسمعه المسؤولون ؟ بشرط أن تنبت الحبة هذه المرة وفي كل مكان ! الهدف واضح جداً ، حكيم ، موافق لمصير الانسان ، ولغرائزه العميقة ! وتحقيق ذلك يمكن أن يثير الف مشكلة ، ويتطلب جهوداً طويلة ؛ ولكن كيف نرتاب بان عالم الغد يجب أن يسير في هذا الطريق ، وليس في طريق آخر ، مهما كان الثمن ؟ اربع سنوات من الحرب دون اية نتيجة اخرى سوى مجازر وتراكم الخراب . يجب أن يجبر اكثر الحالمين المغامرين بالفتح على الاعتراف أن الحرب اصبحت للانسان وللدول كارثة دون عوض ممكن . إذن ؟ إبتداءً من اللحظة التي تتحق فيها استحالة الحرب في جميع الميادين بواسطة التجربة ، وحيث يتم الاتفاق بين ما يحققه رجال السياسة ، وحسابات رجال الاقتصاد ، والتمرد الغريزي لعامة الشعب ... فأي عائق يبقى امام تنظيم السلم الدائم ؟

بعد الفطور ، نوبة ضيق نفس . إبرة . كرسي طويل تحت اشجار الزيتون. متعب جداً لأكتب تلك الرسالة إلى جني بحيث تأخرت كثيراً في الكتابة .

مناقشة بحضوري بين غواران وباردو ومازيه . فكرة ويلسون الاساسية : ذلك الجهاز للتحكيم الدولي . ليس فيه ما يفقده أي شخص ، وكل دولة تربح كل شيء . وحتى تلك التي لم يفكروا بها تفكيراً كافياً: اعمال تلك المحكمة العليا سوف يراعى فيها جانب محبة الذات، والنزق الوطني اللذين سببا حروباً كثيرة. فالشعب ، والحكومة ، حتى الملك ، مهما كانوا سريعي الغضب ، يشعرون انهم اقل إصابة في كبريائهم ونفوذهم إذا كان عليهم ان ينحنوا امام حكم محكمة دولية مقررة باسم المصلحة الجماعية للدول ، من ان يخضعوا امام تهديد احد الجيران او ضغط تحالف عدو. ويقول غواران ان هذه المحكمة يجب ان تشكل عند انتهاء العداوات وقبل تسوية الحسابات ، لكي تناقش شروط السلام ليس بكثير من الشراسة بين أخصام ، بل بصفاء ، في قلب جمعية عامة للامم تجري تحكيمها من اعلى ، وتوزع المسؤوليات ، وتجعل الحكم غير متحيز.

جمعية الامم . — وسيلة وحيدة ، وسيلة منزهة عن الخطأ لتجعل من الآن

فصاعداً كل حرب مستحيلة ، وذلك : ما ان تُهاجَم دولة او تهددهـــا دولة اخرى . حتى تؤلف جميع الدول ، وبصورة آلية ، جبهة ضد المعتدي وتشل عمله وتفرض عليه تحكيم القانون !

ويجب النظر إلى ابعد من ذلك ايضاً . فجمعيــة الامم هذه يجب ان تكون محركة لسياسة ولاقتصاد دولي ؛ وتقود إلى تعاون عام ، منظم ، يكون اخيراً على مستوى الكوكب . مرحلة جديدة ، مرحلة حاسمة لأجل المدنية .

وقد قال غواران كثيراً من الامور الصحيحة جداً حول ذلك .وأتذكر انني كنت كثير الصرامة على غواران . فذلـــك الخريج القديم من دار المعلمين الذي كانت تبدو هيئته انه يعرف كل شيء ، كان يزعجني . والنبرة ايضاً : كما لو انه كان في جامعة هنري الرابـع على منبره كاستاذ للتاريخ ... ولكن هذا صحيح. فهو يعرف حقيقة كثيراً من الاشياء . يتابع الحوادث عن كثب ، ويقرأ ثمان او عشر صحف كل يوم،ويتلقى كل اسبوع رزمةمنالصحفوالمجلات السويسرية. انه بالاجمال عقل راجح (كنت دائماً اشعر بضعف امـام **راجحي العقول**) . ويسرني اجتهاده في الحكم على الوقائع المعاصرة ، مع النظرة الثاقبة ، كمؤرخ . وفوازينه كان هنا ، هو ايضاً .(« غواران وفوازينه هما الوحيدان في المستشفى اللذان لم تمس أوتارهما الصوتية تقريباً ... وهمـا يستفيدان من ذلك .» كما قال باردو) .

نهار ليس سيئاً . انا مدين بذلك للابرة كما انا مدين لويلسون !

وأضيف ايضاً : ان انشاء جمعية امم يمكن ان يبرز من انقاض هذه الحرب شيئا جديداً كل الجدة : ظهور ضمير عالمي تقوم البشرية بواسطته بوثبة نهـائية نحو العدالة والحرية .

الساعة الحادية عشر مساء

تصفح الصحف . هذر ، اعتدال مقيت . يبدو ويلسون حقيقة انه رجـل

الدولة الوحيد الذي يملك اليوم موهبة بعد النظر . المثل الاعلى الديموقراطي في انبل شيء فيه . والديماغوجيون الفرنسيون (او الانكليز) إذا قورنوا بـه يظهرون كرجال اعمال صغار . والجميع ، بشكل يكثر او يقـل ، يظلون الادوات لتلك التقاليد الامبريالية التي يتظاهرون بمقاضاتها عند الخصم .

تحدثت عن اميركا والديموقراطية مع فوازينه وغواران . ففوازينه عاش بضع سنوات في نيويورك . استقرار الولايات المتحده ، السلامة . وتنبأ غواران بدافع التنبؤ ، ان الصفر سيجتاحون اوروبا في القرن الحادي والعشرين ، وان مستقبل العرق الابيض سيقتصر على القارة الاميركية فقط ...

الساعة الثانية صباحاً

أرق . غفوة قصيرة حلمت اثناءها بستودلر. في باريس . في المختبر الذي في الداخل . الخليفـة ببلوزة، وعلى رأسه قبعة عسكرية، واللحية مقطوعة بشكل قصير . شرحت له ما لا ادري بحدة . ربما عن ويلسون وعصبة الامم ... فتطلع الي من فوق كتفه بعينه الكبيرة الدامعة : « مـاذا يمكن لهذا ان يفيدك ما دمت ستموت » ؟

اني افكر ايضاً بويلسون (مهما كان رأي الخليفة) . يبدو لي ويلسون انـه مختار للدور الذي يقوم بأعبائه . ولتكون نهاية هذه الحرب هي ايضا نهاية الحروب ، فيجب أن يكون السلام من صنع رجل جديد ، رجل من الخارج ، خالٍ من الحقد : لم يكن قد عاش اربع سنوات في هذا الاضطراب ، كقادة اوروبا المتكالبين على سحق الخصم . ويلسون رجل من وراء البحر . ممثل بلاد تجسد الاتحاد في السلام والحرية . ووراءه ربع سكان الكرة ، وكل اميركي عاقل يجب بالتأكيد ان يقول لنفسه : « إذا كنا قد استطعنا ان نقرر ونحتفظ منذ قرن بسلام متين وبنّاء بين دولنا ، فلماذا تكون الولايات المتحدة الاوروبيـة مستحيلة ؟ » ان ويلسون يكمل سلالة واشنطن الخ .. (وكان يعي ذلـك ، ولمح اليه في خطابه). واشنطن ، ذاك الذي كان يكره الحرب ومع ذلـك

فقد خاضها لينقذ بلاده منها . مع نيته (كما يقول غواران) في ان يجنبها العالم ايضاً ؛ وانه إذا كان قد استطاع أن يصنع من تلك الدويلات المتعادية اتحاداً واسعاً مسالماً ، فالمثل لا يمكن مقاومته فيما يتعلق بالبر القديم. (الذي ظل مئة سنة ليفهم !) .

اني اكتب والعقارب تدور حول ميناء الساعة .. ان ويلسون يساعدني على إبعاد الاشباح .

مشاكل شائقة ، حتى « لميت مع تأجيل التنفيذ » . للمرة الأولى منذ عودتي من باريس ، توصلت إلى الاهتمام بالمستقبل . مستقبل العالم الذي سيُمثّل عند نهاية هذه الحرب . كل شيء سوف يتعرض للخطر ، ولكم من الوقت إذا كان السلام الآتي ليس مصححاً ، ولا معيداً بناء ، ولا موحداً اوروبا النازفة الدماء . نعم : اذا استمرت القوة المسلحة في ان تكون هي الأداة الرئيسية للسياسة بين الدول ؛ وإذا كانت كل امة ، وراء حدودها ، تستمر في ان تكون هي الحكم الوحيد لسلوكها وتستسلم لشهوة التوسع ؛ وإذا كان اتحاد دول اوروبا لا يسمح بسلام اقتصادي كما يريده ويلسون ، مع حرية التبادل التجاري وإلغاء الحواجز الجمركية ، الخ .. وإذا كان عصر الفوضى الدولية لم يقفل نهائياً ؛ وإذا كانت الشعوب لا ترغم حكوماتها على الخضوع اخيراً ، بالاتفاق ، إلى نظام عام قائم على حق ، — عندئذ ، كل شيء سوف يبدأ من جديد ، وكل الدم المراق يكون قد اريق على غير طائل .

ولكن جميع الآمال مسموح بها .

(اكتب هذا كأنني يجب ان « اكون فيه » ..)

٨ تموز

سبع وثلاثون سنة . آخر عيد سنوي !

بانتظار جرس الظهر ، الغسالة وابنتها مرّتا تحت الشرفة ، وصرر الغسيل على اكتافهما . التأثر الذي شعرت به في ذلك اليوم ، وانا انظر إلى هذه المرأة ،

والاحظ شيئاً من الثقل في مشيتها ، شيئاً من التقوس في صلبها،شيئاً من التصلب في الخصر . انها حامل بشكل يكاد لا يُرى · ثلاثة اشهر ونصف ، اربعة على الأكثر ! تأثر ممض ، ذعر ، رأفـة ، غيرة ؛ يأس ! لمن ليس له مستقبل ، سر هذا المستقبل المنبسط هنا ، الملموس تقريباً ! ذلك الجنين الذي لا يزال بعيداً عن الحياة ، الذي ستكون له كل حياتـه المجهولة ليعيشها ! تلك الولادة التي لن تمنع موتي ..

في الخارج

لا يزال ويلسون يشغل جميع العقول . تعطلت لعبـــة البريدج . وحتى نادي نائب الضابط (الادجودان) لقد ثرثروا ساعتين دون أن يلمسوا اوراقهم.

الصحف ايضاً ملأى بالتعليقات . لقد تحقق باردو هذا الصباح كم هناك من دلالة بأن تترك الرقابة المخيلات تنشط امام هذا السراب من السلام . مقال جيد في صحيفه ل. يذكر برسالة ويلسون في كانون الثـــاني ١٩١٧ ، « سلام بدون نصر » ، و « تحديد متصاعد للتسلح الوطني ، حتى التوصل إلى **نزع السلام العام** » . (كانون الثاني ١٧ · تذكار لتلك القرية الخراب ، وراء العلامة رقم ٣٠٤ · قبو المطعم المقبب · المناقشات حول نزع السلاح مع باين وسيفر المسكين) .

قاطعني مازيه لأجل التحليل. نقص في الكلورير وخصوصاً فيالفوسفات.

طقس عاصف منهك · جررت نفسي حتى الناعورة لأسمع خرير الماء . بدأ شعوري بالألم يزداد من القراءة بصورة متتابعة ، ومن تركيز انتبـاهي على تفكير الغير · اما على تفكيري فالأمر لا يزال جارياً · هذا الدفتر هو وسيلة راحة بالنسبة الي ، لن تدوم إلى الأبد ، واني اغتنمها ·

خطاب ويلسون في كانون الثاني ١٩١٧ · **نزع السلاح** . هدف اساسي . حديث على الغداء · الكل موافقون ما عــدا ريمون · اشياء تقال اليوم بسهولة لم يكن يجرؤ احد على قولها ، ولا على التفكير بها منذ سنتين فقط ! الجيش ،

قرحة تتغذى من زبدة الامة (صورة مدهشة ، حسب عـادة الشعب : كل عامل ، ومستخدم في صنع القنابل ينقطع عن المساهمة في الانتاج المفيد ، وبهذا يصبح طفيلياً على عاتق (الجماعة) وامة يذهب ثلث ميزانيتهـا الى النفقات العسكرية لا تستطيع العيش : الخراب أو الحرب . والبلبلة الحالية هي النتيجة الحتمية لأربعين سنة من التسلح النظامي . مـا من سلام يدوم دون نزع عام للسلاح . حقيقة اعلنت مئة مرة ، على غير طائل ، ومعروف لماذا : في زمن السلم المسلح ، من الوهم الأمل ان حكومات مقتنعة بأولوية القوة على الحق، وقد وقفت ضدبعضها البعض ، واندفعت إلى النهاية في سباق التسلح، تستطيع التفاهم لتغيير الوضع، والاقلاع معاً عن خطتها الجنونية. ولكن كل شيء يمكن أن يتغير غداً ، في ساعة السلام . لأن جميع بلدان اوروبا سوف تعود إلى الصفر ، مطروحة جانباً ، منهوكة من الحرب ، وقد افرغت خزائن سلاحها ، وعليها ان تبدأ كل شيء من جديد على قواعد جديدة . ساعة غير عادية تقترب ، ساعة لا سابقة لها : تلك التي يصبح فيها نزع السلاح العام أمراً ممكناً . وويلسون قد أدرك ذلك . وفكرة نزع السلاح التي استعادها هو وارسلها ، لا يمكن الا ان تستقبل بحماسة من جميع الآراء العامة . هذه السنوات الأربعة قد هيأت السبل، وقوّت في كل مكان غريزة مقاومة الحرب ، وشحذت الرغبـة في رؤية إقرار اخلاقية دولية تحل اخيراً محل مبارزة الجيوش لتسوية المنازعات بين الشعوب .

ويلزم الآن ان تفرض الاكثرية العظمى من الناس ، والتي تريـد السلام ، على الاقلية الضئيلة من اولئك الذين يرون في اثارة الحروب مصلحة لهم ، منظمة قوية ، قادرة على الدفاع عنها في المستقبل — **عصبة امم** تتصرف عند الحاجـة ببوليس دولي وبسلطة تحكيمية قادرة على منع استعمال القوة إلى الأبد . لتخضع الدول المسألة لاستفتاء عام ؛ والنتيجة ليست موضع ريب !

هذا الصباح ، على المائدة ، من الطبيعي الا يكون سوى القومندان ريمون ليغضب وينعت ويلسون « بالبوريتاني المستنير » الذي يجهل كلياً « الحقائق الاوروبية » . رنة جرس روميل عند مكسيم بالضبط . وقد جابهه غواران :

« إذا لم يكن السلام الآتي مصالحة ، مع اهتمام مشترك بالعدالة ، في سبيل خلق اوروبا متضامنة ، فان هـذا السلام الذي دفع ثمنه غالياً ملايين من الافراد المساكين ، لن يكون شيئاً آخر سوى معاهدة زائدة ، خيال للسلام محكوم عليه بالزوال عند أول فرصة من رغبة الانتقام عند المغلوبين ! - وكان ريمون يقول : « نحن نعرف ما تساوي **الاحلاف المقدسة** وكم تدوم » . وبما انني كنت متدخلاً فقد اجتذبتني هذه الغضبة (ربما ليست بلهاء عند التفكير ؛ وأقـل تناقضاً مما تبدو) : « من الطبيعي يا تيبو ، انت كثير الواقعية لكي لا تكون حساساً باغراءات الانظمة الخيالية ! » (هذا سيتطلب فحصاً) .

القطرات الأولى . كانت الزوبعة تستطيع اعطاءنا ليلة رطبة !

٩ تموز ، الفجر

ليلة سيئة . ضيق نفس ، لم انم ساعتين ، في كم مرة ؟ . .

أفكر براشيل . في تلك الليالي الحارة لا يحتمل عبير العقد . وهي أيضاً ، نهاية حمقاء في سرير مستشفى . وحيدة . والمرء دائماً يكون وحده في آخرته .

فكرت فجأة بهذا : في هذا الصباح ، ككل صباح ، في هذه الساعة ذاتها ، في ناحيةٍ ما من الخنادق ، ينتظر الوف من البؤساء إشارة الهجوم . انا اسمى بوقاحة لأبحث في ذلك عن تسلية ، على غير طائل . اني احسدهم لأنهم بصحة جيدة ، ويسعون وفقاً لحظوظهم ، اكثر ممـا ارثي لهم لأن عليهم اجتياز الحاجز . .

في كبلنغ [1] هذا الذي أحاول قراءته ، اجد هذه الكلمة : **شبابي** (نسبة إلى الشباب) . فكرت بجاك . . **شبابي** : نعت يلائمه جيداً ! لم يكن أبداً سوى مراهق . (انظر في المعاجم الصفات النموذجية للمراهق . كانت فيه كلهـا : حدة ، افراط ، حياء ، جرأة وخجل ، وذوق التجريد ، والخوف من التدابير

---

١ - رديارد كبلنغ : الشاعر الانكليزي المعروف صاحب القول المشهور : « الشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقيا » .

الناقصة ، وتلك الفتنة التي يكسبها عدم الاهلية لنزعات الارتياب) ..
هل يمكن ان يكون في عمره الناضج شيئاً آخر سوى مراهق عجوز ؟

اعدت قراءة ملاحظاتي لهذه الليلة · عبارة ريمون : انظمة خيالية .. كلا ، كنت دائماً – اتحدى بمبالغة أيضاً – الاندفاعات الباطلة · وكنت دائماً متمسكاً بهذه الحكمة ولست ادري لمن : « ان اسوأ تشويش للعقل هو الاعتقاد بالاشياء لأننا نريد ان تكون » . بالحقيقة ، كلا حين صرح ويلسون : « ان ما نطلبة هو ان يعود العالم نقياً وان يصبح العيش فيه ممكنا » . هنا ارتيابيتي تقاوم : لا لزوم للكثير من الاوهام حول قابلية الاصلاح والكمال عند الانسان لنأمل ان العالم الذي نظمه قد عاد « نقياً » . ولكن حين أضاف ويلسون : « وليعود مأموناً لجميع الامم التي تحب السلام » ، مشيت متقارب الخطى. ليس هناك شيء خيالي ، وقد حصل المجتمع على افراد اقلعوا عن تحقيق العدالة بأنفسهم ، واخضعوا منازعاتهم إلى المحاكم ! فلماذا لا تمنع الحكومات من أن تقذف الشعوب ضد بعضها البعض حين يكون لديها مواضيع اختلاف ؟ الحرب قانون الطبيعة ؟ والطاعون أيضاً . كل تاريخ للبشرية هو صراع منتصر ضد قوى مؤذية · وامم اوروبا الرئيسية أخذت تعرف شيئا فشيئا ان تصنع وحدتها الوطنية · فلماذا لا تتوسع الحركة إلى درجة تحقيق وحدة قارية ؟ .. مرحلة جديدة ، تقدم جديد للغريزة الاجتماعية · « والشعور الوطني ؟ » سوف يقول القومندان . ليس الشعور الوطني ، كغريزة طبيعية ، هو الذي يدفع إلى الحرب : انه الشعور القومي ، شعور مكتسب واصطناعي . ان الارتباط بالأرض ، باللهجة ، بالتقاليد ، لا يستلزم أية عداوة عنيفة حيال الجار : بيكاردي والبروفانس ، بريتانية وسافوى . ان العواطف الوطنية في اوروبا متحدة لن تكون شيئا اكثر من صفات اقليمية .

« خيالي ! » بهذا يحاول الجميع نسف أفكار ويلسون . من المزعج ان ترى في الصحف ، حتى اكثرها موافقة للمشاريع الاميركية ، انهم يدعونه :

« الحالم الكبير » ، و « نبي ازمنة المستقبل » الخ .. أبداً . ان ما يدهشني بالعكس ، هو **عقله الرشيد** . افكاره بسيطة ، وهي جديدة وقديمة جداً معاً : نهاية جميع محاولات وتجارب التاريخ . ان اوروبا ستجد نفسها غداً على مفترق طرق كبير : اما تنظيم اتحادي جديد ؛ واما العودة الى نظام الحروب المتتابعة حتى استنفاد الجميع . واذا رفضت اوروبا ، بدافع الاستحالة ، صنع السلم المعقول الذي اقترحه ويلسون – وهو الحقيقي الوحيد ، والدائم الوحيد : سلام نزع السلاح النهائي – فسوف تدرك بعد قليل (وبأي ثمن تقريباً ؟) انها تاهت في طريق مسدود ونُذرت لمجازر جديدة . وهو امر قليل الاحتمال لحسن الحظ .

المساء

نهار مؤلم . عاد الي اليأس . الشعور بسقوطي في حفرة مفتوحة .. كنت استحق افضل . كنت استحق (كبرياء ؟) ذلك « المستقبل الجميل » الذي كان يعدني فيه اساتذتي ورفاقي .. وفجأة ، على منعطف ذلك الخندق ، هبة الغاز .. ذلك الفخ ، ذلك الشرك الذي نصبه القدر !

الساعة الثالثة – ضيق نفس شديد فلا استطيع النوم . لا أتنفس الا وأنا جالس ، مرتكز على ثلاث وسائد . اشعلت النور لأتناول الدواء واكتب هذا :

لم يكن لدي الوقت ولا الميل (الرومانتيكي) لأمسك دفتر يوميات . وآسف على ذلك . لو كنت استطيع اليوم ان احصل على كل ماضيّ منذ خمس عشرة سنة ، هنا ، بين يدي ، سواد على بياض لزاد من التخيل الى انني كنت موجوداً ؛ ولكان لحياتي حجم ، ووزن ، ومحيط ، وصلابة تاريخية ؛ ولما كانت ذلك الشيء المائع ، الناقص كحلم منسي لا يمكن التقاط شيء منه . (وكذلك ، فان تطور المرض يتسجل ، ويثبت على ورقة درجة الحرارة) .

بدأت هذا الدفتر لطرد « الاشباح » . وكنت أؤمن بذلك . في الاساس ، كمية من الاسباب الغامضة : تمضية وقت ، مجاملة حيال نفسي ، وايضاً التخلص

قليلاً من هذه الحياة ، من هذه الشخصية التي ستختفي والتي كنت فخوراً بها . النجاة ؟ لأجل من ؟ مستحيل لانني اعرف انه لن يتسع لي الوقت ، والتراجع لقراءة نفسي من جديد . لأجل من اذن ؟ **لأجل الصغير** ! نعم ، لقد ظهر لي هذا في هذه اللحظة ، أثناء الارق .

انه جميل ذلك الصغير ، انه قوي ، وينمو بشدة . كل المستقبل ، مستقبلي ، كل مستقبل العالم هو فيه ! منذ ان رأيته وانا افكر به ، وتلازمني فكرة انه لن يستطيع التفكير بي . لن يعرفني ، ولن يعرف شيئاً عني . لم اترك شيئاً . بعض الصور ، قليلاً من المال ، وإسم : « العم انطوان » . لاشيء . فكرة لا تحتمل . لو كان لدي ، اثناء هذه الاشهر من المهلة ، الصبر على الكتابة يوماً فيوماً في هذا الدفتر .. ربما فيما بعد . هل ينتاب الفضول جان بول ليبحث فيه عن اثري ، عن طابع ، عن طابعي الاخير ، اثر خطى رجل يذهب ؟ عندئذ يصبح « العم انطوان » بالنسبة اليك اكثر قليلاً من اسم ، من صورة في دفتر صور . اعرف جيداً ، فالصورة لا يمكن ابداً ان تكون مشابهة : بين الرجل الذي كنته وهذا المريض الذي نخره مرضه .. الا ان ذلك سوف يكون شيئاً مهما كان الأمر ، افضل من لاشيء ! اني اتعلق بهذا الامل .

تعب جداً . محموم . الممرض الحارس شاهد النور . جعلته يعطيني وسادة زيادة عما عندي . هذه القطرات لا تعمل ابداً . طلب شيء آخر من باردو .

ألق ازرق من النافذة في الليل . هل هو القمر ؟ هل هو النهار ؟ (كثير من المرات ، بعد غفوة لم أستطع تقدير مدة دوامها ، كنت اولع النور لأنظر الساعة وأقرأ بخمود همسة على وجهها المخادع : الساعة الحادية عشرة والدقيقة العاشرة .. الساعة الواحدة والدقيقة العشرون) !

الساعة الرابعة والدقيقة الخامسة والثلاثون . انه ليس القمر . انه الشحوب الذي يسبق الفجر . اخيراً !

١١ تموز

العذوبة المرة المثيرة لهذه النهارات ذات الالم الغامض ، في هذا السرير ..

الغداء انتهى (هذه الوجبات التي لا تنتهي ، على طاولة المريض الصغيرة ، تلك الانتظارات التي تستنفد الصبر وتقطع الشهية القليلة التي يمكن وجودها ! كل عشر دقائق ، جوزف وطبقه . حصة طعام في طاسة) .. من الظهر حتى الساعة الثالثة . انها الساعة الفارغة الهادئة التي يستعير فيها النهار من الليل صمته ، يقطعها السعال المجاور الذي احدد هويته دون ان افكر بذلك ، كأصوات معروفة .

في الساعة الثالثة ، ميزان الحرارة ، جوزف ، جلبة الرواق . النداءات في الحديقة . الحياة ..

١٢ تموز

يومان كئيبان . البارحة ، أشعة . رزم الغدد الرئوية قد ازدادت ايضاً . وكنت اشعر بها جيداً .

كوهلمان الذي القى في الريخستاغ ذلك الخطاب الكثير الاعتدال اضطر الى الاستقالة . ظاهرة سيئة لحالة النفس الالمانية . وبعكس ذلك ، فان التقدم الايطالي في دلتا نهر بياف قد تأكد .

المساء

بقيت في السرير ، مع ان النهار كان اقل إيلاماً مما كنت اخشى . استطعت استقبال بعض زيارات ، داروس ، غواران . معاينة طويلة هذا الصباح بحضور سيفر الذي ارسل باردو في طلبه . لم يجدوا شيئاً يستدعي القلق بشكل خاص ؛ ولا خطوة جدية . واستسلم الجميع حولي للأمل . واحب ان اردد انه يجب الا تؤخذ رغباتهم كحقائق ، وقد شعرت انني انا نفسي استولت علي هذه الثقة . من المؤكد اننا ربحنا اراضي : فيليه — كوتيريه ، لونغبون .. الجيش الرابع .. (لو كان هذا الباسل تيريفيه لا يزال فيه فيجب ان يكون لديه

شغل) ! ومن المؤكد ايضاً هناك الاخفاق النمساوي الذي كان تاماً . وجبهة اليابان الجديدة الشرقية . ولكن غواران ، وهو في اغلب الاحيان يكون على علم ، يزعم ان المعنويات قد اصيبت منذ ان قذفت باريس بالقنابل ؛ حتى في الجبهة الامامية حيث لا يرضى الرجال ان يعرفوا ان نساءهم واولادهم مهددون مثلهم . انه يتلقى كثيراً من الرسائل . فهو لا يستطيع ، ولا يريد ان تنتهي الحرب بأي ثمن . ربما تنتهي بعد قليل ، عند انقياد الاميركيين . واني ارى في ذلك منفعة : اذا تركت حكوماتنا اميركا تنهي الحرب فستكون مضطرة الى تركها تصنع السلام ، – سلامها ، سلام ويلسون . وليس سلام قادتنا العسكريين .

اذا استمر التحسن غداً فسأكتب اخيراً الى جني .

١٦ تموز

تألمت كثيراً في هذه الايام الاخيرة . دون قوة . دون رغبة بشيء . الدفتر بمتناول اليد ، ولكن لا يوجد اية رغبة في فتحه . لا تكاد تواتيني الشجاعة لأقوم بعمل الموازنة الصحية كل مساء على المفكرة .

منذ هذا الصباح . مظهر تحسن . ضيق نفس متباعد ، نوبات قصيرة ، سعال اقل عمقاً . محتمل . ايكون هدا بسبب علاج الأرسنيك الذي عدت اليه منذ نهار الاحد ؟ انتكاس متوقف هذه المرة ايضاً .

شيمري المسكين يستحق الرثاء اكثر مني . ظاهرات تعفن الدم . التهاب رئوي متقرح في اماكن متناثرة . هالك .

ودوبلاي ، التهاب وريدي متقيح في وريد الفخذ الأيمن .. وبرت ! وكوفان !

كل ما ينام في الخفايا !(كل تلك البذور المجهولة التي جعلتني الحرب اكتشفها في نفسي مثلاً .. حتى امكانات البغض والعنف ، حتى الشراسة .. واحتقار الضعيف .. والخوف ، الخ .. نعم ، جعلتني الحرب اشاهد في نفسي الغرائز

الأكثر خسة ، اعماق الانسان . سوف اكون الآن قادراً على فهم جميع الضعف، جميع الجرائم لأنني فاجأت في نفسي البذرة ، والميل) .

١٧ تموز مساء

متأكد بشكل أفضل . إلى كم من الوقت ؟

اغتنمت فرصة ذلك لأكتب اخيراً الرسالة . في فترة بعد الظهر هذه . عدة مسودات . من الصعب ايجاد الشرح الصحيح . فكرت أولاً بتهيئة الأرض بواسطة بعض اعمال تقارب . ولكنني مصمم على الرسالة الوحيدة ، الطويلة الكاملة . أمل حسن . وفقاً لمعرفتي بها ، من الأفضل تناول المسائل معها بدون مواربة ، اني اسعى لعرض الأمر كأنه قضية ذات شكل نقي ، لا غنى عنها لمستقبل الطفل .

ان اخذ الرسائل وتوزيعها قد تم هذا المساء ولدي وقت حتى صباح الغد لأعيد قراءة الرسالة وإقرر إذا كنت سأرسلها .

هجمات المانية في شامبانيه . روشا يجب أن يكون في المعركة . هل هذا تحريك لخطتهم الشهيرة : بلوغ المارن ، والسير حتى سان مهييل ، وتطويق فردان ، والعودة نحو الغرب باتجاه المارن والسين ؟ انهم يتقدمون الآن في الشمال والجنوب من المارن . دورمان مهددة (اني اتخيل جيداً المدينة والجسر،وساحة الكنيسة ، وعربة الاسعاف في مواجهة البوابة ..) الميعاد لا يزال بعيداً ! وليس هناك أي حظ حتى في رؤية علاماته الأولى . وبوضع كل شيء بشكل أفضل : ١٩١٩ ، سنة التباشير الاميركية ، سنة تلمذة ؛ ١٩٢٠ سنة الكفاح الشديد الحاسم ؛ ١٩٢١ سنة استسلام الوسطيين ، وسلم ويلسون ،وتسريح الجيوش ..

إعادة قراءة رسالتي مرة اخيرة . نبرة مرضية دون أي التباس ممكن ؛ والبراهين المقنعة في اكثريتها . انها لا تستطيع ان لا تفهمني ، وان لا تقبل .

١٨ صباحاً

شاهدت سيفر في لباسه الداخلي . ليس هنـــاك أي شبه بينه وبين السيد تيبرس .

بعد الظهر ، في الحديقة

تسجيل ما حدث هذا الصباح .

النهوض باكراً لإرسال رسالتي في عربة وكيل النفقات . وعندمـــا قمت لأسدل ستاري فاجأت في فتحة أحدى نوافذ البيت رقم ٢ ، السيد سيفر ، الاستاذ سيفر يقوم بزينته . الجذع عار . (كلسون) ملتصق بالفخذين (ردفاه الهزيلان كردفي جمل عجوز !) الشعر مبلل ، مسطح ، ملتصق بالجمجمة .. انه مشغول جداً بتنظيف أسنانه. انا معتاد على رؤيته بهيئة السيد تيبرس كمـا يبدو لنا . ذو أبهة ، احتفالي ، محزوم في ملابسه ، ذؤابته في الهواء ، والذقن ممدودة غير مضيع بوصة من قامته الصغيرة ، بحيث لم اعرفـــه في بادىء الأمر . رأيته يبصق ماء ذا رغوة ، ثم ينحني على مرآته ويدخل أصابعه في فمه ، ويخرج طاقم أسنانه ويتفحصه بهيئة قلقة ، ويشمه بفضول حيوان . في تلك اللحظـة تراجعت فجأة حتى منتصف الغرفة ، قلقاً ، متأثراً بشكل لا يمكن شرحه . شاعراً فجأة تجاه هذا المتسلط الدعي – ماذا أقول ؟ بتماطف اخوي .

ليس هي المرة الأولى التي يحدث لي فيها شيء كهذا . ان لم يكن لسيفر فعلى الأقل لآخرين . ها قد مضت علي شهور وأنا هنا ، على احتكاك ، وبعدم ترتيب ، بهؤلاء الاطباء والممرضين ، والمرضى . اني أعرف جيـــداً اشباحهم ، وحركاتهم ، وأهواءهم ، بحيث استطيع ، دون ان اخطىء ، ان أحدد من بعيد هوية رقبة بارزة من مقعد ، ويد تفرغ مرمدة في النافذة ، وصوتين يمران خلف جدار البستان . ولكن رفقتي لم تتعد أبداً حدود التحفظ الأكثر ابتذالاً . وحتى في الوقت الذي كنت فيه كالآخرين ، حر العقل ، عشوراً ، كنت دائماً أشعر انني مفصول عن الجميع بحاجز محكم ، غريب بين غرباء . كيف حدث ان هذا الإحساس بالعزلة استطاع أن يذوب فجأة ، ويترك المكان

لاندفاعة إخاء ، ومحبة تقريباً لأنني فاجأت واحداً منهم في قلب العزلة ؟ .. مرات كثيرة كان يكفيني ان اشاهد (أثناء لعبة مرايا ، أو باب مفتوح قليلاً) جاراً في الطابق يقوم باحدى حركاته المتواضعة التي لا يستسلم اليها إلا إذا كان متأكداً من أنه وحيد (منحنياً على صورة مسحوبة من جيب بطريق السهو ، أو يرسم إشارة الصليب قبل أن يضع نفسه في السرير ؛ أو أقل أيضاً : يبتسم لفكرة خفية ، بهيئة منذهلة بشكل غامض – لأكتشف فيه على الأثر، **القريب**، **المماثل الشبيه بي** ، حيث احلم لدقيقة أن أجعله صديقا لي !

مع ذلك عدم استعداد كلي « لاتخاذ صديق » . ليس لي **صديق** . ولم يكن لي أبداً . (هذا ما كنت أحسد جاك كثيراً عليه : صداقاته) .

أجد لذة في الكتابة ، بالتأكيد انا في حالة حسنة جداً في هذه الأيام الاخيرة .

المساء

هذا الصباح على المائدة ، ذكريات حرب . (بعد السلم ، سوف تحل قصص الحرب محل قصص الصيد) . داروس يقص قصة إحدى الدوريات في الالزاس، في بدء الحرب . في المساء كان يجتاز مع بعض الرجال قرية اخليت من السكان ، صامتة تحت ضوء القمر . ثلاثة من الجنود المشاة الالمان نائمون على الرصيف ، وبنادقهم بقربهم . نائمون وهم يشخرون . فقال : « على هذا القرب . أنهم ليسوا من البوش ، انهم من الرفاق العاجزين . ترددت ثانيتين . قررت أن أواصل طريقي دون ان أرى . والرجال الثمانية الذين كانوا ورائي فعلوا نفس الشيء . مررنا على بعد عشرة أمتار من النائمين دون أن نلفت رؤوسنا . وما من أحد منا أبدى أية إشارة إلى ما فعلناه باتفاق مشترك ، في ذلك المساء » .

٢٠ تموز

البارحة « تفتيش » المستشفى من قبل « لجنة » . جميع **سلطات** المنطقة .

ومنذ البارحة كان سيفر وباردو ومازيه منهوكين . ذكريات مشؤومة عن الثكنة . في المؤخرة ، لم تغير الحرب شيئا .

لا شيء يقال حول « نظام – قوة الجيوش » - بالتأكيد ! افكر ببرون وبأطباء عسكريين آخرين . ودونيتهم بالنسبة لأطباء الاحتياط مدينة في قسم كبير إلى انهم اشتغلوا سنوات ضمن احترام سلسلة الرتب . اعتادوا الطاعة ؛ وأن يحددوا بعدد الاشرطة الدالة على رتبهم حريةتشخيصهم للامراض ، ومعنى مسؤوليتهم .

نظام عسكري . أتذكر باولي الشرس ، صف ضابط في التمريض في سجن كومبيانيه . رأسه كرأس قائم ٍ بأعباء مهمة ، وعيناه محمرتان . ربما لم يكن شخصاً رديئاً : كان يذهب كل مساء الى ضفة الماء يقطف بذور القنّب لأجل زرزوره . انه من ذلك العرق المقيت الهالك من متطوعي ما قبل الحرب الذين جددوا تطوعهم . (لماذا جدد تطوعه ؟ لانه وجد بدون شك في هذه المهنة الفرصة الوحيدة التي يستطيع فيها التسلط على أشباهه بواسطة الإرهاب) . كان مكلفاً من قبل الماجور بتسجيل الجنود الشبانالذين كانوا يحضرون للمعاينة . وكنت اسمع المرضى من مكتبي وهم يطرقون بابه . دائماً نفس السؤال بملء فمه : « إذن ، هل نعم أم قذارة ؟ .. » واني لأتخيل الرأس المذعور لمن سجل اسمه للخدمة العسكرية . « إذا كان قذارة فبامكانك التصرف ! » والمقبول للخدمة يدور على عقبيه دون أن يطلب مزيداً ! وكان الماجور يزعم إن باولي كان رتيباً ممتازاً : « معه ، لا يوجد أبداً متهربون من الخدمة » .

كان ابي يقول : «الجيش هو أكبر مدرسة للأمة » . وكان يدفع نحو مكاتب التجنيد أحداثه في كروي .

٢١ ، الأحد

تحليلات الأسبوع تشير إلى نقصفي الفوسفات والمعادن يتقدم بشكل منتظم رغم جميع الجهود .

بلاغ رسمي . الأخبار جيدة . تقدم في جنوبي اورك ، تقدم في شاتو – تييري . الحركة تسير مـــن الايسن إلى المارن ، يقال أن فوش يحتفظ لنفسه ، عندما يحين الوقت ، بالانتقال من الدفاع إلى الهجوم . هل جاءت الساعة ؟

القومندان يشغل نهاراته بنقل اعلامه على الخارطة . مناقشات غاضبة حول « خيانة » مالفي ولاهوتكور . إن السياسة تستعيد حقوقها منذ ان تصبح البلاغات الرسمية أفضل .

٢٢ ، مساء

تلقى كيرازيل اليوم زيارة عديله ، نائب نيافر ، على الغـداء معنا . أعتقد أنه راديكالي اشتراكي . قليلاً ما يهم : جميع الاحزاب الآن اختارت التلاؤم مع حالة الحرب ، مكررة نفس الأقوال المبتذلة . حديث ذو تفاهة مرهقة . ومع ذلك فهذا : بمناسبة عروض السلام النمساوية التي نقلها إلى الحكومـة الفرنسية سيكست دي بوربون في ربيع السنة الماضية ، فان غواران يستشيط غيظاً من رفض فرنسا . يبدو أن الأكثر تشدداً كان ريبو العجوز الذي عرف أن يقنع بوانكاريه ولويد جورج . وإحدى الحجج المثارة في الأوساط السياسية الفرنسية كانت هذه : « يستحيل النظر في سلام يحمله إلى الجمهورية أحد أعضاء بيت البوربون . فالدعاية الملكية سوف تستخرج من ذلك فائدة عظمى . خطر على مستقبل النظام . خصوصاً في الساعة التي تكون فيها السلطة بين أيدي القادة العسكريين ! » .

أمر يكاد لا يصدق !

٢٣ ، تموز

النائب ، البارحة . نموذج جميل للحمّى الحديثة ، وصل من باريس في قطار الليل السريع ليربح اثنتي عشرة ساعة . يستشير ساعتـــه دون انقطاع بعين محمومة . كأن هناك نشوة خفيفة : يده ترتجف عندما تلمس الزجاجة . وتفكيره يتعثر وهو يدير الأفكار .

يعتبر الانتقال نشاطاً ، ونشاطه غير المتلاحم شغلاً. ويعتبر ارتفاع الصوت كدلالة عقلية . والنبرة القاطعة كعلامة سلطة وصلاحيــة . وفي الحديث يعتبر الاسهاب في الحكاية كفكرة عامة. وفي السياسة يعتبر عدم وجود شرف الاخلاق كواقعية ذكية ، ويعتبر صحته الحسنة جرأة ، وإرضاء شهواته فلسفة حياة ، الخ ..

هل يمكن انه اعتبر صحتي استحساناً مفرطاً ؟

٢٣ تموز ، مساء

البريد . جواب جني .

اني الآن آسف لأنني لم اتوجه برســالتي إلى الام أولاً كما كنت افكر . جني ترفض . رسالة متزنة ولكنها صلبة . انها تطالب عن جدارة بمسؤولياتها الكاملة عن اعمالها . لقد استسلمت بملء حريتها. وابن جاك يجب الا يكون له اب آخر ، حتى في عيني القانون . وزوجة جاك يجب الا تتزوج ثانية . ليس لديها ما تخشاه من احكام ولدها . الخ ..

والظاهر أن اعتباراتي العملية لم تهزها وبدت لها انها تستحق الاهمال تماماً ، وانها حقيرة . لم تقل ذلك ولكنها تستعمل عدة مرات عبارات « الليــاقات الاجتماعية » ، « احكام الماضي » . الخ .. بنبرة احتقارية واضحة .

مما لا شك فيه انني لن اتراجع . العودة إلى التجربة بشكل آخر . ما دامت هذه « اللياقات الاجتماعية » ليس لها اية قيمة ، فلماذا التمرد عليها ؟ هذا يعني بالتأكيد اعطاءها اهمية ليست لها ! وعلى الخصوص ، الالحـاح على هذا : ليس المقصود هي ، بل جان بول . وعدم الاعتبار المتعلق بالولادات غير النظامية هو مستحيل - متفقون . ولكن هذا امر واقع . فاذا افهمتها ذلك فلن تتردد في قبول اسمي وأن تتركني اعترف بالولد . أن الظروف غير عــادية : كل شيء يصبح بسيطاً باختفائي القريب .

ساحاول أن اجيبها اليوم .

لقد اخطأت ايضاً في اعطاء ايضاحات كافية حول الطريقة التي تسير الامور فيها . وقد اضطرت إلى تصور وضعيات مقلقة . وضع النقـاط على الحروف . اقول لها : « عليك بكل بساطة أن تاخذي القطار السريـع ذات مســاء . وسانتظرك في غراس . سيكون كل شيء جاهزاً في مكتب المختار . وبعد ساعتين من وصولـــك تأخذين القطار إلى باريس . ولكن بحالة مدنية وفقاً للنظام ».

٢٤ تموز

مسرور من رسالتي البارحة . فعلت حسناً بعدم ارجائها إلى اليوم . نهـار سيء . كثير التعب من العلاج الجديد .

كنت كثير البلاهة في اعتقادي أن شكليات ادارية تكفي لأوفر نهـائياً على ذلك الصغير جميــع الصعوبات التي تنتظره . مستحيل ، لأنني لن اتوصل إلى اقناع جني .

٢٥ تموز

صحف . شاتو – تييري احتلها جنودنا . هل هو اندحار الماني ام تراجـع ستراتيجي ؟ تؤكد الصحافة السويسرية أن هجوم فوش لم يبدأ . والهدف الحالي سوف يكون فقط إعاقة ارتداد الالمان . أن جمود الانكليز على الجبهة يجعـل الافتراض قريبا من المعقول .

نوبات ضيق نفس عديدة ، مع قلق شديد . تقلب درجة الحرارة . انحلال قوي .

السبت ، ٢٧

ليلة سيئة . بريد سيء . جني تصر على رأيها .

بعد الظهر .

حقنة . ساعتان من الراحة .

رسالة جني . لا تريد أن تفهم . تصر . وما ليس سوى لعب كتابة ياخذ في عينيها كامرأة اهمية الرفض . (« لو كنت استطيع استشارة جاك لكان نصحني دون شك بالاعراض عن هذا التسليم بالاحكام الاكثر انحطـــاطاً .. اعتقد انني أخونه لو انني ...» الخ .)

مهتاج . كل هذا الوقت الضائع في المناقشة . كلما تأخرتُ في القبول تقل قدرتي على القيام بكل هذه المساعي . (جمع الاوراق ، الحصول على أن يكون الزواج هنا ، اعلان الزواج ، الخ) ..

شجاعتي قليلة جداً لأكتب اليها اليوم . لقد صممت انا ايضاً أن انقل القضية إلى الصعيد العاطفي . اضع في المقدمة التهدئة الاخلاقية التي سوف اشعر بها إذا تأكدت اخيراً من توفير حياة صعبة على هذا الصغير . مغـــالاة في وساوسي . التوسل إلى جني أن لا تأبى علي هذا السرور الاخير . الخ .

٢٨ تموز

رسالة كُتبت وأرسلت ليس بدون جهد مؤلم .

٢٩ تموز

صحف . ضغط على مجمل الجبهة . في أيسن ، في لافسل . المارن أُنقذ . فريسن ، غابة ديلافير ، فيلنوف ورونشير ، وروميني ، وفيل -- ان - تاردنوا ...
اني اتذكر جيداً جميـع هذه الزوايا .

في الحديقة

ما أراه امام عيني . كل ما حولي حدائق اخرى شبيهة بحدائقنا ، باشجارها من البرتقال واللميون الحامض ، وزيتونها الاشهب ، وجذوع الاكالبتوس المسلوخة ، والطرفاء الرائشة ، وتلك النباتات ذات الاوراق العريضة من نوع الراوند ، وتلك الجرار حيث تتساقط شلالات الورود وابرة الراعي (الجيرانيوم) . إفراط في الالوان : جميع تنوعات قوس قزح . كل من هذه المساكن التي تُشاهد ، والتي

تلمع في الشمس من خلال سياج السرو ، بجصص بلون يختلف : ابيض ، وردي ، خبازي ، ليموني . ولون القرميد القرمزي ضد زرقة السماء . وتلك الشرفات الخشبية ، مدهونة بالاسمر ، والارجواني، والاخضر القاتم ، وإلى اليمين ، الاكثر قرباً : بيت أمغر ذو مصاريــع زرقاء . وذلك الآخر ذو بياض فاتح بشعريات نوافذه ذات اللون الأخضر الأسيدي برفارفها العريضة ذات الظل الضارب إلى اللون البنفسجي .

ما اجمل أن يكون للمرء بيت هنا ، ويضع سعادته هنا ، ويكون لديه حياة يحياها هنا !

في صف السرو الاسود أكسب شعاعُ الشمس بورسلين اعمدة التلغراف بريقاً لا يدرك .

٣٠ ، مساء

نزلت اليوم . امر لم يكن باستطاعتي القيام به في هذين اليومين . الدنيـــا مسودّة في عيني . بليد . انظر إلى الحياة ، والآخرين ، كما لو أن الكون اصبح بالنسبة إلي مدهشاً ، غير مفهوم ، منذ أن ألقيت خارج المستقبل .

يبدو الآن أن التقدم قد توقف .

وهاهم الروس (لينين) يعلنون الحرب على الحلفاء.

المساء

تذكار : بعد موت ابي حملت إلى بيتي اوراقه التي يستعملها للرسائل ؛ بعد ثلاثة اشهر كتبت كلمة للمعلم ، وقلبت الورقة . كان والدي قد بدأها : « الاثنين . سيدي العزيز ، تلقيت هذا الصباح فقط .. » مصادفة فظة تبعث على لمس الموت كما باليد ! خطه الصغير المعتنى به ، تلك الكلمات القديمة الحية . ذلك الجهد الذي لا ينقطع إلى الابد !

آب

اول آب ، ١٨

هجوم تاردانوا دائماً . هل امسكوا اخيراً بالطرف الأصلح ؟ ولكن بأي ثمن ؟ تقدم هام بين سواسون وريمس . تلقـّى باردو رسالة من السوم ؛ يقال ان هجوماً آخر ، فرنسياً – انكليزياً ، يُعَدّ في شرق اميان (اميان ، في آب ١٤ .. تلك البلبلة في كل مكان ! استفدت منها جيداً ! كل ما استطعت اخذه من المورفين والكوكايين ، بفضل ريولت الصغير ، من صيدلية المستشفى لأجل اعادة تموين مركزنا للاغاثة ! وقد افادني ذلك بعد خمسة عشر يوماً اثناء معركة المارن !) .

لقد صوت مجلس النواب على استدعاء من يبلغون سن الخدمة العسكرية عام ٢٠ . انها (قُرعة) لولو. الغلام المسكين . لم ينته من الأسف على مستشفى فونتانان .

٢ آب

ليس هناك أي أمل بالتغلب على عناد جـني . هـذه المرة كانت الـ « كلا » النهائية . رسالة قصيرة ، ملأى بالمودة ، ولكنها لا تتزعزع . لا يهم . (لقد بَعُدَ الوقت الذي كنت استصعب فيه اقل اخفاق . اني التخلّـى). لقد جعلت من رفضها الآن قضية مبدأ – غير منتظر ! مبدأ ثوري .. لم تخش أن تكتب : « جان بول هو ابن زنا ، وسيظل ابن زنا . وإذا كان هذا الوضع غير النظامي يجب ان يضع ابن جاك باكراً في صراع مع المجتمع ، فهـذا افضل . فوالده لم يكن يتمنى انطلاقاً افضل لولده ! » ممكن ، فعلاً .. اذن ليكن !.. ولتنتصر ، حتى بعد الموت ، روح التمرد التي كان يحملها جاك في نفسه ! .

٣ ، ليلا

انها الساعة التي احب الكتابة فيها . اكثر صفاء من النهار ، وأكثر وحدة

ايضاً مع نفسي .

جني . تحفـّظ ـّتم ّ، بينما في دخيلة نفسي يجب ان اعترف ان رسائلها تشكل كلاّ متلاحماً . لا ينقصها القوة ولا العظمة . تفرض الاحترام .

إلى جان بول :

سوف تعجب بهـذه الرسائل ذات يوم يا صغيري ، إذا شعرت بالفضول لقراءة أوراق العم انطوان . انا اعلم انك ستعطي الحق لوالدتك دون تردد في هذا الجدال . ليكن . فالشجاعة وشرف النفس همـا من ناحيتها وليس من ناحيتي . اني أسألك فقط أن تفهمني ؛ وان ترى في الحاحي شيئاً آخر غـير خضوع انتهازي ورجعي للعوامل البورجوازية · فذلك الجيـل الآتي الذي هو جيلك ، أخشى الا يدخل في نزاع ، في جميع الميادين ، مع صعوبات رهيبة لا يمكن التغلب عليها لوقت طويل · والصعوبات التي لاقيناها ، والدك وأنا ، لا تعدّ شيئاً بجانبها . هذه الفكرة يا صغيري تشد على قلبي . ولن أكون هنـاك لأعاونك في هذا الصراع ، اذن ، كان شيقاً بالنسبة الي ان افعل شيئاً لأجلك على كل حال · وان اقول لنفسي ، انني إذا تركت لك حالة مدنيـة نظامية ، وجعلتك تحمل اسمي ، اسم ابيك ، اكون على الأقل قد أزلت من طريقك احدى تلك العوائق التي تنتظرك ، وهو العائق الوحيـد الذي استطيع شيئاً ضده - والذي اريد أن اعتقد ، مع والدتك ، انني ابالغ قليلاً بأهميته .

٤ آب

صحف . سواسون استعيدت . كانوا قد احتلوها منذ آخر آذار . ها نحن على الايسن وعلى لافسل ، امام فيسم (فيسم ، ذكريات ايضاً ! هناك التقيت بالأخ دي سوندر الذي صعد إلى خط القتال ولم يعد) .

خطاب حكيم للأب لانسدون . هل سيُسمع ؟ من مجرى الأمور - وهذا رأي غواران ايضاً - ستكون هناك محاولة مفاوضات قبل الشتاء · ولكن كليمنصو سيتصامم ما دام لم يلعب ورقته الأخيرة : الأميركيون .

في روسيا . هناك ايضاً يجب أن تجري امور. نزول الحلفاء في اركانجلسك ، واليابانيين في فلاديفوستوك . ولكن كيف تستطيع فهم شيء في البلبلة الروسية مع القليل من المعلومات المتسربة ؟

المساء

سيغر يعود من مرسيليا . يقال في أركان الجيش أن القسم الأول من الهجوم المضاد الحليف الذي بدأ في ١٨ ، قد انتهى . وسوف تُبلغ الأهداف : جبهة على خط مستقيم من الواز إلى الموز ؛ كثير من الخاطرات تسمح بضربة غير متوقعة . هل يستقرون على ذلك الخط الجديد طول الشتاء ؟

٥ آب

يجب أن استبشر بنتائج مسكّن مازيه الجديد . دون أي تأثير على الارق. ولكن النبض منتظم ، تهدئة عصبية ، حساسية اقل ، صفاء ذهن ، نشاط عقل ، تضاعفت عشر مرات (كما يبدو) . وفي نهاية الحساب ، ليالي بدون نوم ولكنها لطيفة تقريباً إذا قورنت بغيرها .

مفيدة للدفتر !

ذهب جوزف باجازة . حل محله لودفيك العجوز . ثرثرته تحطم رأسي . اهرب حين يأتي لترتيب الغرفة : هذا النهار وقد تأخرت في السرير بسبب الكي الجلدي ، وجدت نفسي تحت رحمته . حديث اكثر ارهاقاً بقدر ما تقطعه الشهقات والنباح ، الخ . الخ. فقد وضع في فكره أن يشمّع «ارضيته» ، ويرقص نوعاً من رقصة الجيغ [1] على فرشاتين وهو يناجي نفسه .

قص علي طفولته في السافوى . ودائماً : « إنه الزمن الحسن يا سيدي الماجور ! » . (نعم ، فان العجوز لودفيك ، وأنا ايضاً ، حين تلتقط ذاكرتي

١ – رقصة الجيغ Gigue : رقصة حامية غريبة . وهي الرقصة المفضلة عند البحارة الانكليز .

شذرة من الماضي – حتى ولو كان احياؤها مؤلماً – : «إنه الزمن الحسن!»).

هو يستعمل تعابير لذيذة مثل كلوتيلد ، ولكن بنسق آخر تقل فيه لهجة الباتوا . قال لي بصورة خاصة ان والده كان **منظـّما** . يعني ، العامل المكلف، في مشاغل صنع الملابس **بتنظيم** وضبط القطع التي قطعها المفصّل على بعضها البعض . كلمة جميلة . كم من عقول (جاك) .. هي بحاجة للاسراع إلى **المنظم** لترتيب ما تعلمته !

تتحدث جني في إحدى رسائلها عن جاك ، عن « مذهبه » ليس هنـــاك الفاظ غير مناسبة أكثر منها – سأحرص على فتح جـــدل معها حول ذلك . ولكن يبدو لي أن من الخطر جداً على تربية الصغير أن تعتبر « كمذهب » تلك الافكار التي يكثر تنافرها أو يقل ، والتي استطاع جاك أن يشرحها أمامها ، والتي حفظتها بشكل أكثر أو أقل ضبطاً .

إذا قرأت هذا يا جان بول ، فلا تستنتج منها بسرعة إن العم انطوان قد حكم على أفكار أبيك بأنها غير متلاحمة . أريد فقط أن أقول ان أباك ، كالمحرضين ، كان يعطي انطباعاته ، حول معظم وجهـــات النظر المتنوعة ، المتناقضة في أغلب الأحيان ، والتي لم يكن يتوصل هو نفسه إلى تنسيقهـــا . إذن لم يكن ينجح ابداً ، هو نفسه ، في استخراج يقين واضح ، متين ، دائم من الدلالات الموجهة بشكل واضح . وشخصيته ايضـــاً كانت مركبة من عناصر مختلفة ، معارضة وآمرة – الأمر الذي يؤلف ثروتها : – ولكن المرء يتعب في الاختيار بينها ، ولم يعرف ابداً أن يؤلف منها كلاً متناسقاً . ومن هنـــا كان قلقه الأبدي ، وذلك القلق النفسي الشديد الذي عاش فيه .

ومع ذلك فربما كنا جميعاً ، وبدرجات متفاوتة شبيهين به . وأعني بنحن : اولئك الذين لم يستصوبوا ابداً نظاماً جاهزاً؛ أولئك الذين – بسبب اختيارهم، في إحدى لحظات تطورهم ، فلسفة معينة ، أو ديناً ، أو أحد تلك السطوح الثابتة ، الموضوعة بعيدة عن التناول ، خارج المناقشات – هم محكومون بأن يراجعوا دورياً نقاط ارتكازهم ، وأن يرتجلوا توازنات متتابعة .

٦ آب ، الساعة السابعة مساء .

لودفيك العجوز . بنفس أصابعه الكبيرة التي وضعت ثم سحبت ميزان الحرارة من الغرفة رقم ٤٩ ، نظّف المتفلة في الرقم ٥٥و٥٧ ووضع سكراً في فنجان الزيزفون بعد أن أدخل يده حتى اعماق وعاء السكر . وقلت : «شكراً يا لودفيك ... »

نهار معتدل ، ولكن ليس لي الحق بالقيام بالعمل الصعب .

هذا المساء ، إبرة . راحة .

ليـلا

ألم قليل . ولكن ارق .

ما كتبته البارحة لجان بول : غير صحيح نوعاً فيما يتعلق بي . بامكانك الظن انني امضيت وقتي في البحث عن التوازن . كلا . بفضل مهنتي دون شك . اشعر دائماً أنني شديد التوازن . لن اجعل سبيلاً للقلق .

عن نفسي :

منذ وقت مبكر جـداً (منذ أولى سنواتي في الطب) . دون أن أقبل أي معتقد ديني أو فلسفي، كنت قـد توصلت إلى التوفيق بين جميع ميولي ، وإلى أن أصنع لنفسي اطاراً متينـاً من الحياة ، والتفكير : نسق أخلاقي . اطار محدود ولكني لم أكن أتألم من حدوده · حتى اني وجدت فيـه شعوراً بالطمأنينة · العيش راضياً ضمن الحدود التي عينتهـا لنفسي اصبح بالنسبة إلي شرط الرفاهية التي أشعر أنه لا غنى عنه لشغلي · وهكذا ، في وقت مبكر جداً ، استقريت بسهولة في وسط بعض المبادىء – وأكتب **مبادىء** ، لعـدم وجود الأفضل ؛ فاللفظة مموهة ومصطنعة – مبادىء كانت تلائم حاجـات طبيعتي ، وحياتي كطبيب ، (بالاجمال : فلسفة ابتدائية لرجل عمل ، مؤسسة على عبادة النشاط والتمرين والارادة . الخ ··) .

على كل حال ، هو صحيح كل الصحة بالنسبة لعصر ما قبل الحرب . وصحيح

ايضاً بالنسبة لفترة الحرب ، حتى جرحي الأول على الأقل . وعندئذٍ (نقاهة في مستشفى سان ديزيه) ، بدأت أهتم ببعض طرق التفكير والسلوك التي امنت لي حتى الآن شيئاً من التوازن ، وانسجاماً مريحاً،وأتاحت لي استخراج انتاج جيد من قدراتي .

تعبت · أتردد في متابعة هذا النوع من التحليل · يعوزني الاندفـــاع : انخرطت فيه . كلما تقدمت يبدو لي ما أكتبه عن نفسي موضع ريبة .

مثلاً ، أفكر في بعض الأعمال الأكثر أهمية في حياتي . تأكد لي أن تلك التي اتممتها بأكثر ما يمكن من العفوية كانت على تناقض كبير مع « المبادىء » الشهيرة . وفي كل واحدة من هذه الدقائق الحاسمة اتخذت قرارات لم يكن يبررها « علمي الأخلاقي » . قرارات كانت قد فرضتها علي فجأة قوة داخلية اكثر تسلطاً من جميع العادات ، ومن جميع أعمال العقل · وعلى أثرها توصلت بوجه عام إلى الشك بهذا « العلم الأخلاقي » وبنفسي . وقد تساءلت بقلق آنذاك : « هل أنا حقيقة الرجل الذي أعتقد أنني هو ؟ » (قلق كان بالاجمـال يتبدد بسرعة ، ولم يكن يمنعني من استعادة التوازن على أوضاعي المعتادة) .

هنا ، هـــذا المساء (وحدة ،تقهقر) أرى بوضوح كافٍ انني تشوهت اصطناعياً بدون أن أريد ذلك ، بسبب هذه القواعد للحياة ، وبالعادة التي اتخذتها لأخضع لها ، كنت قد تشوهت اصطناعياً دون أن أريد ذلك ، وقد خلقت لنفسي نوعاً من القناع . وحمل هذا القناع غيّر شيئاً فشيئاً طبعي الأصلي . وفي مجرى الحياة (وثم قليل من أوقات الفراغ لأميز بدقة) لاءمت نفسي دون جهد مع هذا الطبع المصنوع . ولكن في بعض الساعات الحرجـة تكون القرارات التي اتخذها تلقائياً هي دون شك ردود فعل لطبعي الحقيقي ، مزيلاً القناع فجأة عن الأساس الحقيقي لطبيعتي .

(أنا مسرور جداً لإيضاح ذلك) ·

ومع ذلك فأنا افترض أن الحالة مألوفة . الامر الذي يقود إلى التفكير أن الكائنات ، لتصل إلى الكشف عن طبيعتها الخاصة ، فان ذلـك لن يكون في

البحث في سلوكها العادي ، بل في أعمال غير متوقعة ، ذات مظهر لم يوّضح جيداً ، فاضحة احياناً ، تصدر عنها . وبهذا تفتضح الطبيعة الاصلية .

انا مضطر إلى الظن أن الامر عند جاك لم يكن كما هو عندي . فعنده يجب أن تكون الطبيعة العميقة «الاصلية» هي التي كانت تقود في معظم الوقت سلوك حياته. ومن هنا جاء عدم استقرار مزاجه بنظر اولئك الذين كانوا يرونه يعيش. وعدم توقع ردود فعله ، وفي أغلب الاحيان مظهرها غير المتلاحم .

أول هالة للفجر في النافذة . ليلة اخرى ايضاً ، ليلة أقل .. سأحاول أن أغفو . (هذه المرة لم آسف كثيراً بسبب أرقي) .

٨ آب ، في الخارج

درجة الحرارة ٢٨ في الظل . حرارة متوهجة ولكنها خفيفة ، منعشة . مناخ بديع (أمر غير مفهوم ، أن يتنحّى قسم كبير من البشرية في الشمال العدائي !)

سمعتهم منذ قليل ، على المائدة ، يتحدثون عن مستقبلهم . كلهم يظنون — أو يتظاهرون بالظن — أن « المتسمم بالغاز » لا يتعرقل إلى الابد . ويظنون أيضاً أن باستطاعتهم استعادة حياتهم من النقطة التي قطعتها التعبئة . كما لو أن العالم لا ينتظر سوى السلم ليعاود نسقه الماضي ، كما كان. اخشى حدوث خيبات أمل عنيفة .

ولكن الاكثر مثاراً للدهشة بالنسبة إلي : الطريقة التي يتكلمون بها عن اعمالهم المدنية . ليس كعمل مختار ، محبوب ، مفضل . كتلميذ مدرسة ثانوية يتكلم عن صفوفه ؛ حين لا يكون ككلام سجين عن الاشغال الشاقة . شفقة كبرى .. لا شيء أسوأ من الدخول إلى الحياة دون قابلية قوية . (لا شيء — إذا لم يكن الدخول إلى الحياة بقابلية مزيفة).

إلى جان بول :

احذر يا صغيري من« القابلية المزيفة. معظم الحيوات الفاشلة ، والشيخوخات

الغاضبة ليس لها أصل آخر .

أني أراك يافعاً ، في السادسة عشرة، في السابعة عشرة.عمر التشوش الكبير ذاته . العمر الذي يبدأ فيه عقلك أن يعي نفسه ، وأن يغتر بقواه . العمر الذي ربما يبدأ قلبك فيه الكلام بصوت مرتفع ، وحيث يصبح من الصعب تخفيف اندفاعاته . العمر ، حيث روحك المتخدرة ، المنتشية بالآفات التي اكتشفتها حديثاً ، سوف تتردد أمام امكانات عديدة . العمر ، حيث الانسان لا يزال ضعيفاً ، ويعتقد انه قوي ، يشعر بالحاجة إلى ايجاد دعائم وصوى ، ويلقي نفسه بنهم نحو أول يقين ، أول نظام يعرض له .. انتبه ؛ العمر ايضاً – ولن تشكّ في ذلك ابداً ، – حيث مخيلتك تصبح الاكثر ميلاً إلى تشويه الوقائع : إلى درجة حسبان الخطأ كالصحيح . ستقول : « أنا اعلم » « أنا اشعر » ، « أنا متأكد » . انتبه ؛ أن الغلام ابن السابعة عشرة يشبه في الغالب ربانًا يعتمد على بوصلة مختلة . ويشعر بقوة أن اذواقه كيافع هي طبيعية بالنسبة اليه. وأن عليه أن يتخذها كدليل ، وأنها تريه ، بلا ريب ، الاتجاه الصحيح الذي يجب أن يسير فيه . ولا يرتاب ابداً انه ، بوجه عام ، منقاد إلى اذواق مفتعلة ، وقتية ، استبدادية . ولا يرتاب بأن ميوله التي تبدو انها له بشكل اصلي ، هي بالعكس غريبة عنه في الاساس ، وانه التقطها كتزوير، وفقاً للصدفة على أثر لقاء حدث ذات يوم في الكتب أو في الدنيا .

كيف اقيك هذه الاخطار ؟ أني ارتجف لأجلك . هل تصغي إلى نصائحي ؟

بودي قبل كل شيء الا تلقي جانباً ، وبملل ، آراء معلميك والمحيطين بك ، والذين يحبونك ؛ والذين يبدون لك انهم لا يفهمونك ، والذين ربما يعرفونك اكثر مما تعرف نفسك . أن تنبيهاتهم تزعجك دون شك في حدود شعورك بشكل غامض انها مبنية على اساس .

ولكن بودي على الخصوص أن تدافع عن نفسك ضد نفسك . ليساورك الخوف بأنك مخدوع بنفسك ، وانك مخدوع بالظواهر . مارس صدقك على حسابك لتجعله نيراً ونافعاً . افهم . جرب أن تفهم هذا : للغلمان الذين هم من

محيطك ، – أريد القول ؛ انهم متعلمون ، متغذون بالقراءات ، عاشوا في صحبة اناس أذكياء وأحرار في أحاديثهم ، – فإن الالمام ببعض الأمور ، ببعض العواطف ، يتقدم **التجربة** . انهم يعرفون بالعقل ، بواسطة المخيلة ، عدداً من الأحاسيس التي ليس لديهم بشأنها أي تطبيق عملي مباشر . انها لا تخطر ببالهم : فهم يخلطون بين **المعرفة والشعور** . يظنون انهم **يشعرون** بعواطف ، بحاجات ، **يعرفون** فقط انهم يشعرون بها . .

اصغ الي . الميل ! لنأخذ مثلاً : في سن العاشرة ، في الثانية عشرة ستظن دون شك انك تميل الى البحّار ، الرائد . لانك كنت شغوفاً بقصص المغامرة . والآن لديك عقل رشيد كاف لتضحك من ذلك . أجل . في سن السادسة عشرة ، السابعة عشرة ، تترصدك أخطاء مماثلة . كن على بينة . احـذر من ميولك . لا تتخيل بسرعة انك فنان ، او رجل عمل ، او ضحية حب كبير لأن الفرصة اتيحت لك لتعجب ، في الكتب أو في الحياة ، بشعراء ومحققي أعمال كبار ، وعشاق . ابحث بصبر عما هو جوهر طبيعتك . حاول أن تكتشف تدريجياً شخصيتك الحقيقية . ليس سهلاً ! كثير من الأمور لا يتوصل المرء اليها إلا بعد فوات الاوان . وكثير منها لا يتوصل اليه ابداً . خذ وقتك ، لا شيء يدعوك للعجلة . يجب التحسس طويلاً قبل معرفة النفس . ولكن حين تجد نفسك ، عندئذ إلق بسرعة كل الثياب المستعارة . اقبل نفسك بحدودك وبما ينقصك . واعمل على إنماء نفسك ، سليماً وطبيعياً دون خداع ، في ما انت مخصص له . لأن معرفة النفس ، والقبول بالنفس ليس هو التنكر للجهد ، للاتقان . بل بالعكس تماماً ! ان في ذلك حصولاً على أفضل الحظوظ لبلوغ الدرجة القصوى ، لأن الاندفاعة تجد نفسها متجهة في الاتجاه السليم . ذلك الذي تحمل فيه جميع الجهود ثمارها . توسيع المرء لحدوده بقدر المستطاع . ولكن حدوده **الطبيعية** ، بعد ان يدرك جيداً ماهي . وأولئك الذين يخفقون في حياتهم هم في أغلب الأحيان إما أولئك الذين اخطأوا في البدء حول طبيعتهم وضلوا وراء اثر

لم يكن اثرهم ؛ وإما أولئك الذين ساروا في الاتجاه السليم ، ولكنهم لم يعرفوا ، او لم تأتهم الشجاعة للإكتفاء بمكنتهم .

٩ آب

صحف . خطاب متفائل للويد جورج . انه تفاؤل مبالغ فيه دون شك لأجل احتياجات القضية . رغم كل شيء ، فان ما حدث منذ عشرين يوماً على الجبهة الفرنسية كان غير مأمول (حديث روميل في باريس) . وهجـــوم بيـكارديا بدا أنه تحرك منذ البارحة . والاميركان في الأفق . وخطة برشنغ سوف تكون ، كما يظن ، ان يتاح لفوش ان يقوّم جبهته وينقذ باريس ؛ وبينما يكون الفرنسيون والانـكليز يحافظون على الجبهة القديمة ، فإن دفعةً اميركية كثيفة تسير باتجاه الالزاس لأجل اجتياز الحدود واجتياح المانيـــا . ويقال ان الحـــرب ستُربح في ذلك النهار بفضل استعمال غاز معين لا يمكن استعماله إلا على أراضي العدو لأنه يتلف كل شيء ، ويمنع كل نبات طوال سنوات ، الخ .. (على المائدة ، حماسة عامة . كل هؤلاء المساكين المصابين بالغاز ، والذين لم يستعد الكثير منهم صحته ، كانوا يطربون لفكرة هذا الغاز الجديد) ..

قرأ داروس علينا رسالة من أخيه ، وهو مترجم ذو علاقة بالجيوش الاميركية . يقول انه منزعج من ثقتهم الصبيانية . ضباط وجنود مقتنعون انه سيكفيهم أن يهجموا ليحصلوا على النصر النهائي بمهلة قصيرة . ويروي أيضاً إنهم كلهم عازمون على أن لا يلبكوا أنفسهم بالأسرى ، ويعلنون بوقاحة ان كل حزمة من الأسرى تقل عن خمسماية رجل يجب أن تمر على المدفع الرشاش . (الأمر الذي لا يمنع هؤلاء الأيديولوجيين ذوي الابتسامة الضارية والعيون الدالة على سلامة الطوية ، ان يرددوا في كل فرصة انهم جاؤوا يحاربون لأجل العدالة ولأجل الحق) .

١٠ آب

استعدت بعض الرغبة في القراءة . تركيز انتباهي دون كثير من الأذى ، خصوصاً في الليل . اني أنهي في هذه اللحظة مقال من يدعى داوسون (المجلة الطبية في لندن) حول العقابيل المتعلقة بالتسمم بالغاز ، مقارنة مع تلك المعزوة إلى غاز آخر . هذه الملاحظة تطابق ملاحظاتي في كثير من النقاط (عفونات ثانوية تميل إلى أن تصبح مزمنة ، الخ) . ميل إلى الكتابة اليه . وأن أرسل إليه نسخة عن بعض صفحات هذه المفكرة . ولكني أتهيب بدء المراسلة . فأنا غير واثق تماماً من استطاعتي الاستمرار . إلا أني أشعر أنني أفضل منذ أول الشهر . ليس هناك تحسن في الأساس ولكن الآلام قد خفّت . فترة تناقص وقتي لأعراض المرض . فإذا قورنت بالأسابيع الماضية ، يكون هذا شبه محتمل . لم يكن كل صباح هذا العلاج المنهك ، ونوبات الاختناق (خصوصاً في المساء عند مغيب الشمس) ، وهذا الأرق . . ولكن الأرق أقل إيلاماً حين أستطيع القراءة كهذه الليالي . وبفضل الدفتر .

قبل الغداء ، من نافذتي

جلال هذا المنظر الطبيعي ، تلك الأودية الفضفاضة . تلك المئات من السطيحات الضيقة المزروعة التي تصعد التلال بوثبة . ذلك المنحدر الأخضر المثلّم بشكل متوازٍ بجميع تلك الخطوط الطباشيرية التي تؤلف جدراناً صغيرة من الحجارة الجافة . وهناك فوق ، ذلك التاج من الصخور الجرداء ، من حجر اشهب فتّات ، كثير الرخاوة مع انعكاسات خبازية وليمونية اللون . وفي أسفل ، في مكان بعيد جداً ، على حدود الزراعة والصخر ، تلك القرية الصغيرة المنضدة : حفنة من الحصى اللامعة ظلت معلقة في ثنية من الأرض . في تلك اللحظة ، فإن ظلال الغيوم تسير على غير هدى على ذلك الامتداد ذي الخضرة النضرة من الصفائح القائمة العريضة المتحركة بهدوء .

كم أسبوع بقي لأرى هذا ؟

١١ آب

مازيه طبيب من نوع ديزافيل ، ذي الشرائط الأربعة في سان ديزيه ، والذي كان يقلع كلياً عن الاهتمام بأولئك الذين كان « يشتمّ » أنهم مقضي عليهم . وكان يقول : « الطبيب الجيد يجب أن يكون لديه حاسة الشم ! يشعر باللحظة المعينة التي ينقطع فيه المريض عن أن يكون **شائقاً** » .

ألا أزال **شائقاً** بنظر مازيه ؟ ولــكم من الوقت ؟

منذ أن أصيب لانغلوا بدمّله ، لم يذهب لرؤيته .

يبدو أن هجوم السوم قد ابتدأ . لم يشأ الانـكليز أن يبقى عليهم دين . فقد استعيدت هضبة سانتير . وأنقذ خط باريس – اميان الكبير . معركة في مونديديه . (كل هذه الأسماء ؛ مونديديه ، لاسيني ، ريسون – بر – ماتز ، جميع ذكريات ١٩١٦ !) .

غواران كثير التفاؤل . أكد أن جميع الآمال أصبحت مشروعة الآن . وأنا أعتقــــد أيضاً . (أتخيل أن هناك كثيراً من الناس مندهشون . وقبل كل شيء زعماؤنا الكبار من عسكريين ومدنيين ، الذين قاسوا الهاوية عن قرب في الربيع ! يجب أن يرفعوا أعرافهم جميعاً . بشرط ألاّ يرفعوها كثيراً) .

١٢ آب ، مساء

قضيت فترة بعد الظهر في نسخ مختارات من المفكرة لأجل رسالتي الى داوسون .

صحف . الانـكليز تحت بيرون . مسكينة بيرون ! ماذا بقي منهـــا ؟ (تذكرت جيداً إخلاءها عام ١٩١٤ . المدينة بدون نور . المشاعل التى كانت تركض في الليل ، وتقهقر الخيالة . رجال عاجزون وخيول رديئة عرجاء .. وكل تلك المحفّـــات المصفوفة في الطابق الأرضي من دار البـلدية حتى الرصيف) !

١٣ ، مساء

اليوم ، تنفس أكثر صعوبة . إلا انني انهيت الملاحظات التي سأرسلها إلى داوسون .

هذه المراجعة للمفكرة تركت لي انطباعاً جيداً، ممتازاً أيضا ، تقدم المرض مقروء كما على خط بياني . مجموعة مستندات هامة · ربما وحيدة . ربما هي مدعوة لتصبح مرجعاً ، لتستعمل وقتاً طويلا كقاعدة للابحاث · يجب الكفاح ضد الميل إلى الانتهاء منها · انتظار أكثر وقت متأخر ممكن للوصول بالتحليل إلى النهاية . وأترك ورائي على الأقل الحكاية التامة لإحدى تلك الحالات التي لم تُعرف جيداً .

في بعض اللحظات تسندني هذه الفكرة · وفي لحظات اخرى اكون مضطراً إلى بذل الجهد بشكل محزن لأجد فيها قشة صغيرة من العزاء .

الساعة الواحدة صباحاً

تذكار (من العجيب التوقف أثناء سير حلم للسير بعكس توارد الأفكار ، واتباع طريق التفكير في اتجاه معاكس ، حتى نقطة الانطلاق) .

هذا المساء ساعة دخول لودفيك مع الطبق ، فإن غطاء المملحة غير المثبت جيداً ، قد سقط محدثاً رنيناً على الصحن .

لم اكد انتبه إلى ذلك · ولكني طوال السهرة ، وأثناء علاجي ، وأنا أقوم بزينتي ، وانسخ ملاحظاتي ، كنت افكر بأبي . استعرضت ذكريات قديمة ، مستحضراً وجبات الطعام العائلية ، وجبات العشاء الصامتة في شارع الجامعة ، المدموازيل دي ويز ويداها الصغيرتان على السماط ، غداءات الأحد في ميزون – لافيت ، مع النافذة المفتوحة والشمس ملء الحديقة ، الخ ..

لماذا ؟ انا اعرف الآن · ذلك لأن رنة الغطاء على الخزف المطلي ذكرني (آلياً) بالضجة الخاصة التي كانت تحدثها نظارة ابي في بدء الوليمة . حين كان

والدي يجلس بتثاقل في مكانه . والنظارة المعلقة بطرف خيط كانت تصدم حافة صحنه .

علي أن أكتب بعض الملاحظات عن أبي لأجل جان بول . فلن تسنح الفرصة لأحد لكي يحدثه عن جده لأبيه .

لم يكن محبوباً أبداً ، حتى من ولديه . كانت محبته صعبة . اني اقاضيه بكثير من الصرامة . هل كنت عادلاً دائماً ؟ يظهر لي اليوم أن ما كان يمنعه من أن يكون محبوباً ، لم يكن سوى العكس أو الافراط في بعض القوى الاخلاقية ، بعض الفضائل الصارمة . اني اتردد في الكتابة ان حياته كانت تغتصب الاحترام ؛ ومع ذلك ، إذا رؤيت من أحدى الزوايا ، فقد كانت مكرسة كلها لعمل ما كان يعتقد أنه الخير . كانت انحرافاته تبعد عنه جميع الناس ، وفضائله لم تجتذب أحداً. وكان له طريقة في ممارستها تبعث على الابتعاد عنه اكثر مما تفعله أسوأ العيوب .. أظن أنه كان يعي ذلك وأنه كان يتألم بشدة من عزلته .

ذات يوم يا جان بول سأضطر أن أبذل الجهد لأوضح لك الرجل الذي كان هو جدك تيبو .

١٤ آب ، صباحاً

أيضاً ذلك العجوز الثرثار لودفيك . أنه يؤكد (واضعاً يده الكبيرة على شاربه) : « سيدي الماجور ، صدقني : ليس الملازم داروس سوى **مداج** » . من الطبيعي أن أعترض . وقال لودفيك بهيئة ماهرة : « نحن نعرف ما نعرف » . وأوضح : حين كان داروس يسكن الجناح الملحق لاحظ لودفيك أنه « يغش » وهو يقيس حرارته ، وأنه لم يكن يضع ميزان الحرارة دون أن يهزه ربع ساعة ، ويمنح نفسه بعض الأعشار زيادة عن الواقع وهو يضع نقاطاً على ورقته ، الخ ..

اعترضت ، ولكن .. لقد تأكدت بنفسي بعض الأمور التي تبعث على

الاضطراب . قاعة التنشق مثلاً · فتور همة داروس وهو ينفذ علاجه · قطع العلاج دائماً منذ أن يدير باردو ومازيه ظهريهما · التملص بوجه عام من جميع العنايات التي يقوم بها وحده ، الخ . . اهمالات تكثر غرابتهـــا ، بحيث يهتم داروس ان تكلمه عن « صحته التالفة نهائياً » ، الخ - وغالباً ما كان يسألني . (داروس ليس لديه جراح ولكنها حالة ُشعبية Bronchique سيئة لا تتحسن أبداً) .

نهاية بعد الظهر في بستان الخضار

احب المجيء إلى هنا حتى المقعد . ظلال السرو على المشى · ُحصر من القصب . حواش على خط مستقيم · جلبة الناعورة. رواح ومجيء بيير وفنسان بمرشاتهما .

تممرني أقاويل لودفيك . إذا كان هذا صحيحاً، إذا كان داروس متظاهراً، فاني اطرح السؤال : هل هذا شر ؟

ليس كثير السهولة . هذا يتوقف على الشخص . أنه شر بالنسبة إلى لودفيك الذي قـُتل ولداه ، وجريمة أيضاً ، نوع من الهرب من الجندية ، فهو يفكر دون شك أن داروس يستحق المثول أمام المحكمة . وهذا سيكون شراً بالتأكيد بالنسبة لوالد داروس أيضاً . (أعرفه قليلاً . يأتي أحياناً ليرى ولده . قس في أفينيون ، بوريتاني عجوز متعصب لوطنه،لقد دفع أصغر أولاده إلى التطوع) نعم ، من المؤكد أنه شر بالنسبة للاب داروس . أما للآخرين ؟ لباردو مثلاً ؟ أنه يعتني بداروس منذ أربعة أشهر ، ويحبه جيداً . ولو افترضنا أنـــه أدرك شيئاً ، فهل كان يعاقبه؟ أم يغمض عينيه ؟ ولداروس نفسه إذا كان حقيقةمذنباً في « الغش » فهل يشعر بأن هذا شر ؟

ولي أنا ؟ أطرح السؤال على نفسي . هل هذا شر ؟ بالتأكيد لا استطيع القول أنه خير . إشمئزاز غريزي بصدد الجنود المبعدين في المستشفيات ، والذين

« يتدبرون أمرهم » لئـــلا يشفوا . ولكني لم أقرر أن اجيب بتأكيد مطلق : هذا شر ٠

حكاية غريبة ، من الشائق إظهارها . أخير أم شر ؟

التحقق أولاً من هذا : سواء أكان داروس قادراً أم لا على تمثيل هـــذه المهزلة فانه يبقى محبوباً بالنسبة إلي ٠ غـلام حساس ، مفكر ، مثقف وأعتقد انه فاضل في دخيلة نفسه ٠ اني أعتبره حتى ولو كان مداجياً ٠ غالبا ما كان يحدثني بثقة عن والده ، عن شبابه ، عن التربية البروتستانتية المخيفة من الناحية الجنسية . وعن حياته الزوجية أيضا . وخصوصا اليوم الذي قص علي فيه خبر ذهابه إلى ليون مع زوجته مساء التعبئة ٠ (كانا قد وصلا من افينيون حيث قضيا عطلتهما . وفي الغد ، عند الفجر ، كان على داروس اللحاق بفيلقه الاحتياطي . ووجدا غرفـــة في فندق سيء . المدينة في ضوضاء الاستعداد للحرب ٠ واذكر بأي صوت قال لي : « كانت تيريز ترتجف من الخوف،وكانت تشد على أسنانها لئلا تبكي . قضيت الليل بين ذراعيها وانا انتحب كالطفل٠ لن أنسى هذا أبداً ٠ كانت تداعب شعري بهدوء دون أن تستطيع الكلام . وكل الليل على الطرقات قطارات المدفعية ، دون توقف ، جلبة جهنمية » .

ربما كان متمارضاً اليوم ، ولكنه ليس جباناً ، أربعون شهراً في فرقة المشاة ، جرحان ، ثلاثة تنويهات ، وفي النهاية ، الغاز في هو – دي – موز ٠ تزوج قبل الحرب بستة أشهر . بدون ثروة . مركز معتـــدل في التعليم ، في مرسيليا . في شباط الماضي أصيب بالغاز(بشكل خفيف) ٠ وقد اعتني به أولاً في تروا ي . وجاءت زوجته تسكن هناك – أعلق على هذا التفصيل بعض الأهمية – واستطاعا أن يعيشا معاً من جديد شهراً طويلاً ٠ وبعد ذلك ارسل إلى هنا ، على بعد مئة ميل عن الحرب . وأعادوا اليه سماءه الزرقاء ، وحياة كحياة العطلة .. اتخيل ما يمكن أن يحدث في داخله ! فاذا كان قـد قرر استعمال جميع الوسائل ليطيل مدة اضطراباته الرئوية اطول وقت ممكن – ومن يدري ؟ ربما كان السلام ليس بعيداً – فإن هذا لم يكن دون توبيخ ضمير عند هذا البروتستانتي ذي الاخلاق

الحسنة · وإذا اختار نهائياً ان ينقذ جلده مهما كان الثمن - حتى بخطر اشتداد مرضه بسبب نقص العناية - فهل هذا خير ؟ هل هذا شر ؟

من يجيب !

كلا ، لا أريد ان اسحب اعتباري له ولو مال إلى ذلك .

نصف الليل

أرق ، أرق . تأملات لا تنتهي في الساعات السود · نوع من غريزة المحافظة تساعدني كل مرة بانه ليس من المستحيل ان احيد بانتباهي عن نفسي ، عن « الأشباح » ·

داروس . مهما كان الأمر فإن قصة داروس هـــذه خطيرة بشكل كاف· أريد أن أقول خطيرة بالنسبة الي . وإلى كل ما تثيره من مشاكل بالنسبة إلي .

هل كنت أصدقها في الماضي ؟ نعم · في الحدود التي يستطيع فيها طبيب أن يصدقها . (بالنسبة الينا ، فان حدود المسؤولية ليست تماماً في المكان الذي يضعها فيه الرأي العام السائد — اتذكر مناقشات في فرتاي مع ذلك الطبيب الشرعي ، مساعد ماجور في مفرزة الرماة · أننا نعرف تماما نحن الآخرين ، إن اعمالنا هي نتيجة ماهيتنا ونتيجة ما يحيط بنا. واننا مسؤولون عن وراثتنا؟ عن تربيتنا ؟ عن الأمثلة المعطاة ؟ عن الظروف ؟ كلا ، انه الوضوح نفسه) .

ولكنني كنت اتصرف دائما كما لو انني اعتقد بمسؤوليتي المطلقة · وكان قويا جداً لدي ذلك الشعور — تربية مسيحية ؟ — بالاستحقاق وعدم الاستحقاق .

(مع الضعف : الميل إلى الشعور بأنني غير مسؤول نسبياً عن الاخطاء المرتكبة والمطالبة بما يستحقه العمل الصالح الذي قمت به ..)

كل هذا كثير التناقض ·

(إلى جان بول :

لا تتهيب المتناقضات كثيرا ، انها غير مريحة ولكنها مفيدة للصحة . ففي اللحظات التي كنت أشعر فيهـا ان عقلي سجين التناقضات المستغلقة ؛ كنت دائما أشعر انني الأكثر قربا من تلك الحقيقة التي تتملص دائما .

إذا اضطررت إلى « العيش ثانية » فبودي أن يكون ذلك تحت علامة الشك) .

وجهة نظر بيولوجية .

أثناء سنواتي الاولى في الحرب ، خضعت – بغضب ولكني خضعت – للميل إلى التفكير بالقضايا الاخلاقية والاجتماعية في ضوء البيولوجيا الوحيد المبسط . (تفكير من هذا النوع : « الانسان ، بهيمة دموية بنوع خاص،الخ.. يحدد خسائره بتنظيم اجتماعي متين . ولا يأمل بأفضل من ذلك ») . وجلبت معي في صندوقي مؤلفا للأب فابر ، اخرجته في كومبيانيه . وكان يجاريني في أفكاري بألا اعتبر النـاس ونفسي إلا كحشرات كبيرة مسلحة للمعركة ، للهجوم والدفاع ، والفتح وأكل بعضها البعض. الخ .. وكان يردد علي بشراسة : « هذه الحرب تفتح لك عينيك على الأقل أيها الأحمق . انظر إلى العالم كما هو. الكون : مجموعة من القوى العمياء تتوازن بالقضاء على الأقل مقاومة . الطبيعة : ميدان مجزرة حيث الكائنات والأعراق المتعارضة بغرائزها تفترس بعضهـا البعض . لا خير ولا شر . للانسان كما للنمس ، وللصقر ، الخ .. »

كيف ننكر ان القوة تغلب الحق ، في داخل قبو للاسعاف مليء بالجرحى؟ (بعض الذكريات المعينة : مساء في كاتو . هجوم بيرون . وراء الجدار الصغير . مركز اغاثة تانتاي – لو – هودوان ، احتضارقناصين صغيرين في مخزن الحبوب بين فردان وكالون) . اذكر بعض ساعات كنت فيها ثملاً ، بيأس ، من هـذا المنظر الحيواني للعالم .

منظر قصير .. التشاؤم المميت الذي غرقت فيـه كان عليه ان ينذرني أن هذا يقود إلى وهدات لا يصلح الهواء فيها للتنفس .

سأطفىء النور محاولاً الإغفاء .

لا فائدة من الأمل بالنوم هذه الليلة .

ذلك الباسل داروس (وهو لا يعرف ذلك) هو السبب في تلبكي في « المسائل الاخلاقية » منذ خمس عشرة ساعة – اكثر مما كنته طوال حياتي كلها .

حرفياً ، هذه المسائل لم تعرض لأجلي ، الخير والشر : عبارة مستعملة ، سهلة ، كنت استعملها ككل فرد دون ان اعلق عليها قيمة حقيقية . معلومات فارغة بالنسبة إلي من كل ما هو إلزامي . قواعد الاخلاق التقليدية كنت أقبلها – للآخرين . وكنت أقبلها بمعنى انه إذا أرادت ، على سبيل الافتراض احدى السلطات الثورية المنتصرة ان تعلن تداعي تلك القواعد الاخلاقية ، وانه اذا كان لي الشرف ان تستشيرني – لكان من المحتمل أن اصرفها عن تقويض هذه القواعد الاجتماعية بضربة واحدة . كانت تبدو لي انها استبدادية كلياً ، ولكنها ذات فائدة عملية لا ريب فيها لاجل علاقات « الاخرين » بين بعضهم البعض ، أما انا ، في علاقاتي مع نفسي ، فلا احسب لها أي حساب .

(الا اني اتساءل تحت أي شكل يمكنني ايضاح قاعدتي الشخصية في الحياة ، إذا كان علي أن أفعل ذلك – الأمر الذي ليس له وقت فراغ ولا فكرة لدي . اعتقد انني سألجأ إلى بعض الصيغ المطاطة ، من هذا النوع : « كل ما ينمي الحياة في ويساعد على تفتحي فهو خير ؛ وكل ما يقيد تحقيق كياني فهو شر » . – يبقى الآن أن احدد ما كنت افهمه بعبارة « الحياة » و « تحقيق كياني » .. اني اقلع عن ذلك) .

حقيقة القول ، ان أولئك الذين رأوني اعيش ، اذا وجُدوا – جاك مثلاً ، وفيليب – لم يفطنوا ابداً الى الحرية الكلّية تقريباً التي منحتها لنفسي مبدئياً . لأنني في اعمالي ، كنت دائماً ، وحتى دون ان انتبه الى ذلك ، متوافقاً مع ما اتفقوا على تسميته « الاخلاق » – « اخلاق فضلاء الناس » ، ومع ذلك ، ففي عدة مناسبات - لن نبالغ : ثلاث او اربع مرات تقريباً في

خمس عشرة سنة – في بعض الساعات الحرجة من حياتي الخاصة او المهنية ، وعيت فجأة ان تحرري لم يكن نظرياً فقط ، ثلاث او اربع مرات في حياتي ، وجدت نفسي دفعة واحدة منقولاً الى منطقة لم تكن فيها رائحة هذه القواعد التي كنت اقبلها عادة ؛ وحيث العقل نفسه لم يكن له وصول اليهـا ؛ وحيث الحدس والاغراء كانا سيدين . منطقة مهوّاة صافية ، منطقة من **الفوضى العليا**، شعرت فيها بنفسي انني منفرد بشكل رائع ، قوي ،مطمئن . مطمئن ، نعم . لأنني كنت اشعر شعوراً قوياً باحساسي انني اقتربت جداً . وفجـأة ، .. (كثير من الألم في انهاء هذه العبارة ..) لنقل : من الذي سيكون الحقيقة الصافيـة بالنسبة لإله . (الحقيقة بحرف كبير) . نعم . ثلاث مرات على الاقل ، حسب معرفتي ، اخالف عن علم ، وبشدة ، قوانين الاخلاق التي تنال حظوة اجتماعية . ولم اكن اشعر ابداً بأي ندم . وافكر اليوم بذلك ، بتجرد كامل دون اقل ظل من الاسف . (مع ذلك استطيع القول انـه ليس لدي اية تجربة في الندم . استعداد باطني لقبول افكاري واعمالي مهما كانت ، كأنها ظاهرات طبيعية ، ومشروعة) .

اشعر هذه الليلة على الخصوص انني فرح بالكتابة ، وصاح . فاذا كان علي غداً ان ادفع ثمن ذلك يوماً سيئاً ، فلا بأس .

اعدت قراءة ما كتبت . وحلمت لحظة بكل ذلك وبما حوله .

عرضت على نفسي هذا السؤال بين اسئلة اخرى : فيما يتعلق بالمعدل المتوسط من الناس (الذين تجري حياتهم اجمالاً دون استباحة المخالفات المفترضة للقواعد الاخلاقية المقبولة). ما الذي يمكن ان يمسكهم ؟ لانه لا يوجد بينهم من يتفلت من الميل الى ارتكاب اعمال معروفة بأنها « لااخلاقية » . اني استبعد المؤمنين ، اولئك الذين يساعدهم يقين عميق ، ديني او فلسفي ، على الانتصار على اشراك الشيطان. اما الآخرون . الآخرون كلهم ،ماذا يوقفهم ؟خجل ؟احترام انساني ، خوف مما يقال ؟ خوف من قاضي التحقيق ؟ خوف من النتائج التي

يخشون التعرض لها في حياتهم الخاصة أو العامة ؟ كل هذا يلعب دوره حتماً. هذه العوائق قوية وبدون شك لا يمكن اجتيازها بنظر عدد كبير من «المقويين». ولكنها عوائق ذات نظام مادي. فاذا لم يوجد غيرها، ذات نظام روحي، فبالامكان التثبت ان الفرد، بسبب انعتاقه قليلاً من النير الديني، ليس مثبتاً في الطريق المستقيم إلا بسبب الخوف من الجندرمة، او على الاقل من الفضيحة. وبالنتيجة، يمكن التأكيد ان كل فرد غير مؤمن، اذا افترض انه على نزاع مع الميل الى الشهوات وموضوع في ظروف تجعله واثقاً من سر كلتي ومن عفو مطلق، سوف يخضع حالاً للنداء، ويرتكب «الشر» بسرور شديد.. الامر الذي يعود بنا الى القول انه لا يوجد اعتبارات «اخلاقية» ذات قابلية للاحتفاظ بغير مؤمن، وليس هناك اي زجر اخلاقي ناجع بنظر الذي لم يخضع لأي قانون الهي، ولا لأي مثل اعلى ديني او فلسفي.

جملة معترضة: يبدو هذا انه يعطى الحق لأولئك الذين يفسرون الضمير الاخلاقي (والتمييز الذي نقوم به كلنا، تلقائياً، بين ما يجب عمله وما لا يجب عمله. بين ما هو خير وما هو شر) بواسطة بقاء خضوع ذي اصل ديني في الانسان الحديث ظل وقتاً طويلاً مقبولاً من الاجيال السابقة واصبح طبعاً مكتسباً. اريد جيداً. ولكن يبدو لي ان في ذلك إعمال عقل، مع النسيان ان الله ليس سوى افتراض بشري. لأن هذا التمييز بين الخير والشر، ليس الله اختراع الانسان، الذي يستطيع فرضه على العقل البشري: بالعكس، ان الانسان هو الذي عزاه الى الله، وجعل منه حكماً إلهياً. واذا كان هذا التمييز ذا اصل ديني فكذلك يقال ان الانسان هو الذي نسبه الى الله. اذن فهو يحمله في نفسه. وبقدر ما يكون متأصلاً فيه بقوة، يشعر بالحاجة لأن يعطي هذا التمييز سلطة مطلقة لا جدال فيها ابداً.

كيف الحل ؟

الساعة الرابعة

غلبني التعب في منتصف جملتي المعترضة. نمت اكثر من ساعتين متواصلتين.

نتيجة قيمة للدفتر ، وميولي الفلسفية .

لا اعرف ابداً إلى اين اردت أن اصل . « كيف الحل » ؟ نعم ، كيف ؟ مع ذلك لدي انطباع بأنني وصلت إلى أن أرى فيه بشكل اكثر وضوحاً. ولكني غير قادر على ايجاد السياق .

مشكلة الضمير الاخلاقي ، من اصولها . لماذا لا : أهي بقاء عادة اجتماعية ؟ (ربما أبتكر لاستعمالي تفسيراً معروفاً جداً ، قليلاً ما يهم ، جديداً بالنسبة إلي) .

بقدر ما ارفض الفكرة القائلة أن للضمير الاخلاقي مصدراً هو نوع من القانون الالهي ، يبدو لي محتملاً القبول بأن له اصوله في الماضي البشري وانه عبارة عن عادة تعيش على القضية التي ولدتها والثابتة فينا بالوراثة وبالتقليد معاً. بقية التجارب التي قامت بها الجماعات البشرية القديمة لتنظيم حياتها الجماعية وتنسيق علاقاتها الاجتماعية . بقية من الانظمة الجيدة لحفظ الامن والنظام ، وسوف اجد اكثر إغراء واكثر ارضاء ايضاً لحب الذات، استطاعة القول أن ذلك الضمير الاخلاقي ، ذلك التمييز بين خير وشر (تميز موجود قبل غيره في كل منا ؛ وانه في أغلب الاحيان مستحيل في الاوامر التي يمليها علينا ؛ ويضطرنا دون انقطاع إلى أن نطيعه ؛ ويقودنا احياناً في الساعات التي يتردد فيها العقل ويرفض ؛ ويجعل اكثر الناس عقلاً يقومون بحركات لن يعرف أن يبررها عقلهم المدعو للمراقبة) — والذي يغريني بالقبول انه الباقي من غريزة جوهرية للانسان، الحيوان الاجتماعي . غريزة تخلد فينا عبر الآف السنين ، وبفضلها يسير المجتمع البشري نحو كماله .

١٥ آب ، الحديقة

طقس جيد . اجراس صلاة الغروب. هيئة عيد على كل شيء . غطرسة من هذه السماء ، وهذه الزهور ، وذلك الافق الذي يرتجف في الهالة الساطعة للايام الجميلة . الرغبة في معارضة جمال العالم ، والهدم، ومناداة الكارثة ! كلا ، رغبة

في الهرب ، والاختباء ، رغبة في زيادة الانطواء على النفس ، لأجل الالم .

في سبا Spa مجلس حرب كبير . القيصر الالماني ورؤساء الجيش . ثـلاثة اسطر في صحيفة سويسرية . لا شيء في الصحف الفرنسية . ربما يوم تاريخي سوف يتعلمه التلامذة في الكتب فيما بعد ، وسوف تغير نتائجه مجرى الحرب ..

يؤكد غواران أنه يوجد بين اولئك السادة ، في وزارة الخارجية ، كثيرون من الذين سيعلنون السلام في هذا الشتاء .

لا يوجد شيء هام في البلاغ الرسمي . انتظار ينيخ بثقله كحرارة الزوبعة .

المساء ، الساعة العاشرة

أعدت قراءة ما كتبته في الليلة الاخيرة . مندهش ومستاء لأنني سودت كثيراً من الصفحات ، أظهرت فيها حدودي . (ثم ذلك القاموس البشري المسكين الذي هو قاموس العاطفة ، مهما كان ، وليس قاموس المنطق) !

إلى جان بول :

يجب الا تحكم على العم انطوان من خلال لجلجات المريض هذه يا صغيري . فالعم انطوان كان يشعر دائماً أنه غير مرتاح ابداً في متاهات الايديولوجيا : انه يتوه فيها منذ الخطوات الأولى . حين كنت استعد للبكالوريا والفلسفة في كلية لويس الكبير (الامتحان الوحيد الذي اضطررت أن احضره مرتين قبل أن أقبل) ، كنت احياناً اجتاز ساعات متعبـة . اخرق يريد أن يشعبذ بفقاقيع صابون ! وتأكدت أن مواجهة الموت لا تغير شيئاً من هذه الترتيبات . سأترك هذه الدنيا دون ان استطيع تغيير شيء من عدم الجدارة الاساسية في هذه الابحاث النظرية الصعبة الفهم !

قريب من منتصف الليل

يوميات دوفيني de Vigny هذه لم تضجرني ، ولكن انتباهي يتفلت في كل لحظة ، ويسقط الكتاب من يدي . تهيج أعصاب من الارق . افكاري تدور : الموت ، القليل الذي هو الحياة ، القليل الذي هو الانسـان ؛ اللغز الذي يصطدم به

العقل ويغوص فيه منذ أن يحاول فهمه . دائماً هذه المعضلة : « باسم ماذا ؟»

باسم ماذا كائن مثلي ، منعتق من كل نظام اخلاقي ، عـاش هذه الحياة التي استطيع أن اقول انها مثالية حين افكر بما كانت عليه ايامي ، وبكـل ما ضحيت به في سبيل مرضاي ، وبالتدقيق الكلي الذي كنت اتحلـّى به في اتمام واجباتي ؟

(كنت قد آليت على نفسي أن استبعد هذه المشاكل التي يلزم التصدي لها بمواهب اخرى . الم تكن هذه افضل وسيلة لأتخلص منها ؟)

باسم ماذا العواطف النزيهة ، والاخلاص ، والضمير المهني ، الخ ؟...

ولكن باسم ماذا تسقط اللبؤة الجريحة صريعةً لكي لاتترك صغارهـا؟باسم ماذا الانعطاف الحسي ؟ - أو حركات الكريات البيضاء ؟ أو تأكسد المعادن ؟ الخ...

باسم لا شيء ، هذا كل ما في الامر . طرح السؤال معناه الاهتمام بأن هناك « شيئاً » معناه السقوط في شرك الغيبيات ... كلا ! يجب القبول بحدود ما هو معروف . (لودانتيك ، الخ).. الحكمة : الاقلاع عن « لماذا » والاكتفاء « بكيف » (هناك ما يمكن الاهتمام به مع « كيف » !) الاقلاع قبل كل شيء عن الرغبة التافهة بان يكون كل شيء ممكناً شرحه ، منطقيا ؛ اذن ، الاقلاع عن إرادة شرحي لنفسي ، كما لو انني كنت كلاًّ متلاحماً .

(ظننت وقتا طويلاً انني كذلك . كبرياء آل تيبو ؟ بالأحرى عجرفـة انطوان ..)

مهما كان الأمر ، فبين المواقف الممكنة يوجد هذا: قبول الشروط الاخلاقية دون أن تكون مخدوعاً . بالمستطاع محبة النظام وإرادته دون أن تجعـل من ذلك كياناً اخلاقياً ، دون أن تغفل أن هذا النظام ليس شيئاً اكثر من ضرورة عملية للحياة الجماعيه ، شرط حياة اجتماعية ذات قيمة . (اني اكتب :«النظام» لأتجنب كتابة : « الخير »).

الشعور بأنك منظـّم،وأن لا تميز بينالقوانين التي انت خاضع لها - موضوع

ابدي للهياج . ظننت وقتا طويلاً انني سوف انتهي ذات يوم إلى ايجـــاد كلمة اللغز . أنا محكوم بالموت دون أن أُفهم نفسي شيئاً ذا بال – ولا للعالم . .

سوف يجيب أحد المؤمنين : « ولكن هذا بسيط جداً . . » ليس بالنسبة إلي !

منهوك من التعب ، وغير قادر على النوم . هنا عذاب الارق : التناقض بين ذلك الانهاك للجسد الذي يريد الراحة بأي ثمن ، وتلك الفعالية غير المنظمة للعقل ، والتي لا تدع النعاس يقترب .

اتقلّب واتقلّب على وسائدي منذ ساعة . واشتغل بهذه الفكرة: «عشت في التفاؤل ، فيجب ألا أموت في الشك والنفي » .

تفاؤلي . لقد عشت في التفاؤل . ربما لم أكن اعي ذلك . ولكنه يبدو لي اليوم بوضوح . تلك الحالة من الحدس الفرح . من الثقة الفاعلة التي كانت ترفعني وتسندني باستمرار . انها ، كما اعتقد ، تأخذ من متجر العلم مصدرها وتجد ما تتغذى به كل يوم .

العلم . انه اكثر من معرفة بسيطة ، إنـه رغبة التوافق مع الكون – مع الكون الذي يحاول اكتشاف قوانينه . (وأولئك الذين يتبعون هذه يطلّون على **مدهش** . وبطريقة أخرى أكثر اتساعاً وأكثر فخامة من مدهش الدين !) بواسطة العلم يشعر المرء انـه على اتصال عميق . وعلى انسجام مع الطبيعة واسرارها .

عاطفة دينية ؟ الكلمة تسبب الخوف : ولكن ، بعد كل شيء . . ؟

احسان ، امل وايمـان . لقد جعلني الأب فيكار ذات يوم ألاحظ أنني أنا ايضاً اطبق الفضائل اللاهوتية . فاعترضت . وقبلت ، على وجــه الدقة ، بالاحسان والأمل ، ولكني رفضت الايمان . ومع ذلك ؟ لو أردت اليوم تبرير هذه الاندفاعة المستمرة الـتي حملتني طوال خمس عشرة سنة ، ولو بحثت عن الكلمة الرقيقة لهذه الثقة الجامحة ، فان ما سوف أجده ربما يكون كثير القرب من الايمان . . بماذا ؟ اجل لن يكون ذلك إلا بالنمو الممكن واللامنتهي للاشكال

الحية . ايمان بوصول عالمي الى حالات عليا . . فهل انا « غائي » دون أن أدري ؟ قليلاً مايهم . على كل حال لا أريد غائية أخرى .

١٦ آب

حرارة . تنفس صعب ، أكثر صفيراً . عدت عدة مرات إلى الأوكسيجين . نهضت ولكن دون أن أنزل .

زيارة غواران مع الصحف . لا يزال يظن أن السلم ممكن اثناء الشتاء . يدافع عن وجة نظره بمهارة وقوة . رجل عجيب . وعجيبة رؤيته وهو يقول أشياء مطمئنة بتلك الهيئة المهمومة بشكل لاشفاء منه والتي تكسبه إياها عيناه الصغيرتان الطارفتان المتقاربتان، وذلك الأنف الطويل ، وذلك الوجه الذي يبرز حلقوم كلب سلوقي . سعال ونخام دون انقطاع . حدثني عن مهنته كما يحدث عن عمل . ومع ذلك فتعليم التاريخ في مدرسة هنري الرابع يجب الا تكون مهمة كريهة ، لا سرور فيها . وحدثني أيضاً عن دراساته في دار المعلمين . عقل يتتبع العيوب . يسر كثيراً بالنقد ليظل منصفاً . أحياناً يعطيني انطباعاً بعقل زائف . ربما من فرط الذكاء ، — من ذكاء يهتم بنفسه ، لامبال بالغير ، دون سخاء . ومع هذا فهو روحي في الغالب .

روحي ؟ هناك طريقتان ليكون المرء روحياً : بالروح التي يضعها المرء فيما يقول (فيليب) ، وبتلك التي توضع في أسلوبه في القول . وغواران من أولئك الذين يبدون رصينين دون أن يقول حقيقة شيئاً عن ماهيته . بنوع من الكلام ، بالحاح على النهايات ، بنوع من انتقالات الصوت ، بعض الايماءات المسلية . بعض الكلام المضمر الشبيه بأقوال العرافات ؛ بالبريق الخبيث للنظرة التي تضع مضمرات وراء كل كلمة . فاذا رُدد عليه حديث لفيليب ، فانه يظل لاذعاً دقيقاً ويستمر في إصابة المرمى . إذا خطر بالبال ترديد أقوال غواران فلن يبقى في أغلب الأحيان شيء ذو قيمة .

١٧ آب

تنفس يزداد ضيقاً · تصوير على الأشعة . تظهر الشاشة ان سير الحجـاب الحاجز ليس شيئاً في حالة الشهيق العميق . باردو في إجازة لثلاثة أيام . أشعر انني مريض ، مريض · ويستحيل أن أفكر بغير ذلك .

١٨ آب

نهارات سيئة . ليالي أسوأ · علاج جديد لمازيه بغياب باردو .

١٩ آب

خمد نشاطي كثيراً بسبب العلاج .

٢٠ آب

متحسن بشكل غريب هذا الصباح . الابرة التي أخذتها هذه الليلة جعلتني أنام ما يقرب من خمس ساعات ، الشعاب الرئوية طليقة بشكل محسوس. قرأت الصحف .

المساء

غفوت كل فترة بعد الظهر . بدت النوبة انها توقفت · مازيه مسرور .

لازمتني ذكرى راشيل · فهل سيطرة الذكريات هذه علامة ضعف ؟ حين كنت أعيش لم أكن أتذكر شيئاً . لم يكن الماضي شيئاً بالنسبة إلي .

إلى جان بول :

اخلاق · حياة أخلاقية . على كل فرد أن يكتشف واجبه ، وان يحـــدد صفته وحدوده · اختيار الموقف وفقاً للحكم الشخصي أثنـــاء تجربة لم تنقطع ابداً ، ذات بحث مستمر . نظام ثابت . الانجار بين النسبي والمطلق ، الممكن والمشتهى ، دون أن تصرف النظر عن الواقع ، مصغياً لصوت **الحكمة العميقة** الموجودة فينا .

حماية المرء لكيانه · عدم الخوف من خداع نفسه . عدم الخوف من رفضه دون انقطاع . رؤية اخطائه ليسير قدمـــاً في إنارة نفسه واكتشاف واجبه الخاص .

(في الاساس ، ليس للمرء واجب الا حيال نفسه) .

٢٠ آب ، صباحاً

صحف . الانكليز لا يتقدمون أبداً . ونحن أيضاً ، رغم التقدم الصغير هنا وهناك · (اكتب « تقدم صغير » كالبلاغ الرسمي . ولكني أرى ما يمثله هــذا لأولئك الذين « يتقدمون » : انفجارات براكين ، زحف في الممرات الطويـلة الضيقة ، مراكز اغاثة قد اجتيحت ..)

نهضت لاجل العلاج . سأجرب أن انزل للغداء .

ليلاً ، على ألق السريج

كنت آمل أن أنام قليـــلا · (مساء البارحة ، درجة حرارة شبه عادية ٣٧،٨) . ولكنها ليلة ارق كلها · ما من دقيقة من اللاشعور . وها هو الفجر. إلا أنها ليلة عذبة جداً .

صباح ٢٢

توقف الكهرباء ، البارحة مساء ، هو الذي منعني من الكتابــة . بودي لو اسجل هذه الليلة الرائعة ذات النجوم السائرة على مهل .

كثير من الحر بحيث ذهبت حوالي الساعة الواحدة لارفع شعريات النوافذ ، تأملت السماء الجميلة الصيفية من سريري · ظلام عميق . سماء ، كما يقال ، تشبه انفجار قنابل . مطرمن النيران ، سيلان نجوم في جميع الجهات . تذكرت هجوم السوم ، وخنادق ميروكور وليـالي ّ في آب ١٩١٦ : النجوم السائرة واسهم الانكليز النارية تتلاقى وتختلط في نار اصطناعية سحرية ·

قلت لنفسي فجأة (وأنا واثق انه صحيح) ان عالماً فلكيـاً معتاداً على

العيش بالفكر في الفضاءات بين الكواكب ، يجب أن يصاب بالمرض أقل من غيره بكثير ليموت .

حلمت طويلاً ، طويلاً ، بكل هذا . النظرات ضائعة في السماء · هذه السماء التي لا حدود لها ، والتي تتراجع دائماً منذ أن نتقن راصداتنا (تيليسكوب) قليلاً . أحلام مهدئة دون شك · هـــذه الفضاءات بدون نهاية ، حيث تدور ببطء اعداد وفيرة من الكواكب شبيهة بشمسنا ، حيث هـذه الشمس - التي تبدو لنا مترامية الأطراف ، والتي هي ، كما اعتقد ، اكبر من الارض بمليون مرة - ليست شيئاً سوى وحدة بين عشرات الألوف غيرها .

والمجرّة ،غبار كواكب،وشموس،تدور حولهـا مليارات الكواكب . منفصلة بعضها عن بعض بمئات الملايين من الكيلومترات ! وجميع السدم التي تخرج منها اسراب اخرى من شموس المستقبل ! وتقرر حسابات الفلكيين ان هـذه المنملة من العوالم ليست شيئاً أيضاً ، لا تشغل سوى مكان وضيع في اتساع الفضاء ، في ذلك الأثير الذي يُظن انه مخدد ومرتجف بالاشعاعات والتأثيرات التجاذبية التي نجهلها كلها .

لا شيء سوى كتابة ذلك ، المخيلة تترنح · دوار محسن . هذه الليلة للمرة الأولى ، وربما الأخيرة ، استطعت التفكير بموتي بنوع من الهدوء واللامبالاة السامية . تخلصت من القلق النفسي ، وأصبحت شبـــه غريب عن جهازي العظمي الهالك . انا لانهائي الصغر وفتيتة غير شائقة من المادة .

آليت على نفسي أن اتطلع إلى السماء في كل الليالي لأجد هذا الصفاء من جديد .

والآن ، النهار . نهار جديد .

بعد الظهر ، في الحديقة

عدت افتح هذا الدفتر بامتنان . لم يبد لي أبداً انه عند ظني من ناحيـة هدفه : انقاذي من الاشباح .

لا أزال مفتوناً بتأمل هذه الليلة .

الحيوان البشري الذي لا ينفذ اليه شيء . نحن أيضاً منجذبون، بعضنا حول البعض الآخر ، دون ان نلتقي ، دون أن نذوب . كل فرد يصنع من نفسه فارساً لوحده . كل فرد في وحدته المحكمة الاغلاق ، كل فرد في كيس جلده ليكمل حياته ويختفي . ولادات وموت تتتابع على ايقاع لا ينقطع. في الدنيا ولادة كل ثانية ، ستون كل دقيقة . اكثر من ثلاثة آلاف مولود في الساعة ؛ وأموات كذلك ! ثلاثة ملايين كائن كل سنة تخلي مكانها لثلاثة ملايين من الحيوات الجديدة ، ومن يفهم حقيقةً ، ويضيف ، و « يحقق » ذلك ، هل باستطاعته كالسابق ان يقلق على مصيره ؟

الساعة السادسة

اليوم حلّقت . أشعر انني متخفف من ثقلي بشكل رائع ، شذرة صغيرة من مادة حية تمي صغرها تماماً .

عدت بالذاكرة إلى الأحاديث الشائقة التي كنا نقوم بها في باريس حين كان زيلنجر يأتي بصديقه جان روستان لقضاء السهرة معنا .

انه لوضع غريب وضع الانسان في هذا الكون الفسيح . وهو يبدو لي اليوم بنفس الوضوح الذي كان آنذاك ، حين كنا نصغي إلى روستان وهو يضع له تعريفاً بصوته المؤثر الموقظ ، بدقة حكيمة لعالم ، وبالتأثر الغنائي ونضارة الصور لشاعر . ان مجاورة الموت تكسب اليوم هذه الأفكار جاذبية خاصة . اني أعالجها برأفة . هل أجد هنا دواء لشقائي ؟

اني ارفض الأوهام الغيبية بالغريزة ، ولم يكن العدم كثير الوضوح بالنسبة إلي كما هو الآن . اني اقترب منه برعب ، بتمرد غريزي ؛ ولكن بدون أي امل لانكاره وللبحث عن ملجأ في آمال مستحيلة .

اني واع اكثر من أي وقت للقليل الذي هو انا . مع ذلك فهو روعة ! اني أتامل ، كما في الخارج ، هذه المجموعة الاعجوبية الذرات التي هي أنا، لبعض

الوقت ايضاً ، اعتقد انني ادرك في اعمـــاق كياني تلك التبادلات الغامضة التي تجري دون توقف ، ومنذ ثلاثين سنة واكثر ، بين تلك المليارات من الخلايا التي انا مصنوع منها . ردود الفعل الكيماوية الغامضة تلك ، وتحولات القوة الفاعلة التي تتم خفية عني في خلايا قشرتي الدماغية ، والتي تصنع مني في تلك اللحظة بالذات ، ذلك الحيوان الذي يفكر ويكتب ، تفكيري ، ارادتي ، الخ .. كل هذه الفعاليات الروحية التي طالما كنت فخوراً بها – لا شيء آخر سوى مركب من الانعكاسات ، المستقلة عني ، لا شيء اكثر من ظاهرة طبيعية غير ثابتـة ، يكفيها بضع دقائق من الاختناق الخلوي لتنقطع عن كل شيء إلى الابد .

المساء

عدت إلى النوم ، هدوء ، الذهن صاف ، منتشٍ قليلاً .

ما زلت مستمراً في التفكير حول الإنسان والحيـــاة ، افكر بمزيج من الذهول والاعجاب بالسلالة العضوية التي انا تفتح لها . واشاهد ورائي ، خلال مليارات القرون ، جميع درجات السلم الحي . منذ الأصل ، منذ تلك الشركة الكيماوية التي لا يمكن شرحها،وربما العرضية ، والتي تحدث ذات يوم ، في ناحيةٍ ما ، في أعمـــاق البلاد الحارة أو على قشرة الأرض المتكلسة ، وحيث ولدت البوادر الأولى للبروتوبلازمـــا الأولية ، حتى ذلك الحيوان القريب المعقّد ، المتحلي بالوعي ، القادر على فهم النظام ، وقوانين العقل ، والعدل .. – حتى ديكارت ، حتى ويلسون .

وهذه الفكرة المقلقة ، المحتملة الوقوع تماماً بعد كل شيء : كم من أشكالٍ اخرى من الحياة المدعوة إلى انتاج كائنات أعلى من الرجل إلى مـــا لا نهاية له ، بالمستطاع تمزيقهـــا إلى بذور بواسطة انقلابات كونية ، اليس من الاعاجيب أن تلك السلسلة العضوية ، حيث الانسان الحديث هو آخر حلقة منها،قداستطاعت الانتشار في مجرى العصور حتى الآن ؟ واستطاعت ان تجتاز،دون أن تتلاشى ،

الوف الاضطرابات الجيولوجية في الكرة الأرضية ؟ واستطاعت التفلت من بعثرة الطبيعة العمياء ؟

وهذه المعجزة إلى متى ستتابع؟ نحو أية نهاية (لا مناص منها) يسير نوعنا؟ هل سيختفي بدوره كما اختفت القشريات والعقارب العملاقة وكثير من الأنواع السابحة والزاحفة ، والتي نعرف وجودها ؟ أم إن الانسانية سيكون من حظها أن تحفظ نفسها خلال جميع البلبلات على قشرة الكوكب ، وتتطور وقتاً طويلاً أيضاً ؟ حتى متى ؟ إلى أن تأبى الشمس الباردة الجامدة عليها الحرارة وإمكان الحياة ؟ وأي تقدم جديد سوف تنجح به قبل ان تختفي ؟ حلم يسبب الدوار ..

أي تقدم ؟

لن اتوصل إلى الاعتقاد بخطط كوني يكون للحيوان البشري فيه دور ممتاز. لقد اصطدمت كثيراً باستحالات ومتناقضات الطبيعة ، للقبول بتناسق سابق للوجود . ما من إله اجاب على نداءات واستجوابات الإنسان . وما يتخذه كأجوبة ، فهو صدى صوته فقط . فعالمه مسدود، محدود له . والرغبة الوحيدة المسموح بها هي أن يرتب لخير حاجاته ذلك الصعيد المحدود ، الذي يمكن بالتأكيد أن يبدو له فسيحاً إذا قورن بصغره ، ولكنه صغير بالنسبة إلى الكون وأخيراً هل سيعلمه العلم الاكتفاء به ؟ وان يجد التوازن والسعادة حتى وعيه لصغره ؟ ليس مستحيلاً . فالعلم لا يزال يستطيع الكثير . يستطيع أن يعلم الإنسان الرضا بحدوده الطبيعية ، وبالصدف التي تُخلق له ، وكينونته القليلة . يستطيع أن يوصله بطريقة دائمة إلى ذلك الهدوء الذي اشعر به هذا المساء . إلى ذلك التأمل الهادىء تقريباً في العدم الذي ينتظرني بعد قليل ، العدم الذي يزول فيه كل شيء .

٢٣

إلى الاستيقاظ . نوم اكثر طولاً ، اكثر عمقاً من المعتاد . مرتاح . سوف

أشعر انني على خير حال تقريباً بدون تلك الافرازات التي تخنقني. وذلك التنفس كالمنفاخ المثقوب .

نمت في نوع من السكر ، سكر يائس الا انه عذب، كل ما يرهقني من جديد هذا الصباح بدا لي دون ثقل ، دون اهمية ؛ العدم وموتي القريب فُرضا علي بتأكيد ذي طابع خاص ، ينفي التمرد . ليس هذا من القدرية ، كلا : الشعور بالمساهمة في مصير الكون ، حتى بواسطة المرض والموت .

كم كان بودي لو استعيد حالتي النفسية التي كانت مساء البارحة .

تحت الشرفة ، قبل الغداء . احاديث . غراموفون ، صحف . المعركة دائرة أمام نويون وعلى الجبهة كلها بين الواز والإيسن . تقدم أربعة كيلو مترات في اربع وعشرين ساعة . احتلالنا لاسيني ، استعاد الأنكليز ألبير ، وبراي – سير – سوم . (في براي ، وراء بيت الكاهن قُتل ديلاكور المسكين ، بغباوة ، في ظلال الأشجار وبرصاصة طائشة) .

المساء

استعادة هدوئي البارحة . هذا المساء، في ساعة العشاء ، نوبة ضيق نفس قوية جداً وطويلة جداً . يتبعها انحطاط قوى لا حدود له .

٢٦

منذ صباح البارحة ، آلام دائمة تقريباً . هذه الليلة آلام لا تحتمل ، مصحوبة بقيء .

٢٧

الساعة السابعة مساء . شربت قليلاً من الحليب . سيعود جوزف قبل أن يختفي حتى صباح الغد ، اني انتظره . اسمع وقع الخطى . كثير من الأشياء الهامة يجب عملها : ترتيب السرير ، والوسائد ، والكلة ، وتحضير الدواء ، والمبولة ، وتسوية الشعريات ، وتنظيف المتفلة ، ووضع قدح الماء بمتناول اليد ،

وزجاجة الدواء ، واداة الانارة ، واداة الجرس ... « مســـاء الخير يا سيدي الماجور » . - « مساء الخير يا جوزف » . انتظار الساعة الثـــامنة والنصف . ظهور الاب هكتور ، الممرض الليلي. انه لا يتكلم. يفتح الباب قليلاً ويمر رأسه. يبدو انه يقول : « لقد وصلت . انا ساهر . لا تخشوا شيئاً » .

وبعد ذلك ، فهي الوحدة ، الليلة التي لا تنتهي والتي تبدأ .

نصف الليل

بدون شجاعة. كل شيء فيّ يختل.

الاتيان بكل شيء إلي ، يعني نهايتي . لو فكرت بأحد من المـاضي فذلك لأقول لنفسي على الاثر : « واحد أيضاً لا يعرف انني هالك ». أو أيضاً :«ماذا سيقول ، ذاك ، حين يعرف بموتي » ؟

٢٨

الآلام تبدو انها تخف · ربما ستختفي كما جاءت ·

صورة الراديو سيئة · تكاثر خلايا النسيج الليفي قد تسارع بشكل ملحوظ منذ الفحص الاخير ، وخصوصاً الرئة اليمنى ·

٢٩ آب

ألمٌ أخف . منهوك جداً من هذه الأيام الاربعة السيئة .

بلاغ رسمي : الهجمات الجديدة (بين لاسكارب ولافسل) تزداد . الانكليز يتقدمون إلى نويون . بابوم لنا .

إلى جان بول :

سوف تكون فخوراً . نحن كذلك . إرضَ . كن فخوراً بتعمد . التواضع : فضيلة لا فائدة منها ، انها تصغّر . (في اغلب الاحيان ليست سوى وعي خاص بالعجز) . لا زهو ولا تواضع ، إعرف نفسك انك قوي لتكون قوياً . مما لا فائدة منه أيضاً ، الميل إلى التنازل . الرغبة بالخضوع ، الميل إلى تلقي

الأوامر ، التشامخ بالطاعة ، الخ .. مبادىء ضعف وخمود . خوف من الحرية . يجب اختيار الفضائل التي تكبر . فضيلة سامية : العزم . العزم هو الذي يصنع العظمة .

الفدية : الوحدة .

٣٠ آب

لقد اجتيزت نويون . ولكن بأي ثمن ؟

أني مندهش لترك الصحف تردد أن نهاية الحرب تقترب . امريكا لم تدخل المعركة لتكتفي بنصر عسكري أو سلام عسكري . يريد ويلسون إزالة نفوذ المانيا والنمسا سياسياً . وانتزاع وصاية روسيا منهما . وفي المجرى الذي تتطور فيه الحوادث لا يمكن الأمل ، مهما كان الأمر ، أن تنهار الامبراطوريتان في ستة أشهر،وأن تتأسس في برلين وفيينا وبطرسبورج انظمة جمهورية متينة يمكن المفاوضة معها بفعالية .

نافذتي . نصف دزينة من الخطوط الكهربائية مشدودة جيداً ، تجتاز هذا المستطيل من السماء كخطوط على صفيحة صورة . أيام العاصفة ، لآلىء دقيقة من الماء تنزلق على الاشرطة على مسافة بضعة سنتيمترات ، والكل في نفس الاتجاه إلى ما لانهاية له دون أن تلتقي. في تلك اللحظات يستحيل عمل شيء أو نظر شيء آخر .

ايلول

اول ايلول ١٩١٨

شهر جديد . هل سأرى نهايته ؟

بدأت بالنزول ، الفطور تحت .

منذ انقطعت عن الحلاقة (تموز) لم تسنح لي الفرصة ابداً لأرى نفسي في

المرآة التي هي فوق مغسلتي . ومنذ لحظة ، في غرفة أمـانة السر ، شاهدت نفسي فجـأة في المرآة . ترددت لحظـة في أن أعرف نفسي في ذاك المحتضر الملتحي . وقد اعترف باردو : « قليـل من الوهن » . وكان يجب أن يقول : « انحطاط عام في القوى ».

يستحيل أن يمتد هذا أيضاً إلى اسابيـع .

استعاد الانـكليز جبل كيميل Kemmèel . نحن نهاجم على قنـاة الشمال . وانكفأ العدو حتى ليس LYS .

ليل اليوم الاول

راشيل . لماذا راشيل ؟

راشيل . اهدابها الشقراء ، تلك الهالة المذهبة حول نظرتهـا . ونضج تلك النظرة ! يدها التي كانت تسندها إلى عيني لئلا اكون شـاهداً على لذتهـا ، يدها المتشنجة ، الثقيلة ، والتي كانت ترتخي فجأة ، هي وفمها معاً . في نفس الوقت مع جميع عضلات جسدها .

٢ ايلول

قليل من الريح . جلست بظل البيت . وفوقي ، تحت الشرفـة ، سمعت غواران وفوازينه ونائب الضابط يتذكرون حياتهم يوم كانوا طلاباً (الحي اللاتيني ، لوسوفلو ، لافاشيت ، الحفلات الراقصة على الحان المزمار ، النساء ، الخ) . ارهفت السمع بضع دقائق وصعدت إلى القاعة الكبرى مهتاجاً، متجهماً مضطرباً أيضاً .

جان بول ، لا تخشَ كثيراً من إضاعة وقتك . كلا ، ليس هذا ما يجب أن اقوله . بالعكس ، إلقِ في روعك ان حياة الانسان قصيرة بشكل لا يصدق وانه سيكون لديك وقت قليل جداً لتحقق نفسك .

ولكن ، مهما كان الأمر ، بعثر شيئاً من الشبـاب ، يا صغيري . فالعم انطوان المشرف على الموت لا يتعزى لأنه لم يعرف ابداً أن يبعثر شيئاً من حياته.

٣ ايلول

اولى بوارق النهار .

حلمت بك هذه الليلة يا جان بول. كنت في الحديقة هنا، وامسكتك مستنداً إلي وشعرت بك صلبا، متقوسا، شبيها بشجرة تنبت قوية، ولا يمكن لشيء أن يوقف اندفاعها . وقد كنتَ دفعة واحدة، الصغير الذي اخذته على ركبتي منذ بضعة اسابيع، واليافع الذى كنته،والطبيب الذي صرته . وعند اليقظة، وللمرة الاولى، جاءتني هذه الفكرة : « من الممكن أن يصبح طبيبا » ..

وشردت مخيلتي حول ذلك . وانا افكر الآن بأن اوصي لك ببعض الملفات ببعض رزم الملاحظات، عشر سنوات من الملاحظات، والابحاث، والمشاريع التي وضعت خطوطها . وحين تبلغ العشرين من سنك، حين لا تعرف ماذا تفعل بها، اعطها لطبيب شاب .

ولكن لا اريد أن اترك حلمي بسرعة . ففي ذلك الطبيب الشاب الذي سيواصل عملي، هو انت الذي رأيته هذا الصباح، والذي اريد أن أراه ...

الظهر

ربما اكون قد اخطأت في الاقلاع عن تمرين الحنجرة، وتقصير تمارين التنفس. خطورة في مدى خمسة عشر يوما احتاجت هذا الصباح إلى جلسة كيٍ كهربائي. صباحية في السرير .

صحف . قرأت وأعدت قراءة رسالة « ليبور داي ». لهجة بسيطة ونبيلة، كلام عقلٍ رشيد . يكرر ويلسون ان السلام الحقيقي يجب ان يكون شيئاً آخر واكثر بكثير من تغيير جديد للتوازن الاوروبي . وقال بصراحة : « هذه حرب تحرير » (كحرب اميركا) عدم السقوط مرة ثانية في الضلالات القديمة، وتصفية هذه الحالة المخالفة في اوروبا ما قبل الحرب مرة واحدة : شعوب مسالمة، شغيلة، تعرض نفسها للخراب بسبب تسلحها . وتعيش والحراب في رؤوس البنادق وراء حدودها . اتحاد الامم المتصالحة . سلام

يحمل اخيراً للبر القديم تلك الطمأنينة التي صنعت قوة الولايات المتحدة الاميركية : سلام دون غالبين ولا أذلاء ، سلام لا يترك وراءه اية خميرة للثأر ، ولا اي شيء يمكن ان يمهد ذات يوم لبعث روح الحرب .

ويشير ويلسون جيداً للشرط الاول لسلامٍ كهذا : اسقاط الحكومات الاوتوقراطية ، هدف جوهري . لا طمأنينة في اوروبا ما لم تستأصل الامبريالية الجرمانية ، وما دامت الكتلة النمساوية – الالمانية لم تتطور ديموقراطياً . وما دام هذا المركز للافكار الخاطئة لم يتلف . (خاطئة لأنها معارضة لمصالح البشرية العامة) : الروحية الامبراطورية ، التمجيد الوقح للقوة ، الايمان بالتفوق الالماني على جميع الشعوب الاخرى وبحق السيطرة عليها . (مسيحية حاشية القيصر الالماني التي تود ان تجعل من كل الماني صليبياً تكون مهمته فرض الهيمنة الجرمانية على العالم) .

المساء

زيارة حسنة لغواران وفوازينه بعد عشائهما . حديث حول المانيا . زعم غواران ان تلك العبادة المشؤومة للقوة ليست نتيجة للنظام الامبريالي بقدر ما هي صفة وثنية عنصرية ، مختصة ، للعرق : غريزة . وبالاحرى مذهب ، مناقشات : المانيا ليست بروسيا ، الخ . ويعترف غواران نفسه انه يوجد في المانيا جميع العناصر اللازمة لتشكيل امة مسالمة حرة . ومتى تصبح المسيحية الجرمانية غريزة في العرق ؟ من الراهن أن النظام الاوتوقراطي يشجعها ، وينميها ، وينتفع بها . ذلك يتوقف علينا لو كنا منتصرين ، يتوقف على صفة معاهدات السلام ، يتوقف على موقفنا حيال المغلوبين بحيث تختفي تلك الالمانيا المسيئة . ان التربية الديموقراطية التي يريد ويلسون اخضاع الالمان لها ، تاركاً هذه المسيحية دون استعمال ، فانها تفل حدة الشعب الالماني بسرعة ، وتميل به نحو اهداف اخرى إذا لم تترك له معاهدة الصلح اية ذريعة للثأر . وهذا سيكون عمل خمس عشرة سنة . لدي أمل جيد . لا اظن انني مخطىء إذا فكرت ان

المانيـــا وفقاً لعام ١٩٣٠ ، جمهورية ، ابوية ، مثابرة ومسالمة ، ستصبح احدى امتن الضمانات للاتحاد الاوروبي .

وكان فوازينه يتذكر تشرين الثاني ١٩١١ . صحيح جداً . لماذا أخّر اتفاق كايو الفرنسي – الالماني الحرب ؟ لأنـــه لم يكن يغيّر – ولا يستطيع ان يغيّر – النظام السياسي الالماني ، لأن اهداف المانيا والنمسا وروسيا استمرت في ان تظل اهداف أباطرتها ، ووزرائها ، وقادتها العسكريين . كل هذا فهمه ويلسون . التغلب على القيصر الالماني ليس بشيء إذا لم تبلغ الاصابـــة الروح البروسية التوتونية للنظام الامبراطوري ، وطمعه في السيطرة ، ونزعته حول الحامعة الجرمانية . إزالة الاسباب العميقة حتى لا تُبعث روح النظـام حيــة ابداً . عندئذ يصبح السلام الدائم مضموناً .

يجب الا ننسى أن حكومة القيصر الالماني وحدها ، ضد كل اوروبا ، هي التي نسفت اجتماع لاهاي . (تفاصيل اعطاها غواران : كان هنـاك اجماع على تحديد التسلح : وعقد اتفاق – اتفاق كان يمكن لنتائجه ان تكون لا حصر لها ؛ وعشية التوقيـع ، تلقى ممثل المانيا من حكومته امراً بعدم التعهد) . في ذلك النهار ألقت الامبراطورية القناع . لو كان مبدأ التحكيم قـد أقر ، ولو كان تحديد التسلح قبلت به المانيا كما قبلت به الدول الاخرى ، لكانت وضعية اوروبا عام ١٩١٤ تختلف تماماً ولكان من المحتمـل تجنب الحرب . تذكير . ما دام هناك نظام للتوسع الجرماني موضوعاً في وسط القارة فسيحتفظ بسلطة مطلقة على ستين مليونا من الرعايا الذين يثير كبرياءهم القومي بطريقة منظمــة ، وليس هناك سلام ممكن في اوروبا .

٤ ايلول

منذ هذا الصباح أوجاع في الخاصرة ، متحركة . متتابعة ، مؤلمـة جداً . (وغير ذلك كثير) .

بلاغ رسمي يعلن من جديد الاستيلاء على بيرون . لم يكن قـد اعترف ،

على ما اعتقد ، بان بيرون قد فقدت ثانية منذ آب .

رسالة قصيرة من فيليب ، يُروى في باريس ان فوش ينوي القيام بثلاث هجمات في وقت واحد . الاولى على سان كانتان ، والثانية على الايسن ، والثالثة مع الاميركيين على الموز . وكما يقول فيليب : « ضربات وجراح ايضاً في المستقبل». هل حقيقة يلزم كثير من الموتى قبل نشر مبادىء ويلسون؟

المساء

زيارة غواران . ساخط . حدثني عن المناقشات التي اثيرت على العشاء بسبب رسالة ويلسون الأخيرة . شبه اجماع على اعتبار عصبة الأمم ، قبل كل شيء ، وسيلة لتمديد تحالف العالم المتمدن ضد المانيا بعد الحرب، بواسطة مؤسسة ثابتة . ويزعم غواران ان هذه الفكرة الراسخة بشكل متين في جميع الرؤوس الضخمة الرسمية الفرنسية (ابتداء من بوانكاريه وكليمنصو) ، يمكن أن تصاغ هكذا : « ان توحيد اوروبا السلمي لا يمكن أن يحدث دون هذا الشرط الضروري : أن يطرد البوش من الاتحاد . عرق ملعون . خميرة حروب مستقبلة . لا يكون السلام ممكناً ما دامت ستبقى في أوروبا المانيا طويلة العمر. اذن ، تظل تحت الوصاية لمنعها من الأذى) .

امر شنيع . لو كان غواران يقول الصدق ، فان الصدق سيكون خيانة مطلقة لفكرة ويلسون . ان يُبعَد في أول الأمر ثلث أوروبا من عصبة عامة ، بحجة ان هذا الثلث مسؤول عن الحرب ، وان من المستحيل الوثوق به ، فهذا يعني أن نقتل في المهد التنظيم القضائي لأوروبا . والاكتفاء بصورة هزلية لجمعية امم ، والاعتراف بانهم يحلمون بوضع أوروبا تحت سيطرة انجلو – فرنسية ، وزرع بذور منازعات جديدة دامية .

ان ويلسون كثير العقل والحذر فلا يسقط في هذا الفخ الامبريالي !

٥ ، نهار الخميس

لم اقف هذا اليوم . انا بالحقيقة مختنق بمشي . ظللت خمس دقائق في هبوط الدرج .

اني مدفوع نحو الموت ببطء ، او بشكـــل منتظم . هذه الليلة عدت الى التفكير باحتضار والدي . لازمة طفولته التي كان يدندن بها :

بسرعة ، بسرعة ، الى موعد اللقاء !

يجب الا انتظر لأكتب الملاحظات عن والدي والتي اريد تركها لجان بول .

كم مرة ، في المؤخرة ، اثناء نزول الجنود للاستراحـة ، وفي الهدوء حيث أكون سعيداً لأني وجدت سريراً ، كنت أقضي ساعاتٍ ممدداً أتخيل ما بعـد الحرب ، وأحلم بسذاجة بالأوقات التي ستأتي ، وبالحياة الأفضل الأكثر نفعـاً ، والتي كنت عازماً أن احياها . كان كل شيء يبدو كثير الجمال !

موت ، موت . فكرة ثابتة . كأنها دخيلة عـــلي . كغريبة . طفيلية . قرحـة .

كل شيء سوف يتغير إذا اصبح القبول ممكناً بالنسبة إلي .. ولكن يجب اللجوء إلى الغيبيات . وهذا ..

غريب أن تثير العودة إلى العدم مقاومة كهذه . اتساءل عما سأشعر بـه لو كنت اؤمن بالجحيم ، ولو كنت متأكداً من انني في الهالكين . اني اشك في أن يكون هذا اسوأ .

٥ ايلول ، مساء

جلب إلي القومندان ، بواسطة جوزف ، مجلة مؤشراً عليها بعلامة . فتحت وقرأت : « ان للحروب دائماً ذرائع ، ولكن ليس لها أبداً سوى سبب : الجيش. أزيلوا الجيوش تزيلوا الحرب . ولكن كيف يلغى الجيش ؟ بواسطة منـــع الاستبداد » . انها شهادة منتزعة من خطاب لفكتور هيجو . وقد وضع ريمون على الهامش مع علامة تعجب : مؤتمر السلام عام ١٨٦٩ .

ليضحك ما يشاء . فهل هـذا سبب لليأس من ان نرى الانسانية تخرج اخيراً من المستحيل بمجرد كونهم نادوا بالغاء الاستبداد وتحديد التسلح منذ خمسين سنة ؟

تقل اكثر من أي وقت مضى في هذه الأيام . عدد الشذرات يزداد (قطع مخاطية ، وأغشية زائفة) .

٦ ايلول

تلقيت هذا الصباح رسالة من مدام روا . انها تكتب إلي كل سنة ، في اليوم الذي مات فيه ولدها .

(غالباً ما يذكرني لوبان بمانويل روا الصغير) .

ماذا يكون اعتقاده اليوم لو ظل حياً ؟ اني اتخيله جريحا (كلوبان) ولكنه متعجرف دائماً ، يتعجل الشفاء ليعود إلى الجبهة .

اني اتساءل يا جان بول ماذا ستكون أفكارك عن الحرب فيما بعد ، عام ١٩٤٠ ، حين تصبح في الخامسة والعشرين من سنك . سوف تعيش دون شك في اوروبا وقد أعيد بناؤها ، مسالمة . هل تستطيع فقط ان تفهم ما هي « النزعة القومية ؟ » البطولة العمياء لأولئك الذين كانوا في مثل سنك عام ١٤ ، خمس وعشرون سنة من المستقبل أمامهم – والذين ذهبوا يتقاتلون بعظمة كصغيري العزيزمانويل روا ؟ لا تكن ظالماً ، تعلم ان تفهم . لاتنكر نبل هؤلاء الشبان الذين لم يكونوا راغبين بالموت ، والذين قبلوا برجولة ان يخاطروا بحياتهم لأجل بلادهم المعرضة للخطر . لم يكونوا كلهم من الرؤوس المجنونة ، كثيرون كمانويل روا، قبلوا بهذه التضحية لأنهم كانوا مقتنعين انهم سوف يوفرون لأجيال المستقبل – وأنت منهم – مستقبلاً أجمل . نعم ، كثيرون ، وقد عرفتهم . والعم انطوان يشهد لصالحهم .

٧ ، مساء

إلى جان بول :

أفكر بالمستقبل ، بمستقبلك . ذلك المستقبل « الأكثر جمالاً » مما كان يتمناه أمثال مانويل روا . أكثر جمالاً ؟ آمل ذلك لك . ولكننا نترك لك عالماً مشوشاً كإرث . وإني لأخشى أن تدخل إلى الحياة في وقت مضطرب جداً .

متناقضات ، شكوك ، اصطدامات بين قوى قديمة وجديدة ، سوف يلزم رئات متينة لاستنشاق ذلك الهواء الفاسد . انتبه ، لن يكون بلوغ سرور الحياة سهلاً على الجميع .

بوجه عام ، اني اتفادى كل نبوءة. ولكن التفكير يكفي لاستشفاف أوروبا الغد . من الناحية الاقتصادية ، كل الدول تفتقر. والحياة الاجتماعية مختلة التوازن في كل مكان . ومن الناحية الاخلاقية ، القطع المفاجىء مع الماضي ، انهيار القيم القديمة ، الخ .. ومن هنا احتمال حصول تشوش عظيم . فترة تغيير ، ازمة نمو مع نوبات حمّى ، واضطراب ، واندفاعات ، وانتكاسات . التوازن في النهاية ، ولكن ليس حالاً . لا تمر ولادة دون آلام .

ماذا يصير بك آنذاك يا جان بول ؟ سيكون من الصعب رؤية ذلك بوضوح. كل فرد سيعتقد انه يحفظ الحقيقة ، وسيكون لدى كل فرد دواؤه الشافي يقدمه ، كما هو الأمر دائماً . عصر الفوضى تقريباً ؟ غواران يؤمن بذلك . أما انا ، كلا . إذا كانت فوضى فهي فوضى ظاهرة فقط ، ووقتية ، لأن البشرية لا تسير ، لا تستطيع السير نحو الفوضى ، يستحيل التفكير . فالتاريخ هنا ، والبشرية ، من خلال ارتجاجات لا يمكن تجنبها ، لا تستطيع السير إلا نحو التنظيم . (من المحتمل جداً إن هذه الحرب سينقصها خطوة حاسمة ، إن لم يكن نحو الاخاء ، فعلى الأقل نحو الفهم المتبادل . سيتسع الافق الاوروبي مع سلام ويلسون ، وأفكار التعاضد البشري والمدنية الجماعية سوف ترمي الى ان تحل محل أفكار القوميات . الخ) .

وبكل الطرق سترى تغييرات واسعة ، اصلاح ، وما أردت أن اكتبه هو هذا : يبدو لي في هذه الأوقات الآتية ، ان الرأي العام ، والأفكار — القوى التي تقوده سوف يكون لها تأثير متزايد ، غير محدود . ومن المحتمل أن يكون المستقبل أكثر طواعية مما لم يكنه أبداً . وسيكون للفرد اهمية أكثر. والرجل ذو القيمة سيكون له ، أكثر من الماضي ، حظوظ في ان يستطيع إسماع رأيه وترجيحه ؛ امكانات المساهمة في إعادة البناء .

ان يصير المرء رجـــلاً ذا قيمة . ان ينمي في نفسه شخصية تفرض نفسها . الحذر من النظريات الدارجة . من المغري التخلص من حمل شخصية المتطلب ! من المغري ان ينضم المرء إلى حركة واسعة من الحماسة الجماعية ! ومن المغري الظن ، لأن هذا سهل ، ولأنه مريح إلى أقصى درجة ! هل ستعرف كيف تقاوم الميل ؟ لن يكون سهلاً . كلما بدأ الأثر مشوشاً للانسان فانه يصبح كثير الميل إلى الخروج بأي ثمن من الإبهام ، وإلى القبول بمذهب جاهز ، يطمئنه ويقوده كل جواب قريب إلى حد ما من الاسئلة التي يعرضها والتي لن يتوصل إلى حلها وحده ، يكون له كملجأ ؛ خصوصاً إذا بدا له أنه ينـال رضى العدد الأكبر ، خطر اكبر ! قادم . أرفض كلمات الأمر ! لا تدعهم يشحذونك . قلق الشك أفضل من الراحة الاخلاقية الكسولة التي يقدمها آباء المذهب إلى كل «مشايع» ! ليس عجيباً أن تتلمس وحدك في الظلام ؛ ولكنه أقل ما يمكن من الشر . أما الأسوأ فهو ان تتبع ، منصاعاً ، المصابيح المضللة التي يهزها الجيران . انتبه ! حول هذه النقطة ، لتكن ذكرى والدك نموذجاً لك ! ولتكن حياته المنفردة وفكرته القلقة غير المستقرة مثلاً في الامانة حيال نفسك ، وحيال الوسواس ، والقوة الداخلية ، والكرامة .

عند الفجر ، أرق ، أرق .

(لدي ميل لاتخاذ نبرة « صائد السمك » منذ أن اتوجه بالكلام إلى جان بول . الاقلاع عن : « انتبه » ، الخ . .)

أن يصير « رجلا ذا قيمة » . . لم انس سوى أمر . . أن اعطيه طريقة العمل .

طريقة العمل ؟ من جهة الرجال ذوي القيمة فأني لم أقرب أبداً سوى أطباء . إلا اني محمول على الظن ان موقف رجل ذي قيمة أمام الحوادث ، أمام وقائع وطوارىء الحياة الاجتماعية يجب الا يختلف أبداً عن موقف الطبيب أمـام المرض . فالمهم : نوع من طهارة النظرة في الطب . ان ما يعرف ، ما تعلمه

الكتب ، نادراً ما يكفي لحل المسألة الجديدة التي تعرضها كل حالة خاصة . كل مرض ـ ونظير ذلك أزمة اجتماعية ـ يُعرض كحالة أولى ، دون سابقة مماثلة، كحالة شاذة يجب دائماً ابتكار علاج جديد لها ، ويلزم كثير من المخيلة ليكون المرء رجلا ذا قيمة .

الاحد ٨ ايلول ١٩١٨

تقيأت هذا الصباح ، عند استيقاظي ، قطعة تقارب العشرة سنتيمرات ، أرسلتها إلى باردو للفحص .

أعدت قراءة ما كتبته هذه الليلة ، دهشت لاستطاعتي ، بين لحظة واخرى الاهتمام بالمستقبل ، وبالناس حسب رأيي . فهل هذا فقط بسبب جان بول ؟

لدي التفكير ، فان كل هذا الاهتمام عفوي ، وأقل تواتراً مما أقول . ان دهشتي ، بالعكس ، هي نتيجة جهد عقلي ، نتيجة عودة إلى نفسي . في الواقع فان التفكير في المستقبل يبقى بالنسبة إلي عملية ذهن مثابر وطبيعي .. غريب !

قبل الفطور

اتذكر خبراً رددته الصحف وأدهش فيليب (احدى أولى محادثاتنا المهنية . وكنت قد دخلت تحت امرته) . كان الأمر يتعلق بمحكوم بالموت وصل أمام الساطور ، وقد امسك به المساعدون ، فانتفض ليصرخ بالنائب العام : « لا تنس رسالتي » (فقد علم في السجن أن عشيقته تخونه ، وصباح يوم تنفيذ الحكم كتب إلى القضاة ليعترف بعمل سيء ظل بدون عقوبة وكان للمرأة في هذا العمل دور فعال) .

اننا لم نتوصل إلى الفهم . الاهتمام فقط بقضايا العالم حتى آخر ثانية ! كان فيليب يرى في ذلك برهاناً على شبه العجز عند بعض الرجال عن تحقيق إنكار الكينونة بشكل حقيقي .

هذه الحكاية لم تزد من دهشتي ٠

٩ ايلول

طعم نتن في الفم . ما فائدة هذه العقوبة الاضافية ؟ لم اكن آمل شيئاً من دواء الكريوزوت الذي يذكرني بطبيب الأسنان الذي انتزع مني كل رغبة في الأكل .

بعد الظهر ، في الخارج

تذكرت فجأة وانا اكتب التاريخ هذا الصباح : اليوم هو عيد روفيل Reuville الثاني .

المساء

عشت كل النهار في ذكرى روفيل . وصولنا في نهاية النهار . تجهيز مركز الاغاثة في سرداب كنيسة . القرية انقاض . مائتا قنبلة سقطت البارحة . ليلة سوداء تتصاعد فيها المشاعل المضيئة . والمركز العام للكولونيل الذي يقوم بوظيفة جنرال دي بريغاد في بيت لم يبق منه سوى ثلاثة جوانب من الجدران. جلجلة المدافع من عيار ٧٥ الموضوعة في الغاب . سقوف (الجملون) خراب حول المستنقع . اللحاف الأحمر المبقور الذي سأجرح بقربه صباح الغد ٠ أرض النفايات والوحول خددتها معدات النقل . والقمة ، وراء القرية، القمة التي كانت ترى من خلال الزجاج المحطم لسرداب الكنيسة ، القمة التي كان الجرحى يأتون منها رزماً ، بيضاً من الغبار ، يمشون بعرج خفيف ، بتلك الهيئة الغائبة الهادئة التي هي هيئتهم كلهم ، لقد رأيتها ، تلك القمة ، مقطوعة على سماء حريق ، منتفشة بأوتاد شائكة ، كلها منحنية في نفس الاتجاه كأن أعصاراً قد قلبها ، والطاحونة القديمة إلى الشمال منهارة على جوانبها كدمية محطمة ٠ (لذة غريبة بوصف كل هذا . لماذا ؟ طعم النسيان ؟ لمن ؟ ليعرف جان بول ان العم انطوان ، ذات صباح في روفيل ؟) السرداب مزدحم منذ أول الليل.

التأوهات والشتائم . القش في الداخل حيث كانوا يضعون الموتى مع الذين لا يمكن نقلهم . والمصباح موضوع على المذبح . والشمعة في الزجاجة . ورقصة الظلال الغريبة على قنطرة السقف . ورأيت الطاولة من جديد ، الواح خشبية على برميلين، البياضات . رأيت كل شيء كما لو ان الوقت اتسع لي لألاحظ، لكي استوعب . فعاليتي آنذاك ! تلك الحالة من السكر النصفي ، سرور المهنة ، ذلك النشاط في الشغل ، التحرك بسرعة ، محتفظاً بأكبر قدر ممكن من القدرة على النفس . جميع الحواس مستيقظة بشكل اعجوبي ، والارادة منبسطة على طول الأعضاء حتى اطراف الاصابع . نوع من الشقاء ايضاً ؛ وفي الوقت نفسه عدم حساسية تمثال متحرك . مدعوم بالهدف ، بالشغل الواجب عمله . لا اسمع شيئاً ولا ابصر شيئاً . اكون منصرفاً بكليتي إلى ما يقام به من عمل . والعمل ضمن النظام ، بمهارة ، دون سرعة ودون إضاعة أية ثانية . كل حركة من الحركات الضرورية لاستئصال الميكروبات من ذلك الجرح ، ذلك الشريان الذي ربط في الوقت المناسب ، ذلك الكسر المجمد وقتياً . إلى التالي !

واری بشكل اكثر تشوشاً ذلك النوع من الافريز ، المحطة ، حيث كانوا يضعون الجرحى على محفات في الناحية الاخرى من الزقاق . ولكني اتذكر جيداً ذلك الزقاق حيث يجب السير بمحاذاة الجدران بسبب الرصاص . والصأي الخفيف في الآذان ، والفرقعة الجافة على جدران اللبن ! .. والنظرة الغاضبة للقومندان الصغير الملتحي ، بذراعه المربوط بشال ، والطريقة التي كان يحرك بها يده السليمة على ارتفاع الصدغ كأنه يبعد عنه خشرم نحل . « كثير من الذباب هنا ، كثير من الذباب » . (وفكرت فجأة بذلك المتطوع العجوز الملتحي، الأشيب الذي كان معنا في عربة اسعاف لونبريه ليكور - سان ، وهيئته العابسة، ولهجة الضاحية حين يفرغ محفته من جريح : « إنزل ، انهم يطلبونك » !

كان الشغل يجري كل الليل دون أي ارتياب بالحركة الدائرة . وعند الفجر ، وصول ضابط الارتباط . احتلال جوانب القرية ، خنادق الغائط اصبحت خطرة ، الساحة الواجب اجتيازها رغم المدافع الرشاشة للوصول إلى الممر

الضيق المطروق . لم تخطر لي ابدا الفكرة بأنني اجازف بجلدي، وعند السقوط، فان مرأى اللحاف الاحمر ، وذلك التأكيد الواضح : « رئة مثقوبة .. القلب لم يُصب .. سأنجو من ذلك .. »

(بماذا تتعلق الأمور .. لو جُرحت ذاك الصباح في الساق أو في الذراع لما كنت حيث أنا ! ذلك القليل من الغاز الذي استنشقته فيما بعد ، ما كان ليحدث هذا التلف لو كان لي رئتان غير مصابتين) .

١٠ ايلول

منذ البارحة ، والذهن مشغول جداً بذكريات الحرب .

اريد أن اسجل لجان بول حكاية المصابين بالتيفوئيد ، الذين أنا مدين لهم بالبقاء في الجبهة وقتاً اطول من معظم زملائي في المستشفيات . في شتاء ١٩١٥، كنت دائماً مرتبطاً بفيلقي في كومبيانيه ، وهو موجود في خط القتال في الشمال. ولكن مناوبة أُقرّت بين أطباء المفارز ، وكان كل منا يذهب كل خمسة عشر يوماً تقريباً إلى مسافة ستة كيلومترات إلى الوراء ليدير لبضعة أيام ثكنة صغيرة ، ردهة مرضى ذات عشرين سريراً . وصلت إلى هناك ذات مساء ، ثمانية عشر مريضاً في طابق مسقوف بعقد تحت الأرض . وحرارة الجميع مرتفعة ، وعدة منهم تبلغ حرارتهم الأربعين درجة .. فحصتهم على ضوء مصباح . بدون تردد : ثمانية عشر مصابون بالتيفوئيد ، وقد كان ممنوعاً وجود مصابين بالتيفوئيد في الجبهة . وعملياً كان من المحظور تشخيص مرض التيفوئيد. كلمت ذا الشرائط الأربع بالهاتف في المساء نفسه ، وصرحت له أن الثمانية عشر يبدو انهم مصابون باضطرابات معدية ومعوية خطيرة ، قريبة جداً من اضطرابات الباراتيفوئيد (وقد تجنبت بحكمة كلمة **تيفوئيد**) ، وبالنتيجة ارفض ادارة ردهة المرضى هذه مقتنعاً ان هؤلاء الاشخاص المساكين سوف يموتون في قبوهم إذا لم يخرجوا حالاً . وفي الغد ، في الساعة الأولى ، ارسلوا سيارة في طلبي واحضروني إلى الفصيلة . فعاندت السلطات ، بحيث حصلت على

اخراجهم حالاً . ولكن منذ ذلك اليوم اصبح يوجد في وظيفتي « ملاحظة » انا مدين لها ، إلى اليوم الذي جرحت فيه ، بحرماني من كل ترقية !

المساء

افكر بعلاقاتي هنا بالآخرين . اختلاط بدون ترتيب يذكرني باختلاط الجبهة . كلا . لا شيء قابل للمقارنة هنا ، رفقة لا اكثر . اما في الجبهة فأقل فرد هو أخ .

افكر بأولئك الذين عرفتهم . استعراض حزين يجب مراجعته . الجميع تقريباً مسرحون ، مبتورون ، مختفون .. كارليه ، برولت ، لامبير ، ودالان الباسل ، وهيوار ، وليسنه ، ومولاتون ، اين هم ؟ وسونيه ؟ ونوب الصغير ؟ وكثيرون آخرون ؟ كم منهم ينهون الحرب سالمين ؟

اني افكر اليوم بالحرب ، على غير المعتاد . ما قاله لي دانيال في ميزون : « الحرب ، تلك الفرصة للصداقة غير العادية بين الرجال .. » (صدفة فظيعة أو صداقة سريعة الزوال !) مهما كان الأمر فهو على حق : نوع من الرأفة ، وشرف النفس ، والمودة المتبادلة ، في تلك البلية المتقاسمة ينتهي الأمر بألا يكون هناك سوى ردود فعل ابتدائية ، وهم انفسهم . وسواء أ كانوا رتباء ام لا ، فهي نفس العبوديات ، نفس الآلام ، نفس السأم ، نفس المخاوف ، نفس الآمال ، نفس الوحل ، وفي اغلب الأحيان نفس الشورباء ، ونفس الصحيفة . الاعيب ، وحزازات صغيرة ، ورداءة اقل مما هي في غير مكان . أنهم بحاجة إلى بعضهم البعض . انك تُحِب ، وتساعد على أن تُحَب وتُساعَد . قليل من النفور الشخصي . لا وجود للحسد (في الجبهة) . ولا وجود للحقد . (لا وجود ايضاً لبغض البوش المواجهين ، ضحايا الحماقات نفسها) .

ثم ، هذه ايضاً : بقوة الأشياء فإن الحرب هي وقت **تأمل** . للنموذج غير المثقف كما للنموذج المثقف . تأمل بسيط ، عميق . انها تقريباً هي نفسها للجميع . هل مواجهة الموت اليومية هي التي تجبر العقول الأقل تأملاً على

التفكير ؟ (مثلاً ، هــذا الدفتر ..) ما من واحد من رفاقنا في المفرزة لم افاجئه يومــاً وهو في حالة التامل ، تأمل منعزل ، منطو ، يراعى كالحاجة ، ويخبأ . الزاوية الوحيدة التي يُحتفظ بها · ان التأمل في هذه التعرية المرغمة من الشخصية ، هو الملجأ الأخير للشخص .

ماذا سيبقى من ثمار هذا التأمل لأولئك الذين سوف ينجون من الموت ؟ ربما لن يبقى شيء كثير · شهية مفرطة للحيــاة ، على كل حال ؛ الرعب من التضحيات غير المجدية ، والكلمات الكبيرة ، والبطولة ؟ وبالعكس ، حنين إلى « فضائل » الجبهة ؟

١١ ايلول

الشذرة التي قيئت في ذلك الصباح قد حققت هويتها من ناحية علم الأنسجة العضوية . ليست غشاءً مزيفاً : انها قالب مخاطي .

المساء

في الواقع ، أفكر في أغلب الأحيان بحياتي اكثر مما أفكر بموتي · اني اعود إلى ماضيّ دون انقطاع ، انبش فيه كجامع الخرق في وعاء جمع الاقذار . سحبت بطرف كلابتي احدى الفضلات ، وفحصتها ، واستجوبتها ، وأحلم بها دون كلل .

الحياة شيء قليل جداً .. (ولا اعتقد بذلك لأن حياتي قصيرة ، فهو صحيح لكل حياة !) شيء كثير التفاهة : ألق قصير الأمد في ليلة فسيحة ، الخ .. كم هم قلائل اولئك الذين يعرفون ما يقولون وهم يرددون هذه البراهين . كم هم قلائل أولئك الذين يشعرون بما يؤثر في النفس .

يستحيل التخلص كلياً من السؤال العديم الفائدة : « ما يمكن أن يكون معنى الحياة ؟ » انا نفسي ، وانا اجتر ماضيّ ، اجدني اتساءل اغلب الأحيان: « ماذا يعني هذا ؟ » .

لا شيء . لا شيء ابداً . يشعر المرء بشيء من الجهــد لقبول ذلك لأن في

مخه ثمانية عشر قرناً من المسيحية . ولكن كلما فكر ، يزداد تطلعه حوله ، وفي نفسه ، ويزداد تغلغل هذه الحقيقة الراهنة فيه : « هذا لا يعني شيئاً » . ملايين من الكائنات تتشكل على القشرة الارضية ، وتتحرك عليها برهة ثم تنحل وتختفي ، تاركة المكان إلى ملايين أخرى سوف تتفسخ بدورها غداً . ظهورها القصير لا « يعني » شيئاً . الحياة ليس لها معنى . ولا شيء له أهمية الا السعي لتقليل التعاسة اكثر ما يمكن اثناء هذه الاقامة السريعة الزوال .

تأكيد ليس مخيباً للامل ولا يشل الحركة كما يمكن أن يظن . فالشعور بانك نظيف ، متحرر من جميع الاوهام التي يتعلل بها اولئك الذين يريدون بأي ثمن أن يكون للحياة معنى ، يمكن أن يعطي شعوراً رائعاً بالصفاء ، والقوة ، والحرية . وهذه يجب أن تكون فكرة مقوية إذا عرفنا أن نأخذها . . .

فكرت فجأة بقاعة فترة التنفس في الطابق الارضي من الجناح ب التي كنت اجتازها كل صباح حين اترك وظيفتي في المستشفى . اني اتخيلها مليئة بالاطفال الدابّين على اربع ، يلعبون بالمكعبات . وكان يوجد هناك صغار مرضهم عضال ومعوهون ، ومرضى ، وناقهون . ويوجد هناك اطفال متأخرون ، نصف بلهاء ، وآخرون كثيرو الذكاء . بالاجمال عالم صغير . . . البشرية منظورة من الطرف الكبير للمنظار .. كثيرون كانوا يكتفون بتحريك المكعبات الموجودة أمامهم كيفما اتفق ، وينقلونها ، ويقلبونها ويعيدون قلبها على وجوهها المختلفة . وآخرون اكثر يقظة ، يجمعون الالوان المتجانسة ، ويصفون المكعبات على خط مستقيم ، ويشكلون رسوماً هندسية . والبعض منهم اكثر جرأة ، يتسلون برفع ابنية صغيرة مهتزة . واحياناً ، عقل مجتهد ، متماسك ، مبدع ، طموح يجعل لنفسه هدفاً صعباً . وينجح بعد عشر محاولات على غير طائل في صنع جسر ، مسلّة هرم مرتفع . . . وفي نهاية فترة التنفس كل شيء ينهار ، ولم يكن يبقى على البساط سوى كدسة من المكعبات المتناثرة ، جاهزة لفرصة التنفس في الغد .

هذه بالاجمال صورة تشبه الحياة شبهاً كافياً ، وكل منا ، دون هدف آخر سوى اللعب (مهما كانت الاعذار الجميلة التي ينتحلها) ، يجمع وفقا لهواه ،

وفقا لطاقاته ، العناصر التي يوفرها له الوجود ، المكعبات المتعددة الالوان التي يجدها حوله عند ولادته . والاكثر موهبة يحاولون أن يصنعوا من حياتهم بناءً معقداً ، عملاً فنيا حقيقيا. يجب السعي لتكون بين هؤلاء وذلك لكي تكون فتره التنفس مسلية اكثر ما يمكن .

كل حسب وسائله . وكلٌ مع العناصر التي تأتيه بها الصدفة . وهل لهذا حقيقة من الاهمية اكثر من النجاح الكثير أو القليل في صنع المسلّة أو الهرم ؟

نفس الليلة

آسف يا صغيري على هذه الصفحات التي كتبت مساء البارحة . سوف تثيرك إذا قرأتها وسوف تقول : « افكار عجوز . افكار مشرف على الموت ..» انت على حق دون شك . اني لا اعرف اين الصحيح . يوجد اجوبة اخرى ، اقل سلبية على السؤال الذي تلقيه على نفسك : « باسم ماذا يعيش المرء ، ويشتغل ، ويعطي افضل ما عنده ؟»

باسم ماذا ؟ باسم الماضي والمستقبل . باسم ابيك واولادك . باسم الحلقة التي هي انت في السلسلة .. تأمين الاستمرار .. نقل ما تلقيته . — نقله مُحَسَّناً ، مغتنيا .

وربما كان هذا هو سبب وجودنا .

١٢ ايلول ، صباحاً

لم اكن سوى رجل بسيط . خصائص وسط . منسجمة مع ما تتطلبه الحياة مني . ذكاء وسط ، ذاكرة ، موهبة التمثّل . طابع وسط . والباقي كله تعمية .

بعد الظهر

الصحة ،السعادة : كلمتان على العينين . المرض يجعل الانسان صافي الذهن (افضل الشروط لفهم النفس وفهم الانسان هي أن يكون المرء مريضا ويستعيد

صحته). لدي رغبة عظيمة في الكتابة : « أن الرجـل الحسن الصحة دائما هو أبله بصورة حتمية » .

لم اكن سوى انسان وسط . دون ثقـــافة حقيقية . ثقافة كانت مهنية ، محدودة بمهنتي . والكبار ، **الكبار الحقيقيون** ليسوا محدودين باختصـاصهم . الاطباء الكبار ، والفلاسفة الكبار ، والرياضيون الكبار ، والسياسيون الكبار ليسوا فقط اطباء وفلاسفة ، الخ . . يكون دماغهم على خير حال في الميادين الاخرى . يهرب إلى ما وراء المعارف الخاصة .

المـاء

حول نفسي :

لست سوى رجل كان له حظ. لقد اخترت المهنة التى استطيـع النجاح فيها افضل من غيرها . (الامر الذي يبرهن الآن على نوع من الذكاء العملي) . . . ولكنه ذكاء **وسط** ، متوازن بقدر كاف ليعرف انه يستفيد من الظروف الملائمـــة .

عشت معميا بالكبرياء .

كنت اتصور انني مدين بكل شيء لدماغي ونشاطي . كنت اتخيل انني خلقت مصيري واستحققت نجاحـــاتي . كنت اتصور اننى نموذج من المخطط الاول لأننى توصلت إلى أن ادع اناسا اقل موهبة منى يحكمون علي انني هكذا. تعمية . فقد خدعت فيليب نفسه .

سراب ، اوهام ، لا يمكن أن تدوم إلى الابد . أن الحياة تحتفظ لي دون شك باخفاقات فظة .

لم أكن أكثر من طبيب جيد ككثيرين غيري .

١٣ ايلول

قيء وردي اللون هذا الصباح ، الساعة الحادية عشرة . في السرير بانتظـار

جوزف لاجل (كاسات الهواء) .

غرفتي . كون صغير قبيح كل تفاصيله معروفة لدي جداً حتى الغثيان . ما من مسمار ، ولا اثر لمسمار قديم ، ولا جلفــة في هذه الجدران الوردية اللون الا واستقرت عيناي عليها آلاف المرات ! .. ودائماً اولئك البنات الملصقات فوق المرآة ! (واللواتي سيعوزنني فيما لو نزعتهن اخيراً).

في هذا السرير ، ساعات وساعات . ايام وليالي . أنا ناشط جداً في العمل .

عمل ، لم اكن مجتهداً فقط في العمل . بل عندي للعمل عبادة متعصبة ، سخيفة .

(يجب الا اكون كثير الظلم حيال الفعالية الماضية . وما اعرفه ، فهو العمل الذي تعلمته . الصراع مع الوقائع ، كنت مكيّفاً بالعمل . حتى جحيم هذه الحرب ، فاذا استطعت تحمله بصلابة فلأنه يضطرني إلى العمل باستمرار) .

بعد الظهر

في الاساس.كان يجب أن اكون جراحاً . . لقد درست الطب بمزاج جراح. لكي يكون المرء طبيباً جيداً يجب أيضاً أن يستطيع أن يكون تأمليا .

المساء

افكر من جديد بفعاليتي الجميلة التي كانت لي في السابق . ليس بدون صرامة . اني الآن اميز فيها حصة التمثيل لحب الظهور (حيال نفسى اكثر مما هو حيال الغير – في جميع الحالات : بقدر ما) .

ضعفي : **حاجة دائمة للاستحسان** . (هذا الاعتراف يكلفنى كثيراً يا جان بول) !

تأكدت مئة مرة أن وجود الآخرين كان لا غنى عنه بالنسبة إلي لأكون في اشد اوقات نشاطي ، فشعوري بان هناك من ينظر إلي ، ويحكم علي ، ويعجب بي،كان يشحذ جميع خصائصي،ويهيج جرأتي وروح العزم عندي،والشعوربقوتي يعطي ارادتي اندفاعة لا تقاوم . (امثلة : قذف بيرون بالقنابـــل ، – عربة

اسعاف مونميراي ، – مساعدة في « الخشب المحترق » ، الخ . ومثل آخر : في حياتي المدنية كنت اكثر فطنة بلا مراء في تشخيصي للمرض ، واكثر اقداماً في العلاج حين كنت اقوم بمعاينتي في المستشفى تحت نظر مساعديّ ، مني حين اكون وحيداً في منزلي ، في غرفتي ، امام زبون .

واني اعي اليوم أن النشاط الحقيقي ليس هذا : انه ذاك الذي يستغني عن المتفرجين . أن نشاطي بحاجة إلى الغير ليعطي افضل ما عنده . فقط في جزيرة روبنسون وحدها ، من المحتمل أن أزال . ولكن مجيء جمعة [1] يجعلني اقوم بتنفيذ اعمالي .

المساء

ثقّف ارادتك يا جان بول. إذا كنت قادراً على أن تريد فلا يستحيل عليك شيء .

١٤ ايلول

انتكاس . آلام شديدة . انقباضات لا يمكن تأويلها . يستحيل الاحتفاظ بشيء في المعدة . لم استطع النهوض .

حمل إلي غواران صحفه . في سويسرا يتكلمون عن عروض سلام نمساوية – هنغارية (؟) وأيضاً عن حركة خفية ثورية في المانيا (؟) ... اتكون الافكار الديموقراطية قد فتحت طريقها هناك بفضل رسائل ويلسون ؟

واقل تأكيداً خبر التقدم الاميركي باتجاه سان ميهييل . وسان ميهييل هي طريق برباي ومتز ! ولكننا نصل إلى خط هندنبورغ الذي يقال أن اجتيازه مستحيل .

١٦ ايلول

قليل من التحسن. لا يوجد قيء . ضعفت جداً في هذين اليومين بسبب الحمية.

---

١ ـ هنا اشارة الى قصة روبنسون كروزوي المعروفة . وجمعة هو احد ابطالها .

جواب كليمنصو على ميل النمساوين إلى السلم . كريه للغاية . نبرة ضابط في فرقة الفرسان : نبرة احد دعاة الوحدة الجرمانية . مفعول النجاحات العسكرية الحديثة لم يكن منتظراً : منذ أن يعتقد احد الخصوم أن الغلبة له فانه يكشف القناع عن افكاره المضمرة التي هي دائماً امبريالية . على ويلسون أن يعمل ضد رجال دولتي التفاهم [1] لكي لا يكون نصر الحلفاء اميركياً فقط.

فقد كان للتفاهم هنا فرصة ليملن بنزاهة ما كان يريد . ولكنه كان يريد أن يخدع ، ويبدو انه يتطلب اكبر قدر ممكن ، خوفاً من أن لا يحصل ، عند التسوية، على كل ما يمكن تحصيلة من المغلوبين. وقال غواران: «بعض النجاحات، ويسكر التفاهم بخمرة النجاح » .

١٧ ايلول

باستطاعتهم أن يسردوا علي ما يريدون ، فهذه الاقوال المكررة عن نوبات الالتهابات الرئوية قد اعتبرت دائماً كشكل من الفساد الرئوي يؤدي إلى الانتكاس.

١٨ ايلول

فحص طويل لباردو . ثم استشارة سيغر . « يظن أن هناك انحطاطاً في الناحية اليمنى من القلب ، مع ازرقاق ونقص في ضغط الدم » .

كنت انتظر ذلك منذ اسابيع . الحكمة القديمة : « رئات مريضة ،اعتنِ بالقلب » .

من مميزات المموض : أن لا يكون حيث يسمع النداء حين تكون هناك حاجة ماسة اليه ، – ويخلد في الغرفة حين يكون وجوده غير مناسب بشكل لا يحتمل . .

---

١ ـ التفاهم L'entente : اسم اطلق على دولتي فرنسا وانكلترا ابتداء من عام ١٩٠٤ بسبب العلاقات الطيبة التي كانت بينهما .

ليل ١٩ - ٢٠ ايلول

الحياة ، الموت ، الإنباتات التي لا تنقطع ، الخ ..

في فترة بعد الظهر هذه ، فحصت مع فوازينه خريطة لجبهة شامبانيه . تذكرت فجأة ذلك السهل الابيض (في احدى النواحى . إلى الشمال الشرقي من شالون) ، حيث توقفنا للفطور ، حين غيرت عملي في حزيران عام ١٧ . كانت الارض مقلوبة بشكل عميق جداً بفعل ضربات اول الحرب ، بحيث لم ينبت فيهاشيء ، حتى ولا قشة من النخيل . الا أن ذلك كان في الربيع ، بعيداً عن الجبهة . وكل المنطقة المجاورة زُرعت من جديد . وبقرب المكان الذي توقفنا فيه كان يوجد في منتصف هذا القفر الطباشيري جزيرة صغيرة خضراء . وقد اقتربت منها . انها مقبرة المانية . قبور على مساواة الارض ، مغطاة بالاعشاب المرتفعة ، وعلى تلك الجثث الفتية كثير من الشوفان ، وازهار الحقول ، وفراشات .

شيء تافه جداً . ولكن هذا التذكار اليوم يؤثر بي بغير شكل على الماضي . حلمت طوال السهرة بهذه الطبيعة العمياء ، الخ .. دون أن أستطيع إعطاء شكل لفكرتي .

٢٠ ايلول

نجاح على جبهة سان ميهييل . نجاح امام خط هندنبورغ، نجاح في ايطاليا ، نجاح في مقدونيا . نجاح في كل مكان . لكن ..

ولكن بثمن أية خسائر ؟

ليس هذا كل شيء . كيف تحترس من خوف مبهم ، حين تتأكد من تغيير نبرة الصحف الحليفة منذ ان شعرنا اننا الأكثر قوة ؟ بأي تشدد رفض بلفور وكليمنصو ولانسنغ عروض النمسا ! وقد اجبروا بلجيكا دون شك على رفض عروض المانيا .

زيارة غواران . كلا ، لا أستطيع أن اتصور اقتراب نهاية الحرب . فلأجل

تأسيس الجمهورية الالمانية وإيقاف العملاق الفخّاري الروسي على قدمين مثبتتين يلزم لذلك شهور طويلة ، ان لم يكن سنوات. وكلما ازداد انتصارنا يقل قبولنا بسلام مصالحة ، الوحيد الذي يدوم .

مناقشة مثيرة وعلى غير طائل مع غواران حول التقدم. فهو يقول: «اذن، فأنت لا تؤمن بالتقدم ؟ » .

بلى ، بلى . ولكن بالتقدم الجميل . لا يمكن أن نأمل شيئاً من الانسان قبل آلاف السنين .

٢١ ايلول

تناول الفطور تحت .

مهما كانت آراء لوبان وفابل وريمون مختلفة فكلهم سواء،متعصبون لآرائهم.

(يقول فوازينه عن القومندان : « لا اكاد اعتقد الا بالجهد بان الطبيعة اعطته دماغاً ، ولن أفاجأ إذا علمت انه لا يملك سوى نخاع شوكي ») .

إلى جان بول .

ليس هناك حقيقة إلا وقتية .

(عرفت ايضاً الزمن الذي كان يظن فيه ان كل شيء يُحَل بواسطة الأدوية المضادة للعفونة . « قتل الميكروب » . وقد فطنوا في أغلب الأحيان إلى أنهم قتلوا الخلايا الحية بالضربة نفسها) .

تحسس ، تردد . ما من شيء يتأكد نهائياً . كل طريق يندفعون فيه بسرعة يصبح طريقاً مسدوداً (أمثلة كثيرة في العلم الطبي . رأيت عقولاً بنفس القيمة، بنفس الفطنة ، تحييها عاطفة الصوت نفسها ، وتنتهي بدرس الظاهرات نفسها ، وبتسجيلها بضبط نفس الملاحظات السريرية ، إلى نتائج مختلفة جداً ، وأحياناً متعارضة بشكل مطلق) .

الشفاء وأنا شاب من الرغبة في التيقن .

٢٢ ايلول

ذات الجنب مؤلمة جداً ، بحيث لا أملك الشجاعة على الانتقال حين استقر

في ناحيةٍ ما . كان باردو يتندر بهذا المرهم المخدر . ليس له أية فعالية .

٢٣ أيلول

لا يعرفون اين يكوونني . فالقسم الأعلى من جسمي مصفاة .

٢٥ أيلول

منذ البارحة ، عاد من جديد ذلك التقلب الكبير في درجة الحرارة . مع ذلك حاولت النزول . ولكني اضطررت إلى العودة إلى النوم ، بعد دوار على سطح الدرج .

هذه الغرفة ، هذه الجدران الوردية .. اغمض عيني حتى لا أرى شيئاً .

اني أفكر في ما قبل الحرب ، في حياتي آنذاك ، في شبابي . الينبوع الحقيقي لقوتي كان عبارة **عن ثقة في المستقبل** سرية وثابتة . اكثر من ثقة : يقين . الآن ، ظلمات هناك حيث كان نوري . انه عذاب جميع اللحظات .

غثيان . بقي باردو تحت بسبب ثلاثةٍ من القادمين الجدد . مازيه هو الذي صعد مرتين بعد الظهر . لا استطيع احتمال طرقه الفظة وحلقومه ، حلقوم استعماري عجوز . تسمم العرق كما هو الأمر دائماً . أعتقد انني سأتقيأ .

الخميس ، ٢٦ ايلول

ليلة سيئة ، إلى الكشف الجديد . اماكن جديد لحشرجات زافرة .

المساء

تخفيف قليل بسبب الابرة . إلى كم من الوقت ؟

زيارة قصيرة قام بها غواران قد أتعبتني . هجوم فرنسي – اميركي . هجوم انكليزي – بلجيكي . الالمان يتراجعون في كل مكان . نجاحات حليفة على الجبهة البلقانية ايضاً . بلغاريا تطلب الهدنة . يقول غواران : « السلام البلغاري هو اعلان النهاية : ساعة الحمل التي تفقد فيها المرأة المياه .. »

في ألمانيا بدأت الخرقة تحترق . لقد وضع الاشتراكيون شروط معينة عند دخولهم الحكومة . استياء عام في البلاد ، اعترفت به التلميحات التي قام بها المستشار في خطابه ·

جميل جداً · الحوادث تسير بسرعة إلى درجة انها تخيف·روسيا مسحوقة· بلغاريا والنمسا مستعدتان للاستسلام · انتصار في كل مكان · السلام ينفتح كالمهواة . دوار · هل أوروبا ناضجة لسلم حقيقي ؟

في أوتيل غراس الكبير راهن اميركي بألف دولار مقابل ليرة فرنسية ان الحرب ستكون منتهية في عيد الميلاد ·

سعداء أولئك الذين سوف يحتفلون بالميلاد ·

٢٧ ايلول

ضعف يزداد · ضيق نفس . فقدان تام للصوت منذ الاثنين . زيارة سيفر الذي جاء به باردو · فحص طويل . ولكنه اقل طولاً من المعتاد · قلق ؟

المساء

تحليل البصاق . جراثيم التهاب الرئة ، ولكنها على الخصوص من التي تسبب التعفن ، وتزداد أكثر فأكثر رغم امصالهم الشافية · تعفن سام معيّن · تصوير بالأشعة صباح غد ·

٢٨ ايلول

اعراض تعفن عام واضحة جداً · صعد باردو ومازيه عدة مرات باليوم · قرر باردو ، على اثر الفحص بالاشعة ، اجراء عملية بزل كاشفة ·

مم يخاف ؟ رمل في النسيج الاحشائي ·

تشرين الاول

٦ تشرين الأول

ثمانية أيام ·

لا أزال ضعيفاً جداً فلا أستطيع الكتابة . نعسان . شيء من الفرح لعودتي إلى هذا الدفتر . وإلى غرفتي أيضاً وبناتي .
انسحاب من العمل مرة أخرى أيضاً ؟

٧ تشرين الاول

لم ألمس الدفتر اثناء هذه الأيام الثمانية . القوى تعود . الحرارة انخفضت نهائياً ، عادية في الصباح ٣٧٫٩ أو ٣٨ في المساء .
ظن الجميع انه قضي علي . وبعد ، كلا .
نقلت نهار الاثنين في ٣٠ إلى مستشفى غراس ، اجرى لي ميكال عملية بعد الظهر . وقد حضرها سيفر وباردو . دمل كبير في الرئة اليمنى . انه محدود لحسن الحظ . استطاعوا العودة بي إلى موسكيه في اليوم الخامس .
لماذا لم اقتل نفسي نهار ٢٩ ، بعد عملية البزل ؟ لم اكن افكر بذلك . (صحيح كل الصحة !) .

الثلاثاء ٨ ، تشرين الأول

أقل ضعفاً ، كان علي ان آسف على نجاتي من ذلك ، ولكن كلا : اني أقبل هذه الاستراحة الجديدة بين الفصول بسرور جبان .
المقاطعة اثناء قراءة الصحف تزعجني وذلك لكي افهم . كنت اجهل استقالة الحكومة الالمانية . لقد حدثت هناك أشياء خطيرة بالتأكيد . وتقول الصحافة ان ماكس دي باد قد عين مستشاراً ليفاوض بالسلام .

٩ تشرين الأول

ليس هناك ما أفخر به . حتى ان محاولة الانتحار لم تلامسني . لم اكن أفكر إلا بعودتي إلى هذه الغرفة ، بين تشخيص الدمل والعملية لم أكن افكر إلا بشيء واحد : ان تجري العملية بأقصى سرعة – لاجل النجاح .

وأكثر خزياً أيضاً : اثناء إقامتي في غراس لازمني الاسف لانني تركت عقد العنبر هنا . حتى اني اتخذت قراراً بان اوكل امره إلى باردو منذ أن اعود إلى هنا ، وأن اجمله يعدني بانه سيضعه في تابوتي .

لا أعلم إذا كنت سأفعل ذلك . صبيانيات محتضر . لو خضعت إلى هـذا الميل يا صغيري فلا تحكم علي بسرعة . ولكن هذه المغامرة الصغيرة هي ، رغم كل شيء ، أفضل شيء في حياتي المسكينة .

١٠ ، تشرين الأول

زيارة ميكال .

١١ تشرين الأول ، الجمعة

تعبت البارحة من زيارة الجراح . اعطاني جميع التفاصيل . دمل كبير ، متجمع جيداً ، مفصول بحواجز ليفية شديدة المقاومة . صديد كثيف ، مرتبط . اعترف بأنه وجـد الرئة في حالة احتقان شديد في النسيج الخلوي . تحليل بكتريولوجي : زراعة ميكروبات .

ميكال مهتم بالحالة . قليلة الحدوث نسبياً : في مدى سنة ، من بـين تسعة وسبعين مصاباً بالغاز السام عولجوا هنا ، فان سبعة فقط كانت اصابتهم بسيطة ومنها إصابتي . أربعة اجريت لهم عمليات ناجحة ، والثلاثة الآخرون ..

وأكثر ندرة أيضا ، لحسن الحظ ، حالات الدمامل المتعددة . فهذه لا يمكن اجراء عمليات لها . ثلاث حالات فقط من تسعة وسبعين متسمماً بالغـاز ، وثلاثة أموات .

اني محظوظ (عبارة كتبت تلقائياً . لم تكن لتكتب لو انني اتخذت وقتاً للتفكير ، ولكن أما وقد كتبت فلم اشطبها ، مما لا شك فيه انني لم انفصـل كثيراً عن الحياة بعد لأطلق على اطالة العذاب اسم « سوء الحظ ») .

١٢ تشرين الأول

عدت إلى النهوض ، البارحة بعد الظهر . لا أزال هزيلاً . فقدت ٢ كيلو و ٤٠٠ غراماً منذ ٢٠ ايلول .

القلب يتقهقر دائماً . ديجيتالين ، دروزيرا ، مرتان باليوم . عرق دائم . انحراف مزاج ، ضعف ، سعال جاف ، ضيق نفس ، وكل هذا دفعة واحدة . وإذا سئلت عن حالي فاني اجيب في هذه الأيام ، وبيقين : « لا بأس .. »

١٣

الصحف السويسرية تعطي تفاصيـــل قريبة من المعقول حول المساعي غير المباشرة التي تقوم بها مع ويلسون الوزارة الالمانية الجديدة للشروع بمفاوضات طلب هدنة بدون واسطة ظاهرة بصراحة . انها قريبة من المعقول لأن الخطاب الأخير للمستشار في الريخستاغ هو عرض صادق للسلم . المانياالتيكانت البارحة كثيرة العجرفة . بشرط الا يتطرف الحلفاء ! بشرط أن يقاوموا الميـــل إلى الانتصار الكثير .. الآن ، في كل مكان ، عتوّ الجوكي الرابح ! انا واثق ان روميل نفسه نسي أنه كان في الربيع يتوقع الاسوأ : يجب ألا يكون هناك منتصر اكثر تشدداً منه !

وكلمة « فرح » التي تتردد دون انقطاع في الصحافة الفرنسية هي جارحة ، « نجاة » ولكن ليس « فرحاً » ! كيف يُنسى بسرعة مقدار الآلام التي تثقل على اوروبا ؟ ما من شيء ، حتى ولا نهاية الحرب ، يستطيع منع الألم منالسيطرة والبقـاء .

١٤ تشرين الأول ، ليلا

الأرق يعود من جديد . وجدت نفسي في حالة حسنة على خمودي أثناء سريان المرض . الرأس فارغ . خور . استسلام « للأشباح » . واع بالقدر الذي أشعر به جيداً بالألم .

أردت أن اعطي في هذا الدفتر صورة عني ، لجان بول ، وحين بدأت بالكتابة فيه كنت غير قادر على الانتباه ، والمتابعة ، والشغل . حلم آخر لم يتحقق .

وما يهم ؟ اللامبالاة تربح . وتصنع بقعة زيت .

١٥

هجوم عام ، نجاح في كل مكان . الجبهة كلها دفعة واحدة . يبدو انه منذ ان صار هناك مسألة سلام فان القيادة الحليفة ارادت مضاعفة اللقم ، والتمتع بما بقي لها . « الصيد » الاخير .

اليوم احسن بقليل . سرور بالكتابة .

زيارة فوازينه ، صورته التي تشبه صورة بوذا . الوجه المسطح ؛ العينان متباعدتان دون عمق في المحجرين ، جفون سميكة ومعقوفة كتويجات الزهور اللحيمة (المانيوليا ، الكاميليا) ؛ فم عريض ، شفتان سميكتان بطيئتا الحركة . وجه مليء بالحكمة ، يرتاح وهو يتطلع ، نوع من الطمأنينة القدرية . يشبه كثيراً سكان الشرق الأقصى .

يزعم ان لديه معلومات راهنة حول ذهنية أركان الحرب . قلق ، ليس للخسارة قيمة منذ ان ظنوا انهم يستطيعون الاعتماد على « الاحتياط الاميركي » ، شهرة لا ينضب معينها . مقاومة خفية ضد السلم ورفض كل هدنة ، واجتياح المانيا وتوقيع الصلح في برلين ، الخ. ويقول فوازينه : « انهم يفكرون **بالنصر** بدلاً من ان يفكروا **بنهاية الحرب** » . وبشكل تكثر صراحته ، هم معادون لويلسون . يعلنون ان « النقاط الأربع عشرة » هي نظرات شخصية فقط لويلسون ؛ وان دولتي **التفاهم** لم تقرّاها **رسمياً** ، الخ .. وجعلني فوازينه الاحظ انه منذ تموز ، منذ أولى الانتصارات العسكرية ، فان الصحافة (المراقبة) لا تزال تتكلم أيضاً عن « عصبة الامم » ولكن لم تتكلم ابداً عن « ولايات متحدة اوروبية » .

ترك لي فوازينه بعض اعداد من صحيفة « الانسانية » . ودهشت كم يصغر اشتراكيونا الصورة حين يتذوقون البلاغات الاميركية ، نبرة متشيعين محدودين . لا يولد شيء كبير من هذه العناصر ، من هؤلاء الرجال . يجب أن يوضع السياسيون الاشتراكيون في اوروبا في صف واحد مع انقاض العالم القديم ، وان يكنسوا مع النفايات الأخرى .

اشتراكية ، ديموقراطية . أتساءل إذا لم يكن فيليب على حق ، وإذا كانت الحكومات المنتصرة ستقلع عن العادات الديكتاتورية التي اتخذتها منذ أربع سنوات . والامبريالية (الجمهورية) الممثلة بكليمنصو ستدافع عن نفسها قبل أن تخلي الساحة ! ربما يؤسس مركز الاشتراكية الحقيقية المستقبلة في المانيا المغلوبة اولاً ، لأنها مغلوبة .

١٦ تشرين الأول

هذه الأيام الثمانية الاخيرة افضل قليلا .

وجد لي غوران نص البلاغ الصادر في ٢٧ . لا يضيف شيئاً جديداً إلى سابقيه ، ولكنه يحدد اهداف السلم بكثير من الوضوح . « هذه الحرب تعد نظاماً جديداً ، الخ » . الاتحاد العام للشعوب هو الضمانة الوحيدة للسلامة الجماعية . حين ارى تأثير هذه الأقوال على « الميت مع المهلة» الذي هو انا ، اتخيل ما يمكن ان يشعر به ملايين المحاربين ، ملايين النساء ، والامهات ! ان آمالا كهذه لا توقظ عبثاً ، ليكن قادة الحلفاء صادقين ام كاذبين بقبولهم لمبادىء ويلسون ، فقليلا مايهم الآن ! الأمور هكذا . سيكون الضغط الجماعي من الشدة بحيث لا يستطيع اي سياسي في اوروبا التملص من السلام المنتظر عندما تأتي الساعة .

اني افكر بجان بول . لك يا صغيري تعزية لا نهاية لها . سيولد عالم جديد . ستراه يتوطد . وستساهم فيه . كن قوياً لكي تساهم جيداً .

الخميس ١٧

جواب قاس لويلسون على مساعي المانيا الأولى . طلب بوضوح ، قبل كل مفاوضات ، سقوط الامبراطورية ، وإبعاد طبقة العسكريين ، وجعل النظام ديموقراطياً . مع خطر تأخير السلم ، تشدد لا غنى عنه دون شك . يجب الا نغفل عن الأهداف الجوهرية . ليس المقصود الحصول على هدنة قبل الأوان ولا على استسلام القيصر الالماني بل المقصود نزع سلاح عام واتحاد اوروبي فيدرالي. ولا يمكن تحقيق ذلك دون زوال المانيا والنمسا الامبراطوريتين .

غواران كثير الخيبة . دافعت عن ويلسون ضده وضد الآخرين . ويلسون : نطاسي عالم يعرف اين مركز الفساد ، ويفرغ الدمل قبل ان يبدأ علاجه .

بشأن الدمل . هذا العملاق الطيب باردو أوضح جيداً ان التسمم بالغاز ليس سوى علة مسببة للدمل . وهذا يحل فعلا محل فساد ثانوي ، محدود بالجراثيم التي تجتاح النسيج الخاص بواسطة آفات احتقانية ناتجة عن الغاز .

١٨ تشرين الأول

بذلت اليوم جهداً عظيما للتغلب على تعبي . القراءة مستحيلة إلا إذا كانت الصحف .

نبرة الصحافة الحليفة في التحدث عن « انتصاراتنا » ! هيجو أمام الملحمة النابليونية .. لا هذه الحرب (ولا أي حرب) فيها شيء من ملحمة بطولية .. انها وحشية ويائسة . تنتهي كالكابوس ، في تعب القلق النفسي . وأعمال البطولة التي يمكن أن تحدثها تظل غارقة في الرعب . فقد تمت في اعماق الخنادق ، في الغائط والوحل . مع شجاعة اليأس . مع التقزز من عمل مقرف يجب الوصول إلى نهايته . انها لن تترك سوى ذكريات فظيعة . وجميع رنات البوق ، وجميع تحيات العلم لا تغير منها شيئاً .

يومان سيئان . البارحة مساء، حقنة ، ولكن الارتشاح والتحسس الحنجري جعلا العملية صعبة . لقد تعاون الثلاثة للوصول بها إلى نهايتها . هـذا المسكين باردو كان يرشح عرقاً بقطرات كبيرة ، نمت ثلاث ساعات طويلة . استرحت قليلا اليوم .

الاربعاء (٢٣ تشرين الأول)

الجرعات الأولى من الديجيتالين بدت أكثر فعالية .

حين لا أكون فاقداً الصوت كلياً الاحظ انني اتلجلج بكثرة . كان هـذا نادراً في السابق ، ودائماً علامة اضطراب كبير في الضمير . أمـا اليوم فلا شيء سوى الدلالة على انحطاط جسماني دون شك .

صحف ، البلجيكيون في اوستاند وفي بروج ، والانكليز في ليـل ودويه وروبيه وتورلوان . تقدم لا يقـاوم . ولكن بطء يبعث على اليأس في تبادل المذكرات بين المانيا واميركا . إلا ان ويلسون يبدو أنه حصل ، كشرط مسبق ، على اصلاح في الدستور الامبراطوري واجراء التصويت العام . وهـذه سوف تكون نقطة كبرى . والحصول بعد ذلك على تنازل القيصر الالماني . غداً ، أم بعد ستة اشهر ؟ الصحافة تلح على الاضطرابات الداخليـة . يجب الا نغتر ، بامكان ثورة المانية أن تستعجل الأمور ، ولكنها تعقدها أيضاً ، فويلسون يبدو أنه عازم على عدم التباحث إلا مع حكومة مستقرة جداً .

٢٤ تشرين الأول

كلا ، اني لا احسد جهل المرضى المعتاد وأوهامهم الساذجة ، لقـد قيلت حماقات حول صفاء ذهن الطبيب المشرف على الموت ، اعتقد . اعتقد ، بالعكس ان صفاء الذهن هذا قد ساعدني على البقاء . وربما سيساعدني حتى اقتراب النهاية . ليست المعرفة لعنة بل قوة ، انا اعرف . اعرف ما يجري في داخلي ، جراحي

أراها . انها تهمني . اني اتبع جهود باردو . وهـــذا الفضول يسندني إلى حدٍ مـــا .

بودي لو استطيع ان احلل هذا بصورة افضل ، وأكتبه إلى فيليب .

ليل ٢٤ - ٢٥

نهار محتمل . (لا حق لي في أن اكون متطلباً) .

الدفتر ضد « الاشباح » .

الساعة الثالثة صباحاً . أرق طويل يسيطر عليه التفكير بكل مـــا يجره موت فردٍ إلى النسيان . استسلمت أولا لهذه الفكرة بيأس كما لو كانت صحيحة. ولكن كلا . ليست صحيحة أبداً . الموت يجرّ إلى العدم شيئاً قليلاً ، قليلا جداً.

اجتهدت بصبر في اصطياد الذكريات ، اخطاء مرتكبة ، مغامرات سرية ، مخازي صغيرة ، الخ .. كنت اتساءل حول كل واحدة : « وهذه ، هل ستختفي كلياً معي ؟ هل حقيقة لن يبقى لها أي اثر ، في الخارج كما في نفسي؟» انهمكت طوال ساعة تقريباً لأجد في ماضيّ شيئاً ، عملا خاصاً ، اكون واثقاً من أنه لم يبق منه شيء ، لا شيء ، ولا في مكان ، في الخارج ولا في وعيي ؛ ولا أقل امتداد ، ولا اقل نتيجة مادية أو معنوية ، ولا اية بذرة تفكير يمكن من بعدي أن تنبت في ذاكرة كائن آخر . ولكني انتهيت بأن اجد لكل تذكار من تذكاراتي شاهداً ممكناً ، واحداً يعرف الشيء أو كان يتكهن به – واحداً ربما لا يزال حيــاً ، ويستطيع ذات يوم ، وقد اختفيت انا ، بمناسبة تذكّر . .

كنت اتقلب واتقلب على وسائدي ، معذباً بشعور لا يمكن شرحــــه من الاسف والكدر ، لفكرة انني إذا لم اتوصل إلى ايجاد شيء ، فان موتي سيكون سخرية ، ولن احصل حتى على تلك التعزية للكبرياء بأن احمل إلى العـدم شيئاً يخصني فقط . وفجأة وجدت ! مستشفى لاينك Laénnec الجزائرية الصغيرة .

اذن ، امسكت اخيراً بهذا التذكار الذي انا على ثقة من انني مستودعه

الاخير . حيث لا شيء ، لا شيء مطلقاً سيظل عائشاً في اللحظة التي انقطع فيها عن الكينونة .

أول الفجر . منهوك من التعب وغير قادر على النوم . إغفاءات قصيرة كان السعال يوقظني منها .

تجادلت طوال الليل مع هذا التذكار – الشبح . وانا مجزأ بين الميل إلى كتابة اعترافي في هذا الدفتر لأنقذ هذه الحكاية المضطربة من العدم –وبالعكس، إلى الرغبة الغيورة في الاحتفاظ به لي وحدي ؛ ان احصل على الأقل على هذا السر وآخذه معي عند الموت .

كلا ، لن اكتب شيئاً .

٢٥ تشرين الأول ، ظهراً

ضعف ؟ مضايقة ؟ بدء الهذيان ؟ منذ الليلة الماضية لم تبد لي نهايتي إلا من خلال السر . لم اكن افكر بنفسي ، ولا باختفائي ، بل بتذكار لاينك .(جاء جوزف يحدثني عن الصلح : « عما قليل سنكون مسرحين من الجيش يا سيدي الماجور » . فأجبت : « عما قليلا سأكون ميتاً يا جوزف ». ولكن فكرتي الخفية كانت : « عما قليل لا يبقى شيء من حكاية الجزائرية الصغيرة ») .

مرة واحدة ، كأنني اصبحت سيد مصيري . وبهدا فاني اسد الطريق على الموت لأن الأمر يتعلق بي ، لأنه يتعلق بملاحظة مكتوبة ، بمسارة ولا يهم لمن ، يتفلت هذا السر من العدم ام لا .

بعد الظهر

لم استطع امتلاك نفسي من التكلم مع غواران . دون ان اقول له شيئاً صريحاً ، مفهوماً ، حتى دون تلميح إلى الجزائرية الصغيرة ، حتى دون ان الفظ اسم مستشفى لاينك . تماماً كما يفعل الأولاد حين يضيقون ذرعاً بسر ، يصيحون

بكل آتٍ : « اني اعرف شيئاً ما ولكنني لن اقول شيئاً » فتطلع الي بشيء من القلق ، من الذعر . ومن المؤكد انه تساءل إذا كنت قد اصبحت مجنوناً. تذوقت ، للمرة الاخيرة دون شك ، ترضية شديدة للكبرياء .

المساء

جربت ان اريح دماغي بتقليب الصحف ، في المانيا ايضاً فان الطبقة العسكرية تحاول نسف السلام ، وقد ترأس لودندورف حركة معارضة ضد المستشار الذي يتهم علناً بالخيانة لانه أراد التفاوض مع اميركا . ولكن التيار نحو السلام كان هو الاقوى . وكان لودندورف هو الذي اضطر إلى الاستقالة من قيادته . علامة حسنة .

زيارة غواران . خطاب مقلق لبلفور . الشهية الانكليزية تستيقظ : يريد الآن ضم المستعمرات الالمانية ! ذكرني غواران ان اللورد روبرت سيسيل كان يؤكد في السنة الماضية أيضاً ، في الكومين : « دخلنا في هذه الحرب دون أي مطمع من مطامع الامبريالية الفاتحة » . (لن يخرجوا منها كما دخلوا اليها ..)

من حسن الحظ ان ويلسون هنا . حق الشعوب في التصرف بنفسها . لن يترك الغالبين ، كما آمل ، يقتسمون السود كرؤوس الماشية .

غواران والمشكلة الاستعمارية . شرح الخطأ الذي لا يغتفر بكثيرمنالذكاء ، الخطأ الذي يرتكبه الحلفاء إذا مالوا إلىاقتسام الممتلكات الالمانية فيالمستعمرات. فرصة وحيدة لاعادة النظر بشكل واسع بكل المسألة الاستعمارية . انشاء استثمار مشترك كبير للثروات العالمية تحت رقابة عصبة الامم ، ضمانة للسلم .

٢٦ تشرين الأول

خطورة مباغتة ، ضيق نفس طول النهار .

٢٧

يرمي ضيق النفس عندي إلى اتخاذ صفة جديدة : تشنجية . مؤلمة بافراط. حنجرتي تنقبض كأنها ممسوكة بقبضة تشد عليهـا . الاختناق يضاف إلى ضيق النفس .

قضيت ما يقرب من الساعة وأنا اسجل في المفكرة تقدم المرض (لست أكيد أمن استطاعتي امساك هذه المفكرة يومياً ولوقت طويل) .

٢٨

ماريوس الصغير هو الذي صعد إلي بالصحف . شعور رهيب (هذه الصبغة الملساء ، وتانك العينان الصافيتان ، وهذا الشباب · تلك **اللامبالاة** البديعـة بصحته !) ليس بودي ان أرى سوى عجائز ومرضى · افهم ان محكوماً بالموت ينقض على حارسه ويخنقه حتى لا يرى هذا الرجل الحر السليم الصحة ·

الجهاز الجسدي يختل بسرعة · غير ممكن الا ان تختل الملكات الذهنية هي أيضاً ·· ومما لا شك فيه انها اختلت بشكل لا يستطيع معه ان يعلم ان الجهاز قد اختل ·

٢٩ تشرين الأول

هل أكون أقل اسفاً في هذه العزلة لو كان لدي ذكرى مايسمونه في الكتب: الحب « الكبير » ؟

أفكر أيضاً براشيل في اغلب الاحيان ، ولكنّ كأناني ، كمريض : اقول لنفسي ان من الأفضل لو كانت هنا ، واموت بين ذراعيها ·

حين وجدت هذا العقد في باريس ، فان تأثري ! ذلك الاندفاع نحوهـا ! قد انتهى · هل « احببتها » ؟ على كل حال ليس هناك غيرها · ليس هناك احد ايضاً ، ليس هناك احد زيادة ، ولكن هل هذا ما يسميه الجميع « **الحب** » ؟

منذ يومين والد يحيتالين اصبح عاجزاً كلياً . سيعود باردو بعد قليل ليجري حقنة زيت أثيروكافور .

٣٠

زيارات .

رأيتهم يتململون . ماذا تحتفظ لهم الحياة؟ ربما كان صاحب الامتياز هو أنا.

انا تعب . تعب من نفسي ، – راغب في أن ينتهي الامر الآن !

ادركت اني أخفتهم .

في هذه الايام الاخيرة تغيرت كثيراً بالتأكيد . المرض يتقدم بسرعة . يجب أن يكون وجهي وجه الذين يختنقون : قناع القلق ، اعرف أن ليس هناك ما هو أدعى للألم من رؤيتي .

٣١ تشرين اول

المرشد الذي إلى جانبي رغب في رؤيتي . كان قد جاء يوم السبت ، ولكني كنت اتألم كثيراً . تركته اليوم يصعد . لقد اتعبني . حاول أن يطرق مسألة « طفولتك المسيحية ، الخ .. » فقلت له : « ليس الخطأ مني إذا كنت قد ولدت مع الحاجة إلى الفهم والعجز عن الايمان ». عرض أن يأتيني « بالكتب الصالحة » فقلت له: « ماذا تنتظر الكنيسة لتستنكر الحرب ؟ اساقفتكم في فرنسا واساقفة المانيا يباركون الاعلام وينشدون صلاة الشكر [1] ، ليشكروا إله المجازر ، الخ .. » فأجابني بهذا الجواب المذهل (الموافق للرأي الديني الصحيح): « الحرب العادلة ترفع الحرم المسيحي عن القاتل ».

حديث ودي عن رضا . لم يكن يعرف من اية وجهة منحرفة يأتيني . وقال لي وهو ذاهب: « هيا ، هيا ، رجل ذو قيمة مثلك لن يرضى أن يموت كالكلب؟» فقلت له : « ماذا استطيع حيال ذلك إذا كنت غير مؤمن ، – كالكلب ؟ »

1 - Te deum .

كان عند الباب ، فتطلع الي بفضول . (مزيج من الصرامة ، والدهشة ، والكآبة والمودة ايضاً كما بدا لي .) : لماذا يتجنون عليك يا ولدي ؟ »

اظن انه لن يعود .

المساء

اني ارضى عند اللزوم لو كان هذا يسبب السرور لأحد . ولكن في سبيل من يمكن أن أمثّل ميتة مسيحية ؟

النمسا طلبت الهدنة من ايطاليا . صعد غواران الي. هنغاريا تعلن استقلالها، الجمهورية .

اخيراً ، هل هو السلم ؟

تشرين الثاني

اول تشرين الثاني ١٩١٨ صباحاً

شهر موتي .

أن أكون محروماً من الامل ، اسوأ من عذاب العطش .

رغم كل شيء لا تزال فيّ خلجة الحياة . قوية . مرة بعد مرة ، انسى . طوال بضع دقائق اعود ما كنته ، وما هم الآخرون . حتى اني ارسم مشروعاً . وفجأة ، النسمة الجليدية ! ومن جديد ، اعلم .

علامة سيئة : قلّ صعود مازيه . وحين يأتي فانه يحدثني عن كل شيء ، ولكن يكاد لا يكلمني عن نفسي .

هل آسف على مازيه وعلى رأسه المربع الذي يشبه رأس حارس سجن ؟

المساء

الكون يبتدىء منذ اجتياز عتبة هذه الغرفة . في اية عزلة قد غطست الآن ! ما من حي يستطيع الفهم .

٢ تشرين الثاني

لم انهض . ثلاثة ايام لم اجتز فيها المترين والنصف التي تفصل سريري عن الكنبة .

ابداً ، ابداً لن يتاح لي الجلوس بقرب النافذة ؟ بقرب نافذتي ؟ كآبة السرو في سماء المساء .. ألن ارى الحديقة ؟ ولا أية حديقة ؟

اكتب : ابداً . ولكن الجحيم الموجود في هذه الكلمة لن ادركه الا كلمح البرق .

ليلا

كيف سيأتي الموت ؟ سؤال كم مرة اطرحه على نفسي في الليـــلة ، منذ كم ليلة ؟ يوجد كثير من الحالات الممكنة ... – تشنجات في الحنجرة ، أعنيفة كما هي عند فيدار الصغير؟ام متقدمة كسيلبر؟ ام وهن قلبي واغمائي مثل مونفيال، مثل بواريه ؟

٣ ، صباحاً

كيف ؟ الأسوأ هو اختناق ترويا المسكين .
هذا يخيف .
هذا لا أنتظره .

المساء

تألمت كثيراً هذا المساء بحيث دعوت باردو مرتين . سيعود حوالي منتصف الليل . لقد ترك على طاولتي العلبة المستعملة في فتح القصبة الهوائية .
يقال : « الموت ليس شيئاً ، انـــه العذاب » . اذن . ما دمت استطيع التملص فلماذا استمر في الألم ؟ وفي الانتظار – واني انتظر .

٤ تشرين الثاني

هدنة وقعتها ايطاليا مع النمسا وهنغاريا .

اراد المرشد أن يعود (رفضت متذرعاً بالتعب) هذا انذار · اليوم الذي يجب فيه البت بالامر يقترب .

٥ تشرين الثاني

كل ما املناه ، كل ما أردناه ، كل ما لم ننجح بعمله ، يجب أن تحققه يا صغيري .

٦ تشرين الثاني

زيارة غواران . انتظار الهدنة ، والمعركة مستمرة على جميع الجهات . لمـاذا ؟

فقدان كلي للصوت . لا أستطيع لفظ كلمة .

٧ تشرين الثاني

فم الحنجرة لا يتمدد ابداً تقريباً · شلل في حلقات وغضاريف الحنجرة الخلفية · باردو لا يسبر غوره .

٨ تشرين الثاني ١٩١٨

مفوضون المان مطلقو الصلاحية اجتازوا خطوطنا · انها النهاية · مهما كان الأمر فقد عشت ذلك .

٩ تشرين الثاني

حالتي تزداد خطورة · من جديد ، تقلبات كبيرة في درجـــة الحرارة (٣٧،٢ – ٣٩،٩) . احتقان في النسيج الخلوي قد عاد . لا يوجد اي اعراض جديدة ولكنه انتكاس في كل مكان .

طلبت صورة بالاشعة (لماذا ؟) لأستطيع معرفة ما إذا كانت هناك نقطة جديدة مشبوهة . أخاف من دمل جديد . التقلبات تدل بالتأكيد على تقيحات عميقة ·

١٠ تشرين الثاني

الرئة اليمنى يزداد ألمها • مورفين كل النهـار بطريق الفم . أهو دمل جديد ؟ باردو لا يظن ذلك • ليس هناك اعراض خاصة بمرض معين .
بصاق اقل كثرة •

ثورة في برلين • القيصر الالماني هرب • في الخنادق ، في كل مكان ، امل ، خلاص ؟ وأنا . .

١١ تشرين الثاني

نهار قاس • حروق لا تحتمل ، دائماً في نفس المناطق • من الناحية اليمنى•
لماذا لم اصمم قبل الآن ، حين كان نشاطي لا يزال سليماً • ماذا أنتظر ؟ كل مرة أقول : « جاءت الساعة » فانني . .
(كلا ، لم اقل لنفسي بعد : « جاءت » ، بل اقول : « الساعة تقترب »• وأنتظر)•

١٢ تشرين

ادرك باردو أن هناك َنفَساً محاطاً بحلقة من الحشرجات الزافرة المحصورة في مكان (؟) •

الظهر

صورة الاشعة . عصابة ظليلة في القمة اليمنى ، دون حدود واضحة . الحجاب الحاجز جامد ، نقص عام في الشفافية ، ولكن لا يوجد مجموعة ظاهرة. لو كان هذا دملاً آخر لكان هناك عدم شفافية تام في المنطقة المشبوهة مع حدود واضحة ، مستديرة . اذن ؟ دلالة لا تزال مبهمة لكي نجرب البزل . إذا لم يكن هذا دملاً جديداً ، فماذا ؟ ماذا ؟

١٣ تشرين الثاني

دفعات التهاب رئوي محدودة المكان . دائماً في نفس النقاط . فساد يصبح عاماً بالتأكيد . عَرَق مخيف نتن .

المساء

دمامل صغيرة ؟.. دمامل صغيرة متعددة ؟

باردو يؤكد ذلك .

اذن لا يمكن عمل شيء . دمل غارق في النسيج الاحشائي . ليس هنـــاك معالجة ممكنة . اختناق في النهاية .

١٤ تشرين الثاني

حروق في الجبهتين. الجبهة اليسرى مصابة بارتشاح في النسيج الخلوي ايضاً. يجب أن تكون الدمامل منتشرة في الرئتين ·

آخر حظ ، محاولة حصر الدمل في مكانه ·

المساء

هاوية من انحطاط القوة ، لامبالاة · في الدرج رسـالة من جني ، ورسالة من جيز . هذا المساء رسالة اخرى من جني · كلها لم تفتح · دعوني وحدي . ليس لدي ما اعطيه لأحد ·

هذه الليلة ، والوقت طويل ، رددت هذه العبارة التي أفهمها للمرة الاولى : « صراخ من الاعماق »·

١٥ تشرين الثاني

ربما كنت مخطئاً في الخوف كثيراً . ربما كان غير مخيف كما اعتقد · ربما كان لأسوأ قد مضى · طالما حاولت ان اتمثل النهاية فـلم استطع · ولكن كل شيء جاهز ، كل شيء هنا.

١٦ تشرين الثاني

محاولة حصر الدمل بدون نتيجة · هل حاولوا ذلك ام انهم تظاهروا. . .

لم اكتب شيئا في المفكرة منذ يومين . ألم شديد .

افكر بالانتهاء . يستصعب القول : « غداً » ، اوالقول : « هذا المساء » .

١٧ تشرين الثاني

مورفين ، وحدة ، صمت · كل ساعة تفصلني اكثر فأكثر وتعزلني · لا ازال اصغي اليهم ، ولا اسمعهم · القضاء على هذه النتف اصبح شبه مستحيل ·

كيف سيأتي ؟ بودي لو ابقى صافي الذهن ، واكتب ايضاً حتى موعد الحقنة.

ليس هناك قبول ، لامبالاة · استنزاف يقضي على التمرد · مصالحة مع المحتوم · استسلام للألم الجسماني ·

سلام ·

أنتهي من ذلك .

١٨ تشرين الثاني

ارتشاح في نسيج الساقين. في الوقت متسع لو كنت اريد أن استطيع · كل شيء هنا · امد يدي · أصمّم ·

كافحت كل هذه الليلة ·

في الوقت متسع ·

الاثنين ١٨ تشرين الثاني ١٩١٨ ·

٣٧ سنة واربعة اشهر ، وتسعة ايام .

اكثر بساطة مما يُظن .

جان بول .

انتهى الجزء الخامس والاخير

فهرس

موسوعة

تاريخ الحضارات العام

	ق . ل .
١ – الشرق واليونان القديمة	٥٠٠٠
٢ – روما وامبراطوريتها	٥٠٠٠
٣ – القرون الوسطى	٥٠٠٠
٤ – القرنان السادس عشر والسابع عشر	٥٠٠٠
٥ – القرن الثامن عشر	٥٠٠٠
٦ - القرن التاسع عشر	٥٠٠٠
٧ - العهد المعاصر	٥٠٠٠

علوم اقتصادية

— اقتصاديات بلدان حوض المتوسط	هوبير ديروفيل
— المجتمع الصناعي	ريمون آرون
— المذاهب الاقتصادية	جوزيف لاجوجي
— حضارة عام ١٩٧٥	جان فوراستيه
— تاريخ الغد	» »
— التوظيف الدولي	جيل برتان
— العملة ودورها في الاقتصاد العالمي	بيار برجيه
— توظيف الاموال	غابل فاين
— الاقتصاد المخطط	هـ. شامبر

منشورات عويدات
بيروت - لبنان

انتهى طبع هذا الكتاب على مطابع
منيمنه الحديثة تلفون ٢٣١٧١٥
في بيروت – ايلول (سبتمر) ١٩٧٠

منشورات عويدات ١٥٨/٩/١٩٧٠

Roger MARTIN DU GARD

LES THIBAULT

Tome V

L'été 1914 (Fin)
Eqilogue

Par

Bahige CHAABAN

Texte traduit en arabe

EDITIONS OUEIDAT

Beyrouth - Liban

من التراث الغربي

		ق. ل.
الاب غوريو	هونوريه دو بلزاك	٥٠٠
الناعقون	» »	٥٠٠
كارمـــن	بروسبير ميريمه	٢٥٠
الاحمر والاسود	ستاندال	٨٠٠
مدام بوفاري	غوستاف فلوبير	٧٥٠
سلمبـــو	» »	٦٠٠
أرض الرجال	سانت اكزوبيري	٣٠٠
مزيفو النقود	اندريه جيد	٦٠٠
قوت الأرض	» »	٣٠٠
تيريز ديكيرو	فرنسوا مورياك	٣٠٠
صحراء الحب	» »	٣٠٠
الوضع البشري	اندريه مالرو	٦٠٠
الغـــزاة	» »	٣٠٠
قارع الاجراس	فكتور هوغو	١٠٠٠
الحـــانة	اميل زولا	٨٠٠
اسرة تيبو (٥ أجزاء)	روجيه مارتان دوغار	٤٠٠٠

منشورات عويدات
بيروت لبنان

المجموعة الكا[illegible] خمسة اجزاء
الثمن [illegible]ة ما يعادلها